محمد ﷺ

الموسوعة الميسرة

في التعريف بنبي الرحمة ﷺ

إشراف
أ. د. عادل بن علي الشدي
أ. د. أحمد بن عثمان المزيد

تحرير
خالد السيد روشه
د. محمد بن عبد الله الدويش

كرسي المهندس عبد المحسن بن محمد الدريس
للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة
بجامعة الملك سعود

Chair Of Engr.
Abdoulmohsen M.aldrees
For The Prophet Its & Mohammad`s Seerh
Contemporary Studies - King Saud University

الموسوعة الميسرة
في التعريف بنبي الرحمة ﷺ

فريق العمل في الموسوعة

› الإشراف

أ. د. عادل بن علي الشدي

أ. د. أحمد بن عثمان المزيد

› التحرير

خالد السيد روشه

د. محمد بن عبد الله الدويش

› المراجعة والتحكيم

د. مجاهد شفيق مخللاتي

د. محمد يحيى يحياوي

يوسف جعفر إدريس

› التدقيق اللغوي

معن حسين نعناع

عبد العزيز الشامي

شكر وتقدير لأصحاب الفضيلة

معالي الدكتور:

صالح بن عبد الله بن حميد

أ. د. مهدي رزق الله أحمد

د. أحمد بن محمد الدبيان

لمراجعتهم الطبعة الأولى

وتزويد فريق العمل بملاحظاتهم

التصميم والإخراج الفني

م. عثمان العدوي

التجهيزات الفنية والطباعة

مطابع الفسطاط

الحديثة بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعـة الأولـى

1433هـ / 2012 م

كرسي المهندس عبد المحسن بن محمد الدريس
للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة
بجامعة الملك سعود

تقديم ٩
المقدمة ١١

رؤية عن قرب
أرض نشأت فيها الشخصية ١٧
عناصر أثرت في شخصيته ١٩
مشهد متحرك في وصفه ﷺ ٢٠
صورة لجسده ٢١
صورة وجهه وملامحه ٢١
مشيته ﷺ ٢١
حديثه ﷺ ٢١
لقاء مع محمد ﷺ ٢٢
طهارة ونظافة ٢٢
رائحة زكية ٢٣
وجه صادق ٢٣
حسن اللقاء ٢٤
إفشاء السلام ٢٥

محمد الإنسان
بشرية محمد ﷺ ٢٩
تفاؤل محمد ﷺ ٣٦
اعتدال محمد ﷺ ٤٤
العزيمة والطموح في شخصيته ﷺ ٥٠
وعي محمد ﷺ ٦٢
البساطة في شخصية محمد ﷺ ٧٥
بلاغة محمد ﷺ ٨٣
بشاشة محمد ﷺ ٩٥
السكينة والوقار في شخصيته ﷺ ١٠٠

يوم في حياة محمد ﷺ
مقدمة ١٠٥
على مائدة طعام محمد ﷺ ١٠٧
زينة محمد ﷺ ولباسه ١١٤
ثياب محمد ﷺ ١١٧
عبودية محمد ﷺ ١١٩
نوم محمد ﷺ ١٢٠
محمد ﷺ في أفراحه وأحزانه ١٢٣
مزاح محمد ﷺ ١٢٨

أخلاق محمد ﷺ
رفقه ﷺ ١٣٧
تواضعه ﷺ ١٤١
رحمته ﷺ ١٤٨
حياؤه ﷺ ١٥٦
صبره ﷺ ١٦٠
كرمه وجوده ﷺ ١٦٣
عدله ﷺ ١٦٨
شجاعته ﷺ ١٧١
حلمه ﷺ ١٧٧
وفاؤه بالعهد ﷺ ١٧٨

محمد ﷺ والآخرون

٥

مقـدمـة ١٨٥
محمد ﷺ والأنبياء ١٨٩
محمد ﷺ مع صحابته ١٩٦
محمد ﷺ مع المرأة ٢٠٦
محمد ﷺ مع الأطفال ٢٢٠
محمد ﷺ مع قرابته ٢٢٦
محمد ﷺ مع جيرانه ٢٣٦
محمد ﷺ مع المنافقين ٢٤٠
تعامل محمد ﷺ مع الحيوان ٢٤٩

محمد ﷺ في السلم والحرب

٦

محمد ﷺ في السلم ٢٥٥
محمد ﷺ في الحرب ٢٧٧
الحرب في السيرة المحمدية ٢٧٨
أخلاقيات الحرب في رسالته ﷺ ٢٩٤
الأسرى ٣٠٢
تعامل محمد ﷺ مع أعدائه ٣٠٧
محاولات اغتيال محمد ﷺ ٣١٠

ماذا غير محمد ﷺ في أمته؟

٧

التغيير الاجتماعي ٣١٧
التغيير الاقتصادي ٣٣١
التغيير السياسي ٣٤٨
التغيير العلمي والحضاري ٣٧١
التغيير في الإنسان ٣٨١
التغيير الديني ٣٨٤

مرض محمد ﷺ وتعامله مع المرضى

٨

مرض محمد ﷺ وتعامله مع المرضى ٤٠٣
علامات الرحيل ٤٢١
وصية مودع ٤٢٢
المرض الأخير ٤٢٣

تقديم

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، والصلاة والسلام على الرسول المجتبى والنبي المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بسنته وسار على دربه في الورى وبعد:

فيسر كرسي المهندس عبدالمحسن الدريس للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة بجامعة الملك سعود أن يقدّم للقارئ الكريم دراسة معاصرة تمثل نموذجاً جديداً فى عرض السيرة النبوية يركّز على إبراز القيم الأخلاقية والعلاقات الإنسانية في السيرة النبوية دون الإغراق في جزئيات الأحداث أو الالتزام بالترتيب الزمني لوقوعها.

وتأتي هذه الدراسة الجادة محققة لهدف رئيس من أهداف الكرسي يتمثل في التعريف بسيرة الرسول ﷺ وأخلاقه وشمائله وإبراز جوانب الرحمة والسماحة والعدل والخُلق الكريم في شخصية الرسول ﷺ.

ويسرني أن أتوجه بخالص الشكر والتقدير لمعالي الأستاذ الدكتور عبدالله بن عبدالرحمن العثمان مدير جامعة الملك سعود وسعادة الأستاذ الدكتور علي بن سعيد الغامدي وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي على ما يلقاه الكرسي ومشاريعه العلمية من دعم واهتمام غير مستغرب من جامعة لم تنس يوماً أصالتها ورسالتها في خدمة الدين والوطن وهي تحقق تقدمها المشهود في مجالات البحث العلمي والاعتماد الأكاديمي وخدمة المجتمع.

والشكر موصول للهيئة العالمية للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته المنبثقة من رابطة العالم الإسلامى بقيادة معالى الأستاذ الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي على التعاون الكبير الذي لقيه الكرسي منها توّج بإصدار هذه الموسوعة الميسرة خدمة للسيرة النبوية العطرة.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أ.د. عادل بن علي الشدي

المشرف على كرسي المهندس عبدالمحسن الدريس
للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة

•• المقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لانبي بعده، وبعد:

لم يكن محمد ﷺ نكرة، ولا شخصية هامشية، فأتباعه اليوم يجاوزون المليار ونصف المليار، ولا تكاد ترى بلداً صغيرا أو كبيراً يخلو من أتباع محمد ﷺ والمؤمنين به، والمساجد التي يصلي فيها المسلمون لا تخلو منها عاصمة من عواصم العالم.

يتحدث عن محمد ﷺ كثير من الناس؛ فيتحدث عنه أتباعه والمؤمنون به، وهم ليسوا منه على منزلة واحدة، فمنهم من يجفو في حقه ومنزلته، ومنهم من يبالغ ويغلو ويضفي على حياته الأساطير، ومنهم من يتحدث عنه بصدق واعتدال وموضوعية.

ويتحدث عنه غير المسلمين وهم كذلك فئات: منهم المنصف الموضوعي، ومنهم المتحامل، ومنهم من لايعرف إلا اسمه.

ورغم الشهرة الواسعة التي حظي بها محمد ﷺ فلا زالت كثيرٌ من صفحات حياته غائبة عن كثير من المؤمنين به، فضلاً عن غير المؤمنين.

وقد أدى هذا الغياب إلى أن يشكل كثيرٌ من الناس صورة قاصرة -وربما مشوهة- عن شخصية محمد ﷺ فمنهم من يختزلها في موقف أو موقفين من سيرته، وربما كانت الرواية التي اعتمد عليها في تشكيل هذه الصورة غير صحيحة، أو مجتزأة من سياقها.

ومنهم من شكَّل صورته عن محمد ﷺ من مقولات أعدائه، أو من روايات، أو رسومات ساخرة.

ومنهم من شكَّلها من خلال تصرفات فئة من أتباعه والمؤمنين به، وأتباع محمد ليسوا قلة معدودة، وليسوا على فئة واحدة أو درجة واحدة، وهم إنما يمثلون أنفسهم، والمعيار في الحكم على أعمالهم هو مدى توافقها الحقيقي مع تعليمات محمد ﷺ والشريعة التي جاء بها، وليس كثرة حديثهم عنه وعن محبتهم له كافياً في أن تلحق تصرفاتهم وأعمالهم بالإسلام، أو أن يوصفوا بأنهم يمثلون منهج محمد ﷺ.

ومن هنا سعينا في هذا الكتاب لأن نقدم للقارىء صورة متكاملة عن شخصية

محمد ﷺ، صورة تتناول الشخصية بأبعادها وجوانبها، وتتحدث عن محمد ﷺ من خلال المصادر الصحيحة الموثوقة؛ لتجيب على سؤال كثير من الناس في العالم المعاصر: من محمد؟ ومن يكون؟

ولقد كتبنا هذا الكتاب ونحن نستحضر خطاب غير المؤمنين بمحمد ﷺ وغير أتباعه فمن حقهم أن يعرفوا حقيقة محمد ﷺ ويتعرفوا على شخصيته بعيداً عن المصادر غير العلمية.

ورغم أن هذا العمل كتب بالأصالة موجهًا إلى غير المسلمين، فنرى أنه يقدم فائدة لكثير من المسلمين الذين يجلهون صفحات عدة من سيرة نبيهم محمد ﷺ، ومن هنا آثرنا طباعته باللغة العربية أولاً ليستفيد منه المسلمون في مزيد من التعرف على شخصية محمد ﷺ، وليسهموا في تعريف غيرهم بحياته وشخصيته، وسوف يترجم بإذن الله إلى العديد من اللغات.

•• وقد تم هذا العمل وفق الخطوات الآتية:

- عقد عدد من ورش العمل واللقاءات مع من عاشوا في الغرب وتعاملوا كثيراً مع غير المسلمين، وقدَّموا مقترحات ثرية فيما يحتاجه القارئ الغربي.
- إعداد خطة الكتاب وعرضها على عدد من المختصين والمهتمين، وتعديلها في ضوء آرائهم.
- تكليف عدد من الباحثين بجمع النصوص من القرآن والسنة والسيرة النبوية وفق الخطة التي تم اعتمادها.
- تحرير الكتاب وصياغته وقام بذلك الأستاذ خالد الروشة وفق الخطة ومستعيناً بالنصوص والمادة العلمية التي جمعت، ولم يقتصر على ما تم جمعه بل أضاف له الكثير.
- قام محمد الدويش بمراجعة ما كتبه الأستاذ خالد والتعديل فيه حذفاً وإضافة، كما قام بكتابة بعض المباحث والموضوعات بصورة كاملة.

- إحالة الكتاب إلى عدد من المراجعين والمستشارين وتعديله في ضوء توصياتهم وملحوظاتهم.

ورغم أننا من أتباع محمد ﷺ والمؤمنين به، ومن المحبين له، فقد اجتهدنا أن نكتب بموضوعية وتجرد، وأن نعتمد فيما نكتب على الحقائق العلمية والموضوعية.

ومهما اجتهدنا فسنبقى بشراً لا نسلم من ضعف البشر وقصورهم.

والله الموفق والمعين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين،،،

رئيس فريق العمل

د. محمد بن عبدالله الدويش

الفصل الأول

رؤيــــة عن قرب

- أرض نشأت فيها الشخصية
- عناصر أثرت في شخصيته
- مشهد متحرك في وصفه ﷺ
- صورة لجسده
- صورة وجهه وملامحه
- صـــوته ﷺ
- مشيته ﷺ
- حديثـه ﷺ
- لقاء مع محمد ﷺ
- طهارة ونظافة
- رائحة زكية
- وجه صادق
- حسن اللقاء
- إفشاء السلام

•• أرض نشأت فيها الشخصية :

مكةُ هي البلدُ الذي ابتدأ عمارَته أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وكانت من بعده مدينةَ العرب العظيمة، ومحورها الذي تدور حوله، وكانت - استجابةً لدعوة إبراهيم عليه السلام - مقصد الناس يَفِدُون إليها من كل مكان، وصارت ملتقى العرب أجمعين.

نحن إذن أمام بيئة متميزة، تُمَارس فيها الشؤون الاجتماعية والسياسية المختلفة، ويتوفر فيها عناصر البناء الشخصي المستقيم، من غنًى بالخيرات، وأمنٍ اجتماعي، وشرفٍ، ومكانة اجتماعية، وممارسة سياسية على مستوًى عمليّ.

فمجتمع قريش كان أعلى مجتمعات العرب فكرًا، وأشهرهم نسبًا، وكانت لغتهم هي أقوم اللغات، ولسانهم أقوم الألسنة، سواء كان ذلك على مستوى الأداء والفصاحة، أو البيان، ولذلك نجد العرب حريصين على عرض إنتاجهم الشعري والثقافي على القرشيين في موسم الحج كلَّ عام.

أما من جهة الأمن الاجتماعي، والذي يلقي بظلاله على الشخصية، فيُضْفِي عليها الرزانة والهدوء والحلم، فقد كانت مكة بلدًا آمنًا مستقرًا؛ لوجود البيت الحرام بها؛ إذ صارت بيتَ العرب الديني ودليلَ شرفهم؛ إلى البيت يحجون، وبه يأمنون.

وقد كانوا لشدة تقديسهم لمكانة البيت الحرام يُحرِّمون على أنفسهم أن يتقاتلوا فيه، حتى إنهم مع تشديدهم على الأخذ بالثأر كانوا يُحرِّمونه على أنفسهم في الحرم المكي[1]، وقد كان الرجل يلقى قاتِلَ أبيه أو ابنه في الحرم، فلا يمسُّه بسوءٍ؛ تقديسًا لذلك المكان، وهو المعنى الذي يُثبتُه التاريخ على مرِّ أجياله، ويُدوِّنُه القرآن الكريم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٧).

كذلك يتضح أن محمدًا ﷺ قد نشأ في بيئة غنية بالخيرات، ومزدهرة اقتصاديًا، في مقابل ما كانت تعانيه القبائل العربية من حول قريش.

فقد كانت قريش - وهي بمكة - تعيش علاقات تجارية واسعة مع الروم وفارس،

---

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ﷺ (المؤتمر العالمي الأول للسيرة).

وكانت القوافل التجارية تغدو وتروح؛ ذاهبة إلى اليمن حاملة بضائع الروم، ومن اليمن تنفذ إلى ما ورائها من أرض فارس، وكانت البضائع الفارسية التي تُؤخَذ من اليمن تذهب إلى الشام لتصل إلى ما ورائه من الرومان، أضف إلى ذلك الرواج الكبير الناتج عن موسم الحج؛ حيث تجتمع القبائلُ كلها أو وفودها في ذلك المكان.

أما الممارسة السياسية: فقد عاش محمد ﷺ في بيت جده عبد المطلب، زعيمِ مكة، ثم انتقل بعد وفاة جده إلى بيت عمه أبي طالب زعيمها أيضًا من بعده، وكانت مكة بيئةً تُمَارس فيها الشؤون السياسية وقضايا التحاكم، وفضّ المنازعات، وترتيب شؤون القبائل. فعَرف محمد ﷺ أحوال العالم من حوله، وشؤون القبائل والأحلاف.

وكانت مكة لشدة اهتمام العرب بها قد لفتت أنظار الساسة إليها، بعدما أصبحت محور الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية، في شبه الجزيرة العربية.

ولم يَرْضَ بعضُ الساسة في المناطق المجاورة تلك المكانةَ، فحاولوا صرف الناس عنها بإقامة معابد في بلادهم؛ آملين أن يَحُجَّ الناسُ إليها بدلاً من مكة، وكان من بينها وأشهرها تلك الكنيسة التي بناها الأحباش في صنعاء باليمن على يد مَلِكهم «أبرهة الحبشي»، إلا أنها باءت بالفشل الذريع؛ حيث لم يَحُجَّ إليها أحدٌ من أبناء العرب، رغم زخرفتها المبهرة، وعمارتها المتميزة، ومن ثمَّ قرَّر أبرهة أن يهدم الكعبة؛ انتقامًا منهم!

أعدَّ أبرهة جيشًا ضخمًا تتقدمه الأفيالُ، وتوجَّه إلى مكة لهدم الكعبة، إلا أن ذلك الجيش قد عاقبه الله بالأوبئة والأمراض، وأرسل على جنوده طيرًا كثيرًا في جماعات كبيرة، ألقت عليهم الحجارة الحارقة، كما تقول الروايات المتكاثرة، وتعزو ذلك إلى عقاب رباني إلهيّ قد حلَّ على ذلك الجيش الظالم.

وقد تحدَّث القرآن الكريم عن تلك الواقعة حديثًا واضحَ الدلالة على أنها معجزة إلهية، قد خصَّ الله بها الكعبة، وحمى بها الله بيته الحرام؛ يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾ ﴾ (الفيل: ١ - ٥).

وكان ذلك العام نفسه هو العام الذي وُلِدَ فيه محمد ﷺ الموافق (٥٧١م)

•• عناصر خاصة أثرت في شخصيته ﷺ :

إن عناصرَ كثيرةً قد ساعدت على بلورة تلك الشخصية المتفردة على المستوى الخاص، كما ساهمت حوادثُ أبقت كل واحدةٍ منها أثرًا على جبين محمد ﷺ.

فقد وُلد في أشرف بيت من بيوت العرب، وأعلاها مكانًا، وأنقاها نسلاً: لذا لم نجد أحدًا من أعدائه - سواء من قريش أو من المكذبين له - قد تجرأ على الطعن في نسبه أو شرفه أبدًا بحال، برغم أشد أنواع العداوة التي واجهوه بها، والتي بلغت أن أعدُّوا العُدَّة لاغتياله.

وتروي لنا الروايات الصحيحة الثابتة حول الأسئلة التي وجَّهها هرقل، إمبراطور الروم، لبعض تجار مكة الذين طلبهم ليعرف منهم أحوال النبيﷺ، ولقيهم في بلاطه الإمبراطوري، وكان في مقدمتهم أبو سفيان أعدى أعداء محمد ﷺ في وقتها.

تروي تلك الروايات أن هرقل قد سألهم أسئلة عديدة، كان من أولها: كيف نسبه فيكم؟ فأجابوا: هو من أشرفنا نسبًا، فقال هرقل: وكذلك لا يختار الله نبيًا إلا من كرام القوم وأوسطهم نسبًا[1].

صحيحٌ أن الإسلام لا يُقيم وزنًا لشرف الأنساب تجاه الأعمال، ولكن الفضل يجتمع إذا اجتمع شرف النسب، وشرف العمل، كما عبَّر محمد ﷺ عن ذلك في حديثه، فقال: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام، إذا فَقِهُوا»[2]، كذلك فإن العرب ما كانت لتسمع إلا لذوي الأنساب العالية فيهم، وحتى تُدْرَأ عنه شبهة أن رسالته ما هي إلا وسيلة لتغيير وضعه الاجتماعي.

هناك أيضًا عنصر آخر مهم لا يمكننا أن نُغْفِله في تربية محمد ﷺ، فقد مات أبوه في بداية حمل أمه به، فنشأ يتيمًا، ثم فقد أمه أيضًا وعمره ست سنوات فقط، فذاق في صغره ألَم فقدان الوالدين وعطفهما، وهو ما جعله فيما بعدُ أكثر إحساسًا بالمعاني الإنسانية النبيلة، وجعل قلبه يمتلئ بالرحمة، والشفقة، والعطف نحو اليتامى، وأصحاب الآلام، وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك تعبيرًا دقيقًا:

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨٣) ومسلم (٢٣٧٨)

فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى: ٦-١٠).

وهو ما ورد في القرآن الكريم عن نبي الله موسى عليه السلام، حيث أخبر الله عن رعايته ومحبته له فقال سبحانه ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (طه:٣٩-٤١).

وكانت بداية نشأة محمد ﷺ في بني سعد حتى نهاية سنواته الأربع: حيث الصحراء، فنشأ قويَّ البنية، سليمَ الجسم، فصيح اللسان، جريءَ الجنَان.

كما رعى الغنم في أوائل شبابه، وذلك الرعي أتاح له الهدوء الذي تتطلبه النفس الكريمة، كما علَّمه الصبر والحلم والتروِّي والحذر، وعلَّمه صفة الرحمة التي غدت ملازمة له حتى وصف بأنه نبي الرحمة.

وقد أثبتت الروايات الصحيحة أنه ما من نبي من الأنبياء إلا وقد اشتغل بحرفة الرعي، فترةً من حياته، كما عبَّر عن ذلك محمد ﷺ بقوله: «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم» ،فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم؛ كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[1]، يعني: أجزاءَ الدينار والدرهم.

إنها إذن عملية تربوية مقننة، وضعت محمدًا ﷺ في تلك الظروف المكانية والزمانية والشخصية: لتُخرج لنا نموذجًا خاصًا فريدًا من نماذج البشرية.

•• مشهد متحرك في وصفه ﷺ :

لسنا نعني هنا بوصف صفاته وملامحه أننا نُنقص من قدر أحد غيره،لكننا أردنا أن ننقل صورًا تكوِّن مشهدًا متكاملاً، نستطيع من خلاله رؤية محمد ﷺ وهو يحيا حياته الطبيعية.

لقد اعتنى أصحاب محمد ﷺ وأتباعه بشخصيته، لذا فالروايات الصحيحة والثابتة التي تصف لنا محمدًا ﷺ كثيرة جداً، ونستطيع الاعتماد عليها في تكوين ذلك المشهد الذي نريده.

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٢).

•• صورة لجسده ﷺ:

كان جسد محمد ﷺ مستقيمًا، وكان ممشوق القوام.

وكان وسطًا في طوله، غير أنه كان مائلاً للطول، بعيدًا عن القِصَر، يقول صاحبه أنس ﷺ: «كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، وكان إلى الطول أقرب»، ويقول صاحبه البراء بن عازب ﷺ «ليس بالطويل البائن ولا القصير»[1].

كذلك فقد كان بعيد ما بين المنكبين[2]، عريض أعلى الظهر، عريض الصدر.

•• صورة وجهه وملامحه ﷺ:

كان محمد ﷺ أبيض اللون، ليس شديد البياض، ولكنه بياض تعلوه حُمْرَة وزُهْرَة، يقول أبو الطفيل: «كان أبيض مليح الوجه»[3].

•• مِشْيَته ﷺ:

كان يمشي مشيًا قويًا جادًا، سريعًا، ولكنه كان معتدل القامة متساوي الخطوات، ويتضح من مِشيته نشاطُه وحيويتُه. يقول صاحبه أبو هريرة ﷺ: «ما رأيتُ أحدًا أسرع منه، كأنما الأرض تُطْوَى له، إنَّا نُجهِد انفسنا وهو غير مُكترِث»[4]، ويقول في موضع آخر: «كنت معه في جنازة، فكنت إذا مشيت سبقني فأهرول، فإذا هرولت سبقته»[5].

•• حديثه ﷺ:

كان حديث محمد ﷺ حديثًا هادئًا عذبًا، واضح الكلمات، ولم يكن يستعمل المهجور من الألفاظ، ولا ما يجرح مشاعر السامعين، ولا حياءهم، وكان يُفهِم الناسَ ما يقول، حتى إنه كان يكرِّر كلماته التي يريد توصيلها ثلاث مرات، وكان من يجلس إليه يحفظ كلماته جيدًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٨٤)، ومسلم (٢٣٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٥١)، ومسلم (٢٣٣٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٤٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٤٨).

(٥) أخرجه أحمد (٧٤٥٤).

تقول زوجته عائشة - رضي الله عنها -: «كان كلامه فصلاً - واضحًا - يفهمه كل من سمعه»[1]. ويقول خادمه أنس ﷺ: «إن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا، حتى تُفهَم عنه، وإذا أتى على قوم فسلَّم عليهم؛ سلَّم ثلاثًا»[2].

•• لقـاء مع محـمد ﷺ

•• طهارة ونظافة:

يتَّسم محمد ﷺ بحرصه على النظافة بشكل كبير، وعلى استدامة الطهارة، وهو يرى أن الله قد كرَّم الإنسان على سائر الخلق، فينبغي للإنسان أن يحيا هذه الكرامة، وكان يقول: «إن الملائكة تتأذَّى مما يتأذَّى منه بنو آدم»[3].

وكان يأمر أصحابه بالمحافظة على الوضوء والطهارة، وجعلها من صفات المؤمنين الصالحين، فينقل صاحبه ثوبان ﷺ أنه سمعه يقول: «ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[4].

ويحدثنا صاحبه أبو هريرة ﷺ أنه سمعه يقول: «تبلغ الحِليَة من المؤمن (في الجنة) حيث يبلغ الوضوءُ»[5].

ولم يكن معنى الطهارة قاصرًا عند محمد ﷺ على نظافة الظاهر، واستعمال الماء في تطهير كل قذر أَلَمَّ بالإنسان، بل كان يتعداها إلى معنًى آخر، وهو طهارة الباطن، بل إنه يعلِّم أتباعه أن الطهارة الحقيقية هي طهارة الباطن، وهي التي تحثّ أصحابها على طهارة الظاهر دومًا.

وأفضل ما يعلمنا ويُخبرنا بهذا الارتباط الوثيق بين طهارة النفس من معصية الله ومن الذنوب والآثام، وبين التطهر الخارجي بالماء: هذا الحديثُ الذي علَّمه محمد ﷺ أصحابَه؛ إذ يقول: «إذا توضأ العبد المؤمن فمَضْمَضَ خرجتِ الخطايا من فيهِ، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج

---

(١) أبو داود (٤٨٣٩)، والترمذي (٣٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٩٥).

(٣) أخرجه مسلم (٥٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٨٧٣)، وابن ماجه (٢٧٧).

(٥) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢٥٠)

من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من بين يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه، ثم كان مشيُه إلى المسجد وصلاتُه نافلةً له»(1).

وفي مقابل هذه العناية بالطهارة والنظافة نرى بعض الديانات تُنفّر من الطهارة، ويحرص أتباعها على الظهور بمظاهر غير لائقة: فيطيلون شعورهم، وأظافرهم، ويجتنبون الغسل والنظافة.

•• رائحة زكية:

ومما يلفت النظر عند لقائه أيضاً، حبُّه للطيب واهتمامُه به، وحرصُه على الروائح الزكية، وأن يخرج للناس دومًا بعطر تحبه النفوس، وكان ينصح أصحابه بالتعطر، ويدعوهم إلى الحرص على الرائحة الطيبة، يقول خادمه أنس ﷺ: «ما شممت ريحًا قط أو عَرْقًا قطّ أطيب من ريح أو عَرق رسول الله ﷺ»(2).

يقول صاحبه جابر بن سَمُرَة - وكان صبيًّا -: «مسح رسول الله ﷺ خدي فوجدتُ ليده بردًا وريحًا كأنما أخرجها من جونة عطر».(والجونة هي الإناء المخصص للعطر)(3).

ويقول صاحبه جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – واصفاً إيَّاه ﷺ بأنه: «لم يسلك طريقًا فيتبعه أحدٌ إلا عرف أنه قد سلكه من ريح عَرْفِه»(4).

وهناك دلالة حسنة على الريح الطيبة، فالنفس الطيبة تحب الريح الطيبة، والنفس الخبيثة تقبل المعيشة في الروائح الخبيثة، ولذلك فإننا نرى السحرة والدجالين والمشعوذين يستخدمون الروائح المقززة ويتصفون بها.

•• وجه صادق:

لا يستشعر من لقي محمدًا ﷺ نوعًا من الارتياب أو المكر، أو الخديعة أو الكذب،

---

(1) أخرجه النسائي (١٠٣)، وابن ماجه (٢٨٢)، وأحمد (١٨٥٨٥).

(2) أخرجه البخاري (٢٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠)

(3) أخرجه مسلم (٢٣٢٩)

(4) أخرجه الدارمي في المقدمة (٦٦).

إنما يعطي وجهُه انطباعَ الصدق التام، والتلقائية الكاملة، والوضوح والصراحة.

ودعني هنا أذكر لك ذلك الوصفَ الذي وصفه به أحدُ أعدائه[1]، وهو أبو سفيان بن حرب، عندما دعاه هرقل، إمبراطور الروم، هو وجماعة من العرب ليسألهم عن محمد ﷺ، فقال لهم هرقل: فهل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا. فقال هرقل - تعليقًا على ذلك -: لم يكن لِيَذَرَ الكَذِبَ على الناس ويكذبَ على الله[2].

كذلك فإن شهادةً أخرى قد تكفي لبيان تلك الصفة فيه، وهي شهادة واحد من أحبار اليهود وعلمائهم، وهو عبد الله بن سلام، يقول: «لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة انجفل الناس إليه – تجمعوا إليه – فجئتُ في الناس؛ لأنظر إليها، فلما استَثْبَتُّ وجهَ رسول الله ﷺ عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذّاب، وكان أول ما تكلم به أن قال: «أفشوا السلامَ، وأطعموا الطعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا بالليل والناس نيامٌ؛ تدخلوا الجنةَ بسلام»[3].

كذلك فإن هناك وضاءةً كانت تَعُمّ وجهَه، وراحةً كبيرة كانت تحيط بلُقْيَاه، وهذا لا يرتبط بوسامة أو بجمال، فقد تَلْقَى إنسانًا غير وسيم الملامح، ولكنك تلمحُ إشراقًا في وجهه، وتستشعرُ راحةً في حديثه، ولا شكّ أن ذلك يرتبط بمدى قدرة القلب على الظهور بآثاره على ملامح كل إنسان، وكذلك فإن القتامة والكآبة قد تعلوان وجهًا جميل الملامح، بسبب ما يُضمره قلبه من سوء وفساد.

•• حُسْن اللقاء :

إن طلاقة وجه محمد ﷺ وحُسْن تبسُّمه في لقاء من يلقاه من الناس، وإقباله عليهم إذا لقيهم ؛ جعلتْ في لقائه ميزةً كبيرة، وأعطته قدرًا أكبر عند كل من لاقاه من أعدائه قبل أصدقائه، فقد عُرِفَ عنه أنه كان لا يُفرِّق في حُسْن لقائه وبشاشته بين الغنيّ والفقير، ولا يميِّز بين الأسود والأبيض، حتى الأطفال كان يبتسم في وجوههم ويُحسِن لقاءهم.

---

(١) قبل أن يُسلِمَ.

(٢) أخرجه البخاري (٧) ، ومسلم (١٧٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥).

لقد كان محمد ﷺ يحترم الإنسانية في البَشَر الذين يلقاهم، ويقدِّر كل الناس، ويهتم بأن يُوصل إليهم فكرته، ويعرض عليهم دعوته، حتى يظن كل من يتعامل معه أنه أقرب الناس إليه.

وها هنا نسوق موقفًا طريفًا لصاحبه عمرو بن العاص ﷺ، وكيف أنه من كثرة إقبال محمد ﷺ عليه طمع أن يكون أحبّ الناس إليه، فذهب إليه وسأله: «من أحبُّ الناس إليك»؟ فقال النبي ﷺ: «عائشة». فقال: ومن الرجال؟ فقال: «أبوها» - يقصد صاحبه أبا بكر - فقال: ثم مَن؟ فقال: «ثم عمر»[1]. عندئذ سكت عمرو بن العاص؛ مخافة أن يجعله في آخرهم.

كما اتصف محمد ﷺ أيضًا بالأدب الشديد مع مَن يلقاهم، فهو يُقبل عليهم بوجهه، ولا يلتفت عنهم ويُحدِّثهم وهو ينظر في أعينهم، ويصافحهم، وكان يقول: «أيما مسلمَيْن التقيا فأخذ أحدهما بيد صاحبه فتصافحا وحمِدا الله تعالى جميعًا؛ تفرَّقا وليس بينهما خطيئة»[2]، وكان لا ينزع يدَه من يد مَن يُصافحه حتى يكون الآخر هو الذي ينزع يده[3].

كما اتصف بعلامات الذوق الرفيع: من توقير الكبير، ورحمة الصغير، وكان يقول: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا»[4].

كما اتصف بأدب شديد في طعامه، وشرابه، وحديثه، وحركاته، وسكناته، وسيأتي معنا في الكتاب – إن شاء الله – مزيدُ بيانِ ذلك.

•• إفشاء السلام:

وكان يبدأ الناس بالسلام، ويحب السلام، ويأمر أصحابه بإفشاء السلام.

وكان يقول: «إن أَوْلَى الناس بالله من بدأهم بالسلام»[5]، بل إنه كان يحرص على

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥٨)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٨١٢١)

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٤)، والترمذي (٢٤٩٠) وابن ماجه (٣٧١٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٩٤٣)، والترمذي (١٩١٩).

(٥) أخرجه أبو داود (٥١٩٧)، والترمذي (٢٦٩٤).

أن يكرِّر السلام على الناس إذا حَال بينه وبينهم شجرٌ أو حجر أو جدار، فيروي صاحبه أبو هريرة ﷺ أنه قال: «إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإذا حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه فلْيسلم عليه»[1]، بل كان يُسلِّم على الصبيان إذا لقيهم في الطريق[2].

وكان يرى أن السلام هو طريق المحبة والوداد والوئام، فكان يقول: «ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟! أفشوا السلام بينكم»[3].

ولم يكن محمد ﷺ يخص بالسلام مَن يعرفهم فقط، بل كان يُسلِّم على كل مَن يعرف ومَن لا يعرف؛ رغبة في نشر هذا المعنى والمفهوم العظيم، وكان يأمر أصحابه بذلك، ومثاله: لما جاءه أحدهم يسأله عن أي أعمال الإسلام خير؟! - فقال له ﷺ: «تُطعِم الطعامَ - يعني للفقراء وغيرهم - وتَقرأ السلام على مَن عرفتَ ومَن لم تعرفْ»[4].

فالسلام إذن محورٌ فكري ودعوي في دعوة محمد ﷺ، يأمر بنشره، ويحرص على الابتداء به، وهو يعني عنده الأمان والتودد، وإعلان المسالمة والمودة والمحبة في الله سبحانه، بل هو دومًا يُتْبِع السلامَ على الناس الدعاءَ لهم بالرحمة والبركة: فيقول: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٠٠)

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨).

(٣) أخرجه مسلم (٥٤).

(٤) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

الفصل الثاني

محمد الإنسان ﷺ

- بشرية محمد ﷺ
- تفاؤل محمد ﷺ
- اعتدال محمد ﷺ
- إيجابية محمد ﷺ
- العزيمة والطموح في شخصيته ﷺ
- طموح محمد ﷺ
- وعي محمد ﷺ
- البساطة في شخصية محمد ﷺ
- بلاغة محمد ﷺ
- بشاشة محمد ﷺ
- السكينة والوقار في شخصيته ﷺ

•• بشرية محمد ﷺ:

حرص محمد ﷺ من البداية على إيضاح طبيعة العلاقة بين الله تعالى والنبي والبَشَر: فالله سبحانه هو المعبود الحق الذي تُوجَّه إليه كل الأعمال، ويُرتَجى بجميع العبادات، ولا معبود غيره أبدًا مهما كان؛ إذ إنه هو الرب الخالق والرازق والمحيي والمميت، وهو الإله المعبود المستحِقّ وحده للعبادة، وهو المتصف بصفات الجلال والكمال والمسمى بالأسماء الحسنى سبحانه، والنبي هو ذاك الإنسان البشري الذي اختاره الله ليبلّغ رسالته للناس، ويعلّمهم ويبيّن لهم كيفية التطبيق العملي لما شرعه لهم.

وقد جاء القرآن الكريم موضّحًا ذلك المعنى بكل وضوح فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (الكهف: ١١٠)، فها هنا بشر وهو الرسول، ووحي بالرسالة، وإله واحد معبود لا شريك له.

فالبشر مُختار بعناية إلهية، حتى يكون لائقًا من بني جنسه لتحمُّل تلك المسؤولية، والوحي هو المثبت له والمعلّم له، والمقوّم لكل سلوكياته البشرية، وإنما دعوته هي دعوة لأجل عبادة الله وحده الذي لا يحق لغيره أن يُعبَد، فهو وحده المعبود بحق (لا إله إلا هو).

والأنبياء هم أوعى البشر بحقيقة الألوهية، ومعرفة استحقاق الإله وحده للعبادة، ولذلك فإن التمييز واضح عندهم بين ما هو حق الله، وما هو حق النبي، وما من نبي إلا دعا الناس إلى توحيد ربهم وعبادته، وقد نفى القرآن الكريم عن الأنبياء من يدعو الناس لعبادتهم بدلاً من عبادة الله وحده، قال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٩) لقد فضّل الله نبيه محمدًا ﷺ، واصطفاه على سائر البشر، ومن مظاهر هذا التفضيل:

- ما جبله الله عليه من الأخلاق والسمات والسجايا.
- أنه يتلقى الوحي من السماء، وينزل عليه كلام الله عز وجل.
- أنه رسول إلى الناس يبلّغهم عن الله تبارك وتعالى، ويدعوهم إلى عبادته.

وهذه الأمور تقود بعض الناس إلى أن يتجاوزوا الاعتدال في التعامل مع شخصية النبي ﷺ، وربما قادهم ذلك إلى الغلو فيه، وإلى أن ينسجوا في أذهانهم صورة تتجاوز القدر البشري.

حين نعود إلى القرآن الكريم، ونتأمل الصورة التي يرسمها القرآن للمرسلين عمومًا، ولمحمد ﷺ ؛ نجد التأكيد على صفة البشرية بارزاً في ذلك.

●● ويتمثل ذلك فيما يلي:

أولاً: حين اعترض المشركون على إرسال الرسول من البشر، وسألوا أن ينزل عليهم مَلَك من السماء ؛ جاء تأكيد هذا المعنى في القرآن، وأنه لو نزل ملك لجاء بصورة البشر. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٨ – ٩).

إن الرسل يؤدون رسالتهم للناس من خلال مُعايشتهم معهم، والتواصل معهم، ويعلِّمونهم أحكام الدين، ليس من خلال الحديث فحسب، بل من خلال المعاشرة والمعايشة، ومن هنا لن يتحقق ذلك ما لم يكونوا بشرًا مثلهم يرونهم ويتعاملون معهم كما يتعاملون مع البشر.

ثانيًا: حكى القرآن الكريم عن أهل مكة أنهم اعترضوا على رسالة النبي ﷺ بأنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، قال عز وجل:﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٧- ٩)،

ثم أخبر تبارك وتعالى بعد ذلك في السورة نفسها، أن هذه سنته في المرسلين؛ فهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢٠).

ثالثًا: أخبر تبارك وتعالى أن أقوام الأنبياء السابقين كانوا يعترضون على أنبيائهم بأنهم بشر، ويرون أن ذلك مانع عن إجابة دعوتهم واتِّباعهم، قال تعالى ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾(الأنبياء: ٢ - ٣)

وفي سورة المؤمنون التي تليها بسورتين حين جاء الحديث عن تفاصيل قصص الأنبياء في أثناء السورة، وأشار القرآن إلى موقف قوم نوح عليه السلام، وأنهم اعترضوا على قبول رسالته لكونه بشراً؛

قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٤).

وأشار أيضًا إلى موقف عاد قوم هود عليه السلام، وأنهم اعترضوا على نبيهم بالاعتراض نفسه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣٣ – ٣٤).

رابعًا: أخبر القرآن الكريم أن قوم محمد ﷺ طالبوه بمطالب، واعترضوا عليه بأمور، قال عز وجل: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٣).

ثم أخبر تبارك وتعالى أن هذا الأمر ليس خاصًا بقومه، بل هو شأن الأمم السابقة مع أنبيائها؛ فقال: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٤ - ٩٥).

خامسًا: أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يقول ذلك للناس، وأن يصرح ببشريته، بل أن ينكر عليهم ادعاءهم ما هو سوى ذلك، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف: ١١٠)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ (فصلت:٦).

وحين نعود إلى سيرته ﷺ نجد ما يوضح بجلاء بشريته، سواء كان ذلك من خلال الأحداث والمواقف التي تحصل له، أو من خلال حديثه عن نفسه.

كان يشارك أصحابه المعارك والغزوات، وفي غزوة أُحد ناله ما نالهم، فأصابته جراحات، وكُسرت أسنانه، بل أشاع أعداؤه أنه قُتل، وهنا جاء التعقيب من القرآن الكريم مؤكدًا على بشريته، وأنه يمكن أن يُصيبه الموت أو القتل قال تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

كان ﷺ يصلي بأصحابه فيصلون وراءه، وعدد الركعات يختلف من صلاة لأخرى: فالفجر ركعتان، والظهر والعصر أربع ركعات، والمغرب ثلاث ركعات، والعشاء أربع ركعات.

وذات يوم وهو ﷺ يصلي بأصحابه نسي كمْ صلَّى، عن ابن مسعود ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر خمسًا، فلما سلَّم قلنا: يا رسول الله: أَزِيد في الصلاة؟ فقال: «وما ذاك ؟» قالوا: صليت خمسًا، فقال: فثنى رجله واستقبل وسجد سجدتين، ثم سلَّم، وقال: «إنما أنا بشر مثلكم أتذكَّر كما تذكرون، وأنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكِّروني، وإذا شكَّ أحدكم في صلاته فليتحرَّ الصواب فليبنِ عليه ثم يسجد سجدتين»[1].

كما نسي مرة أخرى فسلَّم من ركعتين في صلاة الظهر أو العصر.

ومرة أخرى نجد النسيان منه ﷺ فيما يتعلق بالصلاة في أمر الطهارة؛ إذ الواجب على المسلم أن يتطهر قبل الصلاة، والنبي ينسى ﷺ كغيره من البشر؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: «أُقيمت الصلاة، وعُدِّلت الصفوف قيامًا، فخرج إلينا رسول الله ﷺ فلما قام في مصلاه ذكر أنه جُنُب، فقال لنا: مكانكم، ثم رجع فاغتسل ثم خرج إلينا ورأسه يقطر، فكبَّر فصلينا معه»[2].

•• تقويم إلهي:

كان محمد ﷺ بَشَراً يجتهد فيما لم يوحَ إليه فيه وَحْي، وقد لا يصيب في اجتهاده؛ فيستدرك عليه الوحيُ ذلك، وسيأتي معنا المواقف والآيات التي تؤكد ذلك المعنى وتوضِّحه، إلا أننا هنا نؤكد على ذلك الموقف الخاص الذي يدل على ما نريد توضيحه، فالآيات من(١- ١١) من سورة عبس تتحدث عن عتاب قرآني لمحمد ﷺ، وتقويم لما حدث منه تجاه أحد المسلمين الفقراء الذين فقدوا البصر، بينما محمد ﷺ مع بعض زعماء قريش يدعوهم إلى الإسلام، ويبين لهم، وقد استشعر منهم قبولاً له: إذ جاءه ذاك المسلم الفقير الضرير «ابن أم مكتوم»، وجعل يقول له: يا رسول الله! أرْشِدني، فجعل النبي ﷺ يلتفتُ عنه، ويُقبل على الآخر، فنزلت تلك السورة[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠)، ومسلم (٥٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٥)، ومسلم (٦٠٥).

(٣) أخرجه ابويعلى في مسنده (٨/ ٢٦١).

قد رعى محمد ﷺ في ذلك الموقف طموحا بشريًا عاديًا لهداية بعض زعماء القوم ذوي السلطان، الذين قد ظنَّ أنهم بإسلامهم قد تعود مصالح كبيرة على الدعوة، ولعل مثل هذا الهدف أن يكون مبررًا على المستوى البشري لأصحاب الدعوات عمومًا، خاصة أن أعداءه كانوا دومًا ما يتبجحون بسؤالهم إياه: ﴿ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾(مريم: ٧٣)، مشيرين إلى أن معظم أتباع النبي ﷺ من الفقراء والضعفاء.

إن رغبته إذن في استمالة بعض الأشراف إلى الإيمان، وكسبهم لمعسكر الإسلام؛ رغبة طبيعية تمامًا يفهمها البشر بلا استنكار، إلا أن القرآن جاء ليؤكد على معانٍ عظيمة أخرى، أنْ لا فرقَ عند الله بين غنيّ وفقير، وشريف ووضيع، وأعمى ومُبْصِر، وحاكِم ومحكوم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾(عبس: ١ – ١١).

وصار محمد ﷺ فيما بعدُ كلما التقى ابنَ أمّ مكتوم يرحِّب به أحسن ترحيب، ويحتفي به.

•• بشر في الحكم بين الناس:

كان محمد ﷺ يحكم بين الناس، ويرجعون إليه فيما ينشأ بينهم من اختلاف وخصومة.

ورغم منزلة محمد ﷺ وأنه مُسَدَّد بالوحي من الله؛ إلا أنه يمارس أعمالاً بصفته البشرية، ومنها القضاء.

إنه يلتزم في القضاء بأن يحكم بين الناس بكتاب الله، لكن الناس يعبِّرون عن دعاواهم أمام القاضي، وهم يختلفون في قُدرتهم على التعبير والدفاع عن حقوقهم، من هنا يبيِّن محمد ﷺ للناس أنه بشر حتى وهو في ميدان القضاء.

عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تختصمون إليَّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطعه به قطعة من النار»[1].

(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

وتبيِّن لنا إحدى روايات هذه القصة أن سبب هذه المقولة منه ﷺ أنه سمع صوت خصمين بباب حُجْرته فخرج فقال لهما ذلك.

لقد كان ﷺ يسعى من ذلك إلى تربية الناس، وإصلاح الضمير والوازع الداخلي الذي يجعل الناسَ يحفظون حقوقَ غيرهم، ويبتعدون عن جعل القضاء وسيلةً لأن يأخذوا ما ليس لهم.

إن القانون مهما بلغ من الإحكام والضبط يسهُل التحايل عليه، ويسهل استغلال الثغرات فيه، لكن حين ينمو الضمير والرقابة الداخلية ستزول كثير من مظاهر الاحتيال وصور السعي لأخذ حقوق الآخرين.

حين سمع الرجلان مقالة محمد ﷺ تركت أثرًا في نفسيهما، كما تروي لنا ذلك زوجته أم سلمة - رضي الله عنها - فتقول: فبكى الرجلان، وقال كل واحد منهما لصاحبه: حقي لك، فقال رسول الله ﷺ «أما إذا فعلتما ذلك فاقتسماه، وتوخيا الحق، ثم استهِمَا ثم تحللا»[1].

•• بشر في تعامله مع أمور الدنيا :

عاش محمد ﷺ في مكة، وهي ليست أرض زرع ونخيل، ثم هاجر ﷺ إلى المدينة التي كانت مشتهرة بالنخيل، فرآهم وهم يُصلِحون نخلهم، فقال مقولة باعتبار خبرته البشرية، فأخذ بها أصحابه رضوان الله عليهم؛ فكان هذا الموقف:

عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: مررت مع رسول الله ﷺ في نخلٍ، فرأى قومًا يُلَقِّحُون؛ فقال: «ما يصنع هؤلاء؟». قالوا: يأخذون من الذَّكَر فيجعلونه في الأنثى. قال: «ما أظن ذلك يُغني شيئًا»، فبلغهم فتركوه فلم يَصلُح. فقال النبي ﷺ: «إنما هو ظنٌّ، فإن كان يُغني شيئًا فاصنعوه، فإنما أنا بشرٌ مثلكم، وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم عن الله عز وجل. فلن أكذب على الله»[2].

إن محمدًا ﷺ لم يأت للناس ليعلِّمهم كيف يزرعون، وكيف يديرون شؤون دنياهم؛ فهذا متروك لخبرتهم ومعرفتهم البشرية، ما داموا لم يرتكبوا شيئًا مما حرَّمه الله، ولم يقصِّروا فيما أوجب عليهم سبحانه، ومن هنا فما يقوله في أمور الدنيا المحضة ما لم

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦١).

يكن وحيًا: فهو اجتهاد بشري منه ﷺ، يطلب منهم أن يتعاملوا معه على هذا الأساس، وأن يطبِّقوا المعايير البشرية في تقويم ما يصلح وما لا يصلح.

•• بشر في تعامله مع الناس:

كان ﷺ يتعامل مع الناس ويخالطهم، ورغم ما أُوتي من خُلُق حسن إلا أنه ﷺ بشر يعترف أمامهم ببشريته، فلو آذى أحدًا منهم؛ فإن الله عز وجل يجعل مقابل ذلك جزاءً يلقاه من أصابه الأذى في الدار الآخرة.

يحدثنا عنه صاحبه أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ سأل ربه عز وجل لمن وقع منه تجاههم أذى بقوله: "فاجعلها له زكاةً وصلاةً وقُرْبَةً تقرِّبه بها إليك يوم القيامة"[1].

وتحدِّثنا زوجته عائشة – رضي الله عنها – عن هذا الموقف فتخبرنا أن رجلين دخلا عليه صلى الله عليه وسلم فكلَّماه بشيء لم تسمعه فأغلظ لهما القول، فتحدثت معه زوجته في ذلك فقال: «أو ما علمتِ ما شارطتُ عليه ربي؟ قلت: اللهم إنما أنا بشر، فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاةً وأجرًا»[2].

إن محمدًا ﷺ وهو يتحدث بذلك عن نفسه يُعلِّم أتباعه رعاية حقوق الآخرين، وخطورة ظلمهم وإيذائهم، وأن الإنسان لو أساء لغيره أو ظَلَمَه: فعليه أن يمحو هذه الإساءة.

لئن كان محمد ﷺ آتاه الله هذه الميزة والمنزلة، فغيره لم يؤتَ ذلك، حينها لا غِنَى لنا حين نسيء للآخرين عن أن نسعى لما يُزِيل التَّبِعَة عنا، بالاعتذار لهم، أو الاستغفار لهم، أو الإحسان إليهم بما يمحو أثر هذه الإساءة.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٠).

•• تفاؤل محمد ﷺ :

التفاؤل سمة إيجابية للنفس السوية، يترك أثره على تصرفات الإنسان ومواقفه، ويمنحه صحة نفس عالية، وفي المقابل هناك علاقة وطيدة بين التشاؤم وكثير من مظاهر الاعتلال النفسي.

والمتفائلون يعيشون حياةً مستقرة سوية، يتوقعون الخير، وينظرون إلى الأحداث والمواقف باعتدال وتوازن، ويبحثون عن الفُرَص أكثر من بحثهم عن المشكلات.

والتفاؤل يحتاجه الفرد العادي محدود العلاقات، ومحدود المهمات، فكيف بالقادة وحَمَلة الرسالات؟

وهذا يقودنا إلى التساؤل عن موقع التفاؤل في شخصية محمد ﷺ .

•• ينهى عن التشاؤم والتطير :

كان العرب ينتشر لديهم التشاؤم والتطير، وكانوا يتوقعون الشر حين يرون مظاهر مادية يفسرونها بذلك: حين يرى أحدهم طائرًا أسود، أو حين يستقبله رجل ذو عاهة، أو حين يتجه الطير ذات الشمال... إلخ، تلك المعتقدات التي ربما صرفت الإنسانَ عن سفره، أو عن حاجة من حوائجه.

جاء محمد ﷺ وأبطل تلك المظاهر، وحكم بأنها بابٌ من أبواب الشرك بالله عز وجل، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «الطِّيَرَة شِرْك، الطِّيَرَة شِرْك. ثلاثًا»[1]، فيكرر ﷺ هذا التحذير تأكيدًا لهذا المعنى، وانتزاعًا لما استقر لدى العرب آنذاك من مظاهر التطير والتشاؤم.

وجاءه ذات يوم أحدُ أصحابه فسأله عن مظاهرٍ يراها لدى قومه، ومنها التطير؛ لإخباره بحقيقة ذلك، قال معاوية بن الحكم السلمي: قلت: يا رسول الله! إنَّا حديثُ عهد بجاهلية، فجاء الله بالإسلام، وإن رجالاً منا يتطيرون. قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يَصُدَّنَّهُم».

ثم سأله سؤالاً آخر: فقال: ورجال منا يأتون الكُهَّان؟ قال: «فلا تأتوهم»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧)

لقد أخبر محمد ﷺ عن حقيقة التطير، وأنه لا يعدو أن يكون مشاعر يصنعها الإنسان، فتتحول إلى حقائق لديه، وتتجاوز دائرة الأفكار والمشاعر إلى التأثير على قراراته في حياته الشخصية، ومن هنا نهى محمد ﷺ عن ذلك، مبيِّنًا أنه لا رصيد لهذه المشاعر: فلا ينبغي أن يستجيب لها الإنسان، فتصدّه عن مهامّه ومصالحه.

إن التشاؤم والتطير رَبْطٌ غير موضوعي بين ظواهرَ يراها الإنسان، وبين المستقبل، فما علاقة ما سيجري في المستقبل بما يقابله المرء في الطريق، أو ما يراه ويسمعه؟

•• يتفاءل بالكلمة الطيبة:

كان محمد ﷺ يتوقع الخير ويحبه، ومن هنا كان يتفاءل حين يسمع كلمة طيبة، فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيَرة، ويعجبني الفأل الصالح. والفأل الصالح: الكلمة الحسنة»[1].

ويحكي لنا صاحبه أبو هريرة ﷺ موقفًا من مواقف التفاؤل؛ إذ يروي أن رسول الله ﷺ سمع كلمة فأعجبته فقال: «أخذنا فَألَك من فيكَ»[2].

وكان محمد ﷺ يعجبه الفأل ويحبه، في مقابل كراهيته للطِّيَرة. فعن أبي هريرة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يعجبه الفأل الحسن، ويكره الطيرة[3].

إن الفأل يعني توقع الإنسان ما يسرّه، وأن يظن الخير فيما يَستقبلُ من أمره، وهذا يقوده إلى الاطمئنان وترك القلق على ما يستقبل من أمره، وحين يكون الأمر بخلاف ما ظنَّ فلن يضيره ذلك، بل يعود إلى نفسه، ويتساءل ،فلعل عدم تحقق ما أراده بسبب تقصيره هو وإخلاله بالجهد الذي كان عليه أن يفعله، حينها يأخذ من ذلك درسًا في مستقبل حياته. وإن لم يُقصِّر فحينها يُحسن الظن بربه، ويرى أنه قد يتوقع في أمر ما خيرًا فيكون بخلاف ذلك، كما جاء في كتاب الله عز وجل: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩١٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٠) وهو بهذا اللفظ عند ابن ماجه (٣٥٣٦).

وفي القرآن الكريم أيضًا في شأن العلاقة بين الزوجين قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ١٩).

والإنسان في ذلك لا يركن إلى مجرد هذه المشاعر الداخلية، بل إنه يتخذ منها دافعًا نفسيًا يبعث على الاطمئنان، ثم على مزيد من بذل الجهد وسلوك الأسباب الموصلة إلى ما يريد.

•• يتفاءل بالرؤيا الحسنة:

كان محمد ﷺ يتفاءل بالرؤيا الحسنة، فحين يرى الرؤيا يستنتج من قرائنها ما يتوقع منه خيرًا في حياته.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب»[1].

ولا يسلم الإنسان من أن يرى في منامه ما قد يسره أو يسوؤه، فيوجِّه محمد ﷺ إلى التعامل الإيجابي مع الرؤيا التي يراها المرء في منامه، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «الرؤيا ثلاث: فبشرى من الله، وحديث النفس، وتخويف من الشيطان: فإن رأى أحدكم رؤيا تعجبه فليَقُصَّ إن شاء، وإن رأى شيئًا يكرهه فلا يَقُصَّهُ على أحد، ولْيَقُم يصلي»[2].

لقد كان محمد ﷺ يتعامل مع الرؤيا تعاملاً معتدلاً، فهو لا يعطيها أكبر من حجمها، ولا تتحول إلى دستور يوجِّه حياته ويصرِّفها.

إنه يتفاءل بما يراه فيها من خير، لكنه في الوقت نفسه لا يقف عند مجرد التفاؤل النفسي، بل يتجه منه إلى العمل.

في غزوة أُحُد رأى محمد ﷺ رؤيا فقصَّها على أصحابه، وتفاءل بها خيرًا.

فعن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت بقرًا مُنَحَّرَة، فأولت أن الدرعَ الحصينةَ المدينةُ، وأن البقر هو والله خير».

فقال: لأصحابه لو أنَّا أقمنا بالمدينة، فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣)، وهو بهذا اللفظ عند ابن ماجه (٣٩٠٦).

فقالوا: يا رسول الله! والله ما دُخِلَ علينا فيها في الجاهلية، فكيف يُدْخَلُ علينا فيها في الإسلام؟

فقال: «شأنكم إذًا» فلبس لأْمَتَهُ.

فقالتِ الأنصار: رددنا على رسول الله ﷺ رأيه؛ فجاؤوا فقالوا: يا نبي الله! شأنك إذًا.

فقال: «إنه ليس لنبي إذا لبس لأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل»[1].

لقد تفاءل محمد ﷺ بهذه الرؤيا فقال: «والله خير»، لكنه في الوقت نفسه تعامل مع الموقف بما يقتضيه، فعرض الأمر على أصحابه واستشارهم، وأخذ برأي الأغلبية، رغم أن رأيه بخلاف ذلك، واستعدَّ للموقف بما يتلاءم معه فلبس سلاحه وأخذ أُهْبَته.

التفاؤل بالاسم الحسن:

عُنِيَ محمد ﷺ بالاسم الحسن الباعث على التفاؤل، وقد غيَّر كثيرًا من الأسماء التي كانت تحمل دلالة غير مناسبة.

فغيَّر اسم امرأة من عاصية فجعلها جميلة.

وجاءه رجل فقال: « ما اسمك؟ » قال: حَزْن - أي: صعب - فسمَّاه الرسول ﷺ (سهل).

وفي حديث آخر أن رجلاً كان يقال له أصرم كان في النفر الذين أتوا رسول الله ﷺ؛ فقال له رسول الله ﷺ: « ما اسمك؟ »، قال: أنا أصرم، قال: «بل أنت زُرْعَة»[2].

وقال عبد الله بن الحارث بن أبزى: حدثتني رائطة بنت مسلم عن أبيها قال: شهدت مع رسول الله ﷺ حُنَيْنًا فقال لي: « ما اسمك؟ » قلت: غراب، قال: « لا، بل مسلم »[3]. وغيَّر رسول الله ﷺ اسم العاص، وعزيز، وعتلة، وشيطان، والحكم، وغراب، وشهاب، وحباب فسماها: هاشمًا، وسمى حربًا سلمًا، وسمى المضطجع المنبعث.

كما غيَّر ﷺ في أسماء المواضع، فغيَّر اسم أرض يقال لها عفرة إلى خضرة، وشعب الضلالة سمَّاه شعب الهدى.

---

(١) انظر تحفة المودود، لابن القيم (١- ١٢٩- ١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٤).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٥٠).

وغيَّر في أسماء بعض القبائل فبنو الزينة سمَّاهم بني الرشدة، وسمَّى بني مغوية بني رشدة[1].

وفي يوم الحديبية، يوم أن منع أهل مكة محمداً ﷺ وأصحابه من العمرة، وأرادوا المفاوضات حول ذلك الأمر، أرسلوا رسلاً يفاوضونه فلم يصلوا إلى صلح، فأرسل أهل مكة رجلاً -- أسلم فيما بعد -- اسمه سهيل بن عمرو، فقال ﷺ: «لقد سهُل الله لكم من أمركم» تفاؤلاً باسم الرجل[2].

•• التفاؤل يلازم محمداً ﷺ وهو في العبادة:

كان محمد ﷺ قريبًا من ربه؛ يلجأ إليه بالصلاة والدعاء في كل موطن، ومما شرعه ﷺ لأصحابه الصلاة عند تأخر نزول المطر وحاجة الناس إلى ذلك، وتسمى هذه الصلاة (صلاة الاستسقاء).

في هذه الصلاة كان ﷺ يصلي بالناس جماعة، ثم يستقبل القبلة، ويدعو ربه عز وجل، وحين يدعو يقلب رداءه، وذلك تفاؤلاً بتحول الحال من القحط والجدب إلى الغيث ونزول المطر.

فعن عبد الله بن زيد ؓ أن النبي ﷺ خرج إلى المصلى فاستسقى، فاستقبل القبلة وقلب رداءه، وصلى ركعتين[3].

•• التفاؤل في مواقف الشدة:

عندما نرى التفاؤل في عين أحدهم وهو في لحظة نجاح نعدّه تفاؤلاً طبيعيًا، وعندما نراه في عين مأزوم محزون قد نعتبرّه تفاؤلاً مستغربًا.

حين تشتد بالإنسان المواقف، ويعظم عليه الأمر؛ يعلو لديه القلق، وييأس من الفرج والمخرج.

ومحمد ﷺ إنسانٌ كسائر الناس، تلمُّ به هذه المواقف، ويصيبه ما يصيب سائر الناس، فهل كان ييأس ويتوقع الشر والمصائب؟ أم كان يتفاءل؟

تروي زوجته عائشة -رضي الله عنها- أنه يومًا ما سألته عن أشد ما لقي من قومه،

---

(١) انظر تحفة المودود، لابن القيم (١٢٩،١، ١٣٤)..

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٠١٢)، ومسلم (٨٩٤).

فأخبرها أن ذلك كان في رحلة الطائف، وفي هذه الرحلة لم يدعُ على أهل الطائف، ولم يسأل ربه أن يعذبهم، بل قال:

«أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا»[1].

في حادثة الهجرة تآمرت قريش على محمد ﷺ ليُخرِجوه من بيته، أو يقتلوه، أو يأسروه ويسجنوه.

وتَطلّب ذلك أن يأخذ بالأسباب، ويسعى لتجاوز الموقف، فخرج ﷺ مع صاحبه أبي بكر ﷺ، واختفيا في كهف من كهوف مكة، حتى يهدأ بحث قريش عنهما، فيخرجان إلى المدينة.

وحين افتقدت قريش محمدًا ﷺ خرجوا يبحثون عنه مستنفرين قوتهم وإمكانياتهم، وساروا في أثرهما حتى وصلوا الغار، فوقفوا عند بابه يتحدثون، فقال أبو بكر ﷺ لمحمد ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فكان لمحمد ﷺ منطقٌ آخر يحكيه لنا القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾(التوبة: ٤٠).

ويحكي لنا القرآن أن هذه السمة ليست قاصرة على محمد ﷺ بل إن نبي الله موسى عليه السلام كان يعيش هذا التفاؤل في موقف قريب من موقف محمد ﷺ.

يقف موسى عليه السلام أمام بحر لا يرى شاطئه الآخر، ومعه قوم لا يُحسنون القتال، ووراءه جيش لا يمكنه مقاومته، ويثق بربه، بل ويتفاءل، برغم صيحات اليأس والندم، ممن حوله قائلين ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾(الشعراء: ٦١)، لكنه - كما حكى القرآن - لا ينهار ولا يقلق، بل يتفاءل بالنجاة فيقول: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾(الشعراء: ٦٢).

وهكذا كان محمد ﷺ يسير على خطى إخوانه الأنبياء.

لقد كانت المهمة التي قام بها محمد ﷺ مهمة عظيمة، مهمة تتطلب التغيير في واقع الناس أفرادًا ومجتمعات، التغيير في الواقع الديني والاجتماعي والسياسي، وهذا التغيير بحد ذاته يتطلب جهدًا ضخمًا، ومع ذلك فالأمر لا يقف عند مجرد القيام بعبء التغيير، بل كانت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

هناك قوى عدة في جزيرة العرب من مصالحها أن يبقى وضع الجزيرة على ما هو عليه، وكانت تخسر كثيرًا من نفوذها وإمكاناتها عند أي نجاح يحققه محمد ﷺ، فسعت تلك القوى جهدها في العداء ومقاومة التغيير، ولو وصل الأمر إلى العدوان والمقاومة المسلحة.

إن هذا الواقع وتلك المهمة كانت تتطلب امتلاك محمد ﷺ التفاؤل، إذ هو المحرك للعمل والتغيير، والذين يعلو لديهم هاجس التشاؤم لن ينجحوا في تغيير أنفسهم فضلاً عن مجتمعاتهم.

•• يعلّم أصحابه التفاؤل:

لم يكتف محمد ﷺ بتحقق هذه السمة لديه في شخصه، بل كان يربي أتباعه عليها ويعلمهم إياها.

يقول عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه أحد صحابة محمد ﷺ:

بينا أنا عند النبي ﷺ: إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل.

فقال: يا عدي! هل رأيتَ الحيرَة؟

قلت: لم أرَها وقد أُنبئتُ عنها، - والحيرة مدينة من مدن العراق-.

قال: فإن طالت بك حياة لترين الظَّعينَة – المرأة المسافرة - ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله.

قال عدي: فقلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعّار طيئ (يعني لصوصها) الذين قد سعروا في البلاد؟

ثم أكمل رسول الله ﷺ حديثه بقوله: «ولئن طالت بك حياة لتُفتَحن كنوز كسرى».

فقال عدي: كسرى بن هرمز؟!

قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه»[1].

وقد تحقق ذلك ورآه عدي بن حاتم رضي الله عنه في حياته فقال: فرأيت الظعينة ترتحل من

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٥)، ومسلم (١٠١٦).

الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم الحياة، لترون ما قال أبو القاسم ﷺ.

وفي موقف آخر وهو مستضعَف في مكة كان يعلِّم أصحابه التفاؤل ويَعِدُهم بالمستقبل المشرق.

عن خباب بن الأرت ﷺ قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا، فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها فيُجَاء بالمنشار فيُوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله لَيَتِمَّن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[1].

وقد مرت السنون، وسار الراكب من صنعاء آمنًا لا يخاف إلا الله في طريقه والذئب على غنمه، مثلما قال محمد ﷺ: منِ اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وذيوع الأمن فيها الصادر عن شيوع العدل والأمان، ووحدة الدولة وسلطتها الممتدة.

وفي مقابل اعتنائه بتعليم أتباعه التفاؤل كان محمد ﷺ يكافح كل نظرة تشاؤمية لا ترى في الناس أملاً لصلاح؛ فنبه أصحابه إلى هذا السلوك حين قال لهم: «إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم»[2].

وحين يمرض بعض الأعراب فيعوده ﷺ قائلاً: «لا بأس طهور إن شاء الله»، فيُجيب الأعرابي: قلتَ طهور؟ كلا، بل هي حمى تفور أو تثور على شيخ كبير تُزيرُه القبورَ، فقال النبي ﷺ: «فنعم إذًا»[3].

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٦).

•• اعتدال محمد ﷺ:

أبرز ما يتمثل الاعتدال لدى محمد ﷺ في الشريعة التي جاء بها ودعا إليها.

فمن تأمل أحكام الشريعة، والعقائد التي دعا إليها محمد ﷺ في كل مجال من مجالات الحياة رأى الاعتدال فيها واضحًا، ورآها مجانبة للتطرف والغلو.

ويبدو ذلك في مجال الاعتقاد وأبوابه، وفي مجال التعامل مع الإنسان، فهي لا تراعي جانبًا وتُهمِل الآخر، إنما تتناول الإنسان من خلال مجالات شخصيته ومكوناته كافة فتُعنَى بصلته بربه، وبعقله، وبجسمه، وتواصله مع الآخرين.

تُعنَى بالإنسان بوصفه فردًا و باعتباره عضوًا في المجتمع، فلا تنحاز للفرد على حساب مصالح المجتمع، ولا تلغي شخصية الفرد لأجل مصالح المجتمع.

كما يتمثل الاعتدال في سماته وشخصيته ﷺ، فلم يعرف لديه سمة من سمات التطرف والغلو.

كما أن سماته الإيجابية كانت بقدر الاعتدال: فقد كان محمد ﷺ حليمًا، لكن الحلم الذي لا يصل إلى الضعف، فحين يتطلَّب الأمرُ قوةً وشجاعةً كان كذلك.

وكان كريمًا سخيًّا، لكن الكرم والسخاء لا يقوده إلى التبذير والإسراف وكان حييًّا شديد الحياء، لكن الحياء لا يمنعه من الجرأة في تعليم الناس أمور دينهم مما يُستحيَا منه.

وهكذا سائر الخصائص والسمات.

وأخبر محمد ﷺ أن الله بعثه بدين وسط، دين تتجلى فيه السماحة والاعتدال، لذا فقد قال عنه: «بُعثْتُ بالحنيفية السمحة»[(١)].

وقد كان محمد ﷺ يدعو أصحابه إلى الاعتدال، ومجانبة الغلو والتطرف أيًا كان شأن هذا الغلو؛ لأن الناس في حرصهم على التقرب إلى الله قد يبالغون في العبادة، وقد يجانبون الاعتدال؛ فأمر ﷺ بالاعتدال والتوسط، وضرب لذلك مثلاً؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سدِّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢٩١).

فضرب لهم المثل بمن يرمي السهم على هدف معين؛ فعليه أن يجتهد في التسديد ولو قارب الهدف فلم يصبه، وهكذا الإنسان عليه أن يجتهد في الطاعة بالقدر الذي ورد في الشريعة، ولا يبالغ في ذلك.

وحين كان يعلِّم أصحابه أحكام الدين وشعائره كان يعرف أنه قد يوجد من أتباعه من قد يجنح إلى الغلو فيحذر من ذلك، ويؤكد عليه الالتزام بما جاء في الدين دون تكلف أو زيادة.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة، وهو على راحلته: هاتِ القُط لي، فلقط له حصيات، هي حصى الخذف، فلما وضعتهن في يده قال: «بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوُ في الدين»[1].

وحين سألوه عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله - تبارك وتعالى - أكَّد على مبدأ الاعتدال والقصد، وأمرهم بأن يأخذوا من الأعمال مايطيقون فِعلَه دون أن يشقُّوا على أنفسهم.

فعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: سُئِل النبي ﷺ: أيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ قال: «أدوَمها وإن قلَّ»، وقال: «اكلَفُوا من الأعمال ما تطيقون»[2].

ويذم محمد ﷺ أولئك الذين يبالغون في الدين ويتنطعون: إما بتحريم ما لم يحرِّمه الدين، أو بإيجاب ما لا يوجبه، أو بالتكلف والمغالاة في التطبيق على خلاف الشريعة.

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون؛ قالها ثلاثًا»[3].

وفي ممارسته العملية للعبادات كان يراعي القصدَ والاعتدال، ويتمثل ذلك في أهم شعيرة عملية تتكرر كل يوم مرات عديدة، ألا وهي الصلاة ومثلها الخطبة.

فعن جابر بن سمرة ﷺ قال: كنت أصلي مع رسول الله ﷺ فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا[4].

وظهر أثر هذه التربية التي اتبعها محمد ﷺ على أصحابه وأتباعه؛ فقد كانوا يفقهون

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

(٤) أخرجه مسلم (٨٦٦).

الدين، وما جاء فيه من اعتدال ووسطية.

نلحظ ذلك في موقف حصل بين رجلين من أصحابه، بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي- رضي الله عنهما-.

فعن أبي جحيفة ﷺ قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمانُ أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلَة؛ فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كُلْ. قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعطِ كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»[1].

كما يوجه محمد ﷺ أولئك الذين يتطوعون إلى الله بالصلاة من الليل ألا يشقوا على أنفسهم؛ فإذا قام أحدهم من الليل ليصلي، ورأى أنه مُجْهَد ومُتْعَب، فلْيَنَم حتى يأخذ راحته، فيصلي وهو مطمئن البال، ويقرأ القرآن وهو يعي ما يقرأ.

فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه، فلم يَدْرِ ما يقول فليضطجع»[2].

وعن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد، حتى يذهب عنه النوم؛ فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسبَّ نفسه»[3].

ورغم اعتناء محمد ﷺ بتعليم أمته الاعتدال والوسطية؛ فقد وقعت حالات وهي نادرة تجاوز فيها بعض أصحابه الوسطية، وجنحوا إلى مبالغة وغلو.

فحين علم محمد ﷺ بذلك بادر بعلاجه، وأخبر أن الدين قائم على الاعتدال والوسطية، وأن اجتهاد هؤلاء لم يكن في مكانه.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (٧٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦).

عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

ويتكرر الأمر مع عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- وكان شابًا نشيطًا حريصًا على العبادة، لكنه بالغ في ذلك فدعاه محمد ﷺ وحاوره.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله! ألم أُخْبَرْ أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم؛ فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزَوْرِك عليك حقًا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام؛ فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها؛ فإن ذلك صيام الدهر كله» قال عبد الله: فشددت فشُدِّد عليَّ.

قلت: يا رسول الله! إني أجد قوة. قال: «فصم صيام نبي الله داود - عليه السلام- ولا تزد عليه». قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: «نصف الدهر». فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ[2].

وعن بريدة الأسلمي ﷺ قال: خرجت ذات يوم لحاجة فإذا أنا بالنبي ﷺ يمشي بين يدي فأخذ بيدي، فانطلقنا نمشي جميعًا، فإذا نحن بين أيدينا برجل يصلي، يكثر السجود والركوع، فقال النبي: أتراه يُرَائي؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، فترك يده من يدي، ثم جمع بين يديه، فجعل يصوبهما ويرفعهما ويقول: «عليكم هديًا قاصدًا، عليكم هديًا قاصدًا، عليكم هديًا قاصدًا، فإن من يشادَّ هذا الدين يغلبه»[3].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: دخل النبي ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت فقال النبي ﷺ: «لا، حُلُّوه، ليُصلِّ

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٤٥٤).

أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد»[1].

وعن عائشة –رضي الله عنها– أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: من هذه؟ قالت: فلانة تذكر من صلاتها قال: «مَهْ عليكم بما تطيقون، فو الله لا يمل الله حتى تملوا»، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه[2].

ولنسأل أنفسنا لِمَ انزعجَ رسول الله ﷺ من هذا، وردَّ هذا الرد الحاسم، إنه يغلق باب التطرف وأشكاله كافة، حتى لو كان تطرفًا في العبادات، فهذا مخالف لمنهج الإسلام في الاعتدال والتوسط.

لقد علَّمهم أن الله – عز وجل – حينما شرع العبادات جعلها وسائل لتهذيب النفوس، واقترابها من ربها، ولم يجعلها تبتُّلاً ورهبانية وانقطاعًا عن العالم الحي، لقد أراد منا العبادة بالشرائع والتكاليف، وأراد منا أن نمارس حياتنا المادية والاجتماعية، ومن ينقطع عن إحداهما فهو مجانب للصواب، ولئن فعل أولئك النفر الثلاثة ما ودوا فِعْله واقتدى بفعلهم الناسُ، وظنوا أنه الصواب فمَن حينئذ يُصلِح الكون، ومن يُعبِّد هذا الكون لله، وما مهمة المسلمين حينئذ إن تركوا الدنيا وتفرغوا في الصوامع؟!

وسبب آخر:

إلى متى يستطيع الإنسان أن يكمل هذا الطريق؟! أليس الجسم بحاجة إلى الطعام والشراب، وبحاجة إلى النوم والراحة، أليس الرجل بحاجة إلى المرأة ليسكن إليها؟!

إلى متى يستطيع المتطرف أن يتحمل؟ إنه لن يكمل الطريق؛ لأن الطبيعة البشرية تمنعه، ستُلِحّ عليه وستطالبه بتأدية مطالبه، وتحققها رغمًا عنه، وسيشعر بالألم حينها، وربما يقع في الإثم فعلاً؛ لأنه عندما حرَّم بعضُ الناس على أنفسهم الزواج تعبدًا ورهبانية ظهرت بينهم موبقات كثيرة، فالجسد لن يتحمل حتمًا ما هو ضد فطرته.

الخطورة الأكبر أن هذا المتطرف إذا ما قُدِّر له وتخلى عن تطرفه يومًا سيتخلى عنه كلياً وقد لا يعود إلى الاعتدال بحال، بل سيعود إلى التطرف المعاكس، ولهذا حسم النبي ﷺ هذا الأمر الذي ظنَّه بعض الناس زيادة، ولكنه نقصان، وأيُّ نقصان.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٤١).

•• اعتدال في مجالات الحياة:

والاعتدال الذي دعا إليه محمد ﷺ ليس قاصرًا على أمور العبادة وصلة العبد بربه فحسب، بل نجد أنه ﷺ يؤكد على هذا المعنى في توجيه الإنسان في حياته الشخصية، في مجال الطعام والشراب.

فعن المقدام بن معدي كرب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم أُكلات يُقمن صُلْبه، فإن كان لا محالة: فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثُلُث لنفَسه»[1].

وقد أكد القرآن الكريم الاعتدال في الطعام والشراب، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

وفي دعاء محمد ﷺ لربه ما يؤكد على هذا الاعتدال في أمور الحياة كلها.

يروي لنا صاحبه عمار بن ياسر - رضي الله عنهما - دعاءً كان يدعو به ﷺ وفيه: «اللهم أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى»[2].

فهو في هذا الدعاء يسأل ربه أن يرزقه مخافته والتزام أمره حين يراه الناس وحين يخلو بنفسه، ويسأله أن يقول كلمة الحق دومًا في حال الرضا وفي حال الغضب، وأن يكون مقتصدًا معتدلاً في إنفاقه في حال الفقر وحال الغنى.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٣٥)، والترمذي (٢٣٨٠) واللفظ له، و ابن ماجه (٣٣٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨٥٩)، والنسائي (١٣٠٥) واللفظ له.

•• العزيمة والطموح في شخصيته ﷺ :

الناجحون في حياتهم يعتمدون بالأساس على صفتين محوريتين لنجاحهم، هما: العلم والإرادة، وعلى أساس هاتين الصفتين تتفاوت مقامات الناس ومنازلهم.

فمنهم من هو قليل العلم، ضعيف الإرادة، وهؤلاء هم أقل الناس قدرًا. ومنهم من لديه علم، ولكنه ضعيف الإرادة والعزيمة، فهذا سيظل محبوسًا في سجن ذاته، غير مستغِلّ لقدراته وإمكاناته. ومن الناس من هو ضعيف العلم لكنه كثير المجهود، فهو يتخبط بجهده غير مستوضح هدفه ولا سبيله. وأما كمال مقامات الناس فهي إنما تتحقق بالعلم والعزيمة عندما يجتمعان.

إن اتصاف المرء بالعزيمة والطموح في ضوء نور معرفته لهدفه وسبيله هو أقوى ما يمكن أن يتصف به فاعل ومؤثر؛ فالعزيمة تدفع وتقوي، والطموح يبشّر ويجذب نحو الهدف المعلوم.

كثير من المتساقطين في سبيل الحياة إنما يعود سبب سقوطهم إلى ضعف عزائمهم؛ لأن معوقات الحياة كثيرة، وهي أكثر لمن أراد التغيير، فإذا كان سير الإنسان ضعيفاً، وقوته ضعيفة، وهمته ضعيفة؛ فهو يكون عندئذ نهباً مستباحاً لذئاب العالم وقاطعي الطريق.

وقد أدرك محمد ﷺ هذا المفهوم، ومن ثم انطلق في حياته من عزيمة لا تعرف الكَلل، وعمل على تقوية العزائم في نفوس أصحابه وأمته، وحاول جاهدًا أن يجعل لهم طموحًا متدرجًا نحو معالي الأمور، وكان كثيرًا ما يقول في صلاته يدعو: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة على الرشد»[1].

ويسأل ربه أن يثبته على ما تحقق من إنجاز، وأن يعطيه العزيمة على إكمال السبيل، سائلاً ربه أن تكون عزيمة رشيدة نافعة حكيمة عليمة.

•• بناء الإرادة :

حرص محمد ﷺ على بناء نفوس أمته من جديد، على أن تكون نفوسًا قوية أبية، تملؤها الإرادة، ولا يفتّ فيها الألم، ولا تتأثر بكثرة الضعفاء من حولها، ولا بكثرة الأعداء حولها، ومع هذا الموقف الذي يجلّي ذلك:

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٦٨٣) والترمذي (٣٤٠٧).

أُوذي المسلمون في غزوة أحد - الغزوة الثانية التي لقي فيها محمد ﷺ أعداءه - وجُرح النبي ﷺ وقُتل عمه حمزة، وآخرون ممن كان يحبهم، ومثَّل أعداؤه بجُثث أصحابه وأحبابه، وجُرح هو جروحًا متكاثرة، وألمَّ الألم والحزن بجميع أصحابه؛ فمنهم من قُتل، ومنهم من جُرح، ولا يزال جرحه ينزف دمًا، ثم تنزل آيات القرآن على محمد ﷺ يقرؤها على أصحابه وهي تقول: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، فلا ينبغي عليكم أن تهنوا أو تحزنوا؛ فيُقعِدُكم الوهنُ أو الحزنُ عن سبيلكم الذي اخترتموه وهدفكم الذي سعيتم إليه.

وبالفعل: فقد دفن المسلمون أحزانهم في قلوبهم، ولم يستسلموا لمصابهم الذي حلَّ بهم.

حيث إن أشد أعداء المرء هو انهزامه النفسي، وضعفه الداخلي، وعدم قدرته على تحمل الألم، فيُصاب عندئذ بالنكوص والقعود؛ لذا فقد اهتمَّ محمد ﷺ - رغم ألمه و ألم رجاله - أن يُعيد إليهم توازنهم النفسي والقلبي، ويخلِّصهم من أية آثار لما يمكن أن يكون انهزامية داخلية.

وعندئذ رأى محمد ﷺ أن يعيد تنظيم رجاله على عَجَل، وأن يتحامل الجريح مع السليم على تكوين الجيش من جديد، ليخرجوا في أعقاب عدوهم ويطاردوهم، ويمنعوهم مما قد يجدون في نفوسهم من تكرار عدوانهم عليهم.

وقد رأى عندها زعيم قريش أن يرسل الرعب والخوف في قلوب أصحاب محمد ﷺ ليُعَمِّق عندهم شعورَهم بالانهزام، ويستغل كونهم جرحى وقتلى، فأرسل رجالاً إليهم يخبرونهم أن قبائل العرب أجمع قد اجتمعت مع قريش ليستأصلوا شأفتهم، وأنهم في الطريق إليهم.

بيدَ أن محمدًا ﷺ - وهو في تلك الحالة - قَبِلَ التحدي، وترك أرض أُحد ولحق بقريش، وجمع أصحابه في مكان يسمى بـ«حمراء الأسد» ثلاث ليالٍ كاملة، يرفعون فيها الرايات ويستعدون للقاء عدوهم، ويعلنون صلابتهم وعزيمتهم، حتى نزلت الآيات الكريمات وقرأها محمد ﷺ على أصحابه، ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٢ - ١٧٣) ..

لقد كان من أعظم مكاسب ذلك الموقف أن استردَّ المسلمون عزيمتهم وقوتهم النفسية، وتخلصوا سريعًا من آثار الهزيمة، وانطلقوا من جديد نحو مسيرتهم.

•• عزيمة في القلب:

العزيمة عمل قلبي بالأساس، وإذا فقد القلب عزمه خارتْ قوى الجسد مهما كان قويًّا، وقد تكون قوة الأعضاء متواضعة، ولكن تقوّيها عزيمة القلب، وتصلّبها إرادته، ويدعمها طموحه.

ومن هنا كان محمد ﷺ يركّز في توجيهه لأصحابه نحو بناء العزيمة في نفوسهم، وإن قلوبهم هي صاحبة القول النهائي في ذلك، وأنه لا بد من همة القلب قبل همة الأعضاء.

إنه في مواقف كثيرة، يخبرهم أن المرء قد يبلغ الدرجات العلى بهمة قلبه، حتى قبل أن تصل إليها جوارحه وأعضاء جسده، حيث يقول في حديثه: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة»[1].

وقال فيمن تجهّز للقاء عدوه، ثم أدركه الموت: «قد وقع أجره على قدر نيته»[2].

وقال في حق الذين تخلفوا عن صحبته لتأمين حدود الدولة الإسلامية - في غزوة تبوك - من الذين حبستهم الأعذار، «إن بالمدينة لرجالاً، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، حبسهم العذرُ»[3].

بل إن الأمر في تصوره ﷺ يفوق ذلك، إنه يسري حتى في العبادة بين الإنسان وربه؛ فيقول في حديث يبين مدى فضيلة هذه الدعوة: «ما من امرئ تكون له صلاة بليل، فغلبه عليها نوم إلا كُتب له أجر صلاته، وكان نومه صدقة عليه»[4].

بل قد يتفوق المؤمن الفقير بنيته الصادقة وهمته العالية على الغني كثير المال كما في قوله ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم»، قالوا: يا رسول الله! كيف يسبق درهم مائة ألف؟ قال: «رجل كان له درهمان، فأخذ أحدهما، فتصدق به، وآخر له مال كثير، فأخذ من عرْضها مائة ألف»[5]؛ فكأن محمدًا ﷺ هنا يبين أن الطريق إلى الله إنما يُقطَع بقوة العزيمة، والطموح والنية الصادقة، وأن عملاً قليلاً قد يصل صاحبه بعزمه ونيته إلى أضعاف مضاعفة مما يقطعه قليل العزيمة ضعيف النية.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (٣٠).

(٢) أخرجه مالك (٥٥٢)، وأحمد (٢٣٢٣٩)، وأبو داود (٣١١١)، والنسائي (١٨٤٦)، وابن ماجه (٢٨٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٢٣)، ومسلم (١٩١١) واللفظ له.

(٤) أخرجه أبو داود (١٣١٤)، والنسائي (١٧٨٤).

(٥) أخرجه أحمد (٨٧١٠)، والنسائي (٢٥٢٨).

إنه يُعلِمهم أن إرادة المرء تُذهب مشقة الطريق، كما يعلّمهم أن ضعف العزائم من ضعف حياة القلوب، وأن القلوب كلما كانت أتم حياة، كانت أكثر همة وعزيمة، وكما أن عزيمة القلب هي دليل على حياته، فإنها في الوقت ذاته سبب إلى حصول حياة أكمل وأطيب، فإن الحياة الطيبة إنما تُنال بالهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة، فعلى قدر ذلك تكون الحياة الطيبة، وأخسّ الناس حياةً أخسُّهم همة، وأضعفهم محبة وطموحًا [1].

•• عزيمة ربانية:

إن الذين يربطون جهدهم بتحقيق إنجازات محدودة فحسب يصيبهم الخور كثيرًا، ففي كل فترة يحتاجون إلى بداية عزم جديد، وقد تتكسر منهم عزائمهم، وتسكن إرادتهم بعد حدوث إنجازاتهم المحدودة.

أما محمد ﷺ فقد تعمَّد أن يربط إرادات أمته وعزائمهم بربهم، فكان اعتمادهم عليه سبحانه هو مصدر قوتهم، وتوكلهم على قدرته هو المثبِّت لعزائمهم، فيقول في حديثه: «إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سَفْسَافَها» [2].

وهو ها هنا يربط بين ما يريد قوله، وبين معنى الآية القرآنية التي تشرح ذلك، فالآية تقول: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾(آل عمران: ١٥٩)، فهي تدعو دومًا إلى أن يكون العزم مرتبطًا بالتوكل على الله سبحانه، ومعتمدًا عليه، بل إنها تدعو كل إنسان إلى أن يبذل كل ما في وسعه، ثم بعدئذ يُلقي أمرَه إلى ربه، ويتوكل عليه.

وفي آية قرآنية أخرى يضرب القرآن مثالاً في الصدق النموذجي بالرجال المؤمنين الذين ضحوا بأغلى ما يملكون ابتغاء مرضات ربهم: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾(الأحزاب: ٢٣). فهُم قد ربطوا عزائمهم وأعمالهم بعَهْد قطعوه على أنفسهم مع ربهم وخالقهم جل وعلا.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٩٤٥

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٠٥٦٩)، والطبراني في المعجم الكبير(٢٨٩٤)، و في المعجم الأوسط (٢٩٤٠)، وأبو سعيد الشاشي في مسنده (٢٠)، والقضاعي في مسند (١٠٧٦)

•• عـزيمة لا تَنقض :

حرص محمد ﷺ في تربيته لأصحابه أن يعلِّمهم أن عزائم الكبار لا ينبغي أن تُنقَض أو تنكسر، ولا ينبغي أن تتخاذل أو تتراجع، فعلَّمهم الوفاء بالوعد الذي عاهدوا أنفسهم عليه، وإنفاذ القرار إذا تشاوروا فيه، وحسم السير في السبيل مهما عاقتهم العوائق، فلا تردُّد ولا نكوصَ، ولا تراجعَ.

وقد جاءت الآيات القرآنية متكاثرة حول التأكيد على الوفاء بالعهد و عدم نقض العزائم، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ (الرعد: ٢٠)، والميثاق هو العقد الذي عقده الإنسان على نفسه موثَّقًا أكيدًا.

ولما أشار الشباب على محمد ﷺ قبل غزوة أحد – بالخروج إلى المشركين ومقاتلتهم خارج المدينة، نزل ﷺ على رأيهم، وبعد أن صلى دخل إلى منزله، فأخذ سلاحه، فظاهر بين درعين، وكان ذوو الرأي منهم قد ندموا حين شعروا أنهم استكرهوا الرسول ﷺ على اتباع خطة لمقاتلة العدو كان ﷺ يفضِّل غيرها، فقالوا له:

ما كان لنا أن نخالفك، ولا نستكرهك على الخروج، فاصنع ما شئتَ، امكثْ كما أمرتنا.

فلم يرضَ أن يَنْقُض همته، وقال لهم مصممًا على الخروج: «ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأْمَتَه – أي: كامل سلاحه – أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»[1].

•• لا يضرك السير وحدك :

كان محمد ﷺ يعلِّم أصحابه درسًا آخر في العزائم والطموح، هذا الدرس معناه أن يلزموا طريق رسالتهم ولا يعبؤوا بقلة الأنصار، ولا يخشوا كثرة المخالفين، فأصحاب العزائم قد رقت أنفسهم؛ بحيث صاروا لا يَأْبَهُون بقلة الأتباع، ووحشة الطريق.

والآيات القرآنية تدل على أن المرء وحده – وهو على الحق – يمكن أن يساوي أمة كاملة، كما قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ (النحل: ١٢٠)، يعني كان مؤمنًا وحده[2]، وقد قال لزوجته ذات مرة:

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٣٧٣)، والدارمي (٢١٥٩).

(٢) مجمع الفتاوى ١١/٤٣٦.

«يا سارة! ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك»[1].

ولعل محمدًا ﷺ يستأنس بموقف إبراهيم عليه السلام، وكلما استوحش في تفرُّده نظر إلى الرفيق السابق له، وحرص على اللحاق به.

وقد سرى في أصحابه هذا الشعور، فبينما صاحبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع رجلاً يقول: «اللهم اجعلني من الأقلين»، قال له عمر: «يا عبد الله، وما الأقلون؟»، قال سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(هود: ٤٠)، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(سبأ:١٣)، فقال عمر: صدقت[2].

كما كان محمد ﷺ يعلِّمهم مفهومًا آخر يتعلق بذلك، وهو أن القلة المؤمنة هي القلة التي ستصبر حتى النهاية، وأن القائد لا ينبغي أن يغتر بالكثرة حتى لو كانوا معه في بداية الطريق، وإنما عليه أن يختبرهم، فمن كانت عزيمته أقوى كان هو الأحق بالاستمرار والسير، ومن كان ضعيف العزيمة مستجيبًا للمغريات، غير صابر على الآلام؛ فهو الأقل حظًا في اللحاق بالركب.

وقد قصَّ القرآن الكريم قصة بالغة الدلالة في هذا المعنى عن الملك طالوت ونبي الله داود عليه السلام، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾(البقرة: ٢٤٩-٢٥١).

إنها قصة حكيمة قرأها محمد ﷺ على أصحابه؛ ليعلِّمهم منها أن الذين يستمرون في النهاية فيتحقق النصر على أيديهم هم أصحاب العزائم التي لا تخور، مهما كانوا قليلاً، وأن قلتهم ليست ضعفًا، ولكنها قد تزيدهم قوة إلى قوتهم؛ إذ إن المعركة معركة قلوب، وليست الكثرة دائمًا قوةً في ذاتها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

(٢) أخرجه الدينوري في المجالسة (١٨١٢).

•• إرادة القدوة:

لم يكن محمد ﷺ ليَبُثَّ مفهومًا مثل ذلك في أمته بغير أن يكون هو ذاته قدوةً فيه، بل كان يبتدئ بنفسه دومًا، ليكون سباقًا إليه، فلا يأمر إلا بما يفعل.

يحكي صاحبه البراء ﷺ مشهدًا رآه، فيقول: رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب، وقد وارى الترابُ بياضَ بطنه، وهو يقول:

لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينةً علينا وثبِّتِ الأقدام إن لاقينا

إن الأُلَى قد بَغَوْا علينا إذا أردوا فتنة أبينا [1]

كَمْ ترك هذا المشهد في نفوس أصحابه؟! إنه ينقل التراب على ظهره ويشاركهم المعاناة والتعب.

ويروي صاحبه أبو الدرداء ﷺ موقفًا آخر فيقول: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرّ شديد، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله، وعبد الله بن رواحة»[2].

كما يروي خادمه أنس بن مالك ﷺ فيقول: لقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناسٌ قِبَل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرسٍ عَرِيّ، في عنقه السيف، وهو يقول: لم تُرَاعوا، لم تُرَاعوا» [3].

فهذه الروايات تبيِّن كيف كان محمد ﷺ يبدأ بنفسه المبادرة، ويضعها موضع القدوة دومًا، ولا يطلب من أمته شيئًا قبل أن يفعله، حتى في أشد المواقف، فقد كان العدو يوشك أن يداهمهم، فانخرط معهم ﷺ، ولما فزعوا من صوت شديد، وخرجوا يستعجلون الأمر؛ تلقاهم ﷺ عائدًا وقد ركب فرسًا بغير سرج – على عَجَل وسرعة – يهدِّئ روْعهم، ويزيل خوفهم ويقول لهم: لم تراعوا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣٧)، ومسلم (١٨٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٤٥)، ومسلم (١١٢٢) واللفظ له

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٠٨)، ومسلم (٢٣٠٧)

منهج يربّي العزيمة والطموح:

لقد أنزل القرآن على محمد ﷺ يثني على أصحاب الهمم والعزائم العالية، وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلون، وجعل أعلاهم مقامًا من أسماهم «أولي العزم من الرسل»، فقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥). وقد بيَّن سبب كونهم أهل العزم، وهو أنهم صبروا وثابروا، ودافعوا عن قضيتهم وظلوا مستمسكين بمبادئهم، شأنهم شأن الأنبياء الآخرين، غير أنهم زادوا عليهم أن آلامهم كانت أكثر، وابتلاءاتهم كانت أشد، وأن مواقفهم كانت أصلب، وعَدّ القرآن في مقدمتهم: (نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا عليهم السلام).

كما قصَّ القرآن مواقف ذوي الهمم والعزائم العالية من أتباع الأنبياء، كما في موقف الرجلين الصالحين مع موسى - عليه السلام - اللذين حثَّا بني إسرائيل على دخول الأرض المقدسة فقالا كما حكاه القرآن الكريم: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٢٣).

كما قص قصة رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، وكيف أنه بعزيمته نصح موسى، ووقف معه وقفة ثابتة، بعزيمة راسخة، وراح يعظ آل فرعون ويُنذرهم، وقد أورد القرآن جانبًا من حديثه، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (غافر: ٣٨ - ٤٥).

كذلك فقد أمر المؤمنين بالهمة العالية والتنافس في الخيرات، فقال تعالى:
﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢١).

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

وقال أيضًا: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ (البقرة: ١٤٨).

وقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (الذاريات: ٥٠).

وقال: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ (الصافات: ٦١).

وقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦).

وامتدح المقربين منه بأنهم: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٦١).

وقال تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (النساء: ٩٥).

اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل:

إنه دعاء كان محمد ﷺ يُكثر أن يدعو به، وينصح به أصحابه، فبينما هو في يوم من الأيام يدخل المسجد، إذ وجد صاحبًا من أصحابه مهمومًا محزونًا كسيرًا، وإذا به يقول له: «ألا أدلك على كلمات إن قلتهن ذهب عنك همك وقضى الله عنك دينك؟» قال: قل يا رسول الله! فقال: قل: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من الجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»[1].

وكان خادمه أنس يقول: إنه كان كثيرًا ما يدعو بهن.

والمتأمل في هذا الدعاء بالخصوص يجده يعدُّ عجز المرء (وهو عدم قدرته على الأداء)، وكسلَ المرء (وهو تباطؤه وتوانيه في الأداء)، وهمَّه وحزنَه، اللذين يُقعِدانه عن الإنجازات والأعمال، وجبنَه وبخلَه وهرمَه التي يَمنعه من اللحاق بأصحاب المراتب العالية؛ تجده يعدُّ كل ذلك شيئًا ينبغي على المؤمن أن يتعوذ منه، وأن يتنصَّل منه، وأن يتبرأ منه، وأن يدعو ربه دومًا أن يباعد بينه وبينه؛ إذ المؤمن دومًا فعّال طموح مُؤثِّر مُنجز.

لقد بذل محمد ﷺ جهده في أن تظل عزيمته فعالة حية مؤثرة، واستعان بربه في كل أمر خارج عن قدرته، واستعاذ منه مما يمكن أن يصيبه مما يؤثر في عزمه أو يضعف طموحه.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥٥) وبسياق آخر عند البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦).

•• الطـموح :

لقد كان محمد ﷺ دومًا يربط الطموح بالعزائم، ويعلم أمته أن يتسموا بالطموح ويتصفوا به، وكان كثيرًا ما يقرأ هذه الآية: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾(الفرقان: ٧٤)، إنها إمامة لا يقتصر طموحها على حدود الدنيا وحسب، بل إنها تتعداه إلى الخلود في جنات الآخرة.

إن هذا الطموح لم يكن طموحًا في الظهور ومراءاة للناس، ولكنه كان طموحًا في التأثير والتعمير والإصلاح، والمسابقة في التقرب إلى الله، فقد بيَّن أن أكمل حالات المؤمن أن يكون همه الاستعداد للآخرة، فقال ﷺ: «من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له» [(١)].

وهو بهذا لا ينهاهم عن الكسب الدنيوي وتحصيل المتاع المباح؛ بل هو يأمر بذلك ويؤكد عليه ويوجبه، لكنه ينهى الناس أن تكون الدنيا هي كل شيء في حياتهم.

وعلَّم محمد ﷺ أمته المبادرة والمسابقة إلى الأعمال الصالحة؛ فيقول ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه، لاستهموا. ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه. ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً»[(٢)].

وقوله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارقَ، ورتِّل، كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها» [(٣)].

وحث الذين لا يجيدون قراءة القرآن على قراءته وأخبر أنهم يؤجرون على ذلك فقال: «مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران»[(٤)].

وحذَّر من تعُمد التباطؤ عن المسابقة إلى الطاعات، كما في قوله ﷺ: «احضروا

---

(١) أخرجه الترمذي [illegible] (٢٢٩).

الذكر، وادنوا من الإمام، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى يُؤخَّر في الجنة وإن دخلها»[1].

كما علّم أمته الطموح في الدعاء: فأمر أن يسأل الداعي ربه بعظائم الأمور وأكابرها، ولا يستكثر شيئًا على ربه: فقال: «إذا سأل أحدكم فليُكثِر، فإنما يسأل ربه»[2].

وفي لفظ آخر: «إذا تمنى أحدكم فليستكثر، فإنما يسأل ربه عز وجل»[3].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة»[4].

وأنكر محمد ﷺ على من تضاءلت همته، وتواضعت طموحاته؛ فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد ضعُف، فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله إياه؟»، قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجِّله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله لا تطيقه، أو: لا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»، قال: فدعا الله له، فشفاه[5].

وعن ربيعة بن كعب ﷺ قال: كنت أخدم النبي ﷺ نهاري، فإذا كان الليل آويت إلى باب رسول الله ﷺ، فبتُّ عنده، فلا أزال أسمعه يقول: «سبحان الله، سبحان الله، سبحان ربي»، حتى أملَّ، أو تغلبني عيني فأنام، فقال يومًا: «يا ربيعة! سلني فأعطيك». فقلت: أنظرني حتى أنظر، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة، فقلت: يا رسول الله! أسألك أن تدعو لي أن ينجيني من النار، ويدخلني الجنة، فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: «من أمرك بهذا؟»، قلت: ما أمرني به أحد، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه، فأحببت أن تدعو الله لي، قال: «إني فاعل،

---

(١) أخرجه أبو داود (١١٠٨).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحة (٨٨٩).

(٣) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (١٤٩٦)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢٠٤٠)، وابن أبي شيبة في مصنفة (٢٩٣٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

(٥) أخرجه ومسلم (٢٦٨٨).

فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود»[1].

إن أثر هذه التربية والتوجيه على أصحابه وأتباعه لا يقف عند مجرد التطبيقات المباشرة التي اتصل بها النص، بل يمتد ليوجد نفوسًا ذات عزيمة وطموح، وذات همة عالية في حياتها كلها: في حياة الفرد في نفسه، ومع أسرته، ومع مجتمعه.

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩).

•• وعي محمد ﷺ :

الوعي كلمة تُعبِّر عن حالة عقلية ونفسية يكون فيها المرء بحالة إدراك لذاته ولمحيطه الخارجي، ويتعلق بذلك إدراك الأحوال المعاصرة، والعوامل المؤثرة في المجتمعات، والقوى المهيمنة على العالم، والأفكار المنتشرة، وتصور السبل للعيش من خلال ذلك، وكيفية تحقيق مشروعه ورسالته في ضوء كل تلك المعطيات.

وهذا الذي ذكرناه من معنى الوعي نستطيع أن نقول: إن محمدًا ﷺ كان يتصف به ويحيط به ويدركه، فقد أحاط محمد ﷺ بمعرفة ذاته البشرية تمام المعرفة بقُدُراتها وصفات قوتها وضعفها، وعلم التكوين البشري من حوله ومشكلات البشر، والقوى الفاعلة والمؤثرة في العالم الذي يحيط به، واستخدم كل ذلك في البحث عن أفضل السُّبُل لرعاية أمته ومصالحها، ودفع المفاسد والأضرار عنها، وبناء حاضرها ورسم مستقبلها.

وعلى الرغم من صعوبة الأجواء التي نشأت فيها دعوته وقسوتها، إلا أنه كان مدركًا لكل ما يحيط بها، وعالمًا بالمرحلية التي يمر بها في كل خطوة من خطواته، فلم نره يومًا مغامرًا طائشًا يندم على سلوكٍ تعجَّل فيه، ولم نره يومًا مستكينًا مترددًا حائرًا كأنه يمكّن أعداءه منه لإفنائه والقضاء عليه، بل كان محركًا للأحداث أجمعها، مستفيدًا من أخطاء أعدائه، وصاحب تصورات جديدة في الإدارة والتنظيم والتخطيط.

وعلى الرغم من قلة عدد رجاله الذين بدأ بهم دعوته، وضآلة عُدَّتهم مقارنة بعدد عدوه وعُدّته؛ إلا أنه لم يضع نفسه يومًا موضع المباغَت في موقف من المواقف، بل كان هو الذي يمسك بأطراف الواقع من حوله وبنى منظومة الأمن والنصر لهذه القلة من أصحابه.

لقد كان حليمًا حكيمًا، يُكثر الاستماع والتفهم والإدراك، ذكيًّا عبقريًّا، يُحسن التفسير والاستيعاب، فيضم المعلومة الصغيرة بجانب أختها حتى تتّضح له معالم خفية، وتستبين له رؤى مستترة.

•• وعي القائد :

الوعي صفة لازمة لكل قائد، والقائد فاقد الوعي يكون دومًا عُرْضَة للمؤامرات والانقلابات، وبلاده عُرضة للاحتلال والاستغلال، وكم سمعنا بقادة أفنوا جيوشهم، ودخلوا حروبًا خاسرة، أنهت وجودهم وأضعفت أممهم، وكم سمعنا بقادة تخاذلوا وجبنوا عن حروب لو ثبتوا فيها لكان النصر فيها حليفًا لهم.

إن القيادة فنّ لا يحسنه كل أحد، إنها تتطلب الموهبة الفطرية والصفات الخاصة مع العلم والتجربة والمثابرة والقدرة، ثم يضاف إلى ذلك الوعي بالذات وبما يحيط، والقدرة على التأثير في الواقع والناس، وتوجيه القدرات والإمكانات لنَيْل أعلى ما يمكن من النصر والإنجاز.

ووعي محمد ﷺ القائد هنا يتمثل في محاور كثيرة، من أهمها: وضوح هدفه في كل خطوة من خطواته، فكان يعلم أنه نبيّ وأنه صاحب رسالة، وأنه يحمل أمانة، ولم يكن ليفرِّط في ذلك في لحظة من اللحظات.

كما لم يكن قط يسير مع دعوات التنازل فيما يخص العقيدة والأهداف، حتى عندما يكون في ذلك التنازل مصلحة مظنونة؛ فالعقيدة هي محور دعوته، وتوحيد العبودية لربه هو مقتضى رسالته، ولذلك لما دعاه أعداؤه القرشيون إلى أن يعبدوا الله ربه عامًا، بشرط أن يعبد هو ما يدعون من آلهة وأوثان عامًا آخر، قرأ عليهم ما أنزل عليه من آي القرآن: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون: ١ – ٦).

كذلك فقد اتصف محمد ﷺ بوعي تام فيما يخصّ المعرفة الدقيقة والشاملة بقوة فريقه الذاتية، من حيث العدد والعُدّة، والإمكانات والظروف، ومدى طاقتهم وقدراتهم، حتى لا يبني خطته في لحظة من اللحظات على معطيات خاطئة أو ناقصة فيتعرض للفشل.

كما وعى الأخطار التي يُنتظر أن تواجهه، والعقبات التي ربما تعترض سبيله، ومن ثم أعدَّ لها ما يناسبها من خطط.

كما كان يراعي ما يمكننا أن نسميه المرونة، والخطة البديلة؛ تحسبًا لاختلاف الظروف وحتى لا يصدم بالمواقف ويفاجأ بالعقبات، وامتاز بتمكين فكرة المرحلية في

تحقيق الأهداف، فما هو مطلوب حتمًا قد لا يكون حضر وقته، فمن الممكن تأجيل بعض الأهداف لضرورة الحصول على هدف عاجل قد وجب.

•• الهجرة إلى الحبشة نموذج ليقظة الوعي :

تمثّل الهجرة إلى الحبشة نموذجًا للوعي عند محمد ﷺ، فعندما اشتد التضييق والإيذاء على أصحابه من أعدائهم في بداية دعوته، وهم قِلّة مستضعفون؛ خشي عليهم وعلى الدعوة الوليدة، ففكَّر في حلّ لذلك الموقف المتأزم، فمن الممكن أن يتعرضوا لإبادة جماعية وهم قلة، فجاءت خطة الهجرة إلى الحبشة.

وهنا لا بد أن نعرف السبب الحقيقي لتلك الهجرة، فلم يكن السبب التخلص من الإيذاء فحسب، ولكن الأمر كان أبعد من ذلك وأعمق، وإلا لهاجر الضعفاء والعبيد، كأمثال بلال وخباب وصهيب وعمار وغيرهم من الأرقاء المستضعفين، ولكننا لو تأملنا في المهاجرين لوجدنا معظمهم من السادة من أبناء ما يعرف بالبيوت العريقة، ومعظمهم لم يكن يناله كثير تعذيب ولا ضرر؛ مقارنة بما يحدث للمستضعفين، فالمهاجرون أبناءٌ لسادة القوم، مثل: الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأبي سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وأبي طالب بن عبد المطلب، وسعيد بن العاص، وهؤلاء هم سادة قريش وصفوتها، ولهذا أوجعتهم وآلمتهم هذه الهجرة ابتداءً. ومن ثَمَّ كان اختيار المهاجرين وَفْق قاعدة معلومة ومحددة سلفًا وليس عملاً عشوائيًّا بحال.

وحرص محمد ﷺ على أن يشارك بأبنائه في الهجرة، فالقائد لا يُلقي بأتباعه في الأزمة ويخرج منها سالمًا، بل سافرت معهم ابنته رقية وزوجها عثمان بن عفان ﷺ.

ويرى بعض الكتاب المسلمين أن الهدف الأول من هجرة الحبشة هو إقامة قاعدة أخرى للدعوة في مكان غير مكة؛ تحسُّبًا لاحتمالية تعرُّض القاعدة الأولى له في مكة لخطر الاجتياح أو الإبادة.

ولهذا لم يرجع هذا الوفد بعد الهجرة إلى المدينة مباشرة؛ لأن الخطر كان لا يزال قائمًا، وإنما رجعوا بعدما تم صلح الحديبية، وبعد أن اطمأن القائد على دولته، وأنها ارتبطت بصلحٍ آمن مع أكبر أعدائها، وبعد تنامي قوتهم، فابتعد عنهم خطر الإبادة الجماعية؛ فعندئذ عاد الوفد.

●● وقد كان اختيار الحبشة بديلاً لمكة لأسباب:

أولاً: البُعد المكاني، فالحبشة في قارة أخرى، فمكة في آسيا، والحبشة في القرن الإفريقي، ويفصل بينهما البحر، أي: أنها بعيدة مكانيًا عن مكة، فلا سلطان لأهل مكة عليها، ولا يستطيعون إجبار مَلِكها على ردِّهم.

ثانيًا: أهل الحبشة نصارى، والنصرانية أقرب إلى الإسلام من الشرك، أي: أن هناك قاعدة مشتركة يمكن الالتقاء عندها، وأيضًا لكونهم نصارى فهم لا يذهبون إلى مكة للحج، فلا يمكن لأهل مكة أن ينالوا أحدًا منهم بشرٍ؛ بسبب قبولهم لوجود المسلمين عندهم أو إيوائهم.

ثالثًا: الحبشة نظام ملكيّ، لا يعترف بالقبيلة، ويعتقد في نفسه أنه أفضل من النظام القبلي وأرقى، ومن ثَمَّ لن يكون لأهل مكة التأثير عليه، وفي المقابل فالجزيرة كلها نظام قَبَلِيّ يخضع للنفوذ القبلي لأهل مكة.

رابعًا: عَدْل النجاشي ملك الحبشة، وهو الأهم والذي ذكره محمد ﷺ لأصحابه فقال لهم: «إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه»[1]، فالعدل هو أقصى ما تتمناه أية أقلية، فكان المكان مكان عدل بحق، ولم يُظلموا عند هذا الملك حتى عادوا.

لقد أعطتنا هذه الهجرة نموذجًا لكيفية تفكير محمد ﷺ ووعيه، وحرصه على دعوته، وبُعْده عن المغامرة والتعجل.

●● وعي في اختيار أول بناء:

قد يتحدث المؤرخون كثيرًا عن مراحل بناء الدول، وعناصر ذلك البناء، إلا أنهم غالبًا ما يُغفلون أهم عناصره؛ وهو الإنسان، الإنسان الذي تقوم على أساسه الأمم وتنهار، وهو الركن الفاعل في أيِّ حضارة تريد البقاء، وما من حضارة تهمل الإنسان إلا حملت في ذاتها مقدرات سقوطها وفشلها مهما تقدمت.

وهذا العنصر هو ما اختار محمد ﷺ أن يبدأ به. لقد بنى الإنسان، وعلى أساسه بنى دولته، واختار أن يبدأ إعداد ذلك الإنسان من داخل مدرسة ربانية؛ هي المسجد.

فبعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته، كان أول ما بدأ به بناء المسجد بوصفه أول

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٧٥١٢).

بناء في الدولة الإسلامية، وأول عمل قام به المسلمون في المدينة، يقول (أرنولد توينبي) في كتابه (قصة الحضارة): «لقد وُجدت مدنٌ وقرًى بلا حصون، وقرًى بلا جيوش، وقرًى بلا أماكن للتعليم، ولكن حتى الآن لم توجد قرًى بلا معابد أيًا كان ذلك المعبود!!».

والمسجد عند المسلمين يختلف جدًا عن غيره من المعابد عند غيرهم، وبالأحرى في عصر محمد ﷺ، فقد كان المسجد دارًا للعبادة يجتمع فيه المسلمون خمس مرات يوميًا، ويجتمع البعيد والقريب فيه مرة أسبوعيًا لصلاة الجمعة ليستمعوا لتعاليم دينهم، فتذوب الفروق بينهم وتتقارب أفكارهم، وتتحابّ أرواحهم، وخاصة أنهم كانوا فرقتين: فرقة أصحاب الأرض، وفرقة الوافدين عليها.

وكان المسجد دارًا للاستشفاء، فقد كان الصحابة يُعالَجون فيه، وتُنْصَب للمريض قبة يعالج فيها، كما حدث ذلك مع سعد بن معاذ رضي الله عنه.

وكان المسجد مؤسسة تعليمية للأفراد يتعلمون فيها العلم الديني النافع، وأيضًا العلم الدنيوي المتاح مثل :القراءة والكتابة وغيرها.

وفُتِح المجال للمرأة لتشهد دروس العلم؛ ليتأكد حق المرأة في تحصيل العلم، ومشاركة الرجل في الحياة، وقد أُعجبت عائشة زوج محمد ﷺ بإقبال الأنصاريات على العلم فقالت: «نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء من أن يتفقهن في الدين»[1].

وكان المسجد مجلسًا للشورى، يجتمع فيه أهل الشورى لتقرير مصير المواقف الصعبة فيما جدَّ من أحداث، كما كان المسجد مبيتًا لفقراء المسلمين الذين لا يجدون مكانًا للمبيت.

فبذلك حرص محمد ﷺ على ربط المسلمين بمكان يجمعهم دائمًا، فيصعب أن يَشرد منهم أحد، لقد كان المسجد في حياة محمد ﷺ وبعده مكانًا يُبْنَى فيه الإنسان علمًا وعملاً، وفقهًا وحبًا، ورغبةً وتعاونًا وتكافلاً.

•• وعي في بناء لبنات المجتمع :

كانت المدينة عند الهجرة قليلة الموارد، يعيش أغلب أهلها على زراعة النخيل، وبعضهم كان يعمل بالتجارة، وبعد الهجرة وفد عليها أضعاف عدد سكانها ليقيموا مع أهلها بصورة دائمة.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٣٢).

أيّ مدينة لا تتحمل أضعاف عددها كمهاجرين، ومن الممكن أن تنشأ بينهم المشكلات الكثيرة؛ لضيق الموارد، ولمزاحمة الوافدين لأهل البلد في أرزاقهم، فكان لا بد من بناء اجتماعي مُحْكَم؛ لتلافي هذه المشكلات، وكان لا بد على القائد أن يعي هذا الأمر، ويضع حلاً للمشكلة قبل حدوثها، وهذا من فطنة القائد ووعيه، فلا يمكن أن يدفن رأسه في الرمال وينتظر وقوع المشكلة، وبعدها يحاول حلّها.

ابتكر محمد ﷺ نظامًا اجتماعيًا فذًا ما سُبِقَ إليه، يحتوي تلك الأزمة الاقتصادية الاجتماعية، بل ويدعم البناء النفسي لعملية العِقْد الاجتماعي في دولته، هذا النظام الذي نقصده هو نظام (المؤاخاة).

ويعني هذا النظام: أن كل أنصاري من أصحاب الأرض يُؤاخي رجلاً من المهاجرين؛ ويقيمان معًا كما يفعل الأخ مع أخيه الشقيق، فتقوم بينها العلاقة المادية والمعنوية، كما الأخوين الشقيقين تمامًا، وحتى الميراث بينهما كان يُعطَى كل أخ من مال أخيه إذا مات، ثم نُسخ التوارث بينهما بعد فترة، بعد استقرار الأمر واتساع الموارد.

بهذا النظام لم يكن هناك أيّ مسلم لا يعرف له أخًا، فكان بيتهما واحدًا، وعملهما واحدًا.

وقد ظهرت نجاحات عدة لهذا النظام الذي أقره محمد ﷺ، فكان المهاجري يسعى بجهده لئلا يُكلِّف أخاه الأنصاري فوق طاقته، فيعمل بكدّ وتعب وجدّ واجتهاد: كي لا يكون عالةً على أخيه، وكان الأنصاري يسعى بكل جهده لكي يُحسِن ضيافة أخيه، ويكرمه حتى ولو على حساب نفسه.

وفي قصة مشهورة عرض سعد بن الربيع الأنصاري نصف ماله ليأخذه أخوه المهاجري عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما.

ورفض عبد الرحمن بن عوف ﷺ ذلك العرض السخي شاكرًا و داعيًا لصاحبه، فسأله عن السوق؛ فذهب وتاجر، حتى استغنى بكسبه، وربح، فرآه محمد ﷺ بعد أيام وعليه أثر طيب، فسأله عن ذلك فقال: تزوجتُ أنصارية.

فأمره محمد ﷺ أن يقوم بوليمة العرس ولو أن يذبح شاةً [1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٤٩)، ومسلم (١٤٢٧).

لقد قامت حضارة الإسلام على جيل مثل هذا الجيل، الذي رفض الكسل والعجز، ورفض التبعية والتطفل، وأقسم على الإيجابية في الفعل والأثر، ويكفينا أن نعلم ها هنا أن هذا الرجل المهاجر الذي تعفف عن مال أخيه أنه قد صار أغنى أغنياء المسلمين.

وزاد عدد المهاجرين على عدد المؤمنين من أهل المدينة (الأنصار)؛ فأكمل محمد ﷺ المؤاخاة بمؤاخاة المهاجرين مع بعضهم بعضاً، فيروي أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ آخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين طلحة، رضي الله عنهما[1]. وكلاهما مهاجري.

وأدى هذا النظام إلى تماسك المجتمع الإسلامي أمام كل الهجمات التي شُنَّت عليه، وأرادت تفريق شمل أفراده، وتشتيت قوتهم، وعلم المؤمنون أن أهم قوة يتطلبها المجتمع المؤمن بعد قوة الإيمان هي قوة الوحدة والإخاء.

•• وعي بخصائص الأفراد ومشكلاتهم:

تعامل محمد ﷺ مع أصحابه وأعدائه من منطلق فهم عميق لشخصياتهم، فربما أرسل رسالة إلى من يريد تعليمه أمرًا ما، وتكون رسالته تلك في صورة تصرفات، قد لا يفهمها إلا صاحبها فقط، فتؤثر فيه تأثيرًا بالغًا.

في يوم فتح مكة عاد محمد ﷺ ومعه أكثر من عشرة آلاف مقاتل، وقد أمر أن يكون العباسُ مع أبي سفيان بن حرب -ولم يكن أبو سفيان قد أسلم- في مكان ضيِّق، لغرض محدد، وهو أن يرى الجيش كله، وذلك فيما يشبه العرض العسكري، وبالفعل كلما مرَّت قبيلة سأل: من هذه يا عباس؟! فيخبره، حتى خارت قواه، وعلم أنه مهزوم.

حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. فقال أبو سفيان: يا عباس! حبذا يوم الدمار.

ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب، فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير بن العوام ﷺ، فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: « ما قال؟ ». قال: كذا وكذا، فقال: « كذب سعد، ولكن هذا يوم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٢٨).

يعظم الله فيه الكعبة، يوم تُكْسَى فيه الكعبة»[1].

لقد راعى محمد ﷺ الأمرين معًا: راعى نزع الراية ممن تجاوز في عبارته، وإيصال رسالة إلى المسلمين وأهل مكة أنه غير متطلع للقتال وإراقة الدماء.

وراعى طبيعة سعد ﷺ وسابقته، وأن هذه الكلمة كانت عفوية لا تلغي محاسنه، فأخذ الراية منه بدون أن يغضبه وأعطاها ابنه قيس بن سعد بن عبادة.

ولما أسلم أعزّ فرسان مكة خالد بن الوليد ﷺ متأخرًا، وكان فارسًا مِغْوارًا، وقائدًا ذو حنكة وخبرة دهاء، وبعد ثلاثة أشهر من إسلامه جاءت غزوة مؤتة، فأمره الرسول ﷺ أن يخرج في الجيش!

وكان عدد الجيش ثلاثة آلاف، وكانت النية الخروج لقتال جيش الروم إحدى أكبر قوتين عسكريتين في العالم في ذلك الوقت، وحدَّد محمد ﷺ قائدًا لهم ولم يكن خالدًا، بل كان زيد بن حارثة، أحد الموالي الذين كانوا في مكة وحرَّره محمد ﷺ، فهل يقبل خالد ذلك؟ لقد وضعه رسول الله ﷺ في هذا الاختبار كي يعلم جديته، وإخلاصه للإسلام رغم أن خالدًا بشهادة الجميع أفضل قائد عسكري عرفه تاريخ المسلمين (فقد خاض مئة معركة لم يهزم في أي منها)، هل يقبل ابن الوليد بن المغيرة أحد أكبر سادات مكة أن يكون تابعًا مأمورًا وأميره من الموالي؟!

وقَبِل خالد، وحدَّد رسول الله ﷺ ترتيب القادة، فقال: إن قُتل زيد فالأمير جعفر بن أبي طالب، ولم يذكر خالدًا أيضًا، ثم قال: فإن قُتل جعفر فالأمير عبد الله بن رواحة، أحد الشعراء والصناديد من الأنصار. وقال رسول الله ﷺ فإن قُتل فليختر المسلمون منهم رجلاً، إنه لم يذكر خالدًا حتى بعد أن قال: إن قتل الأمراء الثلاثة، وكأن خالدًا ليس في الجيش!!

فهل يتحمل ذلك الفارس القائد أن يكون تابعًا لثلاثة أمراء هم أقلّ منه كفاءة وخبرة وشهرة وقدرة؟ وحتى لم يذكر اسمه بعدهم؟! وتحمَّل خالد، وأثبت أن ولاءه للإسلام أعظم من ولائه لنفسه، وأنه قد تغيَّرت أفكاره، وتبدَّلت أحواله، وقد هذَّب الإسلامُ أخلاقَه، وبالفعل قُتل الأمراء الثلاثة، وأخذ الراية رجل، ودفعها إلى خالد،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨٠).

فأبى.. فقال له: والله ما أخذتها إلا لك، وقام الرجل خطيبًا في الجيش يحثهم على اختيار خالد، فاستجابوا له واجتمعوا عليه.

وقاد خالد الجيش في خطة عسكرية باهرة للعودة إلى المدينة، نعم ؛ العودة بثلاثة آلاف من بين براثن مائتي ألف من جنود الروم، ولم يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً.

تلك ملامح من وعيه ﷺ بنفسية الرجال واختبارهم وتمحيصهم لما ينتظرهم من أعباء الأمانة والمسؤولية.

•• وعي عسكري :

كان العرب لا يعرفون الحرب المنظمة، فقد كانوا يهجمون أو يتراجعون، بلا خطة وبلا هدف محدد، ولا يعرفون سوى الكرّ والفرّ، لكن رسول الله ﷺ قد استطاع أن يُغَيِّر مفاهيم العرب في الحرب، فابتكر النظام الخماسي في تنظيم الجيش، فجعل الجيش على خمسة أقسام؛ المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والمؤخرة، فكان العرب يفاجؤون بهذا التنظيم الجيد.

عرضت دورية عسكرية أمريكية دراسة حملت عنوان «محمد: العقلية العسكرية الفذة»، وكاتب الدراسة هو المؤرخ العسكري (ريتشارد جابريل)، يقول فيها: إنه من دون عبقرية محمد ﷺ ورؤيته العسكرية الفذّة ما كان ليبقى الإسلام ويصمد وينتشر بعد وفاته.

ويقول أيضًا: إنه ورغم توافر الكثير من الدراسات العلمية عن حياة وإنجازات محمد، إلا أنه لا توجد دراسة تنظر إلى محمد بوصفه أول (جنرال) عسكري في الإسلام.

وترى الدراسة أنه لولا نجاح الرسول ﷺ بوصفه قائداً عسكرياً؛ لما كان للمسلمين أن يغزوا الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية بعد وفاته.

وتقول الدراسة: إن النظر إلى الرسول محمد ﷺ بوصفه قائداً عسكرياً هو شيء جديد للكثيرين؛ حيث إنه كان عسكريًّا من الطراز الأول، قام في عقد واحد من الزمن بقيادة ٨ معارك عسكرية، وشنّ ١٨ غارة، وخطّط لـ٣٨ عملية عسكرية.

وتذكر الدراسة أن محمداً ﷺ أُصيب مرتين أثناء مشاركته في المعارك.

ولم يكن محمد ﷺ قائدًا عسكريًا محنكًا وحسب، بل ترى الدراسة أنه كان

«منظِّرًا عسكريًّا» و«مفكرًا استراتيجيًّا». وتُشيد الدراسة بـ«أجهزة المخابرات» التي أنشأها وأدارها محمد ﷺ، والتي تفوقت على نظيراتها عند الفرس والروم أقوى إمبراطوريتين آنذاك.

وترى الدراسة أن الرسول شكّل (القوات الإسلامية المسلحة المتحدة) التي بدأت غزواتها بعد عامين من وفاته، وكانت تلك القوات تجربة جديدة للجزيرة العربية ليس للعرب سابق عهد بها، وتمتدح الدراسة كثيرًا قدرة الرسول الكريم ﷺ ونجاحه في إحداث تغيير ثوري في الطريقة التي حارب بها العرب، فبدلاً من مجموعات قتالية صغيرة ذات ولاءات قبلية محدودة تقوم بهجمات صغيرة من «كرّ وفرّ»، استطاع الرسول ﷺ بدرجة عالية من الحنكة إيجاد أول جيش موحد؛ جمع جنوده من مختلف القبائل العربية. وكان الجيش ذا طبيعة تنظيمية واضحة وصارمة. وترى الدراسة أن الرسول نجح في بناء منظومة عسكرية للقيادة والسيطرة للمرة الأولى في التاريخ العربي.

•• وعي في مخاطبة الملوك والزعماء :

بعد ست سنوات فقط من هجرته ﷺ واستقراره بالمدينة، أرسل محمدﷺ إلى الملوك والرؤساء في العالم من حوله داعيًا إياهم إلى الإسلام.

ولكنه تخيَّر أولاً من يرسل إليهم، فاختار النصارى؛ لأنهم أهل كتاب، يؤمنون بالله، وأصل دينهم الحق يتفق مع الإسلام، ولهذا من الممكن أن ينطلق من أرضية واحدة مشتركة، وهي عبادة الإله الواحد، فأرسل إلى النجاشي رسالة قال فيها: «من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعو إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبل نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى»[1].

فكتب إليه النجاشي: «بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ٢/١٨٨، والحاكم في المستدرك (٤٢٤٤).

أصحمة، سلام عليك يا نبيّ الله من الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فلقد بلغني كتابك فيما ذكرتَ من أمر عيسى، فوربِّ السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقًا (الفشاء بين النواة والتمرة) إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مُصدَّقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين»[1].

وكتب إلى جُرَيْج بن مَتى الملقب بالمُقَوْقِس ملك مصر والإسكندرية:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران: ٦٤).

واختار محمد ﷺ لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بَلْتَعَة. فلما دخل حاطب على المقوقس؛ قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبرْ بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك، فقال المقوقس: إن لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خير منه، فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدّهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قومًا فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به، فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمَزْهُود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضالّ، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء، والإخبار بالنجوى، وسأنظر. وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حُق من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ٢/١٨٨، والحاكم في المستدرك.

«بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا بقيَ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثتُ إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك»[1].

وأرسل إلى ملك الروم هرقل بهذه الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران: ٦٤) »[2].

وكتب محمد ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ:

«أما بعد، يا رسول الله! فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحبَّ الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدِثْ إليَّ في ذلك أمرك».

فكتب إليه رسول الله ﷺ.

وكتب إلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني صاحب دمشق: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يُبْقِي لك ملكك».

وبتتُّبعنا لتلك الرسائل نلحظ وعيًا بالغًا عند محمد ﷺ في معرفته بطرائق خطاب الملوك، وبما يناسبهم ويؤثر فيهم، كما نلاحظ أنه يحدثهم من منطلق كونه نبيًّا يعرض عليهم الإسلام أولاً؛ لأنها المهمة والغاية الأولى له، كما نلاحظ أنه يعرض عليهم الاتفاق أولاً على العقيدة أن «لا إله إلا الله»، وهو في رسائله كلها لا يطلب منهم شيئًا من الدنيا، ولا الملك ولا الاستضافة عندهم، ولا أية منفعة خاصة، بل يفتح لهم أبواب

---

(١) زاد المعاد: ٦١/٣

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (٣٣٢٢)

الآخرة، ثم يبين لهم مدى تسامح رسالته التي جاء بها فيطلب منهم إن لم يسلموا ألا يحولوا بين شعوبهم وبين الإسلام ، لقد فاجأهم بأسلوبه الذي لم يعتادوه من العرب، أسلوب تملؤه العزة والأنفة وتملؤه الثقة في النصر والظهور، وقد صاغه بكل ذوق وأدب وتقدير إنساني دون غرور أو تعالٍ، وأكّد عليهم أنه حلقة تُكمِل حلقتي موسى وعيسى عليهما السلام.

ولقد راعى محمد العرف السياسي وهو يتعامل مع القادة والملوك، فحين أراد مخاطبتهم قال له أصحابه :إنهم لايقرءون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، نقشه: محمد رسول الله[1].

(١) أخرجه البخاري (٦٥)، ومسلم (٢٠٩٢)

البساطة في شخصية محمد ﷺ:

للقلوب مفاتح لا تُفتح إلا بها، ومن أهمّها البساطة، ولعل أول ما يطبع داخل ذاكرة الإنسان عند لقائه بغيره هي البساطة.

إنها معنًى لكل ما هو ضد التكلف والتصنع، ومعنى لكل سلوك لا يريد صاحبه به ثناء من الناس، ولا مقامًا عندهم.

فكل فاقد لوصف حَسَن تجده يحب أن يُوصَف به، فالبخيل يتمنى أن يصفه الناس بالكرم، والجبان يهوى أن يُعرف بين الناس بالشجاعة، والضعيف يكره وصفه بالضعف.

والبساطة عكس ذلك؛ إذ يبدو المرء بها للناس على صورته الحقيقية، بلا تزييف ولا خداع. والتكلف باب من يسلكه لا بد حتمًا أن يصل به إلى الكذب والرياء، فهو إظهار لغير الحقيقة، وهو سلوك يعني أن صاحبه قد جعل كل همه انطباع الناس عنه لا حقيقته هو.

والتكلف صفة يصعب الاستمرار عليها؛ لأنه إن لم يكن الأمر فيه سجية وطبعًا؛ فقد يفعله في موقف أو أكثر أو يوم أو أكثر، ولكنه لن يستطيع الاستمرار عليه، ومن ثم فسيعود المتكلف حتمًا إلى أول أمره، وسيبدو للناس على حقيقته يومًا، فإنه من السهل أن تخدع بعض الناس بعض الوقت، ولكن من المستحيل أن تخدع كل الناس كل الوقت.

والتكلف ضعف؛ لأن المتكلف لا يستطيع أن يواجه الناس بأخلاقه الحقيقية، وردود أفعاله الطبيعية فيتصنع لهم ليرضيهم بما ليس فيه، ويتزين بأخلاق ليست من سجيته، ولو كان قويًا لواجه الناس بحقيقته، ولكنه يؤثر التلون بحسب ما يقتضيه الموقف إيثارًا للراحة ومراءاة للناس.

والمتكلف يحصد دائمًا في النهاية غضب الناس، ومقتهم، وسخطهم؛ لأن المتكلف لا بد أن يظهر للناس بعدما يَزِلّ به لسانه، أو تكشفه أفعاله عند المحن، فعندها تظهر الحقائق، فيمقته كل من اجتهد هو في إرضائه، فإن المتكلف لن يحصد خيرًا بحال.

ولا شيء أحب إلى الله وإلى الناس من أن يكون الإنسان نقيًا يُظهِر من الأقوال والأفعال ما يبطنه حقًا، ولا يكذب ولا يرائي، ولا يخادع ولا يتكلف.

ولو رأينا محمدًا ﷺ لوجدناه أبعد الناس عن التكلف، كيف لا وهو يتلو على الناس ما أمره ربه به في آيات القرآن؛ فيقول: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص: ٨٦).

ويقول ﷺ في حديثه: «حُرِّم على النار كل هيِّن ليِّن سهل، قريب من الناس»[1].

ويحكى أن رجلاً دخل الجنة بسماحته قاضيًا ومتقاضيًا [2].

لقد عاش محمد ﷺ حياته بعيدًا عن التكلف، بل إنه قد أكثر من ذمّه، وحثّ أصحابه - رضي الله عنهم - على البعد عنه، يحدثنا عن ذلك أحد خاصة أصحابه وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: «نُهينا عن التكلف»[3].

وما أجمل هذه التربية حينما تغرس في النشء الصغير أن يبتعد عن التكلف من نعومة أظفاره، ويلتزم البساطة والتلقائية؛ حتى تصبح بساطته شيمةً فيه.

•• بساطة القول:

هناك من الناس من يظن أن إظهار حكمته و علمه إنما يكون باختياره أغرب الألفاظ وأعقدها، ويتكلف في ذلك الكثير من التكلف، ولكن محمدًا ﷺ كان كلامه سهلاً مفهومًا، يناسب المستمع، رغم أنه كان قادرًا على أن يأتي بأغرب الكلمات وأعقدها، فقد كان أفصح فصحاء العرب، ولكنه أراد البساطة في قوله؛ حتى يفهمه الكبير والصغير، والعالم والجاهل، والرجل والمرأة، حتى الطفل الصغير.

تقول زوجته عائشة - رضي الله عنها- : «كان كلام رسول الله ﷺ فصلاً، يفهمه كل من يسمعه»[4]، أي: أن لغته كانت بسيطة بعيدة تمامًا عن التقعُّر في الكلام.

وتقول أيضًا: «كان يحدثنا حديثًا لو عدَّه العادُّ لأحصاه، ولم يكن يسرد الحديث كسردكم»[5]، أي أنه لم يكن يُكثر من الكلام بسرعة، ولكنه كان إذا تكلم كان كلامه واضحًا سهلاً مفهومًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩٢٨)، والترمذي (٢٤٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٩٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٣٩)، والترمذي (٣٦٣٩).

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).

ويقول صاحبه أنس ﷺ: «كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاثًا؛ حتى تُفْهَم عنه»[1]، أي: أنه إذا خطب في الجموع ربما لا يسمعه البعيد، فكان يعيد كلامه ليُسمَع ويُفهَم.

إن الكلمة السهلة الميسورة إذا أُحسِن اختيارها تؤثر تأثيرًا بالغًا في النفوس، ولهذا كان كل الزعماء والقادة المصلحين يهتمون بخُطبهم؛ فيُعِدّونها جيدًا، ويغيِّرون ويبدِّلون كثيرًا من كلماتها التي تستعصي على الفهم، فكان من أولوياتهم إيجاد الكلمة السهلة، التي يصل معناها إلى الناس سريعًا، وفي أحيان كثيرة ربما استعانوا بمتخصصين يكتبون لهم كلماتهم، ويختارونها لهم.

•• بساطة في المظهر:

لعل من أكثر الأشياء التي يهتم بها الناس هي مظاهرهم، وكيف يبدون للناس، وبأي مظهر يظهرون، ولذلك يحرص الكثير منهم على حُسْن مظهره، ولو بالتكلف والادعاء.

والمرء كما هو مطلوب منه أن يُصلح باطنه؛ مطلوب منه أيضًا أن يُصلح ظاهره الذي يبدو عليه أمام الناس.

لقد كان محمد ﷺ يهتم أن يظهر للناس في هيئة حسنة، فحسن الهيئة يدل على اعتناء الإنسان بالناس، وأنه يريد أن يُريهم منه أفضل صورة مع اختيار لأحسن الكلام، ويزيد ذلك بحُسن الخُلُق، والبساطة هنا في اتخاذ المتاح من المظاهر، والحصول على أفضل صورة منها.

كان محمد ﷺ يرجِّل شعره، وكان يُصلح هيئته بالمتاح من الإمكانات المتوفرة، فهو لم يأمر أحدًا أن يلبس رقيع الثياب، والرث منها؛ لكي يصطنع ويتكلف أن يبدو للناس زاهدًا أو عابدًا، فقد أحل الله لكل مؤمن أن يتزين، طالما أنه يتزين بما أحلَّ الله له، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾(الأعراف: ٣٢)، وأمر الله تعالى بأخذ الزينة التي هي الطهارة وحسن الهيئة عند كل مسجد، فقال: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾(الأعراف:٣١).

ولقد كان محمد ﷺ حَسَن السمت حَسَن المظهر، وكان يهتم بنظافة ثوبه، ويحرص على تطييبه بالطيب، وأن يخرج للناس متعطرًا ذا رائحة ذكية.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٥).

ولكنه مع ذلك لم يكن متكلفًا في ذلك، بحيث يتعطل عن أداء أعماله من أجل حسن مظهره، ولا أن يستدين من المال كما يفعل بعضهم للإنفاق على حُسْن مظهره، وأن يبدو للناس من طبقة غير طبقته، بل كان يتزين بالمتاح منها، وكان يدَّخِر منها شيئًا ذا قيمة عالية لحضور المناسبات كالأعياد واستقبال وفود العرب وغيرها، فيقول صاحبه البراء بن عازب ﷺ: «رأيت النبي في حلة حمراء لم أر شيئًا أحسن منه»[(1)].

ومن التكلف أن يتخذ الإنسان ثوبًا غريبًا عن الوسط الذي يعيش فيه، حتى يُشتهر بين الناس به، و كان محمد ﷺ ينهى عن ذلك، ويقول: «من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة، ثم ألهب فيه نارًا»[(2)].

ومن التكلف أن يلقي الإنسان الثوب وهو صالح لمجرد أنه قد قدم عهده، فالأَوْلى - إن لم ينتفع به - أن يعطيه لمن ينتفع به، ولا يتركه حبيس الخزائن حتى يبلى، وقد كان محمد ﷺ يُرَقِّع ثوبه القديم إذا انقطع ويلبسه مرة أخرى أو يتصدق به.

بساطة في الضيافة:

من الناس من تجده متكلفًا في الضيافة؛ سواء كان هو الضيف أو المضيف، فتراه وهو مضيف يتكلف لضيفه بما لا يملكه، بل وتصل به الحال إلى حد الاستدانة الشديدة، أو الإفراط في التعامل بالبطاقات المصرفية، لمجرد إشباع رغبته في الظهور بمظهر الغني، وهذا لا يدل على كرم، بل يدل على سوء فعل، وسوء تقدير للعواقب.

وتراه أيضًا متكلفًا إذا كان هو الضيف، فلا يرضى بالضيافة إلا إذا تكلف له صاحبه، وتحمَّل ما لا يطيقه، وقد يلمِّح أو يصرح أن مضيفه لم يقم بحقه في استضافته، ويعتدّ هذا من التكريم.

ولكن محمداً ﷺ كان بسيطًا سهلاً ضيفًا ومضيفًا، فكان وهو ضيف يقبل كل دعوة من صغير أو كبير، لا يشترط أن يدعوه صاحب مقام عالٍ، ولا صاحب مال وفير، ولكن كان يقبل دعوة الحرّ والعبد، والغني والفقير، والمسلم وغير المسلم كذلك، فقد جاء إليه سلمان وهو مسترقّ أصله من فارس، بطبق فيه رُطَب، وقال: هذه هدية، فقبلها

(1) أخرجه البخاري (٣٥٥١)، ومسلم (٢٣٣٧).

(2) أخرجه أحمد (٥٦٣١)، وأبو داود (٤٠٢٩)، وابن ماجه (٣٦٠٧) واللفظ له.

رسول الله ﷺ، وجمع أصحابه وقال: «سموا الله وكلوا»(١).

واستضافه جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما-، وهو حرّ أنصاري، وذبح له شاة فجمع الناس، وذهب إليه(٢).

واستضافه أبو طلحة ﷺ وهو سيد أنصاري فقبل دعوته وذهب إليه(٣).

واستضافه يهودي فقبل استضافته، وطعم معه خبزاً وإهالة سنخة(٤)، أي: أنه كان طعامًا محدودًا وغير جيد.

وأهدته يهودية شاة مصلية ،فقبل هديتها، ولكنها كانت مسمومة(٥)، ومات منها رجل من أصحابه(٦).

أي: أنه كان يقبل الدعوة من الجميع، ولم يُؤَثِّر عنده شخص الداعي، ولا نوع الطعام، فكان سهلاً في الضيافة والاستضافة، فكان يطعم من حضر من الضيوف وقت الطعام بما عنده من طعام، ولم يتكلف لأحد أبدًا مهما كان.

وذات مرة جاءه ضيف ولم يكن لديه في بيوته جميعًا طعام، فأرسل إلى زوجاته فلم يجد لديهن طعامًا يضيفون به الضيف، فأرسل مناديًا ينادي في المسلمين! من عنده طعام يستضيف ضيف رسول الله؟! فضيَّفه أبو طلحة الأنصاري ﷺ على تمر أطعموه إياه (٧)، إنه لم يتكلف حتى حينما لم يكن لديه طعام، ولم يعتدّها إهانة في حقه، ولا منقصة في قدره. يقول أبو هريرة ﷺ جاء رجل إلى رسول الله ﷺ: فقال: إني مجهود – أي: جائع ولا يجد طعامًا – ،فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال رسول الله ﷺ: «من يضيِّف هذا الليلة؟». فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فانطلق إلى رحله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله(٨).

---

(١) أخرجه أحمد(٢٣٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٧٨)، ومسلم (٢٠٤٠).

(٤) أخرجه أحمد (١٢٧٨٩).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠).

(٦) أخرجه البيهقي (٢/ ٢٣٧)

(٧) أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤).

(٨) أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤).

•• بساطة مع الناس :

من الناس من يضع عوائق وحواجز بينه وبين الناس، وخاصة إن كان زعيمًا أو قائدًا أو حاكمًا أو مشهورًا بوجه عام، فمنهم من يضع الحراسات الشديدة التي تمنع لقاءه بالناس ولقاء الناس به، وكفى بالمرء عزلة وسجنًا أن يحبس نفسه عن الناس، وأن يحبس الناس عنه.

ولكنّ محمدًا ﷺ لم يكن يتكلف مثل هذا التكلف في ملاقاة الناس، بل كان يلتقي بالناس خمس مرات يوميًا في الصلوات الخمس، التي توجب على المسلم أن يذهب إلى المسجد خمس مرات، فكان يصلي بالناس، ثم يستدير فيستمع لهم، ويكلمهم، ويسأل عن أخبارهم، ويطمئن على أحوالهم، ويتفقد غائبهم.

وكان ﷺ يذهب إلى تشييع الجنائز، فيشهدها بنفسه، ولا يتأخر عنها، إلا حين لا يعلم بها، وربما عاتب أصحابه لو حدثت وفاة لأحد من الناس ولم يعلم؛ ليشارك فيها ويدعو لها، مهما كان شأن صاحبها كبيرًا كان أو صغيرًا.

فقد كانت هناك امرأة تطوَّعت أن تنظِّف مسجده، ثم غابت فترة فلم يرها رسول الله ﷺ، فسأل فقالوا: ماتت، فقال لأصحابه: «أفلا آذنتموني» - أي: لِمَ لَمْ تُخبروني بوفاتها؟ - لقد ظنوا أن شأنها أقل من أن يشغلوا به رسول الله ﷺ، وهو المنشغل بعظائم الأمور، ولكنه عاتبهم، ثم قال: «دلوني على قبرها» فدلوه، فصلَّى عليها[1].

وبينما هو في المقابر ذات مرة إذ مر على امرأة تبكي بكاء شديدًا على فقيد لها، فقال لها: «اتقي الله واصبري»، وهي لم تعرفه، فقالت: إليك عني - أي: امضِ لشأنك - فإنك لم تُصَب بمصيبتي، فقيل لها بعد انصرافه: إنه رسول الله ﷺ، فاشتدّ كرب المرأة؛ إذ كيف تردّ على رسول الله مثل هذا الرد الشديد؟ فذهبت في اليوم التالي وهي خَجِلة وتهاب لقاء رسول الله ﷺ؛ فكان مما لفت نظرها أنها لم تجد عنده بوابين[2]، أي: أن بابه كان مفتوحًا لكل طارق يطرق عليه، ويستفتح الباب فيُفتح له. إنها لم تعرفه في مسيره؛ حيث لم يكن يمشي خلفه ولا أمامه ولا بين يديه موكب ضخم؛ كما يفعل الناس،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨)، ومسلم(٩٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

ولم تجد عند بيته بوابين ولا بوابات، ولا سلاسل حديدية، كما يتخذ كل زعيم أو كل رئيس، ولكنها وجدت إنسانًا في غاية البساطة، يسير وسط الناس، ويسكن حيث الناس، ويعيش كما يعيش الناس.

وحينما كان يجلس بين أصحابه كان لا يتخذ لنفسه مكاناً مميزًا، ولا هيئة متميزة، بل كان يجلس مثلهم على الأرض كما يحدثنا عن ذلك صاحبه وابن عمه عبدالله بن عباس رضى الله عنهما بقوله «كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاه، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير»[1]، بل علّمهم أن الأصل أن يجلس الجميع معًا في المساجد على الأرض، ولا فرق بين غني وفقير، ولا بين رئيس ومرؤوس.

وكان إذا حضر إلى المسجد أو إلى أي مكان يتجمع فيه المسلمون، كانوا يهمون بالقيام له تحية وإكرامًا، فكان ينهاهم عن ذلك[2].

وعند الطعام كان يأكل كأحدهم، فليس له مكان مخصص للطعام، بل كان يقول: «إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[3].

وكان محمد ﷺ يركب ما تيسر له ركوبه، فركب الفرس، وركب الناقة، وركب البغلة، وركب الحمار، وكان عادة يأخذ أحدًا من أصحابه معه، يركب خلفه، إن لم تكن معه دابة يركب عليها.

وكان يُجالس الناسَ، كلّ الناس، فليس له من خواصّ الأغنياء أو ذوي الهيئات جلساء، بل كان يجالس الجميع، وأكثر جلوسه كان مع الفقراء، بل كان يقول في حديثه: «اللهم! أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين»[4].

وكان يجلس حيث انتهى به المجلس[5]، فلا يمهَّد له مكان قبل مجيئه، بل كان يجلس في المكان الخالي المتاح.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٤٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٦٧٧)، وأبو داود (٥٢٣٠)، وابن ماجه (٣٨٣٦).

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٩٢٠).

(٤) أخرجه الترمزى (٢٣٥٢)، وابن ماجه (٤١٢٦).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٣٠).

وفي سفره لم يكن يتجهز بتكلف، بل كان أيضًا بسيطًا في سفره، كما كان في حَضَره تمامًا، فقد قال أنس بن مالك ﷺ: حج النبيﷺ على رحل رثٍ وقطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي، ثم قال: «اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة»[1].

فلم يكن ملكًا، ولم يتصرف بتكلُّف الملوك، في أيّ شأن من شؤون حياته.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٠) وأصله في البخاري (١٥١٧).

•• بلاغة محمد ﷺ :

كانت مكة منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - مزارًا للحج، يأتي إليها الحُجّاج من كل مكان من جزيرة العرب، وكان للعرب لهجات شتى مختلفات، تجتمع وتصب في مكة، والطفل تتكون حصيلته اللغوية من سماعه عندما يستمع اللغة، فكان الطفل الذي ينشأ في مكة ينشأ ضعيف اللغة، نتيجة اجتماع اللهجات القبائلية.

ولهذا فضَّل السادة والأغنياء من أهل مكة أن يُرسلوا أبناءهم وأحفادهم إلى البادية ليتعلموا اللهجة السليمة والنطق الصحيح، وهكذا فعل عبد المطلب سيد قريش، فأرسل حفيده محمدًا ﷺ منذ ولادته إلى بادية بني سعد، فسمع اللسان العربي الفصيح، وتربَّى عليه، فصار أفضل العرب لهجةً، وأكثرهم بلاغةً وقدرةً على التعبير، فكان ﷺ يتكلم بفصاحة العرب وبلاغتهم، بل قد فاقهم في ذلك.

والبلاغة عند العرب: أن تأتي بالمعاني الكثيرة في القليل من الألفاظ المؤثرة المفهومة، وكان العرب يهتمون بالكلمة ويحفظونها، فلم يكن لهم في مجال الإعلام غيرها، وكانت أميّتُهم تدفعهم دومًا إلى إتقان الكلمة والتدقيق في بلاغة القول، فاتَّصفوا بقوة الألفاظ ودقتها، وتحرَّوا أشكالها ودلائلها، وبرعوا في فنونها، وأحبوا الشعر والنثر والأمثال، ونبه منهم في الشعر نابهون كثيرون صاروا أعجوبة الزمان في فنه وإتقانه، فملؤوه حكمةً وخبرة حياتية ونصحًا وتجربة، وساعدهم في ذلك الصفاء المكاني والهدوء، فتدفقت الموهبة الشعرية على ألسنتهم، واستخدموا الكلمة في المدح، وتأجيج الحروب، والرثاء، كما استخدموها في التعبير عن الجمال والحب والخير والفضيلة، وفي بعض الأحيان في وصف الرذيلة والقبح والشر، وصارت الكلمة عندهم حياة أخرى اهتم بها الرجال والنساء، فبرزت فيهن الشاعرات والبليغات والمتحدثات اللبقات.

وأقاموا أسواقًا للكلمة، يجتمع فيه الشعراء والأدباء، وهو ما يشبه اليوم الصالونات الأدبية، فيجتمع الشعراء والأدباء، سواء كان المبتدئون منهم أو الخبراء، فيستمع الخبراء إلى الإصدارات الجديدة، والقصائد الحديثة، ولربما فازت قصيدة منها فتُكتب وتُعلّق على جدار الكعبة، حتى العام الذي يليه، وتسمى بالمعلقة. وكان ظهور شاعر في قبيلةٍ ما يمثّل سعادةً غامرة لها؛ حيث يعتدّون أنفسهم قد امتلكوا سلاحًا يضاف إلى أسلحتهم، وآلة إعلامية تتحدث بمفاخرهم وتنشرها بين الناس.

وكان كل نبيّ إنما يأتي قومه بلسانهم، ويتفوق فيما يتفوق فيه قومه وأمته، ويُعطى من المعجزات والإمكانات ما يجعله متميزًا بين بني قومه، وكذلك كان الأنبياء السابقون، فموسى عليه السلام جاءهم بالعصا التي تتحول حية في بلد اشتهرت بالمهارة في السحر، وبرز عيسى عليه السلام بإحياء الموتى وشفاء المرضى في قوم اشتهروا بالمهارة في الطب والعلاج.

وجاء محمد ﷺ بليغًا ليفوق قومه، وكانت معجزته الكتاب الذي جاء به بليغًا معجزًا تحدَّى العرب أجمعين أن يأتوا بمثله، ولم يستطع أحد من البلغاء والفصحاء ذلك، فاشتد التحدي أن يأتوا بعشر سور منه، فعجزوا أيضًا عنه، وزاد التحدي بأن يأتوا بسورة واحدة، فاشتد عجزهم، وشهد العرب جميعًا بفصاحة النبي وبلاغته، كما شهدوا أيضًا بإعجاز الكتاب الذي جاء به وعدم قدرتهم على تقليده أو مجاراته.

لقد كان محمد ﷺ يمتلك من البلاغة ما يعجز عنه غيره، فقد كان جلساؤه يجلسون إليه وكأنهم بلا حراك من أجل الاستماع له، ورغم كونه قليل الكلام، لكنه كان يوجز مراده ويضع كثيرًا من المعاني في قلة ألفاظه.

•• بلاغة المعجزة :

ولقد أنزل الله عليه قرآنًا فصيحًا بليغًا معجزًا، أدهش العقول بدقة نظمه، فلم يشابه الشعر، ولم يشابه النثر، فكان شيئًا فريدًا جديدًا لم تعرفه العرب قبله، وما استطاعوا مجاراته ونظم مثله.

ودعنا نضرب مثالاً بسيطًا.. قول القرآن: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ (يوسف: ٨٠). ربما يُترجَم لك هذا النص في كلمات كثيرة، ولكنها في اللغة العربية في القرآن خمس كلمات فقط، تتكون كلها من أربعة وعشرين حرفًا فقط، وهي تمثل أربعة مواقف كاملة عبَّر عنها القرآن في خمس كلمات.

إن يوسف عليه السلام أراد أن يستبقي أخاه عنده فدبَّر أمرًا بحيث يظهر أنه سارق، وكان من شريعتهم أن السارق يصبح مملوكًا لدى صاحب الشيء المسروق، فقرَّر أخذ أخيه، وبالفعل أخذه عنده، وإخوة يوسف يترجُّون الملك أن يعفو عن أخيهم، وهم لا يعلمون أن الملك هذا هو أخوهم الذي رموه في البئر قبل سنوات، والآية تقول وتحكي أربعة مواقف:

الأول: إخوة يوسف يحاولون إقناع الملك بأن يأخذ واحدًا منهم مكانه حتى وصلوا إلى اليأس من إقناعه.

والثاني: وصل بعضهم إلى اليأس وبعضهم الآخر لا يزال يحاول، فقال اليائسون للآخرين: لا فائدة من المحاولة، فلن يقنع الملك، وطلبوا منهم إنهاء الكلام معه فلا فائدة.

والثالث: اتفقوا سرًا على أن يلتقوا في مكان آخر للتشاور معًا بعد الانصراف من عند الملك.

والرابع: التقوا في مكان بعيد عن الأعين، وكانوا يتهامسون؛ لئلا يسمعهم أحد وهم يتشاورون في أمرهم.

هذه المواقف هي التي عبَّر عنها القرآن اختصاراً في جملة واحدة من خمس كلمات فقط، ولهذا ذكر المؤرخون أن هناك أعرابيًا بليغًا سمع الآية، ولم يكن قد أسلم، فخرَّ لله ساجدًا ولما سئل قال: سجدت لبلاغته وفصاحته.

وفي موضع آخر يذكر القرآن في آية واحدة أمرين ونهيين وبشارتين، والآية هي قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(القصص: ٧).

وحينما جلس رسول الله ﷺ ذات يوم في حجر الكعبة، وقرأ القرآن فاستمع المشركون له أخذ القرآن بعقولهم، ولم يدروا بأنفسهم بعد آخر آية قرأها، وكان فيها ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾(النجم: ٦٢) فسجد النبي ﷺ وسجد المسلمون، وسجد المشركون معهم لله اعترافًا بعظمته واعترافًا بالقرآن وإعجازه، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[1].

وشهد للقرآن كثير من أساطين اللغة العربية في عهد محمد ﷺ وما بعده، ومنهم الوليد بن المغيرة الذي ذهب إليه، وسمع منه فتأثر، ورجع بوجه آخر، وقال: «إني لأعرفكم بشعر العرب، وإن هذا الكلام ليس بشعر؛ إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وما هو بقول البشر»[2]، وكما قال الوليد قال غيره الكثير.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٨٧٢).

ولهذا حرص مشركو مكة ألا يدعوا أحدًا من أهلهم يستمع القرآن، وأوصى بعضهم بعضًا بذلك؛ لأنهم يعلمون أن من البيان لسحرًا، والقرآن أعظم بيان، فكان كأنه يسحر عقولهم، ويأسر قلوبهم، حتى لو لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ؛ فقالوا كما حكى القرآن الكريم: ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾(فصلت: ٢٦)، أي لا تُعرضوا أنفسكم لسماع القرآن، ومروا أتباعكم بذلك، فإذا سمعتموه عرضًا فشوّشوا عليه؛ لئلا يصلكم كلامه، هذا إن أردتم الغلبة والنصر، وإلا سيقهركم القرآن ويغلبكم بعرضه وأسلوبه.

يقول جبير بن مطعم: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في صلاة المغرب سورة الطور، فلما قرأ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾(الطور: ٣٥)، كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وَقَر الإيمان في قلبي»[1].

وكانوا يوصون كل زائر لمكة ألا يستمع لمحمد ﷺ؛ لكي لا يؤثر عليه، فكان الطفيل ابن عمرو الدوسي يُحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل شريفًا شاعرًا لبيبًا، فقالوا: يا طفيل! إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل بين أظهرنا، قد عضل بنا وفرّق جماعتنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبينه وبين زوجه، وإنما نخشى عليك وعلى قومك، فلا تكلمه ولا تسمع منه.

قال: فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه، حتى حشوت أذني قطنًا؛ فَرَقًا أن يبلغني من قوله، وأنا أريد أن لا أسمعه. قال: فغدوت إلى المسجد؛ فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ يصلي عند الكعبة، قال: فقمت قريبًا منه، فأبى الله إلا أن يُسمعني قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، قال: فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل شاعر لبيب، ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع هذا الرجل ما يقول! إن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته.

قال: «فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد! إن قومك قالوا لي كذا وكذا، ثم إن الله أبى إلا أن أسمع قولك، فسمعت قولاً حسنًا، فاعرض عليَّ أمرَك.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٢٣)، ومسلم (٤٦٣).

قال: فعرض عليَّ الإسلام، وتلا عليَّ القرآن، وقال: فو الله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمتُ[1].

وجاء رجل من اليمن اسمه ضماد الأزدي، وكان يعالج بالرقى فسمع سفهاء مكة يقولون: إن محمدًا مجنون، وبعد قليل قال لنفسه: إني امرؤ أَرْقِي من المرض، فلعل الله يشفيه على يدي، وبالفعل التقى برسول الله ﷺ، فقال: يا محمد! إني أرقي من هذه الأمراض، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل أقرأ عليك؟ فقال رسول الله: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله أما بعد»، هذه الكلمات مقدمة دائمة يستفتح بها رسول الله ﷺ حديثه مع الناس، أي: أنه إلى الآن لم يتكلم فيما أراد الكلام فيه، فهذه مجرد افتتاحية لكلامه، ولكنها بهتت الرجل، واتسعت حدقته تعجبًا، وقال في نفسه: أهذا الذي قالوا عنه مجنون؟ أهذا الذي جئت لأشفيه من مرضه، فقال مسرعًا: أعد عليَّ كلماتك تلك، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ، فطلب الثالثة فأعادها، فقال ضماد: «لقد سمعت قول الكهَّان، وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ثم قال له: امدُد يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه»[2].

وقد تميز أسلوب النبي ﷺ في خطبه وكلماته ومواعظه بسهولة اللفظ وبلاغة المعنى، فكانت ألفاظه سهلة سلسة، وكان يترك دائمًا الألفاظ المهجورة والغريبة في اللغة؛ ليفهم كلامَه كلُّ سامع، وليحفظ من كان في حفظه صعوبة.

ولهذا كان كلامه يجري مضرب الأمثال بين العرب لما حوى من تلك المعاني الكبيرة، في كلمات معجزات قليلة، ونضرب لذلك مثلاً بحديث موجز يقول فيه: «لا ضرر ولا ضرار»[3]، شرحه العلماء في العديد من الصفحات، وصار قاعدة من القواعد عند المسلمين، استخرجوا منها ما يلي:

---

(١) أسد الغابة: (٢/ ٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٨)

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٢٧٢)، وابن ماجه (٢٣٤٠).

- أن أحكام الإسلام كلها جاءت لنفع الفرد والمجتمع، ولا يوجد منها ضرر، وأي تشريع فيه ضرر لأحد فليس من الإسلام.
- لا يسمح الإسلام للإنسان أن يضر نفسه، ولا يضر غيره، عامدًا كان أو مخطئًا، وإن أخطأ فعليه تعويضه.
- لا يسمح بالأضرار بالحيوانات ولا غيرها، إلا ما كان لحاجة كطعام أو دفع ضرر.
- إذا وقع ضرر لا بد أن يجتهد الفرد في دفعه عن نفسه، ودفعه عن غيره إذا كان في مقدوره، وواجب على المجتمع أن يسهم في دفع الضرر، وهذا حق شرعي له.
- الضرر لا يزال بضرر أشد على نفسك ولا على غيرك، فليس معنى أن تدفع الضرر عن نفسك أن تُلحِقه بغيرك أيًا كان، ولو كان من غير المسلمين.
- يُتَحَمَّل الضرر الخاص والفردي لتجنب الضرر العام والجماعي.
- يُزَال الضرر الأكبر بتحمل الضرر الأقل.

وهذا جزء قليل من الأحكام والضوابط والمعاني التي استخرجها العلماء من تلك الكلمات البسيطة التي قالها رسول الله: «لا ضرر ولا ضرار».

•• محمد ﷺ والشعر والسجع:

على الرغم من كون محمد ﷺ أبلغ العرب وأفصحهم، وعلى الرغم من صفاء روحه وتوقّد ذهنه، إلا أنه لم يكتب يومًا بيتًا واحدًا من الشعر من نظمه، وهذا أمر يدعو إلى الدهشة.

فهذه المؤهلات لا بد أن يكون صاحبها شاعرًا، وخاصة أنه كان يميل إلى الخلوات حتى قبل البعثة في عمله كراعٍ للغنم، أو في تعبده في غار حراء في مكة.

ويفسر لنا القرآن الكريم السبب في ذلك ويقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٩).

فهل كان يبغض الشعر؟ الجواب هنا: كلا؛ بل كان يحب الشعر، ويحب سماعه، ويطلبه في بعض الأحيان، فقد ركب خلفه مرة رجل من صحابته فقال له: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» فقال: نعم، فقال رسول الله: «هيه» - أي: أنشدني-

فأنشده بيتًا، فقال: هيه، فأنشده بيتًا حتى أنشدته مائة بيت من الشعر[1].

وأمية هذا قد مات ولم يؤمن بالإسلام، وكان شعره حضًا على مكارم الأخلاق، فكان يحب سماعه.

وقد كان لمحمد ﷺ شعراء يدافعون عن الإسلام، والمسلمين، ويعرضون محاسن الإسلام، مستخدمًا هذه الآلة الإعلامية الوحيدة المتاحة، فكما كان للسيف رجال كان للشعر رجال، يجاهدون بكلماتهم وقصائدهم.

فكان منهم حسان بن ثابت ﷺ الذي كان لا يُحسن حمل السلاح لكبر سنه، ولكنه يحسن نظم الشعر والدفاع عن الإسلام، وكان يسجل بشعره أحداث محمد ﷺ ومواقفه، فكان شعره ديوانًا يجمع بعض سيرة محمد ﷺ ومواقفه، ومغازيه وأيامه، وكان فيه مدح لرسول الله ﷺ، ورثاء له يوم وفاته.

وبرز شاعر ثانٍ أمضى عمره في هجاء الرسول ﷺ، ثم أسلم فمدح رسول الله ﷺ في قصيدة، وقرأها بين يديه ﷺ وأعجبته؛ لما فيها من مدح للمهاجرين والأنصار، وهو كعب بن زهير.

كما برز شاعر ثالث من الأنصار، هو عبد الله بن رواحة، وكان شعره عذبًا غضًا، وظل يدافع عن محمد ﷺ حتى قُتل شهيدًا يوم غزوة مؤتة.

ولم يَنْهَ رسول الله ﷺ عن سماع الشعر، بل كان يستمع إلى العفيف منه، فلم يجرؤ أحد أن يذكر أمامه شعرًا ماجنًا، وما كان ليسمح بهذا.

وكان ربما دعا الله للشعراء المؤمنين المجاهدين، فقد سأل حسان بن ثابت أبا هريرة - رضي الله عنهما -، وقال: أنشدك الله هل سمعت النبي ﷺ يقول يا حسان: أَجِبْ عن رسول الله ﷺ، اللهم أيِّده بروح القدس؟ قال: أبو هريرة: نعم[2].

وإنما لم يقل محمد ﷺ الشعر، ولا يعرف أن يقوله؛ كي لا يقول قائل في يوم ما: إن القرآن إنما هو نوع من أنواع الشعر، أو نموذج جديد منه، أو مدرسة متطورة منه.

وكان محمد ﷺ يكره سجع الكهان الذي يخدعون به السامع ليوهموه أنه يستمع إلى طلاسم السحرة والشياطين، ولكنه لم يكن يأبى السجع البتة، ولا يخلو كلامه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٣)، ومسلم (٢٤٨٥).

من بعض سجع يأتي على السجية بلا تكلف، ويغلب أن يكون ذلك فيما يقوله من الوصايا الجامعة، كقوله: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعًا وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[1].

•• الصدق والاعتدال:

البلاغة والفصاحة كثيراً ماتقود أصحابها إلى المبالغة، وإلى تزيين القول بما يخرجه عن الموضوعية والصدق، وقد كان شائعاً لدى العرب في وصف الشعر بأن أعذبه أكذبه.

لكن محمداً ﷺ رغم فصاحته وبلاغته كان صادقاً، فلم يعرف عنه أنه كذب في حديثه لا في جد ولا في مزاح، كما أنه كان معتدلاً ليس في حديثه مبالغة أو خروج عن الموضوعية.

وقال عن نفسه: «... ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا»[2].

وقد شهد له أعداؤه والمخالفون له بالصدق، فحين ذهب أبو سفيان إلى الشام قبل أن يسلم ولقي هرقل، سأله هرقل عن محمد ﷺ، وكان مما سأله عنه أن قال لترجمانه سله: كيف حسبه فيكم؟

قال أبو سفيان: هو فينا ذو حسب.

قال هرقل: فهل كان من آبائه ملك؟

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال أبو سفيان: لا[3].

والشهادة له بالصدق من أعدائه ليست قاصرة على أبي سفيان، ففي مبدأ بعثته شهد له زعماء قومه بالصدق، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾(الشعراء: ٢١٤) صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر،

---

(١) أخرجه البخاري (٨-٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣).

يا بني عدي » لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش. فقال: « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟ »

قالوا: نعم ما جرّبنا عليك إلا صدقًا[1].

ولم يكن الصدق في حديث محمد ﷺ مقتصرًا على الحديث في أمور الدين والتشريع، أو سرد الأخبار ورواياتها، بل كان يلتزم الصدق حتى وهو يمازح أصحابه ويداعبهم، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا يا رسول الله! إنك تداعبنا. قال: «إني لا أقول إلا حقًّا»[2].

وقد وجّه أصحابه إلى التزام الصدق حتى في حال المزاح، فعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسُن خلقه »[3].

بل إنه يتوعّد من يجعل الكذب وسيلة يضحك بها الناس، فيقول: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له»[4].

وكما أنه يلتزم الصدق في حال الجد والمزاح، فقد كان يلتزمه أيضًا في حال الرضا والغضب، فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما- قال: قلت يا رسول الله! أكتب ما أسمع منك ؟

قال: « نعم ».

قلت: في الرضا والسخط ؟

قال: « نعم؛ فإنه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك إلا حقًّا »[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٩٠)، وأحمد (٨٥٠٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣١٥)، وأبو داود (٤٩٩٠).

(٥) أخرجه أحمد (٦٨٩١).

جوامع الكلم:

إن من أقوى ما يمكن أن يكون مؤثرًا في كلام محمد ﷺ هو ما يمكننا أن نطلق عليه: جوامع الكلم، وهي اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، كما سبق وضربنا أمثلة لها، ومن أمثلة ذلك: أنه جمع علومًا كاملة في جمل قصيرات، كما جمع علم المواريث في الشريعة الإسلامية وهو العلم الفذّ الذي لم يوجد مثيل له، فقال: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأَوْلى رجل ذَكَر»[1].

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[2].

وقد علم محمد ﷺ بهذه الخاصية عن نفسه، ولكنه لم يَرُدَّها لقدرة ذاتية أو قدرة علمية فيه، بل نسب الفضل فيها لربه الذي رزقه بها، وأكرمه بها؛ فقال: «وأُعطيت جوامع الكلم»[3].

وفسَّر شُرَّاح الحديث جوامع الكلم: بأنها الكلام الموجز القليل، اللفظ الكثير المعنى[4].

وتصف زوجته عائشة -رضي الله عنها- حديثه بالإيجاز فتقول: إن كان رسول الله ﷺ ليحدث الحديث لو شاء العادّ أن يحصيه أحصاه[5].

الإفصاح والإبانة:

كان محمد ﷺ يتحدث بأسلوب يجعل مقاله في غاية الإفصاح والإبانة، ولا يعوق المستمع عن سماع ما يقول ووعيه. ومن ذلك: أنه كان يكرر الكلمة ثلاثًا، فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان إذا سلَّم سلَّم ثلاثًا، وإذا تكلم بكلمةٍ أعادها ثلاثًا[6].

ومنها: أنه لم يكن يسترسل في حديثه بطريقة تعوق المستمع عن وعي ما يسمع، بل كان يترسل، كما تصف عائشة - رضي الله عنها - حديثه بقولها: إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم[7].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٣٧)، ومسلم (١٦١٥).

(٢) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).

(٤) فتح الباري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٦) أخرجه البخاري (٩٤).

(٧) أخرجه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).

لم يكن فاحشًا ﷺ:

كان منطق محمد ﷺ بعيدًا عن الفحش، فلم يكن يتكلم إلا بالكلمة الطيبة، ولم يحفظ عنه كلمة فاحشة أو بذيئة،فعن أنس قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا لعّانًا ولا سبّابًا، كان يقول عند المعتبة ما له ترب جبينه[1].

وكان بعيدًا عن مواطن الهرج واللغو والحديث بما لا يفيد، فعن عائشة قالت عنه ﷺ: لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[2].

ولم يكن اجتناب محمد ﷺ للفحش خاصًا بموطن دون آخر، بل كان هذا شأنه في كل أحواله، حتى حين يتحدث مع من يرى الناس أنهم يستحقون ذلك، فعن عائشة - رضي الله عنها- أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة». فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه، وانبسط إليه. فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله! حين رأيت الرجل قلتَ له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه. فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة! متى عهدتني فحّاشًا؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»[3].

يبتعد عن التكلف ﷺ:

رغم ما أوتي محمد ﷺ من فصاحة وبلاغة فإنه كان بعيدًا عن التكلف: فلم يكن يستخدم في حديثه ألفاظًا غريبة تستعصي على الفهم، ولو قارنّا بين كلام الشعراء في وقته وكلامه ﷺ لوجدنا فرقًا شاسعًا؛ فالأغلب أن من يقرأ كلامه ﷺ ممن يعرف العربية يندر أن يحتاج إلى تفسير كلمة غريبة، أو الرجوع إلى المعاجم.

كما أنه لم يكن يتكلف السجع والمحسنات اللفظية، إنما يأتي كلامه على السجية والطبيعة.

وكذلك الأمر في تركيب الجمل وسياق الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٦)، وأحمد (٢٤٨٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).

وقد وصفه القرآن بذلك، فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (ص: ٨٦-٨٧).

وقد ذمَّ محمد ﷺ من يتكلفون في الحديث، فعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون». قالوا يا رسول الله: قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»[1].

كما ذمَّ من يتكلف الحديث وإخراج الكلام، بقوله: «إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال»[2].

ولهذا كان محمد ﷺ يخاطب بحديثه كل الناس؛ فيخاطب خاصة أصحابه، ويخاطب الشعراء والحكماء، ويخاطب العامة، ويخاطب الأعراب، والصغار والكبير، والجميع يفهمون حديثه ويعونه ويقع من أنفسهم موقعًا.

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وأحمد (١٧٢٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٥٣) وأبو داود (٥٠٠٥) وأحمد (٦٧١٩).

•• بشاشة محمد ﷺ:

البشاشة هي طلاقة الوجه عند اللقاء، تبدو في ملامح الوجه وبسمات الشفاه، كما تبدو في التبسط والتحبب، ومحاولة التقارب وروعة الاستهلال.

ومن فقد البشاشة فقد افتقد كسبًا مهمًا في أول لقاء، والعكس صحيح، فعبوس الوجه يسبِّب الضيق، ويُشعِر الآخر بعدم الرغبة في اللقاء، والابتسامة وحدها عطاءٌ، وتدل على نفس قادرة على البذل للآخرين والاهتمام بالناس والفرح لفرحهم ومشاركتهم في كل أحوالهم، وهي أول العطاء وهي المحددة لما بعدها.

وقد بيَّن محمد ﷺ ذلك المعنى، فقال موضِّحًا العلاقة بين العطاء والابتسامة، فقال: «وتبسمك في وجه أخيك صدقة»[1].

فالابتسامة صدقة، والابتسامة رسالة حب وصدق وإخلاص، تعطيها بلا مقابل، فتجني من ورائها الكثير من الخير، والابتسامة تقطع المشكلات وتحلها من بدايتها، أو تسهم في حلها إذا بدأت، والابتسامة تحوِّل العدو إلى صديق، والابتسامة تزيدك قربًا ممن تحب، ويأنس الناس إليك.

والابتسامة تقضي على الحزن والكرب، والابتسامة تؤلف القلوب وتيسر المهمات، فإذا قابلت المشكلات بابتسامة، فقد قمت بجزء كبير من حلها؛ لأنك تعد نفسك داخليًا لمواجهتها، والابتسامة عند النعمة شكر، وعند البلاء رضيً بالقضاء.

ولم يكن محمد ﷺ مكتفيًا بأمر أصحابه بالابتسامة، وحثهم عليها فحسب، بل كانت سمة بارزة له.

يقول جرير بن عبد الله البجلي أحد صحابته ﷺ: «ما رآني رسول الله ﷺ إلا ابتسم في وجهي»[2].

ويصفه أحد أصحابه بأنه أكثر الناس تبسمًا؛ يقول عبد الله بن الحارث الزبيري ﷺ: «ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٧٥١)، والترمذي (٣٦٤١).

إن هؤلاء ليسوا من الصحابة المشاهير الذين صحبوه فترة طويلة، ولم تكن لهم أعمال كبيرة منوطة بهم في عهد النبوة، ولم يكونوا من السابقين الأوائل حتى نقول: إنه يرحب بهم، ويكافئهم على أعمالهم، فكيف بمن ضحى وقاتل وجُرح وعُذِّب وتحمل؟

لقد كان محمد ﷺ يبتسم للجميع دون استثناء، ويفهم منه أنه كان دائمًا مع الناس مبتسمًا، حتى إن عمرو بن العاص ﷺ كان يظن أنه أحب الناس إليه لما يرى من حفاوته، ولهذا سأله عن أحب الناس إليه وهو يرجو أن يكون هو.

فعن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك ؟ قال: «عائشة». فقلت من الرجال؟ فقال: «أبوها». قلت: ثم من؟ قال: «عمر بن الخطاب»[1].

لقد كان محمد ﷺ ينفذ تعاليم ربه الذي أمره بالرقة والذوق وحسن التعامل مع الناس أجمعين، وها هي آيات القرآن تصفه بذلك: ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، أي: أنك يا محمد! سهل وبشوش، هيِّن وليِّن، ولو كنت عكس ذلك ما استطعت جمع كل هذه القلوب حولك.

وهكذا كان محمد ﷺ يدعو أصحابه إلى الطلاقة والبشاشة، وحسن اللقاء فكان يقول: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[2].

ووصفه أحد أصحابه المقربين منه، وهو عمر بن الخطاب ﷺ بقوله عن ضحك رسول الله ﷺ : «وكان من أحسن الناس ثغرًا»[3].

ويقول سمُرة بن جندب يصف صاحبه محمدًا ﷺ: «كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم ﷺ»[4].

إنه إذًا لم يكن بالمتجهِّم العبوس إظهارًا لجديته ولنبوته، إنما كان هاشًّا باشًّا لغيره.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩) واللفظ له.

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٢٢).

ونحن نرى رجالاً لا تفارق البسمة وجوههم إذا كانوا في مصلحة ذاتية أو تعامل يجلب لهم نفعًا، ولكنهم إذا عادوا إلى بيوتهم وأهليهم يبدلون أوضاعهم ويكسو العبوس وجوههم، ولكن محمداً ﷺ لم يكن كذلك، تقول زوجته عائشة - رضي الله عنها-: «كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاكًا بسّامًا»[1].

ولم يكن تبسُّمه عند الفرح وعند الرضا فحسب، بل كان ربما استعمل بسمته في تخفيف حدة غضبه، وينجح في ذلك، فقد تخلف كعب بن مالك ﷺ عن غزوة تبوك ولم يحضر معهم، وبعد أن عاد رسول الله ﷺ، وذهب كعب يعتذر إليه (والقصة طويلة). قال كعب في سرده لحكايته: «فجئت فسلمت عليه فتبسم تبسُّم المغضب، فقال: ما خلَّفك؟»[2]، أي: أنه تبسم وهو غاضب، ولم يبد من غضبه سوى أنه تبسم، كما يقول كعب في نهاية حكايته، وبعد أن أبلغوه قبول الله العفو عنه، يقول: «فلما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور، وكان إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»[3].

ولم يكن محمد ﷺ بسَّامًا مع أصحابه المؤمنين فقط، بل كان بسامًا مع الجميع، حتى مع من يكره، فقد دخل عليه رجل سيئ الخلق فاحش القول، فاستأذن عليه في بيته، فقال: «ائذنوا له»: فلما دخل عليه تطلق في وجهه، وألان له الكلام، وانبسط له في الحديث، فسألته زوجه عائشة رضي الله عنها عن ذلك فقال: «أي عائشة! إن شر الناس من تركه الناس أو وَدَعه الناس اتقاء فحشه»[4]. وقال: «إن الله لا يحب الفاحش المتفحش»[5]، حتى الرجل الفاحش السيئ الخلق تبسَّم النبي في وجهه، وهشَّ له، وعامله معاملة حسنة وهو في بيته.

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١٠٠١)، (١٧٥٠)

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٥٦)، ومسلم (٢٧٦٩)

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٧٩٢)، وأصله في البخاري (٦٠٣٢)

•• تبسمه ﷺ مع الأحداث:

إن حب الدنيا وحب المال أمر فطري، قد ارتكز في نفوس البشر، ولعلم محمد ﷺ بطبيعة النفوس البشرية وميولها لم يتعجب من صنيعها، بل تبسم إذا رآها في لحظة تفرح بخير الدنيا إذا أقبل، فقد جاء أبو عبيدة بن الجراح ﷺ بمال من البحرين، فوافق صلاة الفجر، فلما انصرف من الصلاة تعرضوا له، ولم يتفرقوا، فتبسم رسول الله ﷺ إليهم حين رآهم، وقال: «أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء؟» قالوا: أجل يا رسول الله!. قال: «فأبشروا وأمِّلوا ما يسركم»[1].

عن أنس ﷺ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب بالمدينة، فقال: قحط المطر فاستسق ربك، فنظر إلى السماء وما نرى من سحاب، فاستسقى فنشأ السحاب بعضه إلى بعض، ثم مُطِرُوا حتى سالت مثاعب المدينة، فما زالت إلى الجمعة المقبلة ما تقلع، ثم قام ذلك الرجل أو غيره والنبي ﷺ يخطب، فقال: غرقنا فادع ربك يحبسها عنا فضحك، ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا» مرتين أو ثلاثًا، فجعل السحاب يتصدع عن المدينة يمينًا وشمالاً، يمطر ما حوالينا ولا يمطر منها شيء؛ يريهم الله كرامة نبيه ﷺ وإجابة دعوته[2].

وفي مواقف الحياة المتكررة من سفر وإقامة، لا تفارق الابتسامة محمدًا ﷺ فعن علي بن ربيعة قال شهدت عليًا أُتِيَ بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله ثلاثًا. فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثم قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾(الزخرف: ١٣ - ١٤) .

ثم قال: الحمد لله ثلاثًا، والله أكبر ثلاثًا، سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ثم ضحك.

قلت: من أي شيء ضحكتَ يا أمير المؤمنين؟!

قال رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعتُ ثم ضحك، فقلت: من أي شيء ضحكت يا رسول الله؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١)

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٣)، ومسلم (٨٩٧).

قال: «إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك»[1].

إنها ابتسامة رقيقة شفافة، تخرج على ملامح وجهه، تعبر عن علمه وإدراكه لطبائع النفس البشرية إذا تغيرت بها الأحوال.

ابتسامة الرضا:

إن ابتسامة الرضا كثيرًا ما كانت تبدو على وجه محمد ﷺ مع كل سلوك يراه فيرضى به، أو يعجبه من أصحابه أو أحد ممن معه، فحيتما يرى فقهًا من أصحابه في دين الله أو يراهم قد اهتدوا إلى أمر شرعي بفطرتهم كان يسعد ويُسَرّ ويفرح ويبتسم.

فقد ذهب جماعة من أصحابه في سفر ومروا على قبيلة عربية ولم يكن معهم طعام، ورفضت القبيلة إطعامهم على الرغم من أن عادة العرب غير ذلك، ولدغت عقرب قَدَم كبيرهم، فسألوهم: هل منكم أحد يرقي من لدغ العقرب؟ فقال واحد منهم: نعم، فقرأ عليه فاتحة القرآن، فشُفي الرجل، وأعطوهم أغنامًا، فرفضوا قبولها، حتى يعودوا إلى رسول الله فذكروا الحادثة له، فابتسم ثم قال: قد أصبتم اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا فضحك رسول الله ﷺ[2].

لقد ظلت ابتسامته تضيء المواطن والقلوب، ولم تنطفئ يومًا، بل إنها لم تنطفئ عن وجهه الكريم حتى في آخر لحظات حياته، فبينما المسلمون في صلاة الفجر لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف سِتْر حجرة عائشة - رضي الله عنها - فنظر إليهم وهم صفوف فتبسم يضحك[3].

---

(1) أخرجه أبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي (٣٤٤٦) واللفظ له.

(2) أخرجه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

(3) أخرجه البخاري (٧٥٤)، ومسلم (٤١٩).

•• السكينة والوقار في شخصيته ﷺ:

السكينة والوقار شكلان لمعنًى واحد هو الهدوء الناتج عن السلام والاستقرار النفسي. ولكن السكينة أمر داخلي في القلوب، والوقار أمر خارجي تابع لها يظهر في الجوارح، فإن كان القلب ساكنًا آمنًا مستقرًا، ظهر ذلك في الجوارح فلا تتحرك إلا بهدوء وسلام.

ولقد نص القرآن الكريم على أن الله تعالى أنزل عليه ﷺ، وعلى من معه السكينة في أكثر من موضع:

قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾(الفتح: ٢٦).

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ (التوبة: ٤٠).

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(الفتح: ١٨)

إن الناظر لسيرة محمد ﷺ يجد أن قلبه كان مطمئنًا ساكنًا هادئًا مستقرًا، ذلك أنه لم تكن الدنيا هي كل شيء في حياته، وأخبر عن شأن الدنيا لديه بما قال ومثّل لأصحابه: «ما لي والدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم تركها»(١).

لقد صوَّر محمد ﷺ صلته بالدنيا كرجل يسير في طريق طويل يريد أن يبلغ غاية ما، فوجد شجرة فجلس تحتها ساعة يستظل ثم يعاود سيره، وهكذا كان فعليًا في الدنيا، فلم تكن كل شيء في حياته، ولم تكن تسيطر عليه، بل كان يتعامل معها باعتدال؛ مما أورثه الطمأنينة والاستقرار.

وجاء في القرآن الكريم أمر الله تعالى له والمؤمنين معه بالتحلي بالسكينة والوقار، في سلوكه وتصرفاته جميعها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧)، أي بلا تكبر ولا تجبر، وامشِ متواضعًا وقورًا هادئًا ساكنًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (٣٧٠١).

وحينما وصف له ربه صفات عباد الرحمن الصالحين قال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ (الفرقان: ٦٣).

فأول وَصْف لهم وصف هيئة المشي في هدوء وسكينة ووقار وهو انعكاس لاطمئنان القلب، والوقار والسكينة بعيدان تمامًا عن التماوت في المشي بهيئة المريض، فالوقار أن تمشي جادًا، وهي مشية وسط بين التبختر والفخر والتماوت والانكسار.

وقد بان أن للسكينة والوقار علامات كثيرة في شخصية محمد ﷺ فظهرت في حركاته، فهو هادئ رزين.

وظهرت في كلامه، فهو يكثر الصمت ولا يقول إلا خيرًا. ولا يضحك إلا تبسمًا، وهو قليل المزاح، نادر الضحك، كثير التبسم.

وظهرت في شجاعته، فهو الشجاع عديم الخوف من الناس كثير الخوف من ربه، لا يقلقه الفزع، ولا تؤثر فيه المخاوف.

وظهرت في ردود أفعاله فهو حكيم التصرفات بعيد النظر.

وظهرت في عباداته فهو كثير العبادة محب لها.

وظهرت في معاملاته فهو مُعرِض عن الدنيا، مقبل إلى الآخرة.

وقد وصفت زوجته عائشة - رضي الله عنها- وقاره؛ فقالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا قط ضاحكًا حتى ترى منه لَهَوَاته، إنما كان يتبسم[1].

بل كان كثيرًا ما يكون مطرقًا ساكنًا، يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته، وسيرته وحركته وسكونه، ونطقه وسكوته، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكّرًا بكل فضيلة.

وكان كثيرًا ما يأمر أصحابه بالسكينة في العبادات والأعمال، فيروي أبو هريرة ﷺ أنه سمعه يقول: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم بالسكينة والوقار، ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[2].

وعن أبي قتادة قال: صليت مع النبي ﷺ فقال: «لا تقوموا حتى تروني وعليكم بالسكينة»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩)

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٥)، ومسلم (٦٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٩٠٩)، ومسلم (٦٠٤).

وكان يعلِّم أصحابه أن السكينة إنما تتنزل على المرء بذكره لربه وعبادته له؛ فيقول لهم: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم: إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

وكان صاحبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتشبه به في نصحه؛ فينصح الناس فيقول لهم: تعلَّمُوا العلم، وتعلموا معه السكينة والوقار.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

الفصل الثالث

يوم في حياة محمد ﷺ

› مقدمة
› على مائدة طعام محمد ﷺ
› زينة محمد ﷺ ولباسه
› ثياب محمد ﷺ
› عبودية محمد ﷺ
› نوم محمد ﷺ
› محمد ﷺ في أفراحه وأحزانه
› مزاح محمد ﷺ
› أحزان محمد ﷺ

الموسوعة الشعرية

•• مقدمة:

اعتاد القادة والمشاهير وأمثالهم أن تكون لهم حياتهم العامة التي يظهرون بها أمام الناس، وأن تكون لهم حياة أخرى خاصة تحوي أسرارهم وخصوصيات كثيرة في طباعهم وأسلوب حياتهم، تلك الحياة الخاصة التي يحرصون جميعًا على إخفائها ووضعها خلف السُتُر.

ورغم أن محمدًا ﷺ قد قاد أمة غفيرة الأعداد، واشتهر ذكره كأكثر ما تكون الشهرة، إلا أنه كان دومًا حريصًا أن يحيا بوجه واحد من الحياة، وجه واحد لا يخلفه، يحيا به في سرّه وفي علنه، ويبديه أمام الناس وبعيدًا عنهم.

لقد ولد محمد ﷺ وعاش حياته كلها تحت الشمس وفي دائرة الضوء - كما يقولون - ، فلا تكاد تخفى من خصوصياته خافية مهما كانت صغيرة، والعجيب هنا أنه لم يضجر من تلك الملاحقات المستمرة في الأسئلة، ولا اقتحام خصوصياته الخاصة، بل ربما كان هو بنفسه يعلن عن جوانب مختلفة من خصوصياته وحياته، وكان الناس يسألونه عن كل صغيرة وكبيرة وهو يجيبهم بكل سعة صدر، بل كانت النساء يسألن زوجاته عنه وعن أحواله، وكنَّ يجبن أيضاً بكل وضوح.

فربما سأل عروة بن الزبير خالته عائشة - زوجة محمد ﷺ - عن حياتها مع النبي ﷺ فتقول له: «يا ابن أختي! إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أُوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار. فكان يقول لها: يا خالة! ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا»(1).

وفي حديث آخر يسأل أحدهم عائشة زوج محمد ﷺ والتي يعدونها - بصريح القرآن - أم المؤمنين؛ عن أسئلة خاصة جدًا من حياته، وهي تجيبه بكل وضوح؛ لأنها تدرك أن هذا السائل يريد أن يعرف سنن نبيه، ويقلده فيها؛ فعن عبد الله بن أبي قيس قال: سألتُ عائشةَ: كيف كان يصنع في الجنابة؟ أكان يغتسل قبل أن ينام؟ أم ينام قبل أن يغتسل؟ قالت: « كل ذلك قد كان يفعل، ربما اغتسل فنام، وربما توضأ فنام.

---

(1) أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

قلت: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة»[1].

ولنحاول ها هنا في هذا الفصل أن نعيش مع محمد ﷺ في حياته اليومية ونعرف جوانب من تلك الحياة.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٧).

على مائدة طعام محمد ﷺ :

لم يكن تناول الطعام لدى محمد ﷺ عملية عضوية بحتة، بل كان يمثل نموذجًا لنظرته للحياة، ولأخلاقه وسلوكه وخصائص شخصيته.

وفيما يلي نتناول جانبًا من حياته ﷺ وكيف كان يتناول طعامه.

قناعة وزهد :

لم يكن محمد ﷺ يردُّ طعامًا أبدًا مهما كان هذا الطعام، فإن اشتهاه أكله، وإن لم يشتهه اكتفى بأن يتركه دون أن يتكلم عنه أو يرفضه، فلم يكن يعيب طعامًا أبدًا، بل حتى لم يكن يقول إن هذا حار، وهذا مالح، يقول صاحبه أبو هريرة: «ما عاب النبي ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه»[1].

بل إنه في موقف طريف قد قدم له أحد مضيفيه ضبًّا – حيوان صحراوي – مشويًّا، فعافته نفسه، ولم يأكل منه، إلا أنه لم يَعِبْه ولو بكلمة، بل سكت وتركهم يأكلون، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: إن محمدًا ﷺ وخالد بن الوليد أحد كبار قادة جيوشه قد جمعهم طعام، ووُضع لهم على مائدتهم ضبّ مشوي، وعندئذ نترك لخالد يصف لنا الموقف فيقول: فرفع رسول الله ﷺ يده عن الضب. فقال خالد بن الوليد: أحرام الضب يا رسول الله؟! قال: « لا؛ ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه »، قال خالد: فاجتررته فأكلته ورسول الله ﷺ ينظر إليّ[2].

ولم يكن محمد ﷺ امرأ شَرِهًا في طعامه، ولا كثير الأكل، ولا يملأ بطنه بطعامه، بل كان قليل الطعام، وحسبه يأكل ما يقيم صلبه وفقط، حتى إنه كان ينصح أمته، فيقول لهم ذامًّا كثرة الطعام: «ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْن صُلْبَه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[3].

وهي النصيحة التي قال عنها أساتذة الطب وعلماؤه: إنها قد جمعت جميع معاني الوقاية من الأمراض في جملة واحدة فريدة لم يُسْبَق إليها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣٧)، ومسلم (١٩٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد (١٦٧٣٥).

وتحكي بنت عمه أم هانئ فتقول: «دخل عليّ النبي ﷺ فقال: أعندك شيء؟ فقلت: لا، إلا خبز يابس وخلّ، .. فقال: هات، ما أَقْفَر بيتٌ من أُدُم فيه خَلّ»[1].

واسمح لنا - أيها القارئ - أن نتعجب معك من بساطة حياة هؤلاء، وبساطة تلك المعاملة التي يتعامل بها محمد ﷺ معهم، فهو يدخل على إحدى قريباته، ويسألها: هل عندك من طعام؟ فتجيبه أن ليس عندها سوى الخبز والخل، فيأكل ثم يمتدح لها طعامها ذاك البسيط غير المرغوب فيه، ويقول لها بكل مشاعر رقيقة: إن البيت الذي به خل ليس ببيت فقير.

ويتحدث صاحبه النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - يومًا معاتبًا أقرانه على كثرة ما يتنعمون به فيقول لهم: «ألستم في طعام وشراب ما شئتم؟ - أي: في سَعَة -، لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقَل - رديء التمر - ما يملأ به بطنه»[2].

ويقول ابن عمه ابن عباس - رضي الله عنهما - : «كان محمد ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا - جوعانًا بلا طعام - وأهله لا يجدون عشاء»[3].

إن هذا الذي نتحدث عنه هو قائد في قومه ومتبوع في أمته، ولو أراد أن يجمع من الطعام ما يكفي جمعًا كبيرًا في بيته لفعل، ولكنه يعيش هذه الحياة الشفافة كأي فقير في أمته، فيشعر بهم ويحيا حياتهم، ولا يتكلف عيشًا أفضل من عيشهم.

وانظر إلى تلك الشهادة من أحد أصحابه تنبئك عما كان يعلمه عنه الناس، يقول أبو هريرة ﷺ: والذي نفسي بيده! ما أشبع رسول الله ﷺ أهله ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا»[4].

ويأتي يوم ويمر أبو هريرة ﷺ ذاته على قوم بين أيديهم شاة مصلية فيدعونه، فيأبى أن يأكل، ويقول: خرج الرسول ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير[5].

ويصف خادمه أنس بن مالك موقفًا آخر لا ينساه؛ فيقول: أُهدي لرسول الله ﷺ تمرٌ فجعل يقسمه بمكتل واحد، وأنا رسوله به، حتى فرغ منه. قال: فجعل يأكل وهو مُقْعٍ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٨٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٧٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٦٠)، وابن ماجه (٣٣٤٧)، وأحمد (٢٣٠٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٧٦)

(٥) أخرجه البخاري (٥٤١٤).

أكلاً ذريعًا، فعرفت في أكله الجوع[1].

•• ذوق وآداب:

لقد كان لمحمد ﷺ منظومة فريدة في الذوق والآداب تختص بالطعام والشراب، وما يتعلق بهما، حتى إنه كان يعلمها الصغير والكبير من أمته تعليمًا دقيقًا:

فيقول لغلام ربيب له - ابن زوجته أم سلمة - هو عمر بن أبي سلمة: «يا غلام! سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»[2]، إنه يعلمه هنا منذ صغره أن يذكر اسم الله قبل أن يتناول طعامه، فيبدأ ببسم الله، ثم يؤكد عليه أن يأكل بيمينه التي علمه محمد ﷺ أن يستخدمها في كل خير، وأن يأكل مما يليه فلا يتعدى على طعام غيره، ولا يمد يده إلى آخر الإناء.

وعن حفصة زوج محمد ﷺ أن « رسول الله كان يجعل يمينه لأكله، وشربه، ووضوئه وثيابه، وأخذه، وعطائه، وشماله لما سوى ذلك »[3].

ونهى أصحابه عن الأكل بالشمال: فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما- : « نهى أن يأكل الرجل بشماله »[4].

ويتجلى في طعام محمد ﷺ الحرص على النظافة وحماية الصحة، فقد كان يغسل يديه قبل كل طعام، تقول عائشة - رضي الله عنها-: «كان إذا أراد أن يأكل غسل يديه»[5].

كما كان ينهى عن التصرفات التي تخرج عن حدود الذوق واللباقة أثناء تناول الطعام، أو تلك التي قد تجلب الضرر، فقد تجشأ رجل بحضرته ﷺ فنهاه، وقال له: «كُفَّ عنا جشاءك»[6].

كما نهى عن النفخ في الطعام والشراب، وأمر أن يتنفس الإنسان خارج الإناء ثلاثًا

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٦٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٢٥٩)، والترمذي (١٢)، والنسائي (٢٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٩٩).

(٥) أخرجه النسائي (٢٥٦)، وأحمد (٢٤٣٥٣).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٤٧٨)، وابن ماجه (٣٣٥٠).

إذا أراد أن يشرب، وأن يشرب على ثلاث مرات، ونهى أن يشرب المرء من في السقاء كراهة أن ينقل مرضه إلى غيره، أو أن يستقذر ذلك الآخرون.

وكان ينهى عن الكبر بجميع مظاهره في أثناء طعامه؛ حيث يرى أن الطعام إنما هو نعمة ومنة ربانية على الإنسان، فينبغي عليه أن يتواضع أثناء تلقيه تلك النعمة، فيقول: «لا آكل متكئًا»[1]. والاتكاء حينئذ جلسة تدل على التكبر والترفع.

ولما كانت طبيعة الحياة في وقته ﷺ أن يأكل الناس على الأرض، وكان الأكل على المناضد والخوانات المرتفعة عن الأرض إنما يفعله المتكبرون؛ تجنب محمد ﷺ ذلك، فكان يأكل كما يأكل عامة الناس وفقراؤهم آنذاك، فعن أنس بن مالك قال: «ما أكل نبي الله على خوان»[2].

وكما نهى عن التكبر في هيئة أكل الطعام وكيفيته؛ فقد نهى عن ذلك فيما يتعلق بآنيته، فنهى أمته عن الأكل أو الشرب في آنية الذهب والفضة، فعن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنهما- قال: «نهانا النبي ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها»[3].

كما نهى عن الأكل منبطحًا، فقال صاحبه عمر بن الخطاب: «إن رسول الله ﷺ نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على بطنه»[4].

كما نهى عن جميع علامات سوء الأدب على الطعام أو علامات الشراهة، أو المفاخرة التي يترتب عليها إضاعة الطعام، فعن ابن عباس قال: «نهى رسول الله ﷺ عن معاقرة الأعراب»[5] والمعاقرة كانت عادة لدى الأعراب يتفاخرون فيها، فينحر الرجل عددًا من الإبل، والآخر ينحر مثلها، حتى يغلب أحدهما الآخر، وهي صورة من صور إضاعة المال، ومن صور العبث والمنافسة غير المفيدة ولا الشريفة.

وفي خلافة علي بن أبي طالب ﷺ صاحب رسول الله ﷺ وصهره،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٣٧)، ومسلم (٢٠٦٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٧٧٤)، وابن ماجه (٣٣٧٠).

(٥) أخرجه أبو داود (٢٨٢٠).

قام رجل بنحر مائة من الإبل، والآخر كذلك؛ فتداعى الناس ليأخذوا من اللحم، فنهاهم عليّ بن أبي طالب ﷺ عن أن يأخذوا منه ، زجرًا لصاحب ذلك الصنيع المرذول.

لقد ربى محمد ﷺ أمته على الكرم، وأعلى من شأنه، وكان هو نفسه كريمًا ورث الكرم من أبيه إبراهيم نبي الله، والذي قصَّ القرآن خبره أنه نحر لأضيافه العجل السمين، لكنّ الكرم إنما يُمْدَح حينما يكون وسيلة للعطاء، وبذل الخير للناس، وإطعام المحتاج، فإذا تحول إلى مفاخرة وإضاعة للمال؛ فإنه يتحول حينها إلى خُلق مذموم وسلوك غير لائق.

واجتمع محمد ﷺ ذات مرة يأكل مع أصحابه؛ فقعد على ركبتيه جالسًا على ظهر قدميه حين كثر الناس وزاد الزحام، فقال أعرابي: ما هذه الجِلْسة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله جعلني عبدًا كريمًا، ولم يجعلني جبارًا عنيدًا»[1].

وكان محمد ﷺ يخدم أصحابه في طعامهم وشرابهم: فقد كان معهم في سفر ذات مرة فعطشوا فجيء بالماء، فكان ﷺ يصب الماء لهم، وأبو قتادة يسقيهم، حتى لم يبقَ غيره وغير أبي قتادة ثم صبَّ محمد ﷺ فقال لأبي قتادة: «اشرب»، فقال أبو قتادة: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله! قال: «إن ساقي القوم آخرهم شربًا»[2].

•• طعام الأتقياء :

كان محمد ﷺ يرى في الطعام نعمة من الله عز وجل، لذا علّم أمته ﷺ أن يبدؤوا طعامهم باسم الله، فعن زوجته عائشة - رضي الله عنها - أنه ﷺ قال: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله»[3].

وكما كان يبدأ طعامه بذكر الله تعالى فقد كان يختمه بحمده وشكره، ويأمر أصحابه بذلك.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «كان النبي ﷺ إذا أكل طعامًا قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»[4].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٧٣)، وابن ماجه (٢٢٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (٦٨١).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٧٦٧)، والترمذي (١٨٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٥٧)، وابن ماجه (٣٢٨٣).

وكان إذا رفع طعامه قال: «الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا غير مكفيٍّ ولا مُوَدَّع ولا مستغنًى عنه ربنا»(1).

وأمر أمته بذلك، وأخبر أنه سبب لنيل رضا الله وثوابه؛ فقال: «إن الله يرضى من العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»(2).

ثم إنه اعتاد ﷺ أن يدعو بعد الطعام لنفسه، ولأهل البيت المضيف، وفي دعائه دروس أخرى مهمة تفهمنا جانبًا آخر مما نريد:

فعن معاذ بن أنس أن محمدًا ﷺ قال: «من أكل طعامًا فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورَزَقَنيهِ من غير حول مني ولا قوة غُفر له ما تقدم من ذنبه»(3).

وكما كان يدعو بعد انتهائه من الطعام لنفسه، ويأمر أمته بذلك، فقد كان يدعو لمن تناول عندهم الطعام، وفي ذلك من الخلق والإحسان إليهم، ورد الجميل لهم، ولم يكن هذا الدعاء خاصًا بمن يقدمون له الموائد الحسنة والطعام الفاخر، فيروي صاحبه أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة، فجاء بخبز وزيت فأكل، ثم قال النبي ﷺ : «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة»(4).

كما نصح أصحابه ألا يجتمعوا في طعامهم إلا مع الأتقياء فيقول: «لا تُصاحِبْ إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي»(5).

ونهى عن التطفل على الموائد، وألا يأكل المرء طعامًا إلا بسماحة نفس من المضيف، فعن أبي مسعود ﷺ قال: جاء رجل من الأنصار، يُكنَّى أبا شُعَيْبٍ، فقال لغلام له قَصَّابٍ: اجعل لي طعامًا يكفي خمسة، فإني أريد أن أدعو النبي، خامس خمسة، فإني قد عرفت في وجهه الجوع، فدعاهم، فجاء معهم رجل، فقال النبي ﷺ: «إن هذا قد

(1) أخرجه البخاري (٥٤٥٨).

(2) أخرجه مسلم (٢٧٣٤).

(3) أخرجه الترمذي (٣٤٥٨)، وابن ماجه (٣٢٨٥).

(4) أخرجه أبو داود (٣٨٥٤)، وأحمد (١١٧٦٧)، والدارمي (١٧٧٢).

(5) أخرجه الترمذي (٢٣٩٥)، وأبو داود (٤٨٣٢)، وأحمد (١٠٩٤٤).

تبعنا، فإن شئت أن تأذن له، فأذن له وإن شئت أن يرجع رجع»، فقال: بل قد أذنت له[1].

وسأله أصحابه قائلين: إنا نأكل ولا نشبع! فقال: «فلعلكم تفترقون؟» قالوا: نعم، قال: «فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»[2].

وأخبرهم أن اجتماعهم على أكل الطعام سبب لزيادة الانتفاع به، ولكفايته أكثر مما لو تفرقوا، فقال: «طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨١)، ومسلم (٢٠٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦)، وأحمد (١٥٦٤٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٥٩).

•• زينة محمد ﷺ ولباسه:

جاء محمد ﷺ بشريعة تحب الجمال، وتدعو إلى الطهارة والزينة الطبيعية الحسنة، ولكنها تنبذ المبالغة، وتمنع ما يُفسد الأخلاق والمجتمعات من الكساء والثياب والزينات.

دعا محمد ﷺ الرجال والنساء جميعًا إلى النظافة والطهارة، حتى إنه ليدعوهم إلى الوضوء للصلاة بالماء الطاهر خمس مرات في كل يوم وليلة، ويدعوهم إلى غَسْل أيديهم إذا استيقظوا من النوم مباشرة، وإلى الوضوء بالماء قبل النوم، وأن يكونوا على طهارة في كل وقت وحين، حتى وصف المحافظين على وضوئهم بالمؤمنين، فقال في حديثه: «لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[1].

وأظهر ﷺ قيمة النظافة العامة في مقارنة لطيفة بين طهارة الباطن وطهارة الظاهر من الجسد والثياب فقال: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال:«فذلك مَثَل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[2].

وفي التجمعات العامة التي يكثر فيها الناس كان يؤكد على الاغتسال، ولا يكتفي بالوضوء، ففي يوم الجمعة؛ حيث يجتمع المسلمون لصلاة الجمعة، أكَّد محمد ﷺ على أمته العناية بالنظافة والتهيُّؤ لهذا اليوم، فأمرهم بالاغتسال، وبأن يغسلوا رؤوسهم، ويستخدموا السواك لتنظيف أفواههم، وبالتطيب[3].

وتحكي زوجته عائشة - رضي الله عنها- سبب تأكيده على الاغتسال يوم الجمعة في قولها: كان الناس ينتابون يوم الجمعة من منازلهم والعوالي فيأتون في الغبار، يصيبهم الغبار والعرق، فيخرج منهم العرق، فأتى رسولَ الله ﷺ إنسان منهم وهو عندي؛ فقال النبي ﷺ: «لو أنكم تطهرتم ليومكم هذا»[4].

ونلمس في هذا التوجيه من محمد ﷺ التلطف ومراعاة مشاعر الناس، فهو لم يتحدث معهم عما يبدو من بعضهم من رائحة غير مناسبة، بل أمرهم بالاغتسال، وكان

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧)، وأحمد (٢١٨٧٣)، والدارمي (٦٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٨٨٠) (٨٨٤)، ومسلم (٨٤٦).

(٤) أخرجه البخاري (٩٠٢)، ومسلم (٨٤٧).

هذا الأمر أيضًا بلفظ تلطف « لو أنكم ».

وحبَّب محمد ﷺ في العطر والتعطر، وأوصى بحسن الرائحة في كل مكان، خصوصًا اجتماعات الناس، وكان يأخذ المِسك فيمسح به رأسه ولحيته، وكان « لا يردُّ الطيب »[1].

وقال خادمه أنس بن مالك ﷺ: « كانت لرسول الله ﷺ سُكَّة يتطيب منها »[2].

ويدعو محمد ﷺ إلى تبادل العطر والتهادي بين الناس فيه، ويؤكد على أن من أهدي له طيب فلْيقبله ولا يرده[3].

كما حبَّب الرجال في حسن الهيئة قدر استطاعة كل واحد منهم؛ فلما سأله أحدهم فقال له: يا رسول الله! إن أحدنا يحب أن يكون نعله حسنًا وثوبه حسنًا، فقال له: « إن الله جميل يحب الجمال »[4].

وكان يوصي دومًا أن يُصلح المرء من شأنه، ومن هيئته الظاهرة للناس؛ فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلاً شعثًا قد تفرق شعره فقال: « أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره؟ »، ورأى رجلاً آخر وعليه ثياب وسخة فقال:« أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه؟ »[5].

ومع التأكيد على حسن المظهر والهيئة فقد وضع لذلك ضوابط ومعايير، منها أن يتميز الرجل بلباس يخصه، وتتميز المرأة بلباس يخصها.

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: « لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال »[6].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: « لعن رسول الله ﷺ، الرجل يلبس لِبْسَة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل »[7].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٦٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٥٣)، والترمذي (٢٧٩٠).

(٤) أخرجه مسلم (٩١).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٠٦٢)، وأحمد (١٤٤٣٦).

(٦) أخرجه البخاري (٥٨٨٥).

(٧) أخرجه أبو داود (٤٠٩٨)، وأحمد (٨١١٠).

إن محمدًا ﷺ لم يُلْزِم الرجال بلبس محدد، ولم يُلْزِم النساء كذلك، لكنه وضع ضوابط ومعايير يمكن أن تستوعب ما يَجِدّ في كل عصر من العصور؛ فحين يتعارف مجتمع ما على أن نوعًا من اللباس خاص بالرجل فالمرأة منهية عن لبسه، وهكذا العكس.

كما أمر محمد ﷺ المرأة بأن تلبس لبسًا ساترًا محتشمًا، ونهاها عن اللبس الفاضح أو إبداء الزينة أمام غير زوجها وغير أقاربها، الذين يسمون في الإسلام بالمحارم، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور:٣١).

ونظر محمد ﷺ إلى الثياب على أنها نعمة من الله سبحانه على العبد، مثلها في ذلك مثل الطعام والشراب، فيحب الله سبحانه أن يرى نعمته على عبده، من غير أن يتكبر العبد بها، أو أن يسرف في الاستمتاع بها، وإنما عليه التمتع بها بتواضع وقناعة، كما عليه أن ينفق منها ويتصدق على الفقير والمحتاج، فيقول في حديثه: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف، إن الله يحب أن تُرَى نعمته على عبده»[1].

وكان العرب قبل الإسلام يطوفون حول الكعبة وهم عراة؛ يقصدون بذلك أن يتجردوا من كل الثياب التي عصوا الله فيها، فعلمهم محمد ﷺ أن العبرة بطهارة الجوهر مع التحلي بالزينة المناسبة، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (الأعراف:٣١).

وقد أوضح القرآن في آياته أن الله قد أنعم على عباده بتلك النعمة؛ فينبغي شكره عليها، ولكنه أكَّد لهم أن خير ما يتستر به الإنسان هو مخافة الله وتقواه وبُعْده عن الآثام فقد قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:٢٦)، إن الآيات تُرشد إلى التقوى، وتصفها أنها تقي صاحبها من عذاب الله وغضبه، كما تقي الثياب الجسد من الحر والبرد.

---

(١) أخرجه النسائي(٢٥٥٩)، وابن ماجه(٣٦٠٥)، أحمد(٦٦٦٩).

ثياب محمد ﷺ :

حرص محمد ﷺ على مشاركة قومه كل ما كان حسنًا من أعرافهم وطبائعهم، ونبذ ما كان سيئًا بغيضًا، كما حرص على أن يعيش بينهم كواحد منهم، فلا يتفضل عليهم في ثيابه أو شيء من خصوصياته.

بل إنه لم يشرع لأحد من أمته ثيابًا خاصة يلبسها بوصفه مميَّزًا عن غيره، حتى العلماء والأمراء فهم جميعًا سواء مع كل الأفراد في تلك الأمة.

بل إنه قد نهى أمته عن أن يلبسوا ثياب شهرة يتصفون بها بالخصوصية [1].

كما نهى عن الألوان الفجة التي لا تترك أثرًا نفسيًا حسنًا في نفوس الناس، فنهى عن الأحمر الشديد، وعن الأصفر الشديد وغيرهما، ففي الحديث عن علي رضي الله عنه أنه «نهى عن المعصفر من الثياب»[2].

لذا فالمتأمل في ثيابه ﷺ يرى أنه كان يتعمد أن يلبس المتوسط منها، ويبتعد عن الفاخر الثمين، كما يبتعد عن الرث والقذر، فلبس الثوب، ولبس الإزار والرداء، ولبس العمامة، ولبس القلنسوة تحت العمامة، ولبسها بدون قلنسوة، وكان إذا لبس العمامة أرخاها وجعل لها ذؤابة من خلفها[3].

وكانت ثيابه من قطن أو من صوف أو كتان أو ما تيسر له، فيروي صاحبه المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ « لبس جبة رومية ضيقة الكمين »[4].

وهو يُعرض إعراضًا تامًا عن لبس الحرير، وينهى عنه الرجال من أمته، فيقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « أهدي إليّ حلة سيراء - نوع ثمين من الحلل - فلبستها فرأيت الغضب في وجه النبي ﷺ فخلعتها وشققتها بين النساء »[5].

فكأنه يحفظ شعور الفقير والمحروم من جهة، ويباعد بين رجال أمته وبين الخناعة والليونة والتشبه بالنساء، ونوع النعيم الذي يُنسِي الإنسانَ حق ربه عليه من جهة أخرى.

---

(١) أخرجه أبي داود (٤٠٢٩)، وابن ماجه (٣٦٠٦)، أحمد (٥٦٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٧٨).

(٣) زاد المعاد(١/١٢٨)

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٣)، ومسلم (٢٧٤).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦١٤)، ومسلم (٢٠٧١).

بل إنه دومًا يذكّر الرجال بأن يعرضوا عن الحرير والذهب، ويذكرهم دومًا أن لهم في الآخرة - إذا دخلوا الجنة - نعيمًا عظيمًا يتضاءل بجانبه نعيم الدنيا، فعليهم أن يتركوا من الدنيا ما نهاهم ربهم عنه؛ لأنه مما يثقلهم فيها ويُقعِدهم عن عبوديتهم لربهم، فيقول أنس بن مالك ﷺ: أُهدي للنبي ﷺ جبة سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها فقال: «والذي نفس محمد بيده! لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»[1].

وأهدى له زعيم دومة الجندل ثوب حرير فأعطاه صهره علي بن أبي طالب ﷺ وأمره أن يقسمه على النساء ليستخدمنَه خُمُرًا[2].

وكان أحب ألوان الثياب إليه هو الأبيض، وأوصى بالإكثار من لبسه؛ لما يمكن أن يدل على النقاء والشفافية والنظافة، فيقول: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم»[3].

ولم يكن تفضيله لبس البياض مانعًا من أن يلبس لونًا آخر؛ فقد ورد عنه أنه لبس حُلة حمراء كما نقل ذلك البراء بن عازب ﷺ قال: «رأيت النبي ﷺ في حلة حمراء، لم أر شيئًا قط أحسن منه»[4].

وكان محمد ﷺ يحب أن يلبس من الملابس الواسعة السابغة التي تتناسب مع البيئة الصحراوية الحارة التي عاش فيها، ولم يكن يختلف عن ملابس قومه؛ فتقول زوجته أم سلمة - رضي الله عنها-: وكان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص (وهو اسم لما يُلبَس من المخيط)[5].

وكان ربما خصص ثيابًا حسنة ليوم الجمعة، والأعياد، وللقاء وفود العرب، وينصح أصحابه بهذا؛ فتروي عنه زوجته عائشة - رضي الله عنها- أنه ﷺ قال: «ما على أحدكم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦١٦)، ومسلم (٢٤٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٧١).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٧٨)، وأحمد (٢٤٧٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٤٨)، ومسلم (٢٣٣٧).

(٥) أخرجه الترمذي (١٧٦٢)، وأبو داود (٤٠٢٥).

إن وجد سَعَة أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته»[1].

وكان يؤكد على عدم إطالة الثوب والإزار من تحت الكعبين مخافة الكبر والخيلاء، فكان إزاره لا يتجاوز الكعبين.

•• عبودية محمد ﷺ:

ويبيّن محمد ﷺ كيف أنه يمارس عبوديته لربه في كل شأنه حتى شأن ملابسه، فيضع آدابًا للبس ثوبه، فيبدأ بلبسه باليمين، ويخلعه بالشمال، ويحمد ربه إذا ما اشترى ثوبًا ويدعو فيقول: «الحمدُ لله الذي كَساني هذا ورزَقَنيه من غير حولٍ مني ولا قُوة»[2].

وكذا كان يدعو ربه أن يجعل أعماله كلها في ثوبه ذلك الجديد أعمالَ خير، وأن يباعد بينه وبين الشرور، وبين كل شر يمكن أن يأتي منه ذلك الثوب فيقول: «اللهم لَكَ الحمدُ أَنتَ كَسَوتَنيه، أسألك من خَيرِهِ وخَيْرِ ما صُنع له، وأعوذ بك مِنْ شرِّه وشَرِّ ما صُنِعَ لَهُ»[3].

ولما قيل له: إن الرسائل التي يبعث بها إلى الملوك والرؤساء يجب أن تكون مختومة بختم اتخذ خاتماً من فضة، وكان يضعه في خنصر يده اليسرى، وتارة يضعه في يده اليمنى، وكان نقشه: «محمد رسول الله»، وكانت الكلمات الثلاث هذه قد كُتبت عليه في ثلاثة أسطر[4].

وهكذا كان محمد ﷺ متوازنًا في تعامله مع اللباس، فلم يكن يلبس الرث والقذر، بل أمر بحسن اللباس ومراعاة الجمال، وفي الوقت نفسه لم يكن يبالغ في اللباس أو يلبس ما يقود إلى الكبر والترفع عن الآخرين.

وهكذا كان نظام اللباس لا ينفصل عن منظومة القيم والأخلاق التي دعا إليها محمد ﷺ فتتجلى فيه قيم: التواضع، ومراعاة مشاعر الآخرين، والجمال، والحياء.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٠٧٨)، ومالك في الموطأ (٢٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٢٣)، والدارمي (٢٦٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي (١٧٦٧)، و أبو داود (٤٠٢٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥)، ومسلم (٢٠٩٢).

•• نوم محمد ﷺ :

كما عدَّ محمد ﷺ جميع أعماله عبودية لربه، فقد عدَّ النوم كذلك، فلم يكن نومه كغيره من الناس انقطاعًا كاملاً عن الحياة، وهروبًا من المشكلات والأزمات، وبُعدًا عن دورة المسؤوليات، ولكنه كان يرى نومه نوعًا من عبوديته لربه.

و قد جعل للنوم سننًا وآداباً التزم بها ونصح بها أمته، فكان إذا أخذ مضجعه وضع كفه اليمنى تحت خده الأيمن، ثم ناجى ربه، وقال: «رب قني عذابك يوم تبعث عبادك»[1].

وكان يتذكر بنومه الموت الذي يموته الإنسان، فلا يملك لنفسه قدرة ولا نفعًا ولا ضرًا، ويُذكر نفسه بيوم القيامة، يوم يبعث الله العباد، ثم يسأل ربه أن يقيه عذاب اليوم الآخر.

ويحكي حذيفة بن اليمان عن دعاء آخر له فيقول: كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم باسمك أموت وأحيا»، وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[2].

وفي دعاء آخر كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه يتذكر ما أنعم الله عليه طول يومه، من طعام وشراب، وكفاية، ومأوى، ويتذكر الذين لا مأوى لهم ولا كفاية لهم، فيقول: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي»[3].

ولم يكن محمد ﷺ يكثر من النوم بحال، ولم يكن نومه غفلة عن عباداته، فكان ينام بعض الليل، ثم يقوم فيصلي لربه وحده في جوف الليل، فربما نام أول الليل، ثم قام وسطه، ثم نام بعضه ثم قام آخره.

بل عدَّ محمد ﷺ العبادة بالليل من أفضل العبادات؛ لأنها تكون متصفة بالإخلاص، وتُكسب القلب إيمانًا وشفافية ونقاء، ويقترب العبد فيها أكثر من ربه، فيقول في حديثه: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٩٨)، وأحمد (٢٢٧٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٢)، ومسلم (٢٧١١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧١٥).

(٤) أخرجه مسلم (١١٦٣).

بل إنه كان يتابع شأن أصحابه، ويأمرهم بالصلاة في جوف الليل، ويجعلها مطهرة قلبية لهم ونوعًا من أنواع التربية النفسية، ويحكي صاحبه عبد الله بن عمرو بن العاص فيقول: إن محمدًا التقى به فقال له: «يا عبد الله! لا تكن كفلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل»[1].

وفي بعض الأحيان ربما قام ليلة بآية واحدة من القرآن يقرؤها ويبكي، يسأل ربه أن يغفر لأمته ويعفو عنهم، فيسمع الناس بكاءه حتى يصبح وهو يناجي ربه، ويقول: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم».

ولم يكن محمد ﷺ يحرص على تهيئة مكان فاخر لنومه، وإنما كان ينام على فراش بسيط جدًا، تقول زوجته عائشة - رضي الله عنها-: « إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه من أدم حشوه ليف »[2].

ودخل عليه صاحبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم فوجده قد نام على حصير وأثر الحصير في جسده، فبكى عمر، فقال له محمد ﷺ: « ما يبكيك؟» قال عمر: يا رسول الله! فإن كسرى وقيصر فيما هم فيه وأنت رسول الله. فقال: « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ »[3].

وكان إذا استيقظ من نومه استيقظ على ذكر الله أيضًا، فكان يقول أول ما يقوم من نومه: «الحمد الله الذي أحيانا من بعد ما أماتنا وإليه النشور»[4].

إنه يحمد ربه ها هنا بعد قيامه من النوم على نعمة أخرى هي نعمة الحياة من جديد، فاليوم الجديد في رؤية محمد ﷺ هو نعمة جديدة ينبغي أن يحمد ربه عليها، كما كان يقول أيضًا: «الحمد لله الذي ردَّ عليَّ روحي، وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره»[5].

بل قد أمر ﷺ أمته أن يرتبطوا بذكر الله في نومهم ارتباطًا أكثر من ذلك فيحتموا

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٥٦)، ومسلم (٢٠٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦٣١٢)، ومسلم (٢٧١١).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٤٠١).

بريهم من أذى الشيطان في النوم، ويتخففوا من آلام الأحلام المفزعة والتصورات المخيفة باللجوء إلى ذكر الله، فكان يأمر من فزع من نومه أن يذكر الله ويستغفره[1].

ولما كان الإنسان في النوم كثيرًا ما يرى الرؤى والأحلام، ويتفاوت أثرها على الناس من خوف وقلق أو استبشار، فقد وجَّه محمد ﷺ أمته إلى كيفية التعامل مع الرؤيا، وبيَّن لهم أقسامها، وأن منها ما هو نتيجة لما كان يفكر فيه الإنسان في اليقظة، ومنها ما يكون تلاعبًا وتخويفًا من الشيطان، ومنها ما تكون بشارة ورؤيا خير[2].

ثم يوجِّه إلى كيفية التعامل معها؛ فيأمر من رأى رؤيا تسوؤه أن يستعيذ بالله منها، وأن يغلق الأمر فلا يتحدث بها مع الآخرين، ولا يصيبه القلق منها فإنها لا تضره، ومن رأى رؤيا خير فلا يقصها إلا على من يملك القدرة على تعبيرها وتفسيرها[3].

أما إذا قام محمد ﷺ من نومه فكان يبتدئ بالسواك ليحسن رائحة فمه، ثم يذهب إلى الوضوء، ويوصي ها هنا أمته إذا قام أحدهم من نومه ألا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثًا ثم يتوضأ بعد ذلك.

ويحكي ابن عمه عبد الله بن عباس عن موقف طريف رآه من محمد ﷺ حينما كان غلامًا صغيرًا، حيث بات عند محمد ﷺ، واضطجع في عرض الوسادة، واضطجع محمد ﷺ في طولها، قال ابن عباس: «فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ، فجلس يمسح النوم عن وجهه، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شَن – قربة ماء صغيرة – معلق فتوضأ منها فأحسن وضوءه، ثم قام يصلي، قال ابن عباس: «فقمت فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٤٤)، ومسلم (٢٢٦١).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٨)، ومسلم (٧٦٣).

•• محمد ﷺ في أفراحه وأحزانه:

عاش محمد ﷺ حياة طبيعية بين الناس، ولم يحاول أن يُخفي مشاعره الإنسانية عن أصحابه المحيطين به، المتتبعين لأحواله دومًا، بأمر من ربهم سبحانه حين قال سبحانه لهم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١).

فقد كان يمارس حياته كواحد منهم تمامًا، ويشاركهم في كل موقف من مواقف حياتهم، فعاشوا معه أوقات فرحه وحزنه، وضحكه وبكائه، ووصفوا خصوصياته وما خفي عليهم شيء من أمره.

•• أفراح محمد ﷺ:

الفرح شعور إنساني يشعر به المرء عند حدوث نعمة أو تجدُّدها، أو صرف نقمة أو بلاء. ويختلف تقويم الإنسان لما يسبب فرحه وفقًا لقيمه ومبادئه، فمن يحب الناس يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم، ومن يبغض الناس فهو يفرح إذا حلَّ بهم مكروه.

ارتبط فرح محمد ﷺ برضا ربه تعالى، فكان يفرحه كل ما يرضي الله، ويغضبه ما يغضبه، فيقول عنه صاحبه أبو بكرة ﷺ: «كان إذا أتاه أمر يسره أو يسر به خرَّ لله ساجدًا شكرًا لله تبارك وتعالى»[1].

فكان يفرح إذا ذكر سعة رحمة الله سبحانه بخلقه:

بينما كان ﷺ مع أصحابه يومًا فحدثهم عن حساب الله لعبد من عباده يوم القيامة وتجاوزه عن سيئاته، يقول أبو ذر ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم أول رجل يدخل الجنة وآخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها. فيقال له: عملت يوم كذا كذا وكذا وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة حسنة. فيقول: إن لي ذنوبًا لا أراها ها هنا». قال أبو ذر: «فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»[2].

فهو ها هنا يضحك تعجبًا من طمع العبد في رحمة ربه، فالإنسان خلق طامعًا في المزيد، وهذا العبد الذي كان في النار يصطلي بها وبعذابها، ويتمنى الموت، ولا يجده،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٧٤)، وابن ماجه (١٣٩٤).

(٢) مختصر الشمائل (١٩٥).

فيخرجه الله منها، ويعرض عليه صغار ذنوبه، ثم يعلمه بأنه غفرها له، وأبدله مكان كل سيئة حسنة، فإذا به يطمع، ويسأل عن كبار ذنوبه لعل الله يغفرها له، فضحك محمد ﷺ من طمع ذلك العبد.

إن ضحك محمد ﷺ ها هنا وهو يحكي هذا المشهد لأصحابه يفتح لهم بابًا عظيمًا من الأمل والرجاء في سعة رحمة الله، وتجاوزه عن خطيئة عبده، وأنه يجزيه إحسانًا كثيرًا لم يكن ليتوقعه.

وكان يضحك لما يحصل لأصحابه من خير:

بينما كان المنافقون يتكلمون في نسب أسامة بن زيد؛ حيث كان أبوه أبيض، وأمه أَمَة سوداء، تقول عائشة - رضي الله عنها-: «دخل عليّ رسول الله ﷺ مسرورًا تبرق أسارير وجهه، فقال: ألم تسمعي ما قال المدلجي - وهو رجل ممن يعرف الأنساب - لزيد وأسامة ورأى أقدامهما، إن بعض هذه الأقدام من بعض»[1].

ويقوم من نومه مستبشرًا فرحًا ضاحكًا في ذات يوم، فيروي أنس بن مالك ﷺ هذا الموقف فيقول: نام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك، فقيل له: وما يضحكك يا رسول الله؟! فأخبر أنه رأى في منامه رؤيا خير في أمر يتعلق بمستقبل أمته[2].

وضحك تلطيفًا وتطييبًا لأنفس صحابته؛ لما يجدون من عناء في الدنيا.

وكان يضحك ليرد الإساءة بالمعروف، فكم من بسمة فتحت قلوبًا، وألانت أنفسًا بعد شدتها، وردت إلى الخير أقوامًا، والناس في طباعهم مختلفون، ففيهم السهل اللين، والغليظ القاسي، وفيهم العالم والجاهل.

وكم من موقف عالجه محمد ﷺ بابتسامة كست وجهه ﷺ فيقول أنس بن مالك ﷺ: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجَبَذَه بردائه جَبْذَة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد! مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٥)، ومسلم (١٤٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٨٢)، ومسلم (١٩١٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

إنه سلوك فريد وبسمة مستغربة، تلك التي تخرج في موقف كهذا، إنه حلم لا يمتلكه إلا الأنبياء، وبسمة نبوية حانية تلطفت بحال الرجل الفقير الجاهل ذي الأسلوب الشديد الغليظ، إن الرواية الأخرى لهذا الحديث لتروي كيف أن أصحاب محمد ﷺ كانوا محيطين به في ذلك الموقف وأنهم غضبوا غضبًا شديدًا من فعل الرجل، وكادوا يفتكون به، لولا أنه أشار إليهم أن يسكتوا، وظل على بسمته وظل الرجل يخنقه، حتى أشار إليهم أن يعطوه ما شاء من المال، فأي حلم وأي رحمة؟!

وضحك تعجباً من ردود أفعال الناس، فحينما كان في غزوة الطائف، وكان تقديره للموقف العودة قال لصحابته: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله». فقال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ : لا نبرح أو نفتحها فقال النبي ﷺ : «فاغدوا على القتال». قال: فغدوا فقاتلوهم قتالاً شديدًا، وكثرت فيهم الجراحات، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله». قال: فسكتوا، «فضحك رسول الله ﷺ»[1].

وحينما صلى عمرو بن العاص رضي الله عنه وكان أميرًا على الجيش في ذات السلاسل، ولم يكن مغتسلاً، يقول عمرو رضي الله عنه: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلتُ أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب؟»، فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (النساء: ٢٩)، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا»[2].

ولما فهم عدي بن حاتم آية خطأ في القرآن صوّبها له وهو يضحك، يقول عدي: «لما نزلت هذه الآية ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ (البقرة: ١٨٧)، قال: أخذت عقالاً أبيض وعقالاً أسود فوضعتهما تحت وسادتي فنظرت فلم أتبين، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فضحك وقال: « إن وسادك إذن لعريض طويل، إنما هو الليل والنهار»، وفي رواية: «إنما هو سواد الليل وبياض النهار »[3].

وكان يضحك مع أصحابه حين يضحكون:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٨٦)، ومسلم (١٧٧٨)

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٠٩)، ومسم (١٠٩٠)

فكان يشارك أصحابه فرحهم وضحكهم، فربما يقول الرجل منهم كلمة تضحك الجمع، فكان يضحك معهم؛ فيُسأَل جابر بن سمرة رضي الله عنه: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيرًا، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم ﷺ[(١)].

وحينما جاءه رجل يطلب منه أن يدعو ربّه لنزول المطر، فقد أوشكوا على الهلاك، فيقول أنس: «كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقام الناس فصاحوا، فقالوا: يا رسول الله! قحط المطر واحمرت الشجر وهلكت البهائم، فادع الله أن يسقينا. فقال: «اللهم اسقنا». مرتين، وايمُ الله ما نرى في السماء قزعة من سحاب، فنشأت سحابة وأمطرت، ونزل عن المنبر فصلى فلما انصرف لم تزل تمطر إلى الجمعة التي تليها، فلما قام النبي ﷺ يخطب، صاحوا إليه تهدمت البيوت وانقطعت السبل فادع الله يحبسها عنا. فتبسم النبي ﷺ ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا». فكشطت المدينة فجعلت تمطر حولها ولا تمطر بالمدينة قطرة فنظرت إلى المدينة، وإنها لفي مثل الإكليل»[(٢)].

بل كانت البسمة لا تفارقه في جميع أحواله، يقول جرير بن عبد الله رضي الله عنه: ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي. ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل فضرب بيده في صدري، وقال: «اللهم ثبته واجعله هاديًا ومهديًّا»[(٣)].

وفي آخر نظرة لأصحابه قبل موته بلحظات ابتسم، لمّا رآهم على الطاعة والالتزام فيقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر يصلي لهم لم يفجئهم إلا ورسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ: «أن أتموا صلاتكم». ثم دخل الحجرة وأرخى الستر»[(٤)].

(١) أخرجه مسلم (٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٢١)، ومسلم (٨٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).

كيف كان يضحك ؟

كان محمد ﷺ يحافظ على وقاره في كل أحواله، وكذا حين يضحك، فلم يرو أحد عنه أنه ضحك ملء فمه، بل كان معظم ضحكه التبسم، فتقول عائشة: «ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لَهَوَاته، إنما كان يبتسم»[1].

ويقول عبد الله بن الحارث ﷺ: «ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسمًا»[2].

وهذا الذي يتصف به محمد ﷺ أكمل للرجال الذين لا يجعلون الضحك غاية في ذاته، بل تملأ البسمة وجوههم لتذليل الصعاب، وتليين القلوب، بل إن المتتبع لسيرته يجده يكثر مع الناس التبسم، وكان أقرب إلى الحزن مع نفسه وحاله إذا انفرد: حملاً لهَمّ أمته في الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٤٢).

•• مزاح محمد ﷺ :

لم يكن محمد ﷺ جافيًا موغلاً في الصرامة، إنما كان يخالط أصحابه، ويمازحهم ويداعبهم، ويتبسم معهم.

وحين نقارن الروايات الواردة في مزاحه ومداعبته لأصحابه - رضوان الله عليهم - مع الروايات الواردة في ميدان الجدِّ نلمس مقدار الجدِّية في حياته، وأنها الأصل، والمزاح أمر عارض.

وبالرغم من أن الناس ينظرون - غالباً - إلى مواقف المزاح على أنها ليست مواقف جادة، ولا يحملون صاحبها مسؤولية جميع ما يقول، إلا أن مزاح محمد ﷺ كان من نوع آخر.

فلم يكن يقول في مزاحه شيئًا غير الحقيقة، يقول أبو هريرة ﷺ: قالوا: يا رسول الله! إنك تُداعبنا؟ قال: «إني لا أقول إلا حقًّا»[1].

ولم يكتفِ محمد ﷺ بالتزام هذا السلوك في نفسه، فأكد على أصحابه وأتباعه أن يلتزموا بالصدق، وحذَّر من تعمُّد الكذب لمجرد إضحاك الآخرين، فقال: «ويلٌ للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويلٌ له، ويلٌ له»[2].

ومن ذلك الحق أنه كان يمازح الإنسان بوصف حقيقي موجود في المخاطب، فيقول لأنس: «يا ذا الأذنين!»[3].

ويأتيه رجل يريد المشاركة في الجهاد وهو لا يملك ناقة، فيسأله أن يعطيه ناقة تحمله، فقال له: «إني حاملك على ولد الناقة»، فقال: يا رسول الله! ما أصنع بولد الناقة؟ فقال ﷺ: «وهل تلد النوق إلا الإبل»[4].

ولم يكن مزاحه ومداعبته ﷺ قاصراً على الرجال الكبار، فقد كان يمازح الصغار ليؤنسهم، يقول خادمه أنس بن مالك ﷺ: «إن كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخٍ لي صغير يا أبا عمير ماذا فعل النُّغَيْر؟»[5]. والنُّغَيْر: طير صغير كان يلعب به أبو عمير.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩٠)، وأحمد (٨٥٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٩٠)، وأحمد (١٩٥١٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٠٢)، والترمذي (٣٨٢٨)، وأحمد (١١٧٥٤).

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٩١)، وأبو داود (٤٩٩٨)، وأحمد (١٣٤٠٥).

(٥) أخرجه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

ويحكي أنس ﷺ أيضًا أن رجلاً من أهل البادية اسمه زاهر، وكان ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميمًا، فأتاه النبي ﷺ يومًا وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره فقال: أرسلني مَنْ هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، فجعل النبي ﷺ يقول: «من يشتري هذا العبد؟ - يقصد عبد الله - فقال: يا رسول الله! إذن والله تجدني كاسدًا. فقال النبي: «لكنك عند الله لست بكاسد»[1].

وكما كان يمازح أصحابه ويتلطف معهم، فقد يتقبل المزاح منهم، فعن عوف بن مالك ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدمٍ فسلمت فردَّ، وقال: «ادخل»، فقلت: أكلِّي يا رسول الله؟! قال: «كلُّك»، فدخلت[2].

ورغم تقبُّله ﷺ للمزاح وممازحته لأصحابه إلا أنه لم يترك المجال دون ضوابط، فقد نهى عن المزاح المسبب للحزن، أو المسبب للغضب أو الضرر، فقال في حديثه: «لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعبًا ولا جادًا، ومن أخذ عصا أخيه فليردها»[3].

وبينما كان يسير مع أصحابه فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع، فقال النبي ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلمًا»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٠٠)، وابن ماجه (٤٠٤٢)، وأحمد (٢٣٤٥١).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٠٣)، والترمذي (٢١٦٠)، وأحمد (١٧٤٨١).

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٠٤)، وأحمد (٢٢٥٥٥).

•• أحزان محمد ﷺ :

لم يكن محمد ﷺ من ذلك الصنف من الرجال القساة، أو الذين يَعُدّون بكاء الرجل نوعاً من الضعف، بل كان صاحب القلب الرحيم سرعان ما يتأثر بالموقف ويبكي، وأن القلب القاسي الجامد المخالف للفطرة هو الذي لا يلين مع المواقف، ولذا كان ﷺ يستعيذ بالله منه فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها»[(1)].

وما أكثر المواقف التي شهدت بكاء محمد ﷺ بين أصحابه أو زوجاته أو أمام الناس، ومع كونه سريع الدمعة وغزيرها إلا أنه لم يخرج به البكاء يومًا عن وقاره أو رضا ربه، فكان يبكي - كما ذكر أصحابه - ويخرج من صدره صوت كأزيز المرجل، ولم يكن يرفع صوته صارخًا في بكاء ولا في ضحك.

بكى محمد ﷺ لتقديره قدر ربه وتعظيمه لشأنه، فكان دائمًا عظيم الهَمّ إذا خلا بنفسه أو شغل عن أصحابه، فيروي عنه صاحباه أنس وأبو هريرة - رضي الله عنهما- قوله: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»[(2)].

إنها كلمات قليلة بليغة، تترك الآثار المختلفة في نفس السامع لها، وتفتح المجال الفسيح أمام خياله؛ ليفكر بنفسه في معناها، فما هذا الذي يعلمه محمد ﷺ من الأمور التي تجعلهم لو علموها لبكوا كثيرًا ولضحكوا قليلاً؟ إنهم يعلمون بعضها مما يحصل يوم القيامة والحساب والعقاب، ولكنهم كأنما أخذتهم الدهشة وجال بهم الفكر في أنفسهم وتقصيرها وحالها فقال الراوي : «فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، ولهم خنين من البكاء»[(3)].

---

(1) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

(2) أخرجه البخاري (٦٤٨٥)، ومسلم (٤٢٦).

(3) أخرجه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

•• بكاؤه ﷺ في صلاته :

فكان إذا بدأ في الصلاة وتلاوة القرآن يبكي أحياناً؛ من خشوعه وخشيته لربه ومقامه العظيم سبحانه، فيقول صاحبه عبد الله بن الشخير: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء»[1].

وكان يبكي أحيانًا عند سماعه للقرآن من غيره، فيروي لنا صاحبه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ طلب منه أن يقرأ عليه القرآن، فقرأ عبد الله بن مسعود سورة النساء قال: حتى إذا أتيت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (النساء:٤١) قال: « حسبك الآن ». فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان[2].

إن عينيه ها هنا تذرفان من فهمه وشعوره لمعنى الآيات التي قرأها صاحبه، إنها تحمِّله مسؤولية كبرى من كونه سيكون شهيدًا على أمته أمام ربه، إنه يحيا حياة الغيب كأنها حقيقة حاضرة.

وكان يبكي لفقده أحبته كما يفعل جميع البشر المحبين عند فقد عزيز عليهم، إلا أن محمدًا كان قد قيَّد بكاءه برضا ربه سبحانه، فلم يكن بكاء تسخّط على قضاء ربه وقدره، ولا بكاء يحمل معه كلمات غضب ورفض للموقف، بل كان بكاء رحمة وحزن للفراق، فبكى عند فقده لولده إبراهيم وهو صغير، فقالت أسماء بنت يزيد - رضي الله عنها-: لما توفي ابن رسول الله ﷺ إبراهيم بكى رسول الله ﷺ. فقال له المعزي – إما أبوبكر وإما عمر-: أنت أحق من عظَّم الله حقه، قال رسول الله ﷺ: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، لولا أنه وعد صادق وموعود جامع وأن الآخر تابع للأول لوجدنا عليك يا إبراهيم! أفضل مما وجدنا، وإنا بك لمحزونون »[3].

وبكى عند دفن بنتٍ من بناته، فيقول أنس رضي الله عنه: شهدنا ابنة لرسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ جالس على القبر، فرأيت عينيه تدمعان[4].

وبكى عند موت حفيده، فقال أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - : كان ابنٌ

---

(١)أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤)، وأحمد (١٥٨٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٨٩). أصله في البخاري (١٣٠٣)،ومسلم (٢٣١٥)

(٤) أخرجه البخاري (١٤٣٢).

لبعض بنات النبي ﷺ يقضي، فأرسلت إليه أن يأتيها فأرسل: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل إلى أجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب». فقام رسول الله ﷺ وقمت معه ومعاذ بن جبل وأُبَي بن كعب وعبادة بن الصامت، فلما دخلنا ناولوا رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تقلقل في صدره حسبته قال: كأنها شنة، فبكى رسول الله ﷺ، فقال سعد بن عبادة: أتبكي؟ فقال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1].

وبكى ﷺ لما جاءته أخبار غزوة مؤتة، فقد كان في المدينة يحدث أصحابه عنهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب - وإن عيني رسول الله ﷺ لتذرفان - ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له»[2].

وبكى عند موت صاحبه عثمان بن مظعون ﷺ، فقد دخل عليه بعد موته - كما تروي زوجته عائشة - وقبَّله وهو يبكي[3].

وكان مع أصحابه في سفر فمر بقبر أمه فزارها ووقف عليها وبكى ﷺ.

وكان محمد ﷺ يبكي رحمة لليتيم، فعندما مات زيد بن حارثة كان محمد ﷺ يتذكره عندما يرى ولده أسامة أمامه ويبكي حزنًا على فراق صاحبه وحبيبه، وشفقة على اليتيم، فيقول ابن مسعود ﷺ: لما قُتل زيد بن حارثة أبطأ أسامة عن النبي ﷺ فلم يأته، ثم جاءه بعد ذلك، فقام بين يدي النبي ﷺ فدمعت عيناه، فبكى رسول الله ﷺ، فلما نزفت عبرته قال النبي ﷺ: «لم أبطأت عنا ثم جئت تحزننا؟» قال: فلما كان الغد جاءه فلما رآه النبي ﷺ مقبلاً قال: «إني لَلاقٍ منك اليوم ما لقيت منك أمس» فلما دنا دمعت عينه فبكى رسول الله ﷺ[4].

ويبكي رقّة لحال أصحابه، وخوفًا عليهم في مرضهم، فقد زار محمد ﷺ أحد صحابته في مرض ألَمَّ به، فبكى من رقّته عليه، فيقول عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٨)، ومسلم (٩٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٩٨٩)، وأبو داود (٣١٦٣)، وابن ماجه (١٤٥٦).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٦٦٩٨).

عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود، فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله فقال: «قد قضى؟» (أي: هل مات؟). قالوا: لا يا رسول الله! فبكى النبي ﷺ[1].

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

الموسوعة الشعرية

الفصل الرابع

أخـلاق محـمـد ﷺ

- رفقه ﷺ
- تواضعه ﷺ
- رحمته ﷺ
- حياؤه ﷺ
- صبره ﷺ
- كرمه وجوده ﷺ
- عدله ﷺ
- شجاعته ﷺ
- حلمه ﷺ
- وفاؤه بالعهد ﷺ

•• رفقه ﷺ :

لازم الرفق محمدًا ﷺ في مختلف أحواله؛ في الغضب والرضا، في السعادة والحزن، وحتى في وقت الآلام والمضار.

فيوم تشتد به الخطوب ويدميه قومه يدعو لهم: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون». ويوم يطلب منه بعضهم أن يدعو على من آذاه، فإذا به يقول: «إني لم أُبعث لعّانًا»[1]، فغلبت رحمته غضبه، وغلب رفقه شدته.

لقد أدرك محمد ﷺ أن اللفظ القاسي يورد الفعل القاسي، وصاحب القلب القاسي إنما هو سبب نفور الناس وتحاشيهم القرب منه والتفاعل معه.

والمتأمّل في القرآن يجد أنه قد عظّم مقام الرفق وأمر به، بل قد نبّه محمدًا ﷺ إليه كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

كما حثَّ القرآن على اعتماد الرفق خيارًا مبدئيًّا في نهج الدعوة إلى الإسلام، وعدّه ركنًا وأساسًا مهمًا يقوم عليه العمل الرسالي للفكر والعقيدة الإسلامية كما وجّه الله تعالى محمدًا ﷺ بقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(الحجر: ٨٨). أي ألِن لهم جانبك وارفق بهم، والعرب تقول: فلان خافض الجناح إذا كان وقورًا حليمًا. وهي دعوة إلى لطف الرعاية، وحسن المعاملة، ورقّة الجانب في صورة محسوسة على طريقة القرآن في التعبير.

وأمر الله تعالى به كذلك في التعامل مع المخالفين، فقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾(المزمل: ١٠). والهجر الجميل: أن لا تتعرّض لخصمك بشيء، وإن تعرّض لك تجاهلتَ، فقد أمره بالصبر على ما يسمعه من الأقوال البذيئة من خصومه، صبرًا لا عتاب فيه على أحد، ولا تكبُّر، أو دفاع عن الذات، بل تركهم إلى الله مع الهجر الجميل الذي لا يترك في نفوسهم أذى يحول بينهم وبينه مستقبلاً، فلا يُقبلوا عليه ولا يسمعوا هديه، بل كان هجرًا جميلاً لم يقطع خيوط المودة، ولم يهدم جسور التواصل.

ويذكر الله تعالى ما بين الرفق والتعامل الحسن، وبين الفظاظة والإساءة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾(فصلت: ٣٤).

فالمعنى ها هنا: أن اصبر على الأذى، واكظم الغيظ الذي تبتلى به،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

واحلمْ عمن أساء إليك، وتعاملْ مع مصدر آلامك تعاملَ العطوف الكريم برفق ولطف يمس قلوبهم القاسية، فيحولها من قسوتها وجفوتها عليك إلى محبة لك، وإن اعتماد منهجية الرفق مع الأعداء إلى الحدّ الذي يجعل الفرد الواحد أمام أعداء دعوته ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾؛ فإنه بذلك يستقطب مجامع قلوبهم إليه حتى تصير آذانًا صاغية لهديه وإرشاده، فيستنقذها مما هي فيه.

كما بَينت الآيات أن الرفق هو دأب الأنبياء؛ فإن الله تعالى لما أرسل نبيه موسى وأخاه - عليهم السلام - إلى فرعون الطاغية قال لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(طه: ٤٣-٤٤).

وتصل الآيات إلى غاية الرفق وعظم اللين والسهولة في حال إبراهيم -عليه السلام-، حين دعا أباه إلى الإسلام فصرخ به وقال كما حكاه الله تعالى:﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ (مريم: ٤٦). فردّ إبراهيم بكل رفق ولين قائلاً:﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ (مريم: ٤٧). فكان الأنبياء - عليهم السلام - يصلون بالرفق واللين إلى ما لا يصل إليه غيرهم كما بيّنت الآيات.

رؤية محمد ﷺ لخلُق الرفق:

لقد نظر محمد ﷺ إلى الرفق على أنه خُلق أساس في تكوين شخصية المسلم، فعلّم أمته أن الله يحب صاحب الرفق، ويحب السلوك الرفيق كله، فيقول: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[1].

وعلمهم أن الرفق يزين الأمور فقال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنْزَع من شيء إلا شانه»[2].

وكان كثيرًا ما يدعو لأصحاب الرفق فيقول: «اللهم من رفق بأمتي فارْفق به»[3]. وجعل الرفق نوعًا من النعم الغالية التي إذا دخلت على أهل بيت فليعلموا أن الله قد أراد بهم خيرًا، فقال: «إذا أراد الله عز وجل بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٨١٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٩٠٦).

ونتائج استعمال الرفق أفضل بكثير مما سواه، فيخاطب محمد ﷺ زوجته عائشة - رضي الله عنها - قائلاً: «يا عائشة! إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»[1].

على الجانب الآخر؛ فإن المرء الذي حُرِمَ الرفق فإنه قد فقد شيئًا عزيزًا وقيمة غالية، فيقول: «من يُحْرَم الرفق يُحرم الخير كله»[2]

بل حرص محمد ﷺ على أن يعلّم رسله والدعاة الذين كان يرسلهم إلى البلاد ليوصلوا رسالته هذا الخلق النبيل، ويؤكد على التزامه، فهو يوصي معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري لما أرسلهما إلى اليمن قائلاً: «يسِّرا ولا تعسرا، وبشِّرا ولا تنفرا»[3].

ويؤكد محمد ﷺ على أن هذا الخُلُق جدير بأن يباعد صاحبه عن النار فيقول: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار يحرم كل قريب هيِّن ليِّن سَهْل»[4].

•• عندما يعمّ الرفق الحياة:

أكد محمد ﷺ على الرفق والسهولة في جميع التعاملات مهما عظمت، ومهما كان المتعامل معه، تحكي زوجته عائشة - رضي الله عنها- موقفًا مع بعض خصومه فتقول: دخل رهط من اليهود على النبي محمد ﷺ فقالوا: السام عليكم (يعني الموت عليكم). قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[5].

ولما دخل أعرابي المسجد وبال فيه، قام الصحابة إليه ليمنعوه، فمنعهم محمد ﷺ وقال: «لا تعجلوا عليه»، حتى إذا أنهى بوله وقام ليذهب، دعاه وقال: «إن هذه المساجد لم تُبْنَ لهذا، وإنما بُنيت للصلاة والذكر والتسبيح». ثم ذكر محمد ﷺ في ذلك مثالاً بديعًا لأصحابه فقال: «إن مَثَلي ومثل هذا الأعرابي، كمثل رجل شردت عليه ناقته فقام الناس يشتدون خلفها وهي تشتدّ هاربة، والرجل يصيح: خلوا إليّ ناقتي. حتى إذا تفرقوا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٨٨).

(٥) أخرجه البخاري (٦٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

عنه عمد إلى شيء من خشاش الأرض، ثم جعله في ثوبه ورفعه إليها، ودعاها فلم يزل بها حتى جاءته».

ويروي معاوية بن الحكم قال: لما قدمت على رسول الله محمد ﷺ علمت أمورًا من أمور الإسلام، فكان فيما علمت أن قال لي: «إذا عطست فاحمد الله، وإذا عطس العاطس فحمد الله فقل: يرحمك الله»، قال: فبينما أنا قائم مع رسول الله في الصلاة إذ عطس رجل فحمد الله، فقلت: يرحمك الله، رافعًا بها صوتي، فرماني الناس بأبصارهم حتى احتملني ذلك، فقلت: ما لكم تنظرون إليّ بأعين شزر؟! قال :فسبحوا، فلما قضى رسول الله الصلاة قال: « مَن المتكلم؟!» قيل: هذا الأعرابي، قال: فدعاني رسول الله فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما نهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»- أو كما قال رسول الله محمد ﷺ-.[1]

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

•• تواضعه ﷺ:

لم يكن محمد ﷺ مع أصحابه رجلاً عاديًا، ولم يكن كسائر الناس؛ فهو رجل يأتيهم بالوحي من السماء، وهو زعيم يأمر فيُطاع، وينهى فيُستجاب له.

وهو مع ذلك ينتمي إلى أسرة قرشية ذات شرف ومكانة ومنزلة عالية.

كان محط اهتمام أصحابه ورعايتهم وإجلالهم، إذا تحدث استمعوا له وأنصتوا، وإذا أمرهم تسابقوا لتنفيذ أمره.

إن الرجل العادي حين يكون في مثل هذا الموقف، فإن هذا قد يقوده إلى أن يضع لنفسه هالة، ويقوده إلى أن يتعالى على الناس فهو يعلم ما لايعلمون، ويملك ما لا يملكون، ويقوده إلى أن يعيش حياته الخاصة بصورة تتلاءم مع هذه المنزلة والمكانة.

لكن محمدًا ﷺ كان بخلاف ذلك كله، كان متواضعًا بعيدًا عن الأَنَفَة والكبر، لم يكن يصنع حول نفسه هالة ومكانة، بل كان يسعى إلى أن يعيش كما يعيش غيره.

نلمس التواضع في حياة محمد ﷺ الشخصية: في بيته، في ملبسه، في فراشه، وفي طعامه.

لم يكن يبحث عن الفُرُش الوثيرة الفارهة، والتي كانت تعني شيئًا لدى من يمنحون لأنفسهم هالة.

يصور لنا خادمه أنس بن مالك ﷺ شيئًا من ذلك؛ فيروي أن جدته مليكة دعت رسول الله ﷺ لطعامٍ صنعته، فأكل منه، ثم قال: «قوموا فأصلي لكم» قال أنس بن مالك: فقمت إلى حصيرٍ لنا قد اسودَّ من طول ما لبس فنضحته بماء، فقام عليه رسول الله ﷺ وصففت أنا واليتيم وراءه والعجوز من ورائنا، فصلى لنا رسول الله ﷺ ركعتين ثم انصرف[1].

كما يروي لنا عمر بن الخطاب ﷺ موقفًا ترك أثرًا في نفسه حتى أبكاه، يقول وهو يصف حاله عند دخوله على محمد ﷺ: «... وإنه لَعلى حصيرٍ ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادةٌ من أدمٍ حشوها ليفٌ، وإن عند رجليه قرظًا مصبوبًا وعند رأسه أهبٌ معلقةٌ، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت»[2].

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠)، ومسلم (٦٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

وهو حين يزور أحدًا من أصحابه لا يستنكف عما يقدم له، مهما كان شأنه، وقد عرف ذلك أصحابه فلم يكونوا بحاجة لأن يتكلفوا له، فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: إن النبي ﷺ ذُكِرَ له صومي، فدخل عليَّ فألقيت له وسادةً من أدمٍ حشوها ليفٌ، فجلس على الأرض وصارت الوسادة بيني وبينه، فقال لي: أما يكفيك من كل شهرٍ ثلاثة أيامٍ؟ قلت: يا رسول الله، قال: «خمسًا». قلت: يا رسول الله قال: « سبعًا ». قلت: يا رسول الله. قال: تسعًا. قلت: يا رسول الله. قال: «إحدى عشرة». قلت يا رسول الله. قال: «لا صوم فوق صوم داود شطر الدهر صيام يومٍ وإفطار يومٍ»[1].

وإذا كانت هذه حاله في فراشه وأثاثه، فحاله في لُبْسه ليست بعيدة عن ذلك.

•• ماذا كان يلبس محمد ﷺ ؟

عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة كساءً وإزارًا غليظًا. فقالت: «قُبِضَ روح النبي ﷺ في هذين»[2].

وحين يكون هذا شأنه ﷺ في فراشه ولباسه، فهو كذلك في ركوبه؛ إذ كانت المراكب لها شأنها عند العرب، وكان الأكابر لا يركبون كما يركب سائر الناس.

أما محمد ﷺ فلم يكن كذلك، كان يركب كما يركب عامة الناس وبسطاؤهم، فعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على إكافٍ عليه قطيفةٌ فدكيةٌ، وأردف أسامة وراءه[3].

وطعامه وشرابه كذلك، كان فيه بعيدًا عن مظاهر الكبر والتعالي، يُحدث ﷺ هو عن نفسه فيقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[4].

وتروي لنا كتب السيرة موقفًا يتجلى فيه تواضع محمد ﷺ لدرجة أن من حوله لم يعرفوه، فعن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ قالت: في قصة الهجرة فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوفٍ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكرٍ للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتًا

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٠)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨١٨)، ومسلم (٢٠٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٦٤)، ومسلم (١٧٩٨).

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٤٩٢٠.

فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكرٍ حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكرٍ حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك»[1].

•• في تعامله مع الناس ﷺ :

وتواضع محمد ﷺ لم يكن قاصرًا على حياته الشخصية؛ بل كان جليًا واضحًا في تعامله مع الآخرين، كان يخالطهم ويعيش معهم السراء والضراء، كان يواسيهم في القليل والكثير، وكان يتبسط معهم، يحدثنا عن ذلك أحد أصحابه المقربين منه، وأحد من تولوا الخلافة بعده، فعن عثمان ﷺ قال: إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناسًا يعلموني به، عسى أن لا يكون أحدهم رآه قط»[2].

إن عثمان ﷺ ينكر على أولئك الذين يرسمون صورة من خيالهم عن محمد ﷺ وهم لم يروه، ويحدثنا عن واقع عايشه معه في السفر والإقامة، في حلو الحياة ومرها.

ويتجلى تواضع محمد ﷺ في تعامله مع الناس في اعتنائه بالضعفاء، فالضعفاء يُهَمَّشُون كثيرًا، والضعفاء لا يؤبه بهم، ولا يلقى لهم بال، بينما كان محمد ﷺ يوجِّه لهم عناية واهتمامًا خاصًا، فعن أبي الدرداء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ابغُوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»[3].

وهذا التواضع من محمد ﷺ مع هذه الفئة من الضعفاء لم يكن مجرد تبسُّط في التعامل معهم، بل كان يُعْنَى بقضاء حاجاتهم ومشكلاتهم،فعن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويُقِلّ اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأبى أن يمشي مع الأرملة، أو المسكين فيقضي حاجته»[4].

ومن تواضع محمد ﷺ في تعامله مع الناس تبسُّطه في التعامل مع الصبية وصغار السن، فعن أنس بن مالكٍ ﷺ: أنه مر على صبيانٍ فسلَّم عليهم، وقال: كان النبي ﷺ يفعله»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥٠٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٩٤)، والترمذي (١٧٠٢).

(٤) أخرجه النسائي (١٤١٤).

(٥) أخرجه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨).

•• في تعامله مع أهل بيته ﷺ :

كما يتجلى تواضع محمد ﷺ في تعامله مع أهل بيته، فهو يعيش في بيته ومع أهله معيشة المتواضعين، وتصوِّر لنا زوجه عائشة -رضي الله عنها- حياته في بيته فقالت: كان في مهنة أهله؛ فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة[1].

وفي رواية أخرى تفصل تفصيلاً يجلي هذا الواقع، قالت: «كان بشرًا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»[2].

•• في مهنته وعمله ﷺ :

ومن تواضع محمد ﷺ ما يتصل بمهنته وعمله؛ فقد كان لا يستنكف أن يعمل في مهنة من المهن التي يعمل بها قومه، فعن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ بمر الظهران، ونحن نجني الكباث، فقال النبي ﷺ : «عليكم بالأسود منه». قال: فقلنا يا رسول الله كأنك رعيت الغنم، قال: «نعم، وهل من نبي إلا وقد رعاها»[3].

•• نهيه عن الإطراء ﷺ :

قد يكون التواضع لدى بعض الناس مجرد أمر اعتاده نتيجة حياة اتسمت بالبساطة، وعدم وجود ما يدفع على علو النفس.

أما محمد ﷺ فكان تواضعه أمرًا مقصودًا يسعى إليه، ويستنكف عما سواه.

وقد شدد ﷺ على التحذير من أمراض القلوب، وخاصة من تَسلُّل صفة الكبر المذمومة إلى القلب، فهو القائل: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[4].

كما نهى أصحابه كذلك عن تبجيله كالملوك والقيام له فقال: «من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا؛ فليتبوأ مقعده من النار»[5]. ويقول أنس: «لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ كانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلمون من كراهته لذلك»[6].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٦٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٦)، و مسلم (٢٠٥٠).

(٤) أخرجه مسلم (٩١).

(٥) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٧٥٤).

وكان ينهى الناس عن إطرائه والمديح له، وينهى أن يقع أتباعه فيما وقع فيه بعض غلاة النصارى من مبالغة تتجاوز القدر المشروع، فعن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله»[1]

وينكر محمد ﷺ على أصحابه أن يفضلوه على غيره دون علم أو برهان، ولا يمنعه من الإنصاف والعدل كون من وقع عليه الخطأ من غير أتباعه، وكون من أخطأ من أنصاره وأتباعه، فيتجرد من ذاته، ويتجرد من التعالي والبغي، فينهى صاحبه عما فعل، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ جالس جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهي رجلٌ من أصحابك فقال: «من؟». قال: رجل من الأنصار. قال: «ادعوه». فقال:«أضربتَه؟». قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر. قلت: أي خبيث على محمد ﷺ، فأخذتني غضبة ضربت وجهه. فقال النبي ﷺ: «لا تخيروا بين الأنبياء»[2].

وحين دعاه أحد أصحابه بوصف فيه تفضيل له على غيره أنكر عليه ذلك، فعن أنس بن مالكٍ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم عليه السلام»[3].

•• المؤرخون يشهدون بتواضع محمد ﷺ:

شهد العديد من المؤرخين الذين درسوا سيرة محمد ﷺ بتواضعه؛ إذ يقول المستشرق الأسكتلندي «وليام مونتجومري وات»: « إن محمداً اكتسب احترام الناس وثقتهم عن طريق أعماله التي بُنيت على أساس ديني، وكذلك خصال تمتع بها كالشجاعة والحزم والنزاهة... إلى جانب أنه كان يتمتع بأخلاقيات تأخذ بمجامع القلوب، منحته محبتهم وأمّنت إخلاصهم».

وقال المؤرخ البريطاني (إدوارد جيبون)، في كتابه الشهير (انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية): «إن الوعي الأخلاقي الطيب لمحمد نبذ خُيَلاء السيادة، فقد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٢).

(٣)أخرجه مسلم (٢٣٦٩).

تعامل مع المهام المنزلية البسيطة التي تكون داخل الأسرة؛ فقد كان يوقد النار، ويكنس الأرض، ويحلب الشاة، ويرتق بيديه حذاءه وجلبابه».

ويعلِّق القس (بوزورث سميث) على تواضعه ،فيقول: «لقد كان رئيسًا للدولة ولجماعة تدين بنفس العقيدة، لقد كان يجمع سلطة ومقام قيصر والبابا معًا، ولكنه بابا بدون خيلاء البابا وغروره، وقيصر بلا فيلق أو حشود، وبلا جيش عامل ولا حارس شخصي ولا قوة من الشرطة ولا دخل ثابت، فقد كانت معه جميع السلطات من غير أن يكون معه ما يدعمها أو يحافظ عليها، وقد كانت بساطة حياته الخاصة متطابقة ومنسجمة مع حياته العامة»[1].

•• ماذا يُسمى أتباعه ؟

كان الأشخاص المقربون من محمد ﷺ يُطلق عليهم «الصحابة»، ولم يُسموا الوزراء أو الحاشية، أو غير ذلك من المصطلحات التي ألفناها في التاريخ الحديث، حيث إن محمدًا ﷺ لم يكن يحيا حياة ملك أو إمبراطور، أو يعامل من حوله من ذلك المنطلق، بل كان هو الداعية، والمربي، والصاحب، والصديق، والقائد، والمُعلم.

وقد ترك ذلك أثره عليهم، بل سعى ليزيل الهالة التي قد تبدو على بعضهم ممن يلقونه وهم لا يعرفونه؛ فنراه يُهَدِّئ من روع شخص جاءه للمرة الأولى، وكان مرتعد الفرائص خائفًا، وظن أنه سيواجه ملكًا ينعم في خيلائه، فقال له محمد ﷺ: «هوِّن عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[2]. بل كان يحرص على إبداء تواضعه في كل سلوك من سلوكه مهما خفّ وقلّ، حتى إنه كان لا ينزع يده من يد أحد يسلم عليه حتى ينزعها الآخر أولاً، وهو تواضع جمّ، ولفتة تعطي انطباعًا ضمنيًا بالألفة والترحيب والسعادة.

•• يشارك أصحابه الأعمال والمهمات ﷺ :

لم يكن من دأب محمد ﷺ وهو يعايش الواقع مع صحابته أن يكتفي بإصدار أوامره إليهم، وقد كان قادرًا على ذلك، لكن كان يعايشهم ويشاركهم بكل أريحية

---

(١) محمد والمحمدية، بـ. سميث.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢).

وتبسط، فحين قدم المدينة كان من أول أعماله أن قام ببناء مسجده بالتعاون مع أصحابه، فشاركهم في بناء المسجد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فنزل أعلى المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام النبي ﷺ فيهم أربع عشرة ليلة... وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون والنبي ﷺ معهم وهو يقول: «اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة»[1].

وفي غزوة الخندق حين غزته قريش، ومن تحالف معها من قبائل العرب، حمل التراب أثناء حفر الخندق، وقام بنقله مع صحابته بلا كلل أو تأفف، وكان قادرًا على أن ينأى بنفسه عن ذلك العمل، ويكفيه أصحابه المهمة. ولذا تركت مشاركته أثرها عليهم فكانوا ينشدون:

لئن قعدنا والنبي يعمل   لذاك منا العمل المضلل

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤).

•• رحمته ﷺ:

لقد كانت الرحمة مَعْلمًا مهمًّا من معالم شخصية محمد ﷺ، وقد جاء في القرآن بأن الله تبارك وتعالى أرسله رحمة للناس، فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ولم تكن الرحمة سمة محدودة أو هامشية من سمات محمد ﷺ، بل لقد بلغت قدرًا من الأهمية، لدرجة أنه سُمي بذلك ﷺ، فعن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماءً فقال: «أنا محمدٌ، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»[1].

وحين نتأمل سيرته وحياته ﷺ نجد الرحمة بارزة في مواقفه كلها وفي تعامله مع الناس جميعًا.

لم تكن الرحمة منه ﷺ قاصرة على مجرد استجابة عاطفية لموقف مؤثر فحسب؛ فهذه سجية إنسانية قلما يخلو منها بشر، حتى القساة الغلاظ قد تبدو منهم الرحمة في بعض المواقف المؤثرة.

ويشهد له من عرف سيرته ودرسها بذلك، يقول المستشرق الألماني (برتلي سانت هيلر) إن في شخصية محمد «صفتين هما من أجلّ الصفات التي تحملها النفس البشرية وهما: العدالة، والرحمة».

•• رحمته ﷺ بكبار السن:

نادرًا ما يدوَّن في تاريخ الأمم وضع كبار السن داخل المجتمع. كما أنه قليلاً ما يُلتفت إلى حقوقهم خلال فترات الصراع والحرب، وإن كان الحال في تاريخ الأمة الإسلامية يختلف؛ فهو يحفل بالعديد من الشواهد على اهتمام رسول الإسلام ورحمته بالمسنين والشيوخ الطاعنين في العمر، فيروى عن عبد الله بن عمر أن محمدًا ﷺ قال: « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا »[2].

وفي عتاب النبي ﷺ للصحابي الجليل «معاذ بن جبل» في إطالته للصلاة، بينما كان يقف إمامًا لجمع من المصلين، ما يدل على رحمته ورأفته ﷺ بالكبير والضعيف؛ فنجده

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩١٩).

يقول: «يا معاذ أفتان أنت؟ أو أفاتن أنت ثلاث مرات، فلولا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير، والضعيف وذو الحاجة»[1].

أما عندما تدور رحى الحرب، فإن الإسلام يحرِّم على أتباعه التعرض للنساء والشيوخ، والأطفال، وهو ما يميّز الشريعة الغراء التي لا تبحث عن نصر زائف أو استعراض غير متكافئ للقوة.

وبينما يفجع اليوم المتابع للتقارير الإخبارية والنشرات التي تنقل وقائع الحروب الدائرة حول العالم؛ من فيض الانتهاكات التي تتعرض لها حقوق الإنسان من قتل للمدنيين الأبرياء، والشيوخ العجائز، وذبح للأطفال، وهتك لأعراض النساء، فإن التاريخ لا بد وأن يسجل لرسول الإسلام ﷺ دعوته لأصحابه وقادة جيوشه بعدم قتل الشيوخ والنساء والأطفال خلال معارك القتال والغزوات، بل كانت تعاليمه لهم بالنهي الحازم عن قتل الشيوخ والأطفال والصغار والنساء والرهبان في صوامعهم، والمرضى والجرحى، ومن لا يتبيّن أنه مشارك في الحرب.

وعن رحمته ﷺ في تعامله مع كبار السن؛ فإن المواقف تتعدد، ونذكر منها على سبيل المثال: موقفه من أبي قحافة والد صاحبه أبي بكر الصديق- رضي الله عنهما- يوم أن دخل في الإسلام وكان شيخًا طاعنًا في السن، حيث أتى به أبو بكر- بعدما فتح ﷺ مكة- ليبايع النبي، فلما رآه ﷺ قال: « هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟. قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت. فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: أسلم، فأسلم[2].

•• رحمته ﷺ بالنساء:

بينما كانت عصور القهر والظلام تسلب المرأة كل حق لها، بل في حقبة كانت تجرى مناقشات حول كون المرأة إنسانًا أم لا؛ فقد منحت الشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ المرأة الحق في كل ما لغيرها من الرجال سواء في الميراث والتصرف فيما

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٤١٦).

تملكه، واختيار الزوج، واستقلال ذمتها المالية، كما كفل لها الإسلام دستورًا يحميها سواءً كانت طفلة أو شابة، أو سيدة متزوجة، أو مطلقة أو أرملة، أو عجوزاً مُسِنَّة.

ووصى محمد ﷺ برعاية النساء والرفق بهن فمن ذلك أنه قال:«خياركم خياركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، كما قال:«استوصوا بالنساء خيرًا».[1]

ويضرب لنا محمد مثالاً آخر على رحمته بأهل بيته، فبينما نراه يستر السيدة عائشة وتتكئ عليه، وهي تشاهد الأحباش وهم يلعبون بالرماح، نراه يكرم صاحبات السيدة خديجة، ويرسل إليهن الهدايا حتى بعد وفاتها.

وكما أوصى محمد ﷺ بحسن معاملة النساء، فقد حذَّر بشدة من عواقب تضييع حقوقهن والاعتداء عليهن واستغلال ضعفهن فقال: «اللهم إني أُحرِّج حق الضعيفين، اليتيم والمرأة»[2]. وهو ما يعني أن الرسول ﷺ يُلحِق الإثم بمن يتجنى على حقوق النساء والأطفال.

والباحث عن رحمته ﷺ بالمرأة لا يمكنه ألا يقف عند رحمته بالأرامل، وحثه على الاهتمام بشؤونهن ورعايتهن، عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة»[3].

وقد شدَّد محمد ﷺ على أهمية السعي على الأرامل والمساكين، مؤكدًا أن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فله أجر المجاهد في سبيل الله، حيث يقول: «الساعي على الأرملةِ والمسكين كالمجاهد في سَبيلِ الله كالقائم لا يَفتُر وكالصائم لا يُفطِر»[4].

ولم يكن مفهوم الرحمة بالمرأة عند محمد ﷺ يقتصر على حماية حقوقها والحث على رعايتها، بل كان يفيض ليشمل عدم إيذائها نفسيًا، فعن أبي قتادة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه».[5]

---

(1) أخرجه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨).

(2) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٨)، وأحمد (٩٣٧٤).

(3) أخرجه النسائي (١٤١٤).

(4) أخرجه البخاري (٦٠٠٧)، ومسلم (٢٩٨٢).

(5) أخرجه البخاري (٧٠٧) ، و مسلم (٤٧٠).

رحمته ﷺ بالصغار:

كان للصغار مكانة خاصة عند النبي ﷺ، وبالأخص أحفاده وأسباطه، كان يوليهم عناية واهتمامًا يندر أن يوجد من مثل محمد ﷺ في مهامه ومشاغله.

والحديث عن تعامل محمد ﷺ مع الصغار له موضع آخر في هذا الكتاب، أما هنا فنشير إلى نماذج من رحمته بهم.

كان محمد ﷺ كغيره من البشر يَرِقّ لما يصيب الصغار ويرحمهم، فعن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما- قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه أن ابنًا لي قُبِضَ فأْتِنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجلٍ مسمى، فلتصبر ولتحتسب». فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبلٍ، وأبي بن كعبٍ، وزيد بن ثابتٍ ورجالٌ فرُفِع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع، قال حسبته أنه قال: كأنها شن، ففاضت عيناه فقال سعدٌ: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1].

لقد كانت رحمته ﷺ بالصغار مشاعر حقيقية تقود محمدًا ﷺ إلى البكاء والتأثر، لكنه مع ذلك لا يطلق العنان لكل ما يشعر به، فلا يبالغ في التعبير عن المشاعر، أو في التسخط على قضاء الله وقدره، فلا يقول إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى.

ولم تكن رحمة محمد ﷺ بالصغار قاصرة على حالات المصائب، بل كانت شعورًا لا يفارقه، فعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني فيُقعدني على فخذه ويُقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما، ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»[2].

وعن قتادة قال: خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها.[3]

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٦)، ومسلم (٥٤٣).

•• زجره ﷺ من لا يرحم :

إن بعض الأخلاق والسمات جبلّة في النفوس؛ فمنهم من يكون رحيمًا عطوفًا، ومنهم من يكون كريمًا سخيًّا، ومنهم من يكون شجاعًا.

والرحمة عند محمد ﷺ لم تكن مجرد سمة وخلق جُبل عليه فحسب، بل كان يعلّم الناس الرحمة، ويدعوهم إليها، وينكر على أولئك الذين لا تبدو منهم الرحمة لمن يستحقها، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابسٍ التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرةً من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم»(١).

وفي موقف آخر يصف محمد ﷺ من فقد الرحمة بالصغار بأنه قد نُزِعَت الرحمة من قلبه، فعن عروة عن عائشة – رضي الله عنها – قالت جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم، فقال النبي ﷺ: «أوَأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»(٢).

وكان ﷺ يأمر أمته بالرحمة أمرًا عامًّا، ويبين أن أولئك الذين يتخلقون بالرحمة يستحقون رحمة الله تبارك وتعالى، فعن عبد الله بن عمرٍو ﵁ يبلغ به النبي ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء»(٣).

وعن جرير بن عبد الله ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»(٤).

•• رحمته ﷺ بالجاهل:

ومن المواقف التي تتجلى فيها الرحمة رحمته بالرجل الجاهل؛ فإن الجاهل كثيرًا ما يتصرف تصرفات لا تليق، وقد تقود الناس للتعامل الفظ والغليظ معه، يروي لنا أبو هريرة ﵁ هذا الموقف فيقول: قام رسول الله ﷺ في صلاةٍ وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا، فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: «لقد حجّرت واسعًا يريد رحمة الله»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤).

(٤) أخرجه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩).

(٥) أخرجه البخاري (٦٠١٠).

وبعد الصلاة اتجه هذا الأعرابي إلى ناحية المسجد، والمسجد له مكانته عند المسلمين؛ فهو دار العبادة، وهو المكان الذي يجتمعون فيه لتلاوة القرآن وتعلم العلم، فأخذ يبول، فاستنكر أصحاب محمد ﷺ هذا الأمر، وانتهروا الرجل، فنهاهم محمد ﷺ، وأمرهم أن يَدَعُوه حتى يُكمل حاجته.

ثم دعاه ﷺ برفق وعلَّمه. يصف لنا هذا الأعرابي موقفه ﷺ بقوله: فقام إليّ بأبي وأمي، فلم يؤنب ولم يسبّ، فقال: «إن هذا المسجد لا يُبَال فيه، وإنما بني لذكر الله وللصلاة». ثم أمر بسَجْل من ماء فأُفرغ على بوله[1].

•• تأكيده ﷺ على رحمة الضعاف:

ويؤكد محمد ﷺ على شأن الرحمة بالصغار، وأن أولئك الذين لا يملكون في قلوبهم الرحمة لمن يستحقها هم على غير سنته وطريقته، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا»[2].

•• رحمته ﷺ في التشريع:

والرحمة لدى محمد ﷺ لم تكن قاصرة على مجرد المشاعر والتعامل مع الآخرين، بل يظهر أثرها في التشريع؛ فيرحم محمد ﷺ أمته، ويتجنب المشقة عليهم.

فهو على سبيل المثال يؤكد على أهمية استعمال السواك لتطهير الفم، ويبين أنه كان يتمنى أن يأمرهم بفعله عند كل صلاة، لكنه ترك ذلك مخافة المشقة والكلفة عليهم، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشقّ على أمتي أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»[3].

•• رحمته ﷺ في أدائه للعبادة:

لقد كان محمد ﷺ يراعي الرفق بأمته وهو يؤدي العبادة، بل أهم العبادات العملية، ألا وهي الصلاة، عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٥٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩١٩)، وأحمد (٦٦٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٧٠٩)، ومسلم (٤٧٠).

•• رحمته ﷺ بترك الأفضل :

كما أنه ﷺ كان يترك بعض الأعمال الفاضلة رحمة بأمته، فقد أخبر ﷺ أن الوقت الأفضل لصلاة العشاء هو تأخيرها إلى آخر وقتها، لكن نظرًا لأن الناس كانوا ينامون مبكرين، ويشق عليهم أن يتأخروا لانتظار الصلاة؛ فإنه ﷺ كان يُبَكِّر في أدائها أول وقتها؛ مراعاة لعدم المشقة عليهم، ولو ترك هذا العمل الفاضل،فعن عائشة قالت: أعتم النبي ﷺ ذات ليلةٍ حتى ذهب عامة الليل، وحتى نام أهل المسجد، ثم خرج فصلى فقال: «إنه لَوَقْتُها لولا أن أشق على أمتي»(١).

ومن رحمته ﷺ بأمته فيما يتعلق بالتشريع أنه كان يخشى أن يُفرض عليهم أمر لا يستطيعون المحافظة عليه؛ كان محمد ﷺ يحافظ على صلاة التطوع بالليل، وفي رمضان يزداد اجتهادًا في الصلاة، وكان يصلي لوحده ﷺ،فصلى مرة في المسجد، وصلى معه أصحابه، وحين تكرر الأمر خشي ﷺ إن هو داوم على ذلك أن يفرضه الله عليهم، فصار يصلي في بيته،فعن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد فصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال: «أما بعد، فإنه لم يخف عليَّ مكانكم، لكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها»(٢).

•• الرحمة بالمخالفين :

لم تقف رحمة محمد ﷺ على أتباعه الذين استجابوا لدعوته وناصروه فصاروا من أصحابه، بل إنها امتدت إلى المخالفين له، والذين كانوا يؤذونه ويقفون عائقًا أمام دعوته، بل يحاربونه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قيل يا رسول الله ادعُ على المشركين. قال: «إني لم أُبْعَث لعانًا وإنما بعثت رحمةً»(٣).

وحين كان ﷺ في مكة فآذاه قومه خرج إلى أهل الطائف يدعوهم، فلم يستجيبوا له،

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦)، ومسلم (٦٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٩٢٤)،ومسلم (٧٦١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

وآذوه حتى أدموا قدمه. في مثل هذه المواقف قد يميل الرجل إلى الانتصار لنفسه، أو الانتقام ممن آذاه وامتنع عن الاستجابة له، لكن رحمة محمد ﷺ قد وسعت أولئك، فعن عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ حدثت أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلالٍ، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب». ومع تلك المعاناة التي عاناها محمد ﷺ مع أهل مكة والطائف إلا أنه لم يستعجل ربه عذابهم وإهلاكهم، ولم يدع عليهم، بل قال قولته المشهورة: «أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[1].

•• رحمته ﷺ بالحيوانات:

إن من في قلبه مثل هذا العطف والرحمة ليس بغريب عليه أن يرحم الحيوان الضعيف الذي لا يستطيع النطق ليعبّر عن ألمه، أو عن خوفه وجزعه، فنرى محمدًا ﷺ ينهى عن قتل الحيوان من أجل اللهو واللعب.

وأوصى كذلك بالرفق بالحيوان، حتى عند ذبحه، فتراه يقول لمن أضجع شاة وهو يحد شفرته: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا حددت شفرتك قبل أن تُضجعها».[2]

وحكى لأصحابه كيف أن امرأة دخلت النار في هرة، وأن رجلاً غفر له في كلب فقال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[3].

وقال: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خُفَّه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له، فغفر له». قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»[4].

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه الحاكم ٤/٢٣١، والطبراني في الأوسط (٣٥٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٦٣) ومسلم (٢٢٤٤).

•• حياؤه ﷺ :

كان محمد ﷺ يُوصف بالحياء، بل بشدة الحياء، حتى ضُرِبَ له المثل في ذلك، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها[1].

وقد وصفه الله تعالى في القرآن الكريم بالحياء، فقال في سورة الأحزاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

وتروي لنا كتب السنة تفاصيل ذلك في القصة التالية:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: بُنِيَ على النبي ﷺ بزينب بنت جحشٍ بخبزٍ ولحمٍ، فأُرْسِلْتُ على الطعام داعيًا، فيجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعو، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحدًا أدعوه. قال: «ارفعوا طعامكم». وبقي ثلاثة رهطٍ يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله». فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك، فتقرَّى حُجَر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثةٌ من رهطٍ في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أو أُخبر أن القوم خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلةً وأخرى خارجةً، أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب[2].

ويخبرنا محمد ﷺ أن الحياء ليس خاصًا به، بل إنه من السنن التي جاء بها رسل الله جميعًا، عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: الحياء، والتعطر، والسواك، والنكاح»[3].

ويخبر عن حياء أخيه موسى – عليه السلام – بقوله: «إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٩٣)، ومسلم (١٤٢٨).

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٨٠)، وأحمد (٢٣٠٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩).

ومن حياء محمد ﷺ أنه لم يكن يرضى أن تظهر عورته أمام الناس، وإنما وقع منه ذلك مرة وهو صغير، فلم يُرَ عريانًا بعدها، فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة، وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلت على منكبيك دون الحجارة. قال: فحله فجعله على منكبيه؛ فسقط مغشيًا عليه، فما رُئِيَ بعد ذلك عريانًا ﷺ[1].

ومن حياء محمد ﷺ أنه يستحي ممن يتصفون بالحياء، فقد كان صاحبه عثمان رضي الله عنه شديد الحياء؛ لذا كان ﷺ يعامله بما يتناسب مع حاله، فعن سعيد بن العاص أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثاه أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك فقضى إليه حاجته، ثم انصرف، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنتُ عليه فجلس، وقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك» فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت. فقالت عائشة: يا رسول الله! ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: «إن عثمان رجل حيي وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إليَّ في حاجته»[2].

•• الحياء في الحديث عما لا يحسن التصريح به:

وحين يبين محمد ﷺ لأتباعه أحكام الدين؛ فإن هناك ما يُستحيا منه، لذا فهو يعبّر عنه بلفظ يؤدي إلى المعنى، لكنه لا يتنافى مع الحياء، فعن عائشة: أن امرأةً سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل قال: «خذي فرصةً من مسكٍ فتطهري بها».

قالت: كيف أتطهر.

قال: «تطهري بها».

قالت: كيف؟

قال: «سبحان الله تطهري». قالت عائشة: فاجتبذتها إليَّ فقلت: تتبعي بها أثر الدم[3].

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤)، ومسلم (٣٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٤)، ومسلم (٣٣٢).

•• يأمر أمته بالحياء ﷺ :

والحياء ليس مجرد صفة جُبل عليها محمد ﷺ، بل هي صفة محمودة في شريعة الإسلام يثني عليها محمد ﷺ، ويأمر أصحابه بالتخلق بها، فيُخبر أن الحياء من الإيمان فيقول: «الإيمان بضع وستون شُعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

ولما كان بعض الناس يعيب صفة الحياء وينتقصها؛ فإن محمدًا ﷺ ينهى عن ذلك، ويخبر أنها صفة محمودة، فعن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه؛ فإن الحياء من الإيمان»[2].

ويقارن محمد ﷺ بين الحياء وبين الفحش، فيجعل الحياء مقابلاً ونقيضًا له، ويجعله مما يزين الأمور، فيقول: «ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»[3].

•• مفهوم الحياء :

وربما يتساءل أحد ها هنا: أليس الحياء صفة ضعف وقصور؟

أليس الحياء يمنع الإنسان عن المطالبة بحقوقه؟

أليس الحياء يمنع الإنسان عن قول ما ينبغي له أن يقوله؟

فهل كان ذلك عند محمد ﷺ؟

إن من يتأمل سيرة محمد ﷺ يرى أن الحياء الذي اتصف به ودعا إليه؛ ليس موقف الضعف والقصور، فهو لم يكن ناشئًا عن ضعف قدرة، أو قصور في التواصل، أو خجل، بل كان أمرًا يتخلق به، ويختاره عن وعي.

فالحياء لم يكن ليمنعه ﷺ من بيان أحكام الدين للناس حين يقتضي الأمرُ ذلك، فعن حصين المزني قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه على المنبر: أيها الناس، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقطع الصلاة إلا الحدث»، لا أستحييكم مما لا يستحيي منه رسول الله ﷺ[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤)، ومسلم (٣٦).

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٧٤).

(٤) أخرجه أحمد (١١٦٨).

وحين تسأله إحدى النساء عن أمر من أمور الدين مما يستحيا منه تعتذر عن ذلك بأن الحياء لا يمنع من التفقه في أمور الدين، فيُقرّها ﷺ على هذا الأمر، فعن أم سلمة أن أم سليم قالت يا رسول الله: إن الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة غُسل إذا احتلمت؟ قال: «نعم إذا رأت الماء». فضحكت أم سلمة. فقالت: أتحتلم المرأة؟ فقال النبي ﷺ : «فبم شبه الولد»[1].

لقد عُنِيَ محمد ﷺ بأن يربي الناس تربية متوازنة، فهو يعوّدهم أن يطالبوا بحقوقهم المشروعة، ولا يرى في ذلك ما يتعارض مع الحياء، ومع ذلك يؤكد على قيمة الحياء حين تكون محمودة.

إن الحياء يمنع الإنسان عن إتيان الأفعال المشينة غير اللائقة، و يقود الإنسان إلى أن يهذب ألفاظه فيبتعد عما يخدش الحياء، أو عن التصريح بما لا يليق التصريح به. وهو يمنع من المجاهرة في المجامع العامة بما يلفت أنظار الناس ويستنكرونه.

ويعبّر محمد ﷺ عن هذا المعنى، وأن من لم يردعه الحياء يمكن أن يفعل كل ما يشاء فيقول: «إن مما أدرك الناسَ من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»[2].

•• الحياء من الله:

كما يبين محمد ﷺ أن الحياء ليس فقط هو في التعامل مع الناس، بل في تعامل الإنسان مع ربه عز وجل عليه أن يستحي منه.

والحياء من الله يجعل المسلم يراقب ربه ويخشاه، ويبتعد عن معصيته، سواء أكان أمام الناس، أم كان لوحده، فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء». قال: قلنا: يا رسول الله! إنا نستحيي والحمد لله. قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[3].

وسأله رجل من أصحابه أن يوصيه فأوصاه بالحياء من الله عز وجل وقال له: «أوصيك أن تستحي من الله عز وجل كما تستحي رجلاً من صالحي قومك»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩١)، ومسلم (٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، وأحمد (٣٦٦٢).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الايمان (٧٣٤٣).

•• صبره ﷺ :

ظل محمد ﷺ يدعو إلى رسالته، سرًا وجهارًا، لا يصرفه عن ذلك صارف طوال سني حياته الثلاثة والستين، وتعرَّض خلالها لأصناف كثيرة من الآلام والمشاقّ والمحن، وهو في كل ذلك صابر ثابت يريد أن يواصل الطريق إلى نهايته.

فقد استمر في أول عهده يتتبّع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، يدعو من لقيه من: حُرّ وعبد، وقويّ وضعيف، وغني وفقير، إلى الإيمان به والتصديق برسالته، والدخول في عهده.

وبرغم مشاعر الغضب المتفجرة في مكة ضده وضد دعوته؛ فإن ذلك لم يخفه أو يقعده، بل ظل يدعو ويؤهل العناصر الأولى لحمل رسالته معه، وقد كان يجتمع بالمسلمين في بيوتهم بعيداً عن أعين قريش حتى تكوّنت جماعة من المؤمنين الأوائل قوية في إيمانها برسالتها.

لقد صبر على إلحاق أصناف الأذى به وبأصحابه، بعدما قرّر المشركون استئصال دعوته، وظلت قريش عشرة أعوام تعدُّ المسلمين متمردين عصاة، فاستباحت دماءهم وأموالهم، وأثارت عليهم حربًا إعلامية من السخرية والاستهزاء والتكذيب والتشويه، واتهموا محمدًا بالجنون، والسحر، والكذب والكهانة، ومحمد ﷺ في كل ذلك ثابت صابر يرجو من ربه النصر وينتظره.

حتى إنه جاءه يومًا أبو جهل ليعتدي عليه، ويريد أن يطأ على رقبته، فعن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يُعَفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ يعني أنه يصلي أمامهم، قال: قيل: نعم. فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأُعَفِّرنَّ وجهه في التراب. قال: فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته. قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتراجع[1].

ويروي ابن مسعود ؓ موقفًا يتجاوز فيه قومه كل قيم الأدب واللباقة، فيقول: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحرتْ جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سَلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه على ظهر محمد إذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩٧)

سجد، فانبعث أشقى القوم – وهو عقبة بن أبي معيط – فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم»(١).

ومن أشد ما صنع به المشركون ﷺ ما رواه عروة بن الزبير، قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر، فأخذ بمنكبيه، ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟»(٢).

وقد اشتد أذى المشركين لمحمد ﷺ ولأصحابه، حتى جاء بعضهم إليه يستنصره، ودعونا نترك صاحبه يحكي الموقف: فعن خباب بن الأرت ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، [ولقد لقينا من المشركين شدة]، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتَمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(٣).

وظل الأذى بمحمد ﷺ وأصحابه حتى حبستهم قريش والقبائل من مواليها في شِعْب أبي طالب لمدة طالت، فبلغت قرابة الثلاث سنين، وأجمعوا على أن يتعاقدوا على بني هاشم، وبني عبد المطلب، وبني عبد مناف، وأن لا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم، حتى يسلِّموا إليهم محمدًا ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة، وبقوا محصورين محبوسين، حتى بلغهم الجهد، ومات أبو طالب بعد ذلك بستة أشهر، وماتت خديجة بعده بعدة أيام، واشتد البلاء على محمد ﷺ بموتهما، وتجرأ عليه السفهاء وآذوه أشد إيذاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

ثم خرج إلى الطائف لعله يجد في ثقيف حسن الإصغاء لدعوته والانتصار لها، وكان معه زيد بن حارثة، وكان في طريقه كلما مرّ على قبيلة دعاهم إلى الإسلام، فلم تُجبْه واحدة منها، عندما وصل إلى الطائف عمد إلى رؤسائها فجلس إليهم، ودعاهم إلى الإسلام، فردوا عليه ردًّا قبيحًا، وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم، فلما أراد الخروج تبعه هؤلاء السفهاء واجتمعوا عليه صَفّين يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء، وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، ورجع محمد ﷺ من الطائف إلى مكة محزونًا[1].

وظل محمد ﷺ يدعو الناس في مواسم الحج والأسواق، فعن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، قال: أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عباد، من بني الديل، وكان جاهليًّا، قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضئ الوجه، أحول، دو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ وقالوا: هذا عمه أبو لهب[2].

كما صبر محمد ﷺ على الجراح والألم في كثير من المواقف بعد هجرته إلى المدينة وبداية المواجهات مع الخصوم، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه سُئلَ عن جرح النبي ﷺ يوم أحد فقال: جُرِحَ وجه النبي ﷺ وكُسِرَت رباعيته، وهُشِمَتِ البيضة على رأسه، فكانت فاطمة - رضي الله عنها - تغسل الدم، وعليٌّ يمسك، فلما رأت أن الدم لا يرتد إلا كثرة أخذت حصيرًا فأحرقته حتى صار رمادًا، ثم ألزقته فاستمسك الدم[3].

وبرغم ذلك الأذى والجراح يحكي ﷺ لأصحابه عن قيمة عليا من الصفح والعفو والصفح، فعن عبد الله بن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[4].

---

(١) انظر. زاد المعاد ٣/٣١.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠)

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

•• كرمه وجوده ﷺ:

الكرم خصلة حميدة وصفة جميلة كانت محل الثناء عند العرب، وكان صاحبها محل مدحهم وإعجابهم.

الكرم يعني: سخاء الإنسان وبذله للمال لمن يحتاجه من الآخرين، واعتناءه بإكرام الضيف والإحسان إليه.

وفي مقابل الكرم البخل والشح، وهو من أسوأ الأخلاق لدى العرب، حتى كانوا يسمّون البخيل فاحشًا؛ من شدة كرههم لهذه الخصلة.

يقول عنترة أحد شعراء العرب قبل الإسلام:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر البخل بلفظ الفحشاء، قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

وقد أثنى القرآن الكريم على صفة الكرم في قصة نبي الله إبراهيم، وذكر القرآن قصته مع ضيفه في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٤ – ٢٧).

عاش محمد ﷺ في مجتمع يحب الكرم والكرماء ويثني عليهم، لكن قد فاقهم في ذلك، بل شهد له من عاصره أنه أسخى الناس وأجودهم، فعن ابن عباسٍ قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان.[1]

لقد عرف التاريخ قديمًا وحديثًا عددًا من الأثرياء والأغنياء الذين ينفقون بسخاء على المحتاجين وعلى المشروعات الاجتماعية والخيرية.

والكرم خلق جميل وسمة محمودة، مهما كانت حال الكريم المنفق، لكنه حين يكون ثريًا غنيًا؛ فمن السهل أن ينفق الكثير من ماله دون أن يشعر بأن هناك ما ينقصه.

أما من يكون فقيرًا، وينفق مما يحتاج إليه، فهذا غاية الكرم والجود.

---

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

ومحمد ﷺ لم يكن ثريًا غنيًا، ولم يكن كرمه نتيجة امتلاكه للأموال الهائلة، بل كان ينفق مما يحتاج إليه، ويصوِّر لنا هذا الموقف جانبًا من ذلك:

عن سهل بن سعدٍ قال: جاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ ببردةٍ فقالت يا رسول الله: أكسوك هذه. فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها فلبسها، فرآها عليه رجلٌ من الصحابة، فقال يا رسول الله: ما أحسن هذه فاكسنيها، فقال: «نعم»، فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئًا فيمنعه. فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أُكفن فيها [(١)].

ولم يكن محمد ﷺ وهو يتصف بالكرم والسخاء ينتظر من الناس الاعتراف بالإحسان ورد الجميل، بل كان سخيًا كريمًا رغم ما عاناه من جهلة الأعراب وجفاتهم، عن محمد بن جبيرٍ قال: أخبرني جبير بن مطعمٍ أنه بينا هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقبلاً من حنينٍ، علقت رسول الله ﷺ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرةٍ فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العضاه نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا»[(٢)].

وكرم محمد ﷺ لم يكن قاصرًا على أصحابه القريبين منه، أو على من يرجو منهم رد الجميل، بل عمَّ كرمه الآخرين، حتى شهد له بذلك من كانوا أعداءً له.

حين دخل محمد ﷺ مكة، عفا عن أهلها جميعًا رغم ما فعلوه من عداوة له وإيذاء، إلا ستة منهم كانت لهم سوابق من الأذى له وللمسلمين. والذين بلغوا هذه المنزلة من العداوة له والإيذاء سيكونون أقل إنصافًا في حقه، ويزداد الأمر بعد إهدار دمائهم، وكان من بين هؤلاء عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه.

فقد خرج عكرمة رضي الله عنه هاربًا من مكة، ثم ركب سفينة يريد البعد عن جزيرة العرب كلها، فأصابتهم في السفينة عاصفٌ، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئًا - وكان من عادة العرب أنهم يدعون آلهتهم في حال الرخاء،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢١).

فإذا جاء وقت الشدة دعوا الله وحده، وأخلصوا له الدعاء - فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليَّ عهدًا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا ﷺ حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفوًا كريمًا فجاء فأسلم(١).

إن هذه الشهادة بالكرم والعفو من عكرمة لمحمد ﷺ وهو لايزال في مرحلة العداوة؛ دليل آخر على أن كرم محمد ﷺ قد استفاض واشتهر، وأنه صار سمة وشعارًا يدركه ويعترف به حتى غير الموالين له، فعن المقداد قال: أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد، فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله ﷺ فليس أحدٌ منهم يقبلنا، فأتينا النبي ﷺ فانطلق بنا إلى أهله فإذا ثلاثة أعنزٍ، فقال النبي ﷺ: «احتلبوا هذا اللبن بيننا». قال: فكنا نحتلب فيشرب كل إنسانٍ منا نصيبه، ونرفع للنبي ﷺ نصيبه، قال: فيجيء من الليل فيسلم تسليمًا لا يوقظ نائمًا ويسمع اليقظان. قال: ثم يأتي المسجد فيصلي ثم يأتي شرابه فيشرب. فأتاني الشيطان ذات ليلةٍ وقد شربت نصيبي، فقال: محمدٌ يأتي الأنصار فيتحفونه ويصيب عندهم ما به حاجةٌ إلى هذه الجرعة فأتيتها فشربتها، فلما أن وغلت في بطني، وعلمت أنه ليس إليها سبيلٌ قال: ندّمني الشيطان، فقال: ويحك ما صنعت أشربت شراب محمدٍ فيجيء فلا يجده فيدعو عليك فتهلك فتذهب دنياك وآخرتك، وعليّ شملةٌ إذا وضعتها على قدمي خرج رأسي وإذا وضعتها على رأسي خرج قدماي وجعل لا يجيئني النوم، وأما صاحباي فناما ولم يصنعا ما صنعت. قال فجاء النبي ﷺ فسلم كما كان يسلم، ثم أتى المسجد فصلى، ثم أتى شرابه فكشف عنه فلم يجد فيه شيئًا فرفع رأسه إلى السماء، فقلت: الآن يدعو عليّ فأهلك. فقال: «اللهم أطعم من أطعمني واسق من أسقاني»، قال: فعمدت إلى الشملة فشددتها عليّ وأخذت الشفرة فانطلقت إلى الأعنز أيها أسمن فأذبحها لرسول الله ﷺ فإذا هي حافلةٌ، وإذا هن حفلٌ كلهن فعمدت إلى إناءٍ لآل محمدٍ ﷺ ما كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه قال: فحلبت فيه حتى علته رغوةٌ فجئت إلى رسول الله ﷺ فقال: «أشربتم شرابكم الليلة؟» قال: قلت يا رسول الله! اشرب فشرب، ثم ناولني فقلت يا رسول الله اشرب،

---

(١) أخرجه النسائي (٤٠٦٧).

فشرب ثم ناولني، فلما عرفت أن النبي ﷺ قد روي، وأصبت دعوته ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض. قال: فقال النبي ﷺ: «إحدى سوآتك يا مقداد! ». فقلت يا رسول الله كان من أمري كذا وكذا، وفعلت كذا فقال النبي ﷺ : «ما هذه إلا رحمةٌ من الله، أفلا كنت آذنتني فنوقظ صاحبينا فيصيبان منها». قال: فقلت والذي بعثك بالحق ما أبالي إذا أصبتها وأصبتها معك من أصابها من الناس[1].

•• يوصي أصحابه بالكرم ﷺ:

والكرم عند محمد ﷺ لا يقف عند مجرد تحلّيه به وتخلّقه به، بل يدعو أتباعه إلى ذلك، ويؤكد لهم هذا المعنى، ويخبر أنه سبب لمحبة الله عز وجل،فعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق، ويبغض سَفْسَافَها»[2].

وتعلو أهمية الكرم لدى محمد ﷺ فيربطه بالإيمان بالله واليوم والآخر، مما يجعله ليس أدبًا من الآداب الفاضلة أو خلقًا من الأخلاق الحسنة المحمودة فحسب، عن أبي شريحٍ العدوي قال: سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته. قال: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يومٌ وليلةٌ، والضيافة ثلاثة أيامٍ، فما كان وراء ذلك فهو صدقةٌ عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[3]

والكرم كغيره من الخصال والسمات الحسنة التي قد يتصف بها الإنسان وهو يريد الثناء من الناس ومديحهم، ومن هنا يؤكد محمد ﷺ في توجيهه لأصحابه على أهمية أن يريد الإنسان بكرمه وإحسانه وجه الله وحده لا ثناء الناس.

ولهذا يبّين ﷺ لأتباعه أن من ينفق لأجل أن يمدحه الناس ويثنون عليه بالكرم يُعَذَّب يوم القيامة ولا ينجيه ذلك، فيذكر أن من أول من يقضى عليه يوم القيامة: «رجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِي به فعرَّفه نعَمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٥).

(٢) أخرجه الحاكم: ٤٨/١.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).

قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبتَ. ولكنك فعلتَ ليُقال هو جوَاد. فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه، ثم ألقي في النار»[1].

وهذا يقود المرء إلى الطمأنينة في عمله، وألا يتأثر كثيرًا بردود أفعال الآخرين. كما أنه يقود إلى أن لا يجد الإنسان مِنَّة فيما ينفقه ويبذله، بل إن الله تعالى يؤكد في القرآن الكريم على أن من شرط الإنفاق المقبول أن يَسْلَم من المنة على المنفَق عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٦٤).

بل يجعل القرآن الكريم قولَ الإنسان للمعروف واعتذارَه الجميل خيرًا من الإنفاق المصحوب بالمن والأذى، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٢ - ٢٦٣).

● ● ●

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

•• عدله ﷺ:

العدل قيمة ضرورية للسعادة، وقاعدة أساس، ومحور أساسي في بناء استقامة المجتمعات، وضامن قوي لنهضتها واستقرارها وتقدمها.

ولقد أكد محمد ﷺ في رسالته على العدل بوصفه مفهوماً تطبيقياً، وعمل على إرساء قواعده بين الناس حتى ارتبطت بها جميع مناحي ما جاء به من تشريعات ونُظم، فلا يوجد نظام في الإسلام إلاّ وللعدل فيه مطلب، فهو مرتبط بنظام الإدارة والحكم، والقضاء، وأداء الشهادة، وكتابة العهود المواثيق، بل إنه مرتبط أيضًا بنظام الأسرة والتربية، والاقتصاد والاجتماع، والسلوك، والتفكير، يقول سبحانه في القرآن: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥).
يقول العالم الإسلامي ابن القيم تعليقًا على تلك الآيات: «إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسماوات، فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه».

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠). «فالعدل المأمور به هنا هو الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدةً ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب والغنى والفقر، والقوة والضعف، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع، ويوجد بجوار العدل الإحسان، يلطّف من حِدّة العدل الصارم الجازم، و يُحسن إقامة العدل، ويدع الباب مفتوحًا لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثارًا لودّ القلوب، وشفاء لغِلّ الصدور، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحًا أو يكسب فضلاً»[1].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨)، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

---

(١) في ظلال القرآن الكريم: ١٤/٢١٩٠.

فالأمة الإسلامية برؤية الرسالة المحمدية مكلفة بتحقيق العدل في الأرض، وأن تبني حياتها كلها على أصول العدل؛ حتى تستطيع أن تحيا حياة حرة كريمة، ويحظى كل فرد في ظلها بحريته، وينال جزاء سعيه، ويحصل على فائدة عمله وكدّه.

العدل في رؤية محمد ﷺ وتطبيقه :

لقد أمر محمد ﷺ بالعدل ، وحثّ عليه ، وتضمنته رسالة الإسلام التي أقامت بنيانه وأسسته أحسن تأسيس، فكان من أعظم مقاصدها إعطاء كل ذي حق حقه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، من غير تفرقة بين المستحقين، وقد عدّه قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح العباد والبلاد، وأن الله قد وضع العدل لتوزّع به الأنصبة والحقوق، وتقدّر به الأعمال والأشخاص، إذ هو الميزان المستقيم، الذي لا تميل كفته، ولا يختلّ وزنه. كما عده من أهم دعائم السعادة التي ينشدها البشر في حياتهم،وهي أن يطمئنوا على حقوقهم وممتلكاتهم، وأن يستقر العدل فيما بينهم.

وأدرك محمد ﷺ أن العدل مشعر للناس بالاطمئنان والاستقرار، وحافز كبير لهم على الإقبال على العمل والإنتاج، فيترتب على ذلك: نماء العمران واتساعه، وكثرة الخيرات وزيادة الأموال والأرزاق، فأكد على تنفيذه بصورة عملية في كل موطن قدم في دولته الإسلامية الوليدة.

وقد رغّب محمد ﷺ في العدل،فقال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ» وذكر أوّلهم فقال : « الإِمَامُ الْعَادِلُ »[1].

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نورٍ عن يمين الرحمن عز وجل، وكِلتا يديه يمينٌ، الذين يعدلون في حُكمهم، وأهليهم، وَمَا وَلُوا»[2].

مواقف من عدل محمد ﷺ :

عن عائشة قالت: إن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يُكلِّم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

أسامة بن زيد، حِبُّ رسول الله ﷺ فأُتيَ بها إلى رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حدّ من حدود الله؟» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله! فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله، فقال: «أما بعد، أيها الناس: إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، ثم أقسم محمد ﷺ أن ابنته فاطمة لو فعلت ذلك لاستحقت العقوبة»[1].

إن القِيَم لا تتجزأ، والعدل الذي يرفع محمد ﷺ لواءه لا يمكنه أن يتعطل لأجل امرأة من عائلة غنية أو مشهورة، إنه ها هنا يعلن أن العدل سيف مسلَّط على كل مرتكن على اسمه أو نسبه أو ماله أو قوته، ولن يحيف حتى مع ابنته.

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال وهو على المنبر: أعطاني أبي عطيّةً، فقالت عمرة بنتُ رواحة: لا أرضى حتى تُشهِدَ رسول الله ﷺ، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: إني أعطيتُ ابني من عمرة بنت رواحة عطيّةً فأمرتني أن أُشهدك يا رسولَ الله! قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا. قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم». قال: فرجع فردَّ عطيته. وفي رواية: أن النبي ﷺ قال: «ألك ولدٌ سواه؟» قال: نعم. قال: فأراه قال: «لا تُشهدني على جور» وفي لفظ: «لا أشهد على جور» وفي لفظ: إني نحلتُ ابني هذا غلامًا، فقال: «أكلّ ولدك نحلته مثلَهُ؟» قال: لا. قال: «فأرجعه». وفي لفظ لمسلم: «أليس تريد منهم البر مثل ما تريد من ذا؟» قال: بلى. قال: «فإني لا أشهد»[2]. لقد أبى ﷺ أن يشهد وأمره بالعدل بين بنيه إقامة للعدل في الأسرة ومحافظة على كيانها.

● ● ●

(١) أخرجه البخاري (٤٣٠٤)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

•• شجاعته ﷺ:

عاش محمد ﷺ في بيئة كانت الشجاعة فيها تمثل قيمة من القيم المهمة، وكان الرجال يمدحون بهذه الصفة ويفتخرون بها، بل كان الوصف بالجبن من أسوأ أوصاف الذم والمعيبة.

واتصف محمد ﷺ بالشجاعة، بل بلغ فيها الغاية حتى وُصف من قِبَل أصحابه بأنه أشجع الناس.

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة فكان النبي ﷺ سبقهم على فرسٍ، وقال: «وجدناه بحرًا».[1]

وكذا وصفه بهذا الوصف صاحبه عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- فقال: ما رأيت أحدًا أنجد ولا أجود ولا أشجع، ولا أضوأ وأوضأ من رسول الله ﷺ[2].

وقال لأصحابه متحدثًا عن نفسه: «.... ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا»[3].

ويصور لنا هذا الموقف تميز محمد ﷺ في شجاعته، وهو مصداق لما وصفه به أنس ﷺ، فعن علي ﷺ قال: لقد رأيتنا يوم بدر، ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا[4].

ويبين لنا علي ﷺ أن هذه سمة محمد ﷺ في مواجهته للعدو، فيقول: كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه[5].

ومع موقف آخر في سيرته ﷺ تتجلى فيه الشجاعة، وذلك في غزوة حنين، والتي كانت من أواخر غزواته، حيث انكشف المسلمون، وولى كثير منهم مدبرين، طفق محمد ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، ثم قال: «أيْ عباس، ناد أصحاب السَّمُرة» فقال عباس: -وكان رجلاً صيِّتًا – فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٠).

(٢) أخرجه الدارمي (٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٢١).

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٦).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٤٩).

قال: فو الله لكأن عَطفَتهم حين سمعوا صوتي عَطفَة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار... فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال ﷺ: «الآن حمي الوطيس»[1].

•• شجاعة وليست تهوراً:

كثير ممن يشتهرون بالشجاعة لا يسلمون من التهور والاندفاع، وتدفعهم ثقتهم بأنفسهم إلى المبالغة في التعامل مع المواقف؛ لحرصهم على أن يثني عليهم الناس ويشيدوا بهم مما قد يدفعهم إلى التجاوز والمجازفة.

أما محمد ﷺ فرغم شجاعته إلا أنه كان واقعيًا، فهو يأخذ بأساليب الاحتياط والسلامة البشرية: نرى ذلك في حادثة الهجرة من مكة إلى المدينة، فحين همَّ قومه بقتله، وتآمروا على ذلك، خرج ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجرًا، وهناك بنى دولته وكيانه.

وتروي لنا كتب السيرة تفاصيل دقيقة عن حادثة الهجرة، وكيف أنه أخذ بأسباب السلامة والنجاة، وتمثل ذلك فيما يلي:

- أنه جاء إلى صاحبه أبي بكر ﷺ في وقت الظهيرة، وجاء متقنعًا.
- حين جلس مع أبي بكر، وأراد تحديثه بأمر الهجرة، كانت عند أبي بكر ابنتاه، فأمر بإخراجهما؛ تكتُّمًا على خبر هجرته.
- لم يبت تلك الليلة في فراشه ﷺ.
- خرج هو وصاحبه أبو بكر واختبآ في الغار ثلاثة أيام حتى يهدأ عنهما الطلب.
- كان عبد الله بن أبي بكر يبيت في مكة، ثم يأتي لهما بالأخبار المستجدة.
- كان راعي الغنم عامر بن فهيرة يأتي بالغنم فتمحو آثار عبد الله بن أبي بكر، ويشربان من حليبها.
- خرج من الغار بعد ثلاثة أيام، واختار طريقًا آخر إلى المدينة غير الطريق التي يسلكها الناس.
- لم يخبر أصحابه في مكة عن هجرته وتفاصيلها.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٥)

كما نلحظ ذلك أيضًا في عدد من غزواته؛ فقد كان يأخذ استعداده وأُهبته، فتروي لنا كتب السيرة أنه ﷺ كان يعتني بحماية نفسه في المعارك، فعن السائب بن يزيد عن رجل قد سماه أن رسول الله ﷺ ظَاهَرَ يوم أُحُد بين درعين أو لبس درعين[1].

وفي إحدى معارك المسلمين مع الروم حين أخذ قيادة جيش المسلمين خالدُ بن الوليد ﷺ، وكان جيش المسلمين أقل قدرة على مقاومة جيش الروم، وعندها انحاز خالد ﷺ بالجيش إلى المدينة، وترك مواجهة الروم،فأثنى عليه ﷺ، وأخبر أن الله فتح على يديه.

وهو تأييد للمسلك الواقعي الذي لا يندفع وراء شعارات الشجاعة فحسب، ويتجاهل التحديات التي تواجه الجيش.

•• الشجاعة الأدبية :

لم تكن شجاعة محمد ﷺ قاصرة على ميدان الحرب والشجاعة البدنية، بل كان يملك شجاعة أدبية كانت مطلبًا ضروريًّا لمهمته في رسالته لقومه.

وتمثلت شجاعته الأدبية في جرأته على قول الحق، ومواجهة تكذيب قومه وإعراضهم.

حين بدأ محمد ﷺ دعوته لقومه، وكان في حماية عمه أبي طالب ورعايته؛ فوالده توفي وهو حمل في بطن أمه، وتوفيت والدته وهو لازال صغيرًا. شعر قومه بالانزعاج مما يدعوهم إليهم وساوموا عمه أبا طالب، وسألوه أن يأخذ على يده ويمنعه.

التقى أبو طالب بمحمد ﷺ مبديًا له ما قاله قومه، فماذا كان رد محمد ﷺ ؟

عن عقيل بن أبى طالب قال: جاءت قريش إلى أبى طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا. فقال: يا عقيل انطلق فأتني بمحمد. فجاء به في الظهيرة في شدة الحرّ.

فلما أتاهم قال: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانْتَهِ عن أذاهم.

فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء،فقال: «ترون هذه الشمس؟» قالوا نعم ! قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة».

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٠)، وأحمد (١٥٢٩٥).

فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا.

كما تتمثل الشجاعة الأدبية لدى محمد ﷺ في أمر مهم، وهو أنه قد عاتبه ربه في القرآن الكريم في أمور اجتهد فيها فلم يُصب فكان يتلو هذه الآيات على الناس، ولم يكتم شيئًا منها.

ومن ذلك سورة عبس، والتي جاء فيها: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ (عبس: ١ – ١٠).

وقوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

ويروي صاحبه أنس رضي الله عنه قصة نزول هذه الآيات فيقول: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك». قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه[1].

ومن شجاعة محمد ﷺ الأدبية أنه حين يُسأل عن شيء لا يدري عنه فإنه يقول: «لا أدري». وهو أمر له شأنه حين يصدر من رجل بمثل منزلة محمد ﷺ.

فقد سئل ﷺ عن الروح فسكت فلم يقل شيئًا حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥).

ومن ذلك أنه جاءه رجل فسأله أي البقاع خير، فقال: «لا أدري».

ومنها ما رواه جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: مرضت فجاءني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان، فأتاني وقد أغمي عليّ، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم صبّ وضوءه عليّ فأفقت فقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ كيف أصنع في مالي؟ قال: فما أجابني بشيء حتى نزلت آية الميراث[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، ومسلم (١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٠٩)، ومسلم (١٦١٦).

•• حلمه ﷺ:

كان محمد ﷺ يُواجَه من أعدائه بأساليب موغلة في الاستفزاز والأذى قد تُخرج الإنسان عن طوره، لكنه مع ذلك كان مثالاً للحلم والصبر، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: استأذن رهطٌ من اليهود على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك. فقلت: بل عليكم السام واللعنة. فقال: «يا عائشة إن الله رفيقٌ يحب الرفق في الأمر كله». قلت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: «قلت وعليكم»(١).

إن هؤلاء كانوا يستخفون بلفظ السلام الذي هو من دين الإسلام، وكانوا يجعلون التحية شتيمة ولعنة، ويسوقونها بلفظ يوهم خلاف ذلك، ومع هذا كله كان حلم محمد ﷺ أوسع من الاستجابة لهذا الاستفزاز، بل ينكر على عائشة -رضي الله عنها- مقولتها، ويدعوها إلى مزيد من الرفق والإحسان، فتظن أنه لم يسمع تلك المقولة فيجيبها بأنه قد سمع.

ولم يكن حلم محمد ﷺ مقتصراً على أعدائه، بل يسع أتباعه من باب أولى، وهم جمهور واسع، وفيهم من العامة والأعراب من يكون طبعه الجفاء والغلظة فيتصرف مع رسول الله ﷺ بما لا يليق، لكنه كان يحلم ويصبر عما يبدر منهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلَظَ: فَهَمَّ بِهِ أصحابُه، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً». ثم قال: «أعطوه سنًّا مثل سِنّه». قالوا: يا رسول الله، إلا أمثل من سنه: فقال: «أعطوه: فإن من خيركم أحسنكم قضاء»(٢).

لقد جمع محمد ﷺ في هذا الموقف بين الحلم والصبر على جفاء الرجل وغلظته، وبين الإحسان، فأعطاه أكثر من حقه.

والجفاء من بعض الأتباع قد لا يقف عند أولئك الذي يطالبون بحق ثابت لهم، بل إنك تجد من يسألون ويستكثرون قد يتعاملون معه بجفاء وغلظة، ومع ذلك يتسع صدره للحلم عليهم، فعن أنس بن مالكٍ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بردٌ نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذةً شديدةً حتى نظرت إلى صفحة عاتق

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٨)، ومسلم (٦٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٠٥)، ومسلم (١٦٠١).

رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك؛ فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء[1].

لقد جمع هذا الرجل بين الإيذاء البدني والنفسي، فهو حين يسأله يقول له: «مُرْ لي من مال الله». أي أنك حين تعطيني فلست بصاحب فضل ولا معروف، فأنت إنما تعطي من مال الله.

وحلم محمد ﷺ يسع أولئك الذين يؤذونه ويمتد الأذى منهم إلى الأذى البدني؛ فيذكِّر ﷺ نفسه بما كان يصيب الأنبياء من قبله مما يزيده حلمًا، عن عبد الله قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[2].

•• يغضب لكنه يحلم ﷺ:

والحلم عند محمد ﷺ ليس مصدره أنه لا يغضب مطلقًا، فهو بشر كسائر البشر يغضب حين يكون الموقف يثير الغضب، لكن حلمه كان يحجزه عن أن يستجيب لداعي الغضب، فعن عبد الله ﷺ قال: لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب، فآثرهم يومئذ في القسمة. قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أُريد بها وجه الله. فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ فأتيته فأخبرته. فقال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[3].

وقد ورد في بعض روايات هذا الخبر: فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[4].

ومن هنا يؤكد محمد ﷺ على أتباعه هذا المعنى، يؤكد عليهم أن قيمة الإنسان وقوته تتمثل في انتصاره على الاستجابة لدوافع الغضب، ويبيّن حال ذلك الذي يستحق الثناء والإشادة فيقول سائلاً أصحابه: «ما الصرعة؟» قالوا: الصريع. قال ﷺ: «الصرعة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٠٥)، ومسلم (١٦٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢).

كل الصرعة، الصرعة كل الصرعة: الرجل يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه ويقشعر شعره فيصرع غضبه»[1].

وعن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾(البقرة: ٢٢٢)، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يا رسول الله: إن اليهود تقول كذا وكذا فلا نجامعهن. فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وَجَدَ عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما[2]

•• حلمه مع أهل بيته ﷺ:

ومما يتجلى فيه الحلم لدى محمد ﷺ: تعامُله مع أهل بيته، فهو بشر كسائر الناس يعيش حياتهم ومشكلاتهم، ويتعامل مع زوجاته وهنّ بشر قد يبدو منهن ما يبدو من غيرهن من النساء، ومع ذلك كان حلمه يسع ذلك كله ﷺ.

وتروي لنا إحداهن وهي عائشة -رضي الله عنها- نموذجًا من حلمه في تعامله مع أهل بيته، فعن رجل من بني سواءة قال: سألت عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: أما تقرأ القرآن ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(القلم: ٤). قال: قلت حدثيني عن ذاك. قالت: صنعت له طعامًا وصنعت له حفصة طعامًا، فقلت لجاريتي: اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعته قبل، فاطرحي الطعام. قالت: فجاءت بالطعام. قالت: فألقته الجارية، فوقعت القصعة فانكسرت وكان نطعًا، قالت: فجمعه رسول الله ﷺ وقال: «اقتصوا، أو اقتصي ظرفًا مكان ظرفك، فما قال شيئًا»[3]

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣٣)، و أحمد (٢٤٢٧٩).

•• وفاؤه ﷺ بالعهد:

كان محمد ﷺ يفي بعهده، ولم يُعرف عنه في حياته أنه نقض عهدًا قطعه على نفسه.

وقد أكد القرآن على رعاية العهود التي يبرمها المسلمون مع المخالفين لهم، فجاء في سورة التوبة قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(التوبة: ٤).

وذمَّ القرآن الذين ينقضون العهود مع الآخرين:﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾(الأنفال: ٥٦).

وحتى حين يصل الأمر بمحمد ﷺ أن يخاف الخيانة من قوم، وتبدر له منهم مؤشرات على ذلك، فهذا لا يبرر له نقض العهد، ويوجب عليه أن يشعرهم بذلك، كما جاء في سورة الأنفال:﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٥٨).

والوفاء بالعهد والالتزامات لدى محمد ﷺ تبدأ من الالتزامات المحدودة المتعلقة بالتعامل مع الآخرين، كما تبدو في هذا الموقف:

فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: ابتاع رسول الله ﷺ من رجلٍ من الأعراب جزورًا أو جزائر بوسقٍ من تمر الذخرة، وتمر الذخرة: العجوة، فرجع به رسول الله ﷺ إلى بيته، والتمس له التمر فلم يجده، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له:

«يا عبد الله: إنا قد ابتعنا منك جزورًا أو جزائر بوسقٍ من تمر الذخرة، فالتمسناه فلم نجده».

فقال الأعرابي: وَاغَدْرَاه.

قالت: فنهمه الناس وقالوا: قاتلك الله أيغدر رسول الله ﷺ؟

فقال رسول الله ﷺ: «دعوه؛ فإن لصاحب الحق مقالاً».

ثم عاد له رسول الله ﷺ فقال: «يا عبد الله، إنا ابتعنا منك جزائرك، ونحن نظن أن عندنا ما سمينا لك فالتمسناه فلم نجده».

فقال الأعرابي: وَاغَدْرَاه.

فنهمه الناس وقالوا: قاتلك الله، أيغدر رسول الله ﷺ؟

فقال رسول الله ﷺ: «دعوه؛ فإن لصاحب الحق مقالاً، فردد ذلك رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثًا.

فلما رآه لا يفقه عنه قال لرجلٍ من أصحابه: «اذهب إلى خويلة بنت حكيم بن أمية فقل لها رسول الله ﷺ يقول لك: إن كان عندك وسقٌ من تمر الذخرة فأسلفيناه حتى نؤديه إليك إن شاء الله».

فذهب إليها الرجل ثم رجع الرجل، فقال قالت: نعم هو عندي يا رسول الله فابعث من يقبضه.

فقال رسول الله ﷺ للرجل : «اذهب به فأوفه الذي له».

قال: فذهب به فأوفاه الذي له.

فمر الأعرابي برسول الله ﷺ وهو جالسٌ في أصحابه فقال: جزاك الله خيرًا فقد أوفيت وأطيبت. فقال رسول الله ﷺ : «أولئك خيار عباد الله عند الله يوم القيامة الموفون المطيبون» (1).

لقد راعى محمد ﷺ طبيعة هذا الرجل، وتفهم إصراره على حقه، وأن هذا الإصرار قد قاده إلى قدر من الجفاء والغلظة في التعامل مع محمد ﷺ، فأوفاه، واحتمل جفاءه، ولما رأى أنه لم يعِ عدم قدرة محمد ﷺ سعى إلى حل الأمر والمشكلة.

ويلتزم محمد ﷺ الوفاء مع المخالفين حتى وهو يتعامل مع أتباعه والمستجيبين له؛ فلا يقبل منهم أن يخلّ بعهد التزم به، عن أبي رافع قال: بعثتني قريش إلى رسول الله ﷺ، فلما رأيت رسول الله ﷺ ألقي في قلبي الإسلام. فقلت: يا رسول الله! إني والله لا أرجع إليهم أبدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البرد، ولكن ارجع، فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع».

قال: فذهبت ثم أتيت النبي ﷺ فأسلمت (2).

كان بإمكان محمد ﷺ أن يقبل بقاء هذا الرجل لديه، وهو لو فعل ذلك لم ينقض عهدًا، فالرجل هو الذي اختار بنفسه هذا القرار، لكنه لم يفعل ذلك بل تركه ليعود إن أراد من تلقاء نفسه بعد انتهاء مهمته.

---

(1) أخرجه أحمد (٢٥٧٨٠).

(2) أخرجه أحمد (٢٣٢٤٥).

وحين أتى محمد ﷺ إلى مكة يريد العمرة، صدته قريش ودار بينه وبينهم مفاوضات لأجل الصلح، وقال حينها: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

وكان مما شرطوه عليه: أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا.

فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أَظْهُر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ.

فقال النبي ﷺ : «إنا لم نقض الكتاب بعدُ».

قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا.

قال النبي ﷺ : «فأَجِزْه لي».

قال: ما أنا بمجيزه لك.

قال: «بلى فافعل».

قال: ما أنا بفاعل.

فرده إليهم محمد ﷺ.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا.

فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا.

فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت.

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه.

فأمكنه منه فضربه حتى برد.

وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو.

فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرًا».

فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِل والله صاحبي، وإني لمقتول.

فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم

أنجاني الله منهم [1]. ومع ذلك لم يستقبله محمد ﷺ؛ وفاءً لهم بما اشترطوا عليه في صلح الحديبية.

وحتى حين يكون محمد ﷺ في موطن القتال، ويحتاج إلى الرجال المقاتلين، فإنه لا يفعل ذلك على حساب العهود التي التزمها مع عدوه، يروي لنا أحد أصحاب محمد ﷺ هذا الموقف، وهو حذيفة بن اليمان، فيقول: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبو حسيل، قال: فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لَنَنْصَرِفَنَّ إلى المدينة. ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: «انصرفا نَفِي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم» [2].

•• شهادة أعدائه بوفائه ﷺ:

دلائل وفاء محمد ﷺ بالعهود لا تنتهي عند المواقف والأحداث التي كان يفي فيها بما التزمه، بل قد شهد له أعداؤه بأنه يفي بالعهود ولا يغدر، فحين لقي هرقل أبا سفيان - وكان أبو سفيان لازال على عداوته لمحمد ﷺ - سأل هرقلُ أبا سفيان عن محمد ﷺ عددًا من الأسئلة، كان مما سأله فيه قوله:

فهل يغدر؟

قال أبو سفيان: قلت لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه، أي لم أتمكن من كلمة تعطيه صورة سيئة عن محمد ﷺ غير هذه الكلمة.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٧).

الموسوعة الشعرية

الفصل الخامس

محمد ﷺ والآخرون

› مقدمة
› محمد ﷺ والأنبياء
› محمد ﷺ مع صحابته
› محمد ﷺ مع المرأة
› محمد ﷺ مع الأطفال
› محمد ﷺ مع قرابته
› محمد ﷺ مع جيرانه
› محمد ﷺ مع المنافقين
› تعامل محمد ﷺ مع الحيوان

الموسوعة الشعرية

•• مقدمة:

يستطيع المراقب لتعامل محمد ﷺ مع المحيطين به أن يلحظ كيف كان يتفاعل مع مجتمعه أفرادًا وجماعات، ويحيا آلامهم ويشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، ويعدّ نفسه جزءًا لا يتجزأ من مجتمعهم، وربما من أشخاصهم أيضًا.

لقد كان محمد ﷺ يمثل محورًا حياتيًّا مهمًّا لأفراد مجتمعه الذي يحيط به، ورآه الآخرون شخصية لا يمكن أن تُهمَل بحال، بل رأوه مؤثرًا فيهم تأثيرًا كبيرًا لدرجة التغيير الواقع في حياتهم كل على حدهَ، واستوى في ذلك القريب والبعيد، والرجل والمرأة، والكبير والصغير، ومن صحبه طويلاً ومن لقيه مرة واحدة في حياته، بل قد امتد أثره عبر الأجيال والسنين إلى كل من قرأ سيرته وتتبع أحواله وتعاليمه.

ولا شك أن هناك سمات مميزة قد ميَّزت هذا الرجل، وميزت طبيعة تعامله مع غيره من الناس، جعلت الناس يتأثرون به، وجعلته يترك بصماته الواضحة على حياتهم وأفكارهم، نحاول أن نقف معًا على بعضها باختصار.

•• عندما تثبت صفات الرجل:

كثيرًا ما نصادف أناسًا يتغيرون بتغير الظروف والمواقف التي يمرون بها، وتتبدل صفاتهم وطبائعهم تبعًا لمصالحهم أو منافعهم، أو ربما تبعًا للضغوط التي تُمَارس عليهم أو الحاجات التي هم معوزون إليها، وتتبدل من ثَمَّ ردود أفعالهم ونظرتهم إلى الأمور، وفي بعض الأحيان يصل الأمر إلى أن تتبدل قيمهم ومبادئهم.

أما محمد ﷺ فقد تغيرت الظروف التي عاشها، وتبدلت كثيرًا من مرحلة اليتم والفقر إلى مرحلة القدرة على اكتساب المال، ومن مرحلة الاستضعاف والمطاردة والإيذاء إلى مرحلة التمكين والغلبة والرئاسة، ومن مرحلة الهزيمة إلى مرحلة النصر، ومن المطاردة في الكهوف إلى مراسلة الملوك والرؤساء، هكذا تغيرت الظروف من حوله، ولكننا نستطيع أن نقول: إنه لم تتغير قراراته وردود أفعاله ونظرته إلى الأشياء جميعًا.

فلم يُوهن الفقر عزيمته، ولم يُطغِه الغنى، ولم يُمتهن وهو مستضعَف، ولم يتجبر وهو قوي، ولم ينافق ولم يداهن وهو ضعيف، ولم ينتقم وهو غالب منتصر، بل عاش على مبادئه وعلى قيمه، وانتصر على الظروف، ولم تنل منه تلك الظروف؛ رغم تغيرها وتبدلها الشديد.

لقد كوَّن محمد ﷺ لنفسه منظومة فكرية ورسالة واضحة، استمدها من وحي الله تعالى، وثبت عليها، وبنى عليها مواقفه جميعًا، حتى إن المحيطين به كانوا يعرفون مبادئه ويحفظون قيمه ويتحدثون بثوابته ويتوقعون ردود أفعاله في كثير من الأحيان، ولعل من هذا ما علمه أهل مكة عنه يوم الفتح، حين جاؤوه من قبل وجهه وقالوا: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ (يوسف: ٩١)، فهم يعلمون يقينًا ثبات مبادئه وردود أفعاله في مواقفه، فكان رده هو العفو عنهم، كما توقعوا تمامًا، وقال: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (يوسف: ٩٢)[١].

كذلك فقد كانت الحقوق عنده مصونة محفوظة لا يمنعها غضبه ولا يزيدها رضاه، ولا يخشى إنسان على حقه، مهما غاب عنه، ولا يطمع في غير حقه مهما فعل، إذا علمنا ذلك فقد لا نتعجب من فعل أهل مكة الذين كانوا يحاربونه ويخططون لقتله، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يأتمنونه على أماناتهم ولا يأتمنون أحدًا سواه من ساداتهم.

•• لغة القلوب:

كان محمد ﷺ بسيطًا غير متكلف، فإذا غضب بان ذلك في وجهه بوضوح وكأنه تفقأ في وجهه حَب الرُّمان[٢]، وإذا حزن ظهر الحزن على وجهه، بل ربما يبكي بين أصحابه، وإذا فرح بانت بسماته وسروره حتى يشعروا بالسعادة الغامرة معه.

---

(١) صححه الألباني في تعليقه على فقه السيرة (٣٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦٨٠٦)، والترمذي (١٨٤٦).

إنه لم يتصنَّع في موقف قط، ولم يكذب في مشاعره قط، وما أن يجلس إليه رجل إلا وتأسره تلك البساطة والتلقائية، بل قد جاء إليه من هو كافر به يبغضه، ثم إذا به يخرج من عنده وهو محب له!

كما حدث مع ثمامة بن أثال رضي الله عنه إذ قال: «يا محمد! والله لقد جئتك وما وجه أبغض إليَّ من وجهك، ولا دين أبغض إليّ من دينك، ولا بلد أبغض إليَّ من بلدك، ثم لقد أصبحت وما وجه أحب إليَّ من وجهك، ولا دين أحب إليَّ من دينك، ولا بلد أحب إليَّ من بلدك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله»[1].

•• ضد الغموض:

الوضوح قرين الصدق، وهو صفة تجمع الناس وتُطمئن قلوبهم، وقد كان محمد ﷺ واضحًا في مراداته وضوح الشمس، فلم يكن بالإنسان الغامض الذي لا يعرف أحد دواخله ومنطويات نفسه، بل كان منضبطًا بأوامر ربه تبارك وتعالى، يُرضيه ما يُرضي ربه، ويُغضبه ما يغضبه تعالى.

كان يسالم ويحارب، يحب ويكره، يصادق ويفارق. ولكن كان كل فعل من أفعاله منضبطًا بقواعد واضحة، ولا محاباة لأحد كائنًا من كان، فلم يحكم الهوى تصرفاته يومًا، ولم تؤثِّر المصلحة على أحكامه وعلاقاته كما سيتضح تماماً في ثنايا هذا الكتاب.

•• عفو و إحسان:

هناك من الناس طائفة إذا ظلمت تَرُد الصاع صاعين، وهناك طائفة أخرى ترد بالمثل أخذًا وعطاء، ولكنّ هناك أفرادًا معدودين يتعاملون بالحسنى والإحسان، فإذا ظُلموا غفروا، وإذا أُوذوا صبروا، وإذا مُنعوا أعطوا، وإذا قُطعوا وصلوا، وهكذا كان محمد ﷺ، إنه يحكي عن نفسه أن تلك الأخلاق إنما هي أوامر ربانية قد أُمِرَ بها من ربه؛ كما في قوله: «أُمِرْت أن أعطي من حرمني، وأن أَصِلَ من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني».

لقد وصل بمحمد ﷺ تطبيق تلك الصفات حتى إنه كان يرى بعينيه تلك المرأة التي اعتدت على عمه المحبب إلى قلبه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فمثَّلت به بعد موته،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

جاءته تعلن إسلامها فإذا بمحمد ﷺ يعفو عنها ويغفر إساءتها، ويعدُّها أختًا له في الدين، ويبشرها بأن الإسلام يهدم ما قبله، فأيّ قلب يتحمل هذا، وأي نفس تعفو عن تلك؟

•• محمد ﷺ والأنبياء :

إن الله تعالى بفضله يختار من أهل الأرض أكرمهم، وأتقاهم وأشرفهم وأعدلهم وأرحمهم؛ كي يتحملوا رسالته بصورة تطبيقية أمام الناس، فيدعون إليها وينافحون عنها، ويصفون للناس كيفية استخدامها للقربى إلى الله سبحانه، وهم دومًا باذلون معطاؤون، وهم أكرم المصلحين وأتقاهم سريرة وأخلصهم قلبًا وأعلاهم قدرًا، ولا شك أنهم هم أفضل الخلق في الأرض؛ إذ اختارهم ربهم لحمل رسالته إلى خلقه.

هذا المعنى عبَّر عنه القرآن بقوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ (الحج: ٧٥) ، وفي آية أخرى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، فالآيات تبيِّن أن اختيار النبي هو أمر خارج عن إرادة البشر وعن إرادته هو ذاته، بل هو محض كرم وفضل إلهي ناتج عن حكمة ربانية، اختار سبحانه بها هذا الشخص المخلوق ليجعله نبيًّا، إذ علم أنه أفضل من يحمل رسالته.

وقد تعرضت سير بعض الأنبياء من قَبْل محمد ﷺ لكثير من التشويه المتعمد وغير المتعمد فكان لزامًا على محمد ﷺ أن يعيد الحق إلى نصابه، وأن يرد كل قول كاذب قيل في حق إخوانه وآبائه من الأنبياء الكرام؛ لأن رسالتهم واحدة ودينهم واحد، فكان محمد ﷺ كثيرًا ما يُعلِّم أتباعه ويقول: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة قالوا: كيف يا رسول الله؟! قال: الأنبياء إخوة لعلات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي»[1].

ومعنى الحديث أن أصل إيمانهم واحد وهم متفقون في التوحيد، وأما شرائعهم فقد تختلف، فإن خير خلق الله من البشر الأنبياء، وهكذا تعامل معهم محمد ﷺ وعلَّم أمته كيف تتعامل معهم.

ولقد اتبع محمد ﷺ منهجًا واضحًا مع الأنبياء منذ بداية البعثة:

•• منهج واحد :

حرص محمد ﷺ دائمًا على إظهار أنه لم يكن منفصلاً عن إخوانه الأنبياء السابقين له، سواء كان ذلك على مستوى المنهج أو المصدر أو التعاليم، وآيات القرآن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

تدعوه إلى أن يعلن ذلك فتقول: ﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٩)، أي: أنه غير مختلف نهائيًا عن الأنبياء الذين سبقوه، وإنه مثلهم تمامًا رسول من عند ربه، جاء يبلغ الناس رسالة الله، ولم يأتِ بها من عند نفسه، وكذلك كان الأنبياء من قبلُ.

فقال الله سبحانه و تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى: ١٣) ، وهذه الحقيقة أعلنتها آيات القرآن دائمًا، وبلغها محمد ﷺ للناس كاملة من غير زيادة ولا نقصان.

وقد اجتهد محمد ﷺ أن يُعرِّف أمته أن أساس دعوته إنما هو تمامًا أساس دعوة الرسل والأنبياء من قبله، وهو توحيد الله سبحانه واجتناب الشرك، وإذا به يقرأ آيات القرآن متكاثرة عن دعوة الأنبياء إلى التوحيد، وكيف أنها كانت محور دعوتهم وبناءها الأصيل، فيقول القرآن عن نوح - عليه السلام -: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف: ٥٩) ، ويقول عن هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٦)، ويكررها عن صالح - عليه السلام-: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٧٣) ،

وشعيب - عليه السلام- : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٥).

بل إن مبعث الرسل جميعًا إنما كان لإقرار الحقيقة نفسها، وتحقيق ذات الغاية فقال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل: ٣٦) ، ويقول أيضًا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وأمر الله محمدًا ﷺ أن يقتدي بالرسل الذين سبقوه، وعرَّفه أن ما يتعرض له من

الصدّ والجحود والنكران والأذى قد تعرض لمثله إخوانه الأنبياء من قبله فيطالبه بالصبر كما صبروا، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف:٣٥).

وحينما أنكر عليه المنكرون كونه بشرًا يقول إنه نبي، وأنه لو كان نبيًا لما كان مثلهم يأكل ويشرب: ردَّ عليهم القرآن بأن هذه كانت طبيعة الرسل من قبله فلِمَ الإنكار عليه إذن؟ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾(الفرقان: ٢٠).

واختتمت الآيات القرآنية علاقته بإخوانه الأنبياء بقول الله سبحانه: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(الصافات: ٣٧).

إذن فالمنهج واحد، ومصدر التلقي هو الله سبحانه، لا أحد يستطيع أن يحيد عن ذلك، فالحق والباطل في صراع أزلي أبدي منذ خلق آدم إلى يوم القيامة، وما الأنبياء إلا حلقات في هذا الصراع الطويل، وما محمد إلا واحد منهم جاء ليصارع الباطل مستلهمًا سيَر الأنبياء الذين سبقوه عليهم السلام.

وأمر الله محمدًا ﷺ أن يقتدي بالأنبياء عامة، وأن يقتدي بنبي الله إبراهيم خاصة، فجاء الأمر لأمة الإسلام بالاقتداء بنبي الله إبراهيم، وورد ذكره في القرآن في اثنين وستين موضعًا: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾(الممتحنة: ٤).

وإن إبراهيم هو الذي سمى هذه الأمة باسمها فقال الله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٨).

وشعائر الإسلام مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بهذا النبي: فالحج الشعيرة الكبرى للمسلمين كلها تذكير بسعيه وطوافه، وبنائه للكعبة، وذبحه لله، ولا عجب أيضًا أن يُطالب المسلم بتذكُّر إبراهيم كل يوم في صلاته فيقول في آخرها: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، فهي إذن علاقة مباشرة بين محمد ﷺ وأبيه إبراهيم عليه السلام فقد كان محمد استجابة الله لدعوة إبراهيم في مكة حين نظر إليها، وقال كما حكاه القرآن الكريم: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(البقرة: ١٢٩). ويقول في ذلك: «أنا دعوة إبراهيم، وبشارة

عيسى، ورؤيا أمي التي رأت – حين وضعتني – وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام»[1].

ويقول محمد ﷺ: «إن دين الله الحنيفية السمحة»[2]. وهي ديانة إبراهيم عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٥)

•• معصومون:

تختلف طبيعة تعامل الأنبياء عن تعاملات غيرهم من البشر، فإذا أراد البشر أن يعلو ذكرهم طعنوا -غالباً- فيمن سبقوهم؛ حتى يثبتوا أنهم متميزون عنهم، ولكن رسل الله جاؤوا مكملين لبعضهم، إخوة متحابين، ولهذا كان محمد ﷺ يعلِّم أتباعه احترام كل الأنبياء وإجلالهم، ولم يسمح إطلاقًا بأي تجاوز في هذا الأمر.

وكم رأينا من أصحاب الديانات من غير المسلمين يتحدثون عن الأنبياء بأسلوب لا يتناسب مع كونهم أنبياء الله، ونحن لا نتعجب؛ فإن ما جعلهم يقولون على الله غير الحق ويصفونه بأبشع الصفات لا يستغرب في حقهم ما قالوا عن الأنبياء، بل إن كل نبي من الأنبياء ألصقوا به الاتهامات البشعة وصوروا له صورة مهينة ،مثل: آدم ويعقوب وموسى وداود وسليمان ويوسف ولوط عليهم السلام، وجاء القرآن الكريم مدافعًا عن الأنبياء مبرئًا لهم من التُّهَم التي اتهموا بها؛ لأنهم معصومون من مثل ما اتهموا به من الأخطاء والذنوب.

ولسنا هنا في مجال مقارنة بين ما قاله الناس عن الأنبياء، وبين ما قرره القرآن الكريم وردَّده محمد ﷺ وعلمه لأتباعه، ولكننا أردنا أن نبين باختصار كيف كرمت هذه الرسالة هؤلاء الأنبياء، ودافعت عنهم وكيف وقَّرهم محمد وكرَّمهم ورفع شأنهم.

فقد ذكر القرآن الكريم معصية آدم عليه السلام ووضعها في حجمها تمامًا،ثم برَّأه وتاب عليه فقال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ٣٥)، ولكن آدم عليه السلام نسي وأكل من الشجرة، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (طه: ١١٥) ، وعلم أنه أخطأ فندم وتاب واستغفر قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه: ١٢٢) ،وتاب هو وزوجه: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣)،

---

(١) انظر المعجم الكبير للطبراني(٦٣١) وشعب الإيمان (١٣٢٢) .

(٢)أخرجه البخاري تعليقاً واحمد (٢١٠٧) .

وتاب الله عليهما وأنزلا إلى الأرض ليبدأ الخلافة في الأرض قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾(طه: ١٢٣).

وكذلك برأ القرآن يوسف - عليه السلام - قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (يوسف: ٥١).

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(يوسف: ٢٤).

وبرأ موسى - عليه السلام - قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (الأحزاب: ٦٩).

وقال عن داود- عليه السلام - قال تعالى: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ١٧).

وبرأ الله السيدة البتول مريم؛ إذ اتهموها في عرضها وقذفوها بأقذر التهم التي توجه للمرأة العفيفة، وهي تحمل الطاهر الكريم عيسى عليه السلام، وافتروا عليها الافتراءات، فأنزل الله سورة باسمها في القرآن، ولم يُسَمِّ سورة باسم امرأة غيرها، ولم ينسب في القرآن أحد باسمه واسم آبائه إلا مريم ابنة عمران وعيسى ابن مريم تمييزًا وتشريفًا لهما، فقال الله في آياته: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾(آل عمران: ٤٢-٤٣)، ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾(آل عمران: ٤٥).

وأخبر عنها أنها بريئة طاهرة عفيفة لم ترتكب محرمًا، ولم تقترف إثمًا قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾(التحريم: ١٢).

وكذلك قال عن جميع الأنبياء بتزكيتهم وعصمتهم: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(الأنعام: ٨٣-٨٦) .

وأثبت محمد ﷺ في تعامله مع سيرة الأنبياء من قبله إظهار العصمة لهم من الوقوع في

الكبائر، وتنزيههم عن الصغائر، وقبول الله توبتهم، فقلوبهم أفضل القلوب وأكثرها صفاء.

ومنع محمد ﷺ أن يتحدث أحد من الناس حديث نقيصة عن النبي يونس بن متى عليه السلام، حينما ترك قومه غاضبًا فوقع في البحر، وابتلعه الحوت، وتاب الله سبحانه عليه، فقال الله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٧-٨٨).

وقال محمد ﷺ: «ما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[1].

وقال: «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب».

والمسلمون مأمورون ألا يفرقوا بين نبي وآخر، فيؤمنون بهم جميعا ويحترمونهم جميعا، فكلهم أنبياء من عند الله والإيمان في الإسلام لايكتمل إلا إذا تم الإيمان بهم أجمعين: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) ، ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٦).

•• إكمال لا استبدال:

حرص محمد ﷺ أن يستقر في قلوب صحابته وأذهانهم أنه ما بعث إلا ليُكمل ما بدأه إخوانه من الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه، وأنه لم يأت بديلاً لهم ولا مُحقّرًا من شأنهم، ولا مقللاً من مجهودهم وأثرهم، وأنه جاء يكمل هذا البناء العظيم.

وقد بيَّن ﷺ مكانه فيهم أنه إنما هو لبنة مكمِّلة لهم، فهم بناء شامخ كبير رائع وهو بمنزلة لبنة في هذا الجدار، ولهذا قال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيتا فأحسنه وأجمله وأكمله، إلا موضع لبنة في زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون: ألا وضعت ها هنا لبنة فيتم بنيانك. فقال محمد ﷺ: فكنت أنا اللبنة»[2].

إنها لبنة مكملة ومتممة، فبها يكتمل البناء، بناء العقيدة وبناء التشريع الرباني

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٠٣)، ومسلم (٢٣٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨٦).

المراد للبشر من ربهم سبحانه وتعالى، الذي ابتدأه لهم منذ بداية الخليقة، وأراد أن يختمه بمحمد ﷺ.

ومحمد ﷺ هنا يؤكد على أن جميع معاني الخير والإيمان والنفع والإصلاح التي جاء بها المرسلون من قبله ملتقية جميعًا عند تلك اللبنة، فرسالته لم تدع خيرًا سبقه إليه نبي إلا دعت إليه، ولم تدع شرًّا حذَّر منه نبي إلا حذرت منه ونهت عنه.

•• محمد ﷺ مع صحابته:

شهدت علاقة محمد ﷺ بأصحابه نوعًا راقيًا من المعاني والمشاعر والروابط، هو ما جعلها نموذجًا متفردًا في العلاقات التي قامت بين الناس عبر التاريخ البشري أجمع، وربما يعرف شيئًا قريبًا من معناها مَن علِم علاقات الأنبياء السابقين له بحوارييهم وتلاميذهم وأصحابهم، إنها نوع من العلاقة التي يمكن للواحد منهم فيها أن يضحي بنفسه حبًّا للآخر، وتضرب أغرب الأمثلة وأروعها في التضحية والفداء والبذل والعطاء والحب والمودة.

إننا في حديثنا عن محمد ﷺ مع أصحابه إنما نتحدث عن فريق عمل غير مسبوق، استطاع أن يعطي نموذجًا متميزًا على مستوى التطبيقات المختلفة تربوية كانت أو سياسية أو عسكرية أو إيمانية، ونتحدث عن معنًى من معاني التعاون والتنسيق والتكامل والتآلف والتفاهم كان سببًا رئيسًا في نجاح كل الإنجازات التي قام بها هذا الفريق ومربيهم محمد ﷺ.

•• بين معاني الصحبة والأبوة:

كان محمد ﷺ مع أصحابه بمثابة الأب الحاني، والصاحب المعطاء، فهو الساهر على مصالحهم، ويفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويشاركهم مشكلاتهم، ويعينهم على حلها، ويقترح عليهم ما يصلح شأنهم، ويعلمهم ما يجهلون من شؤون الحياة، ولهذا كانوا يرون فيه الشفيق عليهم والناصح والمعلم لهم، يستشيرونه في أمورهم، ويطلبون رأيه فيما يعضل عليهم، وهو لا يتململ ولا يتأفف ولا يضجر، يقول صاحبه وخليفته عثمان بن عفان: لقد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير[1].

وقال أبو سفيان – وهو يومئذ عدو لمحمد ﷺ – : ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا[2].

وقال صاحبه سعد بن معاذ يوم بدر: يا نبي الله! ألا نبني لك عريشًا؛ تكون فيه

---

(١) أخرجه أحمد (٥٠٦).

(٢) البداية والنهاية: ٤/٦٥.

ونعد ركائبك فنلقى عدونا؛ فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا؛ فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبًّا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ويناصحونك، ويجاهدون معك.

وقد حكّم الصحابةُ محمدًا في أنفسهم وأموالهم؛ فقالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا بين يديك فاحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسنا بين يديك، فلو استعرضت بنا البحر لخضناه، نقاتل بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك[1].

وقال صاحبه عمرو بن العاص: ما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أُطيق أن أملأ عيني منه؛ إجلالاً له، ولو سُئلت أن أصفه ما أطقتُ؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه.[2]

وسُئل علي بن أبي طالب: كيف كان حبكم لرسول الله؟ قال: «كان والله أحبّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ».[3]

لقد كان يشعر الجميع بأبوته ﷺ الصغير منهم والكبير، حتى من كان متقدمًا عليه في السن كان يشعر هذا الشعور أيضًا، حتى إنه كان يقول لهم فيما رواه أبو هريرة عنه ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم»[4].

ولذلك حينما يسأل العباس عمه: أيكما أكبر؟! فإذا به يقول: «رسول الله ﷺ أكبر، وأنا وُلِدْت قبله»!.

ويحكي خادمه أنس أنه دعاه ذات يوم؛ فقال له: «يا بُنَيّ! إذا دخلتَ على أهلك فسلّم؛ يكن بركةً عليك وعلى أهل بيتك»[5].

وكان أحدهم يُسِرّ لمحمد ﷺ بما لا يُسِرّ به لأقرب الناس إليه، فيذكر القرآن أن امرأة كبيرة استأذنت عليه فحدثته حديثًا قريبًا من الهمس لا يسمعه أحد، واشتكت له

(١) أصله في مسلم (١٧٣٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١).

(٣) شرح الشفا: ٢/ ٤٠.

(٤) أخرجه أبو داود (٨).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٩٨).

شكواها، فأنزل الله في القرآن قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (المجادلة: ١)، تقول عائشة: «إنها كانت في الحجرة ذاتها ولم تكن تسمع حديث المرأة»[1].

ويقول أنس - وكان صبيًا -: «أتى علي رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان، فسلّم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سر، قالت: لا تحدثن بسر رسول الله ﷺ أحدا..»[2]

وحذيفة بن اليمان يختصه رسول الله ﷺ بسرّ لا يعلمه أحد من الصحابة إلا حذيفة، وهو سر أسماء المنافقين، فكان هذا سرًا مشتركًا بينه وبينهم.

وفاطمة يُسِرّ إليها ﷺ قبل أن يموت بلحظات قليلة؛ فقال لها، فبكت، وقال لها آخر فضحكت؛ فأما الأول فإن موته في هذا المرض، وأما الآخر فإنها أول أهله لحوقًا به[3]. وحفظت سرّه وما أخبرت به إلا بعد موته.

•• تفقُّد وشفقة:

لم يكن محمد ﷺ يعيش بعيدًا عن أصحابه، بل كان يتفقدهم تفقُّد الأب الحاني الشفيق، فما أن يفتقد أحدهم عن ناظريه إلا ويسأل عنه، فإن كان مريضًا سارع إلى عيادته، وإن كان مسافرًا خَلَفَه في أولاده، وإن كان في حاجة سارع إلى قضائها له، وهذا ما كان يفعله مع الصغير والكبير، والغني والفقير بلا استثناء.

في غزوة تبوك التي جمعت أكبر عدد من المسلمين تجمع في غزوة من الغزوات حيث بلغ عددهم ثلاثين ألفًا، وتجمع من خارج المدينة الكثير من الصحابة، وكان محمد ﷺ كعادته يتفقد أصحابه، فإذا به في الطريق يقول: «ما فعل كعب بن مالك؟»[4]، أي، يسأل عنه، من بين تلك الألوف، ويلحظ غيابه بين هذا العدد الضخم، ولم يشغله

---

(١) أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٨٢)

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠)

(٤) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

الاستعداد لقتال أكبر قوة عسكرية في ذلك الوقت - الروم - ولم يشغله كثرة العدد مع صعوبات إطعام ثلاثين ألفًا لمدة شهر ذهابًا وإيابًا، وإسكانهم في الطريق، ورغم كل هذا حرص على تفقد أحوال أصحابه والسؤال عن غائبهم.

ولم يكن هذا التفقد للرجال فقط ولا في ساحة الحرب فقط، بل حدث ذات مرة أن تغيبت امرأة فقيرة عجوز لم يكن يعرفها إلا القليل، ولكنها كانت تَقُمّ المسجد- أي : تنظّفه - ، وتغيبت أيامًا، فسأل عنها محمد ﷺ فقيل له: إنها ماتت، فقال: هلا آذنتموني! - أي: لم تخبروني بوفاتها - « فأتى قبرها فصلّى عليها ودعا لها »[1].

وبينما يعود بجيشه ذات مرة، ويتأخر عن الجيش إلى مؤخرته؛ فيجد صاحبه جابر بن عبد الله وقد تأخر بعيره؛ فيسأله عن حاله وأحوال أخواته، وقد كان له سبعة من الأخوات تركهن له أبوه، وسأله محمد ﷺ عن حاله جميعًا، فأخبره أنه قد تزوج[2].

إنها وقائع كثيرة ومتتابعة تدل على مدى اهتمامه بأحوال أصحابه وتفقّده لهم.

•• إسعادهم وإهداء السرور إليهم :

إنها ولا شك سعادة بالغة تلك التي يستشعرها المرء عندما يُسعِد الآخرين أوْ يشارك في إسعادهم أو تخفيف آلامهم، سعادة لا تَحس بها إلا النفوس التي جعلت من قيمها ومبادئها نبراسًا حياتيًا لها، وجعلت سبيلها سعيًا في طرقات الخير والإصلاح.

إن الحياة كدّ وتعب ومشقة وصعاب ومشكلات واختبارات وآلام، وما يصفو منها ما يلبث أن يتكدر، والناس كل الناس بحاجة إلى يد حانية، تربت على أكتافهم في أوقات المصائب، وتقوم انكسارهم في أوقات الآلام، ومن طالت به خبرته بالحياة علم أن أعلى الناس فيها قدرًا هم الباذلون جهدهم لإسعاد غيرهم.

لقد أدرك محمد ﷺ هذا المعنى إدراكًا واضحًا، وجعل إسعاد الآخرين هدفًا من أهم أهدافه، وإذا به يقول لأمته في حديثه: « أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم،أو تكشف عنه كربة، أوتقضي عنه ديناً ،أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ لي في

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨)، ومسلم (١٥٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٩٧)، ومسلم (٧١٥).

حاجة أحب إلى من أن أعتكف فى هذا المسجد ،يعنى مسجد المدينة .... »[1].

ويقول: « إن أحب الأعمال إلى الله تعالى بعد الفرائض: إدخال السرور على المسلم، كسوتَ عورته، أو أشبعتَ جوعته، أو قضيتَ حاجته ».[2]

ولقد بذل محمد ﷺ من نفسه الجهد؛ رجاءَ نفع الناس وإسعادهم، تحكي زوجته عائشة – رضي الله عنها – أنها سُئلت: هل كان رسول الله ﷺ يصلي قاعدًا؟ قالت: «نعم، بعدما حَطَمه الناس» [3]، يعني: أتعبوه وأرهقوه، وأذهبوا قوته من حرصه عليهم.

بل كان يُرغِّب أصحابه في تفريج كربات الناس، وإذهاب همومهم، والتيسير على المعسرين في الأموال، وإمهال المدينين في دينهم، وأن يكونوا عونًا لبعضهم، فيقول في حديثه: « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون »[4].

وعلّم أصحابه دومًا أن يسعوا لإدخال السرور على إخوانهم، بأن يسألوا عن أحوالهم ويسارعوا في نجدة مصابهم ومداواة مريضهم وحل مشكلاتهم، مهما كلفهم ذلك تعبًا في أجسادهم، أو بذلاً من أموالهم أو شغلاً في أوقاتهم؛ رجاء ثواب الله تعالى في بسمة سرور ورضا من هذا الحزين بعد زوال حزنه، فيُسرها الصالح في نفسه ليُعدها في صالحات أعماله يوم اللقاء.

•• مبادئ تربوية علّمها لهم:

إن قيادة الجيوش تحتاج مع العلوم العسكرية إلى التربية على معاني العسكرية، وولاية القضاء تحتاج مع علوم القضاء إلى تربية على مفاهيم القضاء، وسياسة الأمم تحتاج مع العلوم السياسية إلى تربية على الحقوق السياسية.

ومحمد ﷺ قد قدَّم لنا زاداً قيَميًا تربويًا في القدرة على تغيير ما في طبائع النفوس وصفاتها.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط.(٦٠٢٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط.(٥٠٨١) .

(٣) أخرجه مسلم (٧٣٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والبخاري بلفظ مقارب من حديث ابن عمر (٢٤٤٢)

أ- فقد كانت له ﷺ نظرة خاصة في نفوس الناس وفي شخصياتهم من حوله، فيتفهم نواقصها ويحاول سد الخلل فيها، ويعرف أمراضها ويحاول علاجها بطريقة أو بأخرى، فإذا سُئل سؤالاً إنما يرد عليه إجابة تتناسب مع السائل وحاله، ناظرًا لما يصلحه، ثم ربما سئل السؤال نفسه من شخص آخر؛ فيرد بإجابة أخرى تلفت نظر السائل إلى أمر آخر قد يحتاجه، ويناسب شخصيته وطبيعته.

جاءه رجل فسأله: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله وجهاد في سبيله»، وجاءه آخر وسأله: أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»، وجاءه ثالث فسأله: أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله، ثم الجهاد في سبيل الله ثم حج مبرور».

ويأتيه إنسان فيقول له: أوصني، فيقول له: «لا تغضب، فيكرر عليه السؤال وهو يكرر عليه الإجابة نفسها»[1].

ثم يأتيه آخر فيقول له: أوصني، فيقول له: «أوصيك بتقوى الله»[2].

ثم يأتيه ثالث فيقول له: أوصني، فيقول له: «أوصيك ألا تكون لعَّانًا»[3].

ويأتيه رابع فيقول له: أوصني، فيقول له: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[4].

ويأتيه خامس فيقول له: أوصني، فيقول له: «لا تحقرن من المعروف شيئًا»[5].

ب- أسَّس ﷺ تعامله معهم على أساس مهم آخر، وهو استصغار شأن الدنيا والمتاع وتهوينه، وكان يطبق ذلك على نفسه أولاً في سلوكه قبل كلامه، فيعلمهم قيمة الحياة ثم يربيهم عليها تربية عملية حسب المواقف التي يمرون بها، فالناس يتزاحمون على الدنيا، وعليها يتقاتلون، وفيها يختصمون، وعليها ومن أجلها يفارق المرء أباه وأمه، ويقطع رحمه، وقد يغفل الناس عن سبب ذلك التقاطع والخلاف وهو عدم معرفتهم

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٨١١١)، وابن ماجه (٢٧٧١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠١٥٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢٠٨٧٤)، والترمذي (١٩٨٧).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٠٨٢).

حقيقة الدنيا، فسعى محمد ﷺ جاهدًا أن يفهمهم حقيقتها ويعرفهم قيمتها، ويزيل الستار عن واقعها المرير، فيمر هو وأصحابه على جدي ميت مقطوع الأذن ملقًى على قارعة الطريق، فيسأل أصحابه: «أيكم يشتري هذا بدرهم؟» وهنا يرد الصحابة: «ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟» فيقول: «أتحبون أنه لكم بغير ثمن؟ قالوا: والله لو كان حيًا لكان عيبًا، إنه أسك - مقطوع الأذن - فكيف وهو ميت، فيقول لهم ﷺ: «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم».[1]

إنه يعطيهم درسًا عمليًا في قيمة الدنيا يغني عن المواعظ والمقالات.

وكان يقول لأصحابه: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بماذا يرجع»[2].

ويعيش معهم كواحد منهم لا فرق بينه وبينهم، حتى إن الداخل عليهم لا يكاد يعرفه من بين أصحابه، يقول عدي بن حاتم - أحد أكابر العرب وزعيم قبيلة طيء - : «فأتيت النبي ﷺ وهو جالس على وسادة، فلما رآني قائماً قام، وأخذ الوسادة فألقاها إليّ، فجلست عليها، وجلس هو بالأرض فلما رأيته صنع ما صنع وقعت علي غضاضة - ذلة وتواضع وعيب - وعلمت أنه ليس يريد علوًا في الدنيا ولا فسادًا، وعلمت أنه ليس بمَلِك»[3].

ويقول صاحبه ابن عباس: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْعَوَالِي - أعالي المدينة - لِيَدْعُو رَسُولَ اللهِ ﷺ بنصْفِ اللَّيْلِ عَلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ فَيُجِيبُه، وكان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير، ويقول عمر بن الخطاب - صاحبه وخليفته - : ناداه أعرابي يومًا ثلاث مرات، فكان رسول الله ﷺ يرد عليه في كل مرة «لبيك.. لبيك.. لبيك» - تأدبًا واستجابة وتواضعًا -، وكان يقول ﷺ: «إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»[4].

إن كل الحضارات السابقة عن الإسلام واللاحقة به اجتمعت على صفة واحدة -

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٧)

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة .

(٤) مختصر شمائل الترمذي، ٢٨٤.

كما يقول (أرنولد توينبي) صاحب كتاب (قصة الحضارة) -: «إن كل الحضارات اختلفت في قيمها ومبادئها، واختلفت في كل شيء، ولم تتفق إلا على شيء واحد، ألا وهو أن كل حضارة جعلت أبناءها أرقى شعوب الأرض، وجعلت الناس دونهم، ولكن الإسلام جاء بحقيقة مخالفة تمامًا لم يُسبَق، لا تجعل أبناءها أفضل ولا أرقى شعوب الأرض من حيث الخلقة، فأرست حقيقة مهمة ظل محمد ﷺ يقررها فيقول: «كلكم بنو آدم وآدم من تراب»[1].

وقد بذل محمد ﷺ جهده في ترسيخ هذا المفهوم عند أصحابه، خصوصًا وأنه كان قد تأصل عندهم الفرق بين الناس، وأنه لا تساو مطلقًا بين الحر والعبد ولا بين الرجل والمرأة ولا بين الشريف والضعيف، قال أبو مسعود البدري: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط؛ فسمعت صوتا من خلفي: «اعلم أبا مسعود» فلم أفهم الصوت من الغضب قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود قال فألقيت السوط من يدي فقال: «اعلم أبا مسعود! أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»، قال: فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبدا.[2]

ثم ها نحن أمام موقف يؤكد على ذلك المعنى الذي نسوقه بين محمد وأصحابه، وكيف أنهم اتبعوا تعاليمه وطبَّقوها خير تطبيق، يحكي المعرور بن سويد يقول: رأيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسألناه عن ذلك؛ فقال إني ساببت رجلا فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي النبي ﷺ: أعيرته بأمه؟! ثم قال: إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم؛ فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم[3].

فانظر كيف أن راوي الحديث يلحظ أن أبا ذر صاحب محمد ﷺ يلبس هو وخادمه الثوب نفسه قبل أن يحكي له قصته، ثم يحكي له أنه يومًا سبَّ رجلاً وعيَّره بأن أمه سوداء، فاشتكاه الرجل لمحمد ﷺ.

---

(١) تاريخ الحضارة.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٤٥)، ومسلم (١٦٦١).

ويروي كيف أن محمدًا قد غضب، وقال له: إنك رجل لا تزال بك بقية من جاهلية في التفاضل بين الناس، ثم يأمره أن يُحسن إلى خَدَمه وغلمانه، فيطعمهم مما يأكل، ويلبسهم مما يلبس، ولا يكلفهم ما لا يقدرون عليه، وإن كلفهم أن يشاركهم ويعينهم، ومن الواضح أن أبا ذر قد وعى الدرس جيدًا.

ولم يكن محمد ﷺ يأمرهم به وينساه، فهذا خادمه أنس بن مالك يقول: «لقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال: أُفّ يومًا، ولا قال لي في شيء فعلته: لِمَ فعلتَه؟ ولشيء لم أفعله: لِمَ لَمْ تفعله؟».[1]

ولما أن أرادوا حفر خندق حول المدينة لم يكن رسول الله ﷺ بعيداً عن أصحابه، ولكن كان في وسط الميدان، يسبقهم في العمل والحفر، وحمل التراب مع كبر سنه وتعب جسده، وكلما اعترضتهم صخرة شديدة ينادونه؛ فيأتي إليها ويضربها مشاركًا معهم فتتكسر. لقد عاش محمد ﷺ قدوة لأصحابه في كل أمر يأمرهم به، وفي كل نهي ينهاهم عنه، وكان كثيرًا ما يحثهم على العمل أو ينهاهم عنه بفعله لا بكلماته، ولا شك أن تأثير العمل بالقدوة تأثير بالغ في النفوس؛ ولهذا كان يشاركهم دومًا في الأعمال بل يسبقهم إليها في كثير من الأحيان.

تقدير واحترام:

إن المربِّي الذي يعتمد في إتمام أعماله على الأوامر والتحذيرات فحسب، ويجعل علاقته بأفراد فريقه علاقة رئيس بمرؤوسين؛ ما يلبث أن يفقد أثره بينهم في المواقف المختلفة وخصوصًا الأزمات.

لقد أدرك محمد ﷺ أنه مُرَبٍّ ومعلم قبل أن يكون رئيسًا لأمته، فلم تكن علاقته بأصحابه علاقة الرئيس بالمرؤوسين، ولا علاقة القائد بالأتباع، لكنها كانت علاقة ربانية قائمة على الحب المتبادل، والاحترام الكامل، والتقدير البالغ.

إنه يعطيهم قدرهم ويرفع شأنهم أمام أبناء أمته جميعًا، فيقول: «لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

إنه تقدير بالغ لأصحابه ولأعمالهم الحميدة، وبذلهم وعطائهم وصبرهم معه وتحملهم مسؤولية الرسالة حتى صلُب عودها، واشتد ساعدها.

بل إنه يقرأ القرآن وفيه آيات صريحات في إكرامهم والرضا من الله عنهم فقد قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح: ١٨).

وكان يقول للناس: «عليكم بسُنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»[1]. ويقول: «لا يُبَلِّغني أحد شيئًا عن أصحابي»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٠٠)، وابن ماجه (٤٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢١٨)، والترمذي (٢٨٣١).

•• محمد ﷺ مع المرأة:

رفع محمد ﷺ قدر المرأة ومنزلتها ووضعها الاجتماعي، ورفع عنها قيد العبودية الذي كبلها لمئات السنين، ومنحها قيمتها بوصفها إنسانة لها حقوقها الثابتة وسط مجتمعها.

لقد بُعث محمد ﷺ بتحريم وأد البنات التي كانت الأعراف البائدة قد قضت عليها بالموت والدفن حية تحت الرمال، كما أعلى قدر المرأة بوصفها أماً لها كل الحق في التكريم والطاعة فقال: « إن الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ».[1]

وعدل بين الرجل والمرأة تمام العدل في القضاء والعقاب، وسوَّى بينهما في الملكية الفردية والاستقلال المالي، وجعل من حقها أن تمارس أي نشاط مباح، وأعطاها حق الميراث الذي حُرمت منه على مر العصور في شتى الحضارات المتعاقبة.

كما راعى مشاعر المرأة بكل رقة ورحمة ورفق، ومنع الآباء أن يُزوجوها بغير إرادتها، ومنع أكل أموالهن بالباطل، يقول صاحبه عمر بن الخطاب ﷺ: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم»[2].

لقد كانت المرأة بالفعل في الجاهلية مجرد متاع،وكان ذكرها منقصة وشيناً، فجاء محمد ﷺ فخاطب الرجال كما خاطب النساء، وأمرهم جميعًا بالعبودية، وأثبت لهم الحقوق وأوجب عليهم الواجبات وصارت المرأة برسالة محمد ﷺ مكوناً حيوياً في المجتمع، وحماها من كل ضرر سواء كان داخليًا أو خارجيًا.

وآيات القرآن الكريم كثيرة في مخاطبة الرجال والنساء على حد سواء، وتحميلهما الاثنين معًا مسؤولية العبودية أمام الله سبحانه ربهم بشكل متساوٍ لا فرق فيه، فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(النحل: ٩٧)، وفي آيات أخرى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾(آل عمران: ١٩٥).

وفي آيات أخرى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾(الأحزاب: ٣٥).

كما بيّن القرآن الكريم أن المرأة مسؤولة مسؤوليةً خاصة عن واجباتها الشرعية، ومسؤولةٌ مسؤوليةً عامة فيما يختص بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف، والإرشاد إلى الفضائل والتحذير من الرذائل، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(التوبة: ٧١).

لقد انتشر في بعض المجتمعات البعيدة عن الإسلام وعن فهم معاني رسالة محمد ﷺ أن الإسلام قد يقلّل من شأن المرأة في بعض أمورها، وأن مفهومًا مثل (القوامة للرجل) أو أن (ميراث المرأة نصف ميراث الرجل) هو تقليل من شأنها، ولكن من تدبَّر رسالة محمد ﷺ وجد أن قوامة الرجل على المرأة لا تعني أنه القائد المتسلط وحده، وإنما تعني ارتفاع مكانته درجة تتيح له اتخاذ القرار في ضوء الشورى، وليس الانفراد الذي ينفي إرادة المرأة وقدرها، ولو لم يكن هذا المضمون الإسلامي (للقوامة) لما أمكن أن يكون كل من الرجل والمرأة راعيين في ميدان واحد: هو البيت، كما يقول محمد ﷺ في حديثه: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها».[1]

فهما إذن راعيان ومسؤولان في ذلك الميدان، والقوامة درجة أعلى في سُلَّم القيادة، ولكنها ليست الاستئثار بالرأي، ولا التسلط فيه.

أما ما انتشر عند بعض المجتمعات؛ نتيجة سوء الفهم، من كون محمد ﷺ قد جعل للمرأة نصف ميراث الرجل، ويظنون - من ثم - أن المرأة في الإسلام تساوي نصف رجل، فهذا المفهوم الخاطئ إنما يعكس الجهل بالمفهوم الإسلامي لطبيعة المرأة من جهة، ولطبيعة التكافل داخل الأسرة المسلمة من جهة أخرى.

لقد وزَّع الإسلام المهام والمسؤوليات على أرباب الأسرة: فالإنفاق على الأسرة مسؤولية الرجل وحده، بينما المرأة مكفول حقها في الإنفاق، إن كانت لما تتزوج

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

فوالدها ينفق عليها، وإن تزوجت فزوجها ينفق عليها، حتى لو كانت غنية، بل لو كانت أغنى من زوجها.

والمرأة مسؤولة عن رعاية الأسرة والمنزل والقيام على تربية الأطفال وتنشئتهم، ومن هنا كفل لها هذا الحق للتفرغ لهذه المهمة.

وبناء على دور كل من المرأة والرجل، فحاجة المرأة إلى المال أقل من حاجة الرجل، وهي تأخذ نصيبها من الميراث؛ تطبيقًا لما جاء في آيات القرآن: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾(النساء: ١١)، ثم من حقها أن تحتفظ به دون الإنفاق منه، ويُلزَم الرجل بالإنفاق عليها، فمن المنطقي والمعقول إذن أن يحصل الرجل على ضعف نصيبها من الميراث لينفق على نفسه وينفق عليها.

ومع ذلك فليس تفضيل الرجل على المرأة دائمًا في كل الأحوال، بل يكون نصيبها في أحيان كثيرة معادلاً لنصيب الرجل، بل أحيانًا يفوق نصيبُ المرأة في الميراث نصيبَ الرجل، ومن أمثلة تعادل نصيب المرأة والرجل في الميراث حالة الوالدين اللذين يرثان ابنهما المتوفَى، فيحصل كل واحد منهما على «السدس»، وحال الإخوة والأخوات من الأم؛ فإنهم يشتركون في الثلث بالتساوي بين الذكر والأنثى، كما أن هناك حالات تحصل فيها المرأة أحيانًا على نصيب أكبر من الرجل؛ مثلاً في حالة وفاة رجل له بنت واحدة وزوجة وشقيق، ففي هذه الحالة يكون نصيب الزوجة الأرملة الثمن، ونصيب البنت الوحيدة النصف، ويتبقى للشقيق الرجل ٣/٨ من الميراث، أي: أن المرأة في هذه الحالة حصلت على ميراث أكبر من ميراث الرجل الشقيق، والأمثلة كثيرة ومتعددة.

•• تقدير المرأة واحترامها :

لقد تميَّز تعامل محمد ﷺ مع النساء بمستوى راقٍ من التقدير والاحترام، بدأه بقوله: «خَيْرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[1]، فجعل تمايز الرجال في خَيْرِيَّتهم وتقدير مقامهم منوطًا بإحسان كل منهم لزوجته وأهل بيته، ثم شجَّعهم على المسابقة إلى الإحسان إلى الزوجة، ثم بدأ بنفسه تطبيق ذلك المبدأ الذي رفعه فإذا هو يعلن بين الناس أنه خير من يُحسن معاملة زوجته وأهل بيته، وأنهم يجب أن يقتدوا به في ذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥).

لقد كان معظم الرجال في عصره يعدّون أن رجولة الرجل لا تتحقق إلا بسيطرته على المرأة، وربما بقهرها وإهانتها، وربما تفاخر البعض بذلك، وعدّوا احترامها نوعاً من الضعف أمامها والمهانة، فجاء محمد ﷺ فأعلن أن احترام المرأة وتقديرها هو أمر رباني ومبدأ نبويّ من مبادئه لا يحق لأحد أن يتجاوزه، فيقول: « اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله »[1]، تقول زوجته عائشة - رضي الله عنها -: « ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة بيده قط »[2].

وعلّم أمته أن المرأة مثل الرجل، سواء بسواء، خلقها الله مثلما خلقه، ونفخ فيها من روحه، وهي مكلّفة بمثل تكاليفه في الإسلام، وقد يراعى ضعفها فيخفف عليها التكليف، تناسبًا مع قدرتها، ثم هي في الآخرة محاسَبة أمام الله على ثوابها وذنبها، وستُجزى بالخير والجنة إن أحسنت وبالنار إن أساءت، وبينما هو يكلف الرجل القيام على شأن زوجته ورعايتها، والإنفاق عليها ويطلب من النساء تقدير الرجل لأجل جهده وإنفاقه، إذا به يرفع شأن المرأة على الرجل في مواضع أخرى، كما يوصي بعض أصحابه بأمه ثلاثًا، فيأتيه الرجل فيسأله: يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ فيقول له: أمك، فيسأل الرجل: ثم من؟ فيقول: أمك، فيسأل الرجل: ثم من؟ فيقول أمك، فيسأل الرجل: ثم من ؟ فيقول أبوك»[3]،فيجعل حق الأم مكررًا ثلاث مرات في مقابل مرة واحدة للأب، بل إن لفظ القرآن يؤكد على ذلك المعنى بقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ (الأحقاف: ١٥): ، فيؤكد على حق الأم تأكيدًا بالغًا.

كذلك يرفع ﷺ قدرها، رادّاً على الذين يكرهون أن تولد لهم أنثى فيقول: «من عال جاريتين حتى يبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين، وقرّب بين أصابعه»[4]، ويقول رسول الله ﷺ: «من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن، وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجاباً من النار يوم القيامة»[5].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، و مسلم (٢٥٤٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٣١).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٩).

وقال ﷺ: « من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات ، أو ابنتان أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة »[1] .

وقد نقلت لنا الروايات الصحاح كيف كان تعامله ﷺ مع زوجاته، ونذكر في هذا المقام زوجته الوفية خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - ، أولى زوجاته وأعظمهمن أثرًا في حياته، فقد كان الاحترام والحب والرحمة والمودة بينهما متبادلاً كأكثر ما يكون بين زوجين محبين متآلفين، وتنقل لنا الروايات نموذجًا من لقاء بينهما بعدما نزل من غار حراء يوم أنزلت عليه أول آيات القرآن، فذهب إليها مباشرة، ولم يذهب إلى أي مكان آخر، وخاطبها فطمأنته، وقالت له: «والله لا يُخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعينه على نوائب الحق»، أي: أنك بحسب أفعالك السابقة التي عرفتها عنك أنك لن يخزيك ربك أبدًا، ثم أخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان عالمًا يقرأ التوراة والإنجيل، فقال له: إنه الناموس الذي أُنزِل على موسى[2]. وظلت خديجة بجواره مؤمنة به وبرسالته، تدعمه وتشجعه وتثبته حتى ماتت، فحزن عليها حزنًا لم يحزنه على أحد من قبلها حتى لقد سمَّى العام التي ماتت فيه بعام الحزن.

•• مشاورتها والأخذ بآرائها :

كثير من رجال العصر الذي عاش فيه محمد ﷺ كانوا يعدون أنفسهم أصحاب الرأي الأوحد السديد، الذي لا يسمح لأحد بمناقشته فيه، خصوصًا لو كانت زوجته، ويزداد ذلك الشعور عند أحدهم إذا كان قائدًا أو زعيمًا أو مقدَّمًا في قومه، ولم يكن من عادة مجتمعاتهم مشاورة المرأة ولا اعتبار رأيها، بل عليها أن تسمع وتطيع فحسب.

ولما جاء محمد ﷺ أعطى لرأي المرأة ومشورتها القدر والمكانة اللائقين بها، فقد كان محمد ﷺ يستشير في أموره كلها، وكان يطلب رأي المرأة التي لم يكن أحد يسمع رأيها، ولا يقيم لها وزنًا في زمانه.

ويخطئ من يظن أنه كان يطلب رأيها في القضايا التي تمس المرأة أو التي تهم

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩١٦)، وأبو داود (٥١٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).

خصوصياتها فقط، بل كان يطلب رأيها في أمور المسلمين العامة والخاصة، ودعونا نذكر موقفًا له يوم منعته قريش أن يطوف بالكعبة ويعتمر، بعدما جاءهم هو وألف وأربعمائة من أصحابه - ولم يكن يحق لقريش أن تمنع أحدًا جاء يطوف بالبيت - ، ولم تُجْدِ أي محاولة من محمد ﷺ وأصحابه في إقناع قريش للسماح لهم بالطواف والاعتمار، وشقَّ الأمر على المسلمين أجمعين وتباطؤوا في تنفيذ أمره ﷺ : لما أمرهم بالتحلل من إحرامهم والعودة إلى المدينة، إنه إذنْ أمْر يهم المسلمين كلهم، وإذا بمحمد ﷺ يستشير زوجته أم سلمة- رضي الله عنها- فيما يفعل. وتشير عليه بأن يخرج أمامهم فيحلق رأسه ويتحلل، فإذا رأوه يبدأ بنفسه فسيسارعون بتنفيذ أمره لهم وطلبه منهم، وبالفعل قد عمل بمشورتها التي أشارت بها، ثم قال لأصحابه ما أشارت به عليه؛ حيث لا يجد حرجًا أنه استشار زوجته، وهو قائد تلك الأمة ونبيها، يحكي صاحب محمد ﷺ المسور بن مخرمة ﷺ، فيقول: «فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، قال: فو الله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة - رضي الله عنها - فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله! أتحب ذلك؟ اخرج لا تكلم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحرَ بُدْنَك وتدعو حالِقَك فيحلِقَك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا»[1].

وقد تعلم منه أصحابه ذلك المعنى فقد كان خلفاؤه الأربعة يستشيرون النساء، وكان في مقدمتهم عمر ﷺ، وكان أبو بكر وعثمان وعلي - رضي الله عنهما - يستشيرون النساء، ولم نجد في شيء من بطون السيرة والتاريخ أن أحدًا من الخلفاء الراشدين حجب عن المرأة حق استشارتها والنظر في رأيها.

كان الآباء وأولياء الأمر في المجتمع آنذاك يجبرون المرأة على الزواج بمن يريدون هم بغَضِّ النظر عن رأيها، فجاء محمد ﷺ فنهى عن ذلك، وأكَّد حق المرأة في أن تُستشَار في شأن الزواج، وأنه لا يحق إجبارها على من لا ترضى به.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٤)

وتتساوى النساء جميعًا في ثبوت هذا الحق، إلا أن وسيلة التعبير عنه تختلف بحسب طبيعة المرأة: فيفرق الإسلام بين البكر؛ وهي التي لم تتزوج قبل؛ وبين الثيب وهي التي سبق لها الزواج، وطُلقت أو توفي عنها زوجها.

يقول محمد ﷺ: «الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر تُستأمر، وإذنها سكوتها»[1].

وسبب ذلك أن الفتاة البكر قد يغلبها الحياء فلا تتكلم؛ فحين تصمت فهو أمارة على رضاها، أما حين ترفض فلا يحق لأحد إجبارها.

وإذا حصل شيء من ذلك؛ فإن محمدًا ﷺ كان يعيد إلى المرأة اعتبارها، فيروي الإمام أحمد ابن حنبل في مسنده أن فتاة جاءت إلى محمد ﷺ تشتكي إليه أن أباها زوّجها من ابن أخيه مراعاة لمصلحة ابن أخيه دون إذنها، فجعل محمد ﷺ الأمر إليها -أيْ خيَّرها بين الموافقة على الزواج أو الرفض- ، قالت: "فإني قد أجزت ما صنع أبي"، ثم بررت موقفها بأنها أرادت أن تثبت للناس أن الأب لا يحق له أن يجبر ابنته على الزواج بمن لا تريد[2].

وفي موقف يحتاج فيه محمد ﷺ إلى أصحابه في ميدان الحرب ومواجهة الأعداء يحفظ حق المرأة التي قد تحتاج إلى ولدها، فيأتيه شاب يريد المشاركة في الجهاد؛ فيسأله: لك أبوان؟ قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»[3]، وهذا يدل على لزوم استشارة الأم وموافقتها.

وتركت هذه النظرة للمرأة أثرها على أصحابه من بعده، فقد استشار صاحبه والخليفة عمر ﷺ بعد موته ابنته حفصة -رضي الله عنهما- في المدة التي تحدد لابتعاد الزوج عن زوجته، وأمضى كلامها، وأصدر مرسومًا بذلك.

وكان أصحابه من بعده كثيرًا ما يرجعون إلى زوجته عائشة -رضي الله عنها- يسألونها عن أمور العلم والدين، فقالوا: ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة -زوج محمد ﷺ- إلا وجدنا عندها فيه علمًا، وقال التابعي عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن رأيًا في العامة.

ويتعجب عروة بن الزبير ﷺ من حال عائشة -رضي الله عنها- ومبلغها من العلم،

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٥٣٢)، والنسائي (٣٢٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٧٢)، ومسلم (٢٥٤٩).

فيسألها يا أمتاه! لا أعجب من فهمك، أقول زوجة رسول الله ﷺ وبنت أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول: ابنة أبي بكر، وكان أعلم الناس (أو ومن أعلم الناس)، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو؟ ومن أين هو؟ قال: فضربت على منكبه، وقالت: أي عُرَيَّة! إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره (أو في آخر عمره)، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها له فمن ثَمَّ»[1].

هذا إذن هو منهج محمد ﷺ وما علمه أصحابه وتلاميذه ومن تبعوهم في الأخذ برأي المرأة وتقديره واحترامه والتبصر به.

•• رفق وإحسان:

عَدّ محمد ﷺ الرفق والرحمة قيمتين مهمتين في معاملة المرأة، وراعى هاتين القيمتين في كل معاملة له معها؛ سواء كان ذلك في شؤون الأسرة أو الحياة العامة أو القضاء أو غيره.

وإذا نظرنا إلى شأن البيت والأسرة فإن كثيرًا من الرجال يثقل عليه أن يفعل شيئًا في بيته بنفسه، أما في العصر الذي بعث فيه محمد ﷺ فكان عمل الرجل في بيته شيئًا من قبيل الممنوع عرفًا.

وكثير من الأزواج يبخلون بكلمة تعبر عن تقديرهم لما تقوم المرأة به من أعباء، وكثير منهم من يُحَمِّلُونها فوق طاقتها، ويجعلون وجودهم في بيوتهم عبئًا آخر.

لكن محمدًا ﷺ ما كان يُكلِّف أحدًا فوق طاقته، فكان يقضي شؤونه بنفسه؛ رغبة منه في عدم تحميل أهله أي عناء، هذا برغم علمه ويقينه أنه لو طلب منهن شيئًا لاجتهدن في الوصول إليه، لقد كان يشعر زوجاته دائمًا باهتمامه بهن وبحرصه عليهن، ومراعاته لتعبهن ومجهودهن.

وبرغم كثرة الأعباء التي كانت منوطة به من قيادة الدولة، والقضاء بين الناس، وتحمل مسؤولية رسالته، إلا أننا نراه في بيته مشاركًا بجهد ملحوظ في رعايته وخدمته، تقول زوجته عائشة - رضي الله عنها -: «كان عليه الصلاة والسلام في مهنة أهله فإذا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٥٩).

سمع الأذان خرج»[1] - يعني: خرج للصلاة -، وتقول: «كان يرقع ثوبه ويخصف نعله ويعين أهله في شؤونهم»[2].

وقد يبلغ الرفق بالمرأة مداه في تعاليم محمد ﷺ عندما يُعلِّم الزوج أن يضع اللقمة في فم زوجته ويحتسب لذلك أجرًا عند الله سبحانه، فيقول: «إنك مهما تنفق من نفقة على أهلك فهي صدقة، حتى اللقمة تضعها في فيِّ امرأتك لك عليها أجر»[3].

ويكره محمد ﷺ ضرب المرأة أو تعنيفها، أو وصفها بالقبح فيقول ﷺ: «ولا تقبح ولا تضرب»[4].

وقال في حديث آخر: «لا تضربوا إماء الله»[5].

ولما جاءه علي بن أبي طالب ﷺ ابن عمه وصاحبه يريد زواج ابنته فاطمة - رضي الله عنها - وافق محمد ﷺ، لكنه اشترط عليه الإحسان إليها ورعايتها بقوله: «على أن تُحسن صحبتها»[6].

وذهب محمد ﷺ في مراعاة شعور المرأة مذهبًا راقيًا عندما أمر الرجل إذا عاد من سفره ألا يفاجئ زوجته بالدخول عليها دون أن تشعر بقدومه؛ إمعانًا في الرفق بالمرأة، وتحسينًا لصورتها دائمًا أمام زوجها، فقال لصاحبه جابر ﷺ: «إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلك حتى تستحدّ المغيَّبة وتمتشط الشعِثة»[7].

واستنكر محمد ﷺ ما يقوم به بعض الرجال الذين يسيطر عليهم هاجس الشك في زوجاتهم وخيانتهن: فينهى أصحابه عن أن يتعمد أحدهم مفاجأة أهله بالدخول من السفر بحثًا عما يدل على خيانة أو عثرة، فقد نهى أن يطرق الرجل زوجته ليلاً يتخونها، أو يطلب عثراتها[8].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٢١٤٢)، وابن ماجه (١٨٥٠).

(٥) أخرجه أبو داود (٢١٤٦).

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٥٧٠).

(٧) أخرجه البخاري (٥٢٤٦)، ومسلم (٧١٥).

(٨) أخرجه مسلم (٧١٥)

وعلّم محمد ﷺ أمته أن الزوجة تحتاج إلى الكلمة الطيبة، والبسمة المشرقة، واللمسة الحانية، والمعاملة الودودة، والمداعبة اللطيفة، التي تطيب بها النفس، ويذهب بها الهمّ، وتسعد بها الحياة، وعلّمهم أن مراعاة الحالة النفسية والقلبية للمرأة من أهمّ حقوقها التي على أساسها يمكن أن تقوم المرأة بدورها بوصفها زوجة ناجحة وأماً صالحة.

كما علّم محمد ﷺ أمته أن حُسن الخلق من الرجل مع زوجته ليس فقط كفّ الأذى عنها، وإنما كذلك تحمُّل الأذى منها، والصبر عليها والحلم عند طيشها وغضبها، وقد كانت زوجاته يراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يومًا إلى الليل، وكان يقول لعائشة: «إني لأعرف غضبك من رضاك! قالت: وكيف تعرفه؟ قال: إذا رضيتِ قلت: لا وإله محمد، وإذا غضبت قلت: لا وإله إبراهيم. قالت: صدقتَ، إنما أهجر اسمك»[1].

•• مشاركة في مفاهيم الحياة والعبادة:

لم ينسَ محمد ﷺ أثناء معاملته للمرأة أنها شريكته في الطريق إلى هدفه وآماله، ولم يهمل في توجيهاته بناء المرأة القلبي والفكري والعبادي، بل خصها بعلم وتعليم، وتصور وفهم، وقضايا ومسؤوليات، فيروي صاحبه أبو سعيد الخدري ﷺ أن النساء أرسلن له يردن يومًا يلتقين به فيما يخص قضاياهن، فجعل لهن يومًا يعظهن فيه ويعلّمهن[2].

ثم هو في كثير من الأحيان يوصي الأزواج بمشاركة زوجاتهم في أعمال العبادة بما يرتقي بهم نفسيًا وروحيًا، ويطهر نفوسهم جميعًا، ويجعل حياتهم قائمة على رضوان رباني، فينقل لنا صاحبه أبو هريرة ﷺ أنه ﷺ قال في حديثه: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، ثم أيقظ امرأته فصلت». ويجعل التعاون على ذلك مشتركًا، فيقول أيضًا: «ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلّى»[3].

ويقرأ محمد ﷺ آيات القرآن التي تجمع بين الرجل وآل بيته في الآخرة في الجنة بعدما بذلا وسعيًا وتشاركا في العمل الصالح في الدنيا، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ (الطور: ٢١)،

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٨)، ومسلم (٢٤٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٢)، ومسلم (٢٦٣٤).

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٠٨)، والنسائي (١٦١٠).

وتقول آيات أخرى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الطور: ٢٦ – ٢٨).

ثم هو يُكثر من تلاوة آيات تحث على التقوى وتجمع بين الذكر والأنثى في الأمر بها، وتدل على أنهما من نفس واحدة، واللافت ها هنا أنه كان يقرؤها في بداية كل خطبة من خطبه التي يرفع بها صوته أمام الناس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١).

كذلك فهو يقرأ عليهم آيات أخرى تحمِّل مسؤولية الوقاية من عذاب الله على الجميع وتخاطب المؤمنين، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ (التحريم: ٦)، إلا أنه في لمحة أخرى يقر مفهومًا آخر وهو مفهوم المسئولية الفردية للأنثى، كما هي للرجل فيعلن أمام الناس: «يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئت من مالي؛ فإني لا أغني عنك من الله شيئًا»(١).

•• ملاطفة ومداعبة وتطييب نفس:

لقد وصف القرآن الرباط الذي بين الزوج وزوجته بالميثاق الغليظ؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ (النساء: ٢١)، وكذا كان محمد ﷺ يعدّ هذه العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة.

فهو لا يعدُّ زوجته مجرد أداة لتحقيق المتعة، ولكنها شريكة روحية ونفسية وقلبية، بل إن آيات القرآن الكريم تنصّ على أن تلك العلاقة هي علاقة مودة ومحبة وسكن واستقرار؛ فيقول سبحانه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ (الروم: ٢١)، فالزواج في رسالة محمد ﷺ إذن يقوم على محاور أساسية هي: المحبة والمودة، والتراحم بين الزوجين، والسكن القلبي والنفسي والجسدي.

من هذا المفهوم للعلاقة الزوجية خرجت وصايا محمد ﷺ بالزوجة في شؤون العلاقة الزوجية، فنراه يُحسن الحديث لزوجته، ويمتدح جمالها وخلقها، فيدعو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

عائشة بـ(الحميراء) يعني: محمرة الوجه، الجميلة المنيرة، ثم هو يوصي الأزواج بالتزين لزوجاتهم تزينًا مباحًا، ويقرأ عليهم قول الله تعالى في القرآن ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، أي: لهن حقوقٌ مثل التي عليهن، وتنقل لنا الروايات عن صاحبه عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - تفسيرًا لهذه الآية بصورة عملية فيقول: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين المرأة لي»[١].

إن بعض الرجال يتعاملون مع المرأة بجفاء وخشونة، فإذا احتاجوها ربما لاطفوها، وإذا انتهت شهواتهم، عادوا إلى معاملتهم الجافة معها، وهذا الشعور يؤلم المرأة؛ حيث تشعر أنها لا قيمة لها، وأنها مجرد أداة للشهوة، أما محمد ﷺ فكان يلاطف زوجته ويداعبها بحسن السلوك وطيب الكلام حتى في اللحظات التي كان الناس في زمانه يعدّون المرأة فيها ملوثة لا يمكن الاقتراب منها، ولا الجلوس معها ويتأففون من الأكل والشرب معها - وهي أيام الحيض، وتحكي لنا زوجته عائشة - رضي الله عنها - عن معاملته لها في أيام الحيض؛ فتقول: «كان ﷺ يدعوني فآكل معه وأنا عارك - أي حائض - وكان يأخذ العَرْق - العظم الذي به لحم - فيقسم على فيه فأعترق منه ثم أضعه، فيأخذه ويتعرق منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من العرق، ويدعو بالشراب فيقسم على فيه من قبل أن يشرب منه، فآخذه فأشرب منه ثم أضعه، فيأخذه فيشرب منه ويضع فمه حيث وضعت فمي من القدح»[٢].

ولنتأمل هذا الموقف، زوجته حائض في فترة كان معاصروه يتقذرون منها، وهو يدعوها لتأكل معه، ثم هو يقسم عليها أن تأكل من العَرق قبله، ثم يأكل بعدها الطعام من العرق بعدما تشبع هي، ويتحرى أن يُظهِر لها أنه يأكل من الموضع نفسه الذي أكلت منه، أي: أنه يتودد إليها، ويظهر لها أنه لا يتقذر منها، ثم هو يكرر ذلك في الشرب أيضًا، لقد علّم أمته أن الحائض لا تنجس ولا ينبغي تجنبها، ولكن يتعامل معها مراعيًا ظرفها التي تمر به، غير أنه يمنع من جماعها تجنبًا للأذى والضرر لهما جميعًا.

حتى في قضاء رغبته من المرأة كان يراعي الآداب والذوق الرفيع، فينهى أن يأتي الرجل زوجته مباشرة، ويأمره أن يتحين الوقت الملائم، وأن يبتدئ معها بمقدمات لطيفة ورقيقة وبالقُبْلة حتى تطمئن نفسها وتشاركه ما يريد منها.

---

(١) أخرجه البيهقي: ١٩٩/٢٢.

(٢) أخرجه النسائي (٣٧٧).

على الجانب الآخر كان يبدي لها تحملاً وقبولاً لجميع سلوكياتها ما لم يكن محرمًا، ويصبر على أخطائها ويعفو عن زلاتها، يحكي خادمه أنس ﷺ: فيقول: إنه كان عند زوجته عائشة في بيتها، وكان معه بعض أصحابه منهم أنس راوي الحديث، فأرسلت له إحدى زوجاته الأخريات إناءً فيه طعام، فلما رأت عائشة الغلام يحمل الطعام دبَّت الغيرة في قلبها، وألقت بالإناء على الأرض فوقع الطعام وكسر الإناء، فلم يزد ﷺ عن قول: «غارت أمكم»[1] - ثلاث مرات - ثم أخذ إناء من عندها وردَّه إلى صاحبة الإناء الذي كُسر. لقد صبر محمد ﷺ هنا على سلوك زوجته الغاضب، وقدَّر غيرتها عليه، ولم يزد عن أن قال: غارت أمكم.

وهكذا وبمثل تلك المعاملة الحسنة ظل محمد ﷺ حتى لحظة وفاته ﷺ، فكان آخر شيء ذاقه هو سواك ليَّنته له زوجته عائشة بفمها ثم تسوك به.

•• وفاء لا ينقطع:

كثير من الناس من يرتبط بإنسان بعلاقة مودة يتبادلان فيها حبًا بحب وعطاءً بعطاء؛ فإذا باعدت الأيام بينهما نسي كل منهما صاحبه وحبيبه وانشغل بحياته، وربما يعود الغائب ويرجع المسافر، ولكن غائب الموت لا يعود، إنه قد يُذكر بعد موته أيامًا ولكنه يُنسى بعد ذلك قرونًا، ولا يتذكر المودة إلا كل صاحب خلق رفيع ووفاء مخلص.

هكذا اتصف محمد ﷺ بخُلُق الوفاء الكامل تجاه من شاركته حياته، لقد تزوج من خديجة - رضي الله عنها -، وعاش معها زهرة شبابه، ورزقه الله منها الولد، وتحملت معه المصاعب والمشكلات، فكانت نِعْم اليد الحانية عليه ونعم القلب الرؤوم له، وكان وجودها كافيًا لإزالة مشاعر الحزن من حياته، وماتت وعمره ﷺ خمسون سنة، ولم يتزوج عليها امرأة أخرى طوال مدة زواجها التي استوعبت شبابه، رغم أن هذا الأمر كان شائعًا في ذلك الوقت، وفي ذات يوم تطرق على بابه امرأة طاعنة في السن، فيُحسن استقبالها ويسألها عن حالها بلهفة، فلما خرجت قالت له زوجته عائشة: لِمَ تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟! كأنها تعجبت من اهتمامه الزائد بها، فقال: «ياعائشة! إنها من صويحبات خديجة، وإنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حُسْن العهد من الإيمان»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٥).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (٨٧٠٢)، والطبراني في الكبير: ٢٣/١٤.

ويطول الزمان والوقت وتبقى مشاعر الوفاء لدى محمد ﷺ تجاه زوجته خديجة رضي الله عنها، فلنستمع لزوجته عائشة - رضي الله عنها -، وهي تصوِّر لنا شيئًا من هذه المشاعر؛ إذ تقول: استأذنتْ هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك فقال: «اللهم هالة»[1].

وذات يوم وقع زوج ابنته زينب في الأسر وكان لا يزال على عدائه لرسالة محمد ﷺ، فأرادت زينب أن تخلِّصه من الأسر، فأرسلت إلى المسلمين قلادة ذهبية تفتدي زوجها، فلما عرض المسلمون القلادة على محمد ﷺ نظر إليها وتغير وجهه وبكى ﷺ؛ لأنها قلادة خديجة قد أهدتها إلى زينب في يوم زواجها، ولم يكن عند زينب أثمن منها تفتدي زوجها به، لقد هيَّجت القلادة ذكر خديجة في نفسه ﷺ فأمر بإطلاق سراح زوجها.

إن محمدًا ﷺ لم ينس خديجة - رضي الله عنها - يومًا، إلى درجة أن عائشة - رضي الله عنها - كانت تغار من ثنائه عليها وذكره لها بعد موتها، حتى إذا ذبح شاة قال: أرسلوا إلى فلانة وفلانة من صويحبات خديجة.

ويومًا قد تملك عائشة - رضي الله عنها - الغضب والغيرة فقالت له: «ما كانت إلا عجوزًا قد أبدلك الله خيرًا منها»، فغضب غضبًا شديدًا من عائشة؛ حتى قالت في نفسها وهي تدعو الله: اللهم إن أذهبتَ غضبَ رسولك عني لن أذكر خديجة بسوء أبدًا، فقال لها بعدها: «والله ما أبدلني الله خيرًا منها؛ آمنت بي إذ كذبني الناس، وآوتني إذ رفضني الناس..»[2].

ما أعظم هذا الوفاء إذن! هذا هو محمد ﷺ في معاملته للنساء زوجاته، وهذا هو النموذج الإنساني الفريد الذي تطمع فيه كل نساء العالم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٣٤٣).

•• محمد ﷺ مع الأطفال:

يحتاج التعامل الناجح مع الطفل إلى أساليب تربوية مدروسة، تعتمد على العلم والخبرة والتجربة، كما تعتمد على سعة الصدر وصفات نفسية أخرى، كالصبر والاحتواء وغيرها.

من جانب آخر فالسنون الأولى من عمر الأطفال هي أساس بلورة شخصياتهم، وتكوين طبائعهم، واكتشاف تميزهم ومواهبهم، وعلى أساسها يقوم فهمهم لطبيعة الحياة من حولهم، وأسلوب تعاملهم مع كل من حولهم، وكيفية حَلّ مشكلاتهم التي تمر بهم.

إنها ولا شك من أصعب الفئات العمرية في التعامل والتدريب؛ ولكنها من جانب آخر أكثر الفئات العمرية قابلية للتعلم والبناء، والتغير والصياغة بالشكل المطلوب.

وقد تفطن محمد ﷺ لأهمية تلك المرحلة العمرية فصاغ لها برنامجًا منهجيًّا في التعامل التربوي والعلمي أنشأ شخصيات ناجحة منجزة، ولْنُحاول فيما يلي الاطلاع على أهم محاور المنهج التربوي النبوي في تعامله مع الأطفال:

•• التبسط والتلطف:

الأطفال دومًا يحبون من يتبسط معهم ويعايشهم وكأنه واحد منهم، وينفرون من الغليظ العبوس الغاضب، ويتحفزون للجاد الوقور، وقد علم محمد ﷺ طبائع ذلك العمر، وكان يتعامل معه بما يحبه، ويحاول أن يبث من خلال بساطته معهم ومزاحه وتلطفه بهم معاني مهمة في تقويم السلوك وتكوين الشخصية الناجحة.

يحدثنا أبو هريرة ﷺ بهذا الموقف يقول: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العشاء؛ فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه أخذهما بيده من خلفه أخذًا رفيقًا ويضعهما على الأرض، فإذا عاد عادا، حتى إذا قضى صلاته أقعدهما على فخذيه[1].

هذا الموقف يحدث في المسجد الذي لم يكن في هذا الوقت للعبادة فحسب، بل كان مجلس شورى ومحكمة، ودار حكم ومدرسة علم وغيرها، ويحدث ذلك أمام الناس وفي صلاتهم وهو إمامهم المقدم في الصلاة، فكأن محمدًا ﷺ يخبر الناس أن الصبر وسعة الصدر والتلطف بالأبناء أمرٌ ينبغي ألا تقف أمامه طبيعة الأماكن ولا هيبة الأشخاص.

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٢٨١).

إن الطفل لا يمكن أن تعي مداركه الواجبات والحقوق والأصول والمبادئ والقيم والمعاني في أولى سنواته، إنما يبدأ في تلقيها خطوة خطوة بعدئذ، ومخطئ من يتعامل مع الطفل تعامله مع الكبير، الذي لا بد أنه يعرف الأصول والضوابط، ولهذا نجد أناسًا كثيرين يسيئون معاملة الطفل؛ حيث يطالبونه أن يكون ساكنًا هادئًا رزينًا وقورًا، إنهم يحملونه فوق طاقته.

تحكي لنا صحابية اسمها أم خالد عن مشهد كان في طفولتها لا زالت تذكره وتقول: «أتيت رسول الله ﷺ مع أبي، وعليَّ قميص أصفر. قال رسول الله ﷺ: سنَهْ سَنَهْ. قالت: فذهبتُ ألعب بخاتم النبوة فزَبَرَني أبي. قال رسول الله ﷺ: دعها. ثم قال رسول الله ﷺ: «أبْلِي وأخلفي، ثم أبلي وأخلفي، ثم أبلي وأخلفي»[1].

إنه مشهد متميز ومعبر عما نريد أن نقوله، يأتي الرجل ومعه ابنته إلى محمد ﷺ وهو يعلم حبه للأطفال، وأنه لا يتبرم ولا يتأفف من لقائهم، بل يبَشّ لهم ويسعد بهم، وتجترئ البنت عليه وتتعلق على ظهره وتلعب، وهو يضحك ولا يتأفف بل يدعو لها ويكرر دعاءه ثلاث مرات.

وتحكي لنا أم قيس بنت محصن أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ بطفل لها صغير رضيع لم يأكل الطعام بعدُ، فحمله محمد ﷺ فبال الصغير على ثوبه، فدعا بماء فنَضَحه عليه، ولم يغسله.

وقد تكررت مواقف بول الأطفال الصغار على ثيابه وفي حجره ﷺ من كثرة حبّه لهم وحمله لهم، فتحكي أم الفضل زوجة عمه العباس أن محمدًا ﷺ حمل الحسين بن علي فبال على ثوبه، فأرادت أن تغسله له فاكتفى بنضحه أيضًا.

وكان يحمل البنين والبنات معاً، تقول أم كرز الخزاعية: «أُتِيَ النبي ﷺ بغلام فبال عليه، فأمر به ونضح، وأتي بجارية فبالت عليه فأمر به فغُسل»[2].

ويقول صاحبه أبو موسى الأشعري: «وُلِد لي غلام فأتيت به النبي ﷺ فسماه إبراهيم فحنكه بتمرة، ودعا له بالبركة»[3].

وكان ﷺ يداعب الأطفال حتى في طرقاته، يقول يعلى بن مُرَّة: خرجت مع النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧١)

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٨٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٦٧)، ومسلم (٢١٤٥).

على طعام، فإذا الحسين بن علي يلعب في الطريق، فأسرع النبي ﷺ أمام القوم، ثم بسط يديه ليأخذه فطفق الغلام يفر هنا ويفر هنا، ورسول الله ﷺ يلاحقه ويضاحكه، بل كان يأخذ أسامة بن زيد والحسن بن علي فيقعدهما على فخذه كل على ناحية ثم يضمهما ويقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»[1].

وحتى في لحظات التعبد جاءته أمامة بنت ابنته زينب، فحملها في صلاته فإذا ركع وضعها وإذا قام حملها[2].

ويقول محمود بن الربيع: «عقلت مَجَّة مجها رسول الله ﷺ في وجهي، وأنا ابن خمس سنين من دلو»[3].

ويقول صاحبه جابر بن سمرة: «صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدي أحدهم واحدًا واحدًا، قال: وأما أنا فمسح خدي فوجدتُ ليديه بردًا وريحًا كأنما أخرجها من جونة عطر»[4].

وكان إذا سمع بكاء طفل أثناء صلاته خفف في الصلاة؛ كي تنتهي أم الطفل من الصلاة وتحمل ابنها، أو تُسكت بكاءه وتلبي حاجته، فقد قال في حديثه: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي؛ كراهية أن أشقّ على أمه»[5].

وذات يوم أثناء خطبة كان يخطبها في المسلمين جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران؛ فنزل محمد ﷺ من المنبر، وحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ (التغابن: ١٥)، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعتُ حديثي ورفعتهما»، ثم أكمل خطبته[6].

وكان يلاعبهم ويتحدث معهم في شؤونهم الخاصة، ولو كانت لا تمثل أهمية لمثله،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٧)، ومسلم (٣٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٢٩).

(٥) أخرجه البخاري (٧٠٧)، ومسلم (٤٧٠).

(٦) أخرجه أبو داود (١١٠٩)، والنسائي (١٤١٣)، والترمذي (٣٧٧٤).

فعن أنس قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عُمَيْر، وكان له طير يلعب به، فكان الرسول ﷺ إذا جاء قال: يا أبا عمير! ما فعل النُّغَيْر؟»[1].

•• احترام الطفل وتقدير ذاته:

حرص محمد ﷺ أثناء تعامله اللطيف مع الأطفال على احترامه لنفوسهم وذواتهم، وحرص على توصيل أفضل المفاهيم إليهم بأبسط الوسائل وأقومها.

فلم يكن ممن يؤيد طريقة التعامل مع الأطفال التي تهمل قيمتهم؛ فإذا سألوا سؤالاً لا يُجَابون إجابات منطقية، أو تُستغَل بساطتهم فيكذب عليهم.

يحكي لنا أحد الأطفال هذا الموقف له مع محمد ﷺ وهو عبد الله بن عامر فيقول: «دعتني أمي ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: هَا تعالَ أعطيك، فقال ﷺ: «ما أردت أن تعطيه؟» قالت: أعطيه تمرًا. فقال لها: «أما إنك لو لم تعطه شيئًا لكُتبت عليك كذبة»[2]، فهو يحذرها من أن تكذب على الصبي أو تستهين بمشاعره، ولو أن تقول له: تعال أعطيك شيئًا، ثم لا تفعل.

وحين يرى محمد ﷺ على الأطفال ما يستوجب التقويم والتعديل، فإنه يتعامل معهم برفق دون تأنيب أو صراخ، يقول عمر بن أبي سلمة: «كنت غلامًا في حِجْر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، أي: أنه كان عندما يأكل لا تستقر به، فيأكل من هنا ومن هنا، ولا يذكر الله عز وجل؛ فعلَّمه رسول الله ﷺ في رفق ولين كيف يأكل فقال له: «يا غلام! سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»[3].

كما حاول محمد ﷺ أن يربي الأطفال عبر تعاليمه وسلوكه على معاني الرجولة والمروءة منذ صغرهم، وهو في ذلك لم يكن يطرح على الطفل معاني الرجولة فينوء بها حمله، أو تقصر بها قدراته، وهو ما يزال صغيرًا لم يتحمل ذلك، وإنما كان يعطي الأطفال جرعات متدرجة من تلك المعاني عبر المواقف المتناثرة والمتفرقة، فنراه مثلاً بعد موت أحد أصحابه، يجلس في مسجده وينادي على ابن المتوفى وهو غلام صغير فيقول

---

(1) أخرجه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).

(2) أخرجه أبو داود (٤٩٩١)، وأحمد (١٥٢٧٥).

(3) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

له: «آجرك الله في أبيك»، فواساه وعامله معاملة الرجال، وكان ربما أجلس بعض الغلمان كعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر في مجلسه ومع أصحابه ليتعلموا وينضجوا، فيحكي عبد الله بن عمر فيقول: كنا عند النبي ﷺ فأُتي بجُمَّار، فقال: إن من الشجر شجرةً مثلها كمثل المسلم، فأردت أن أقول هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم فسكتُّ، قال النبي ﷺ: «هي النخلة»[1].

بل يذهب محمد ﷺ في تقديره للأطفال مذهبًا بعيدًا في مجتمع كان لا يقيم للصغار وزنًا، فيجلس أحدهم إلى يمينه، وهذا يجعله أحق بالتقديم من كبار القوم، يقول سهل بن سعد الساعدي: إن رسول الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله لا أؤثر بنصيبي منك أحدًا»[2].

لقد راعى محمد ﷺ الأمرين معًا، راعى حق الطفل واستأذنه، وراعى حق الكبار فطلب من الصغير أن يتنازل لهم، فلما أصرَّ على موقفه، لم يعاتبه محمد ﷺ أو يعنفه، بل أعطاه حقه.

•• حقوق الطفل في رسالة محمد ﷺ :

اهتم محمد ﷺ بحقوق الطفل اهتمامًا ملحوظًا، ونستطيع أن نستخلص محددات واضحة لذلك الاهتمام في النقاط الأساسية التالية:

فقد اهتم بحفظ حق المولود في النسب المعلوم والموثق والمشهود عليه، والمعلن من زواج صحيح، ومنع إنجاب الأطفال خارج العلاقة الزوجية الشرعية؛ حماية لهم من المشكلات المستقبلية، التي يعاني منها المنجَبون خارج إطار الأسرة الشرعية، فضلاً عن طهارة المجتمع من الرذيلة والفساد واختلاط الأنساب.

كما أكَّد على حماية الجنين في بطن أمه من المسكرات وكل ما يضره، وأن للجنين حق الحياة من بدء تكوُّنه؛ فلا يُعتدى عليه بالإجهاض، أو بأي وجه من وجوه الإساءة التي تُحدث التشوهات الخلقية أو العاهات.

وأكدت رسالته على أن للأطفال اللقطاء والمشردين وضحايا الحروب وغيرهم ممن

(١) أخرجه البخاري (٧٢)، و مسلم (٢٨١١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥١)، ومسلم (٢٠٣٠).

ليس لهم عائل، جميع حقوق الطفل، وأن تلك الحقوق يقوم بها المجتمع والدولة.

وتحدث محمد ﷺ عن حق الطفل في أن يختار له أبوه أمَّه من ذوات الخُلق الحميد.

وحقه في أن يسميه أبوه اسمًا حسنًا غير مستنكَر ولا مستهزأ به.

وحقه في الرضاعة الطبيعية.

وحقه في أن ينشأ في بيئة سليمة وقرابة محيطين به.

وحقه في تربية إيمانية حسنة.

وحقه في الحفظ من أي انتهاك لبراءته وحقوقه المكفولة.

كما أكدت الرسالة المحمدية على حق الطفل في الميراث والوصية.

وأكدت تأكيدًا كبيرًا على حق الطفل اليتيم في الرعاية والعناية الكاملتين، وأن يُحفَظ له ماله، وأن يحميه مجتمعه ويعطف عليه، ويرعاه ويكفله الكفالة التامة.

•• محمد ﷺ مع قرابته :

إن أولى الناس بالمرء هم ذوو قرابته، وهم أحق الناس به، وبخير ما عنده، فهم بيئته الأولى التي نشأ بينها، وحمل اسمها: لذا فإننا نرى أن أول حق من الحقوق طولب به محمد ﷺ في آيات القرآن هو حق ذوي القربى؛ إذ أنزل عليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(الشعراء: ٢١٤)، ويومها وقف محمد ﷺ على الصفا وقام بحقهم عليه في النصح، وبإنذارهم من مخالفة أمر الله سبحانه.

الأقارب دوائر تتسع تدريجيًا، فالدائرة الأولى هي الوالدان، ثم الزوجة والأبناء فهم أصحاب الحق الثاني، ثم تتسع الدائرة أكثر لتشمل ذوي الرحم الأقربين، ثم تتسع فتشمل أبناء القبيلة أو العشيرة أو العائلة على اختلاف مسمياتها، ولكلٍّ حق على الإنسان يجب الوفاء به، ولنحاول أن نلقي نظرة قريبة على منهج محمد ﷺ في التعامل مع تلك الدوائر القرابية والعائلية.

•• الوالدان :

لقد جعلت رسالة محمد ﷺ - الإسلام - من بر الوالدين عبادةً من أعظم العبادات، ورفع مقام البار بوالديه إلى أرفع الدرجات، فآيات القرآن الكريم تؤكد ذلك في مواضع كثيرة جدًا؛ منها قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (الإسراء: ٢٣)

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ (الأحقاف: ١٥).

ويروي صاحبه عبد الله بن مسعود أن رجلاً جاء النبي ﷺ ليسأله أي العمل أحب إلى الله ؟ فقال له محمد ﷺ: «الصلاة على وقتها، فقال الرجل: ثم أيّ ؟ قال: بر الوالدين... الحديث»[1].

ويقول محمد ﷺ في موضع آخر وحديث آخر مبينًا قيمة رضا الوالد: «رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (١٨٩٩).

بل ويحذِّر محمد ﷺ كل من يدرك والديه في كبرهما ولم يبرهما ويحسن إليهما فيقول في حديثه: «رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه - يعني. خاب وخسر -، قيل: من يا رسول الله ؟! قال: مَن أدرك أبويه عنده الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»[1].

ويَعدُّ معصية الوالدين وقطيعة علاقتهما من أعظم كبائر الذنوب فيروي صاحبه أبو بكر ﷺ أن محمدًا ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[2]

وفي سياق تخويفه وترهيبه الناس من معصية الوالدين، وإهمال حقهما يقول محمد ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان عطاءه. وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، والرَّجِلَة من النساء»[3]

وجاءه رجل فقال له: يا رسول الله! شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت رمضان. فقال النبي ﷺ : «من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا؛ ونصب أصبعه، وقال: ما لم يعق»، يعني: أبويه.[4]

وأتاه رجل يسأله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ فيقول: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك»، أي: من أحق الناس عليك وأعظمهم حقًا عندك أبواك وأمك مقدَّمة على أبيك ثلاثًا.

ولما سُئل ﷺ مرة أخرى السؤال نفسه؛ أجاب الإجابة نفسها: أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك، ثم أدناك أدناك»[5].

أي: إنك تعطي الحقوق لأقاربك بعد حقوق والديك، وتخص الأقرب منهم فالأقرب بمزيد من الصلة والبر.

وسبق أن ذكرنا أن محمدًا ﷺ لم يدرك والديه؛ فقد ولد يتيم الأب، ثم ماتت أمّه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٣) أخرجه النسائي (٢٥٦٢).

(٤) أخرجه أحمد.

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٤٨).

وهو ابن ست سنين، فلم يدرك أبويه ليتمكن من برهما، ولكن مع هذا لم ينقطع بره لمن رباه، فقد كانت كل امرأة أسهمت في تربيته يعدّها أمًا له، فيعاملها معاملة الأم، ويذكرها بالبر والهدية، والذكر الحسن، يروي علي بن أبي طالب فيقول: «أُهدي إلى رسول الله ثوب حرير، فأعطاها عليًا، فقال له: «قسمه خُمُرًا بين الفواطم».[1]

يعني: جمع فاطمة وهن ثلاث: فاطمة بنت أسد زوجة عمه أبي طالب، وهي التي تولت تربيته بعد أمه، وحضنته وهو في الثامنة من عمره؛ فكانت له بمثابة الأم، والثانية: فاطمة بنت محمد ابنته، والثالثة: فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب عمه المحبب إليه، فهو يذكر من ربَّته سواء بسواء كذكره ابنته.

وبينما كان صاحبه عبد الله بن عمر يسير في الطريق إذ يلقى رجلاً فقيرًا فيُكثر من عطائه بصورة كبيرة؛ حتى إنه أعطاه دابته التي كان يركب عليها، وعمامته التي كان يلبسها، فتعجب الناس ذلك وقالوا: إنما كان يكفيه بعض دراهم، فيقول لهم: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أبر البر: صلةُ الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يولي»، وإن أباه كان صديقاً لعمر[2]. إنه قد تعلم في مدرسة محمد الرسالية أن البر للوالدين لا ينقطع حتى ولو بالموت.

فقدان الولد :

كان لمحمد ﷺ سبعة من الولد: أربع من الإناث، وثلاثة من البنين، وقد مات جميع أبنائه الذكور صغارًا وبقيت بناته، ومن يعرف المجتمع العربي وخاصة في الفترة التي بُعث فيها محمد ﷺ يدرك تمامًا مقدار هذا الألم على نفسية الرجل العربي بعد فقده ثلاثة من أبنائه الذكور، ولكن محمدًا ﷺ كانت قِيَمه مختلفة، ومبادئه مختلفة، ومعاييره للحكم على الأشياء مختلفة، فلا فرق عنده بين الصبي والفتاة، فكلاهما رزق من الله، وهبة يهبها الله للإنسان، وعندما مات الذكور حزن عليهم حزن الفراق لا حزن الاعتراض على حكم الله، يروي خادمه أنس موقف موت ابنه إبراهيم وهو لا يزال صغيرًا فيقول: «فدخلنا وابنه إبراهيم تجود نفسه – يموت – فدمعت عينا رسول الله ﷺ، فقلنا: وأنت يا رسول الله؟! فقال: إن العين تدمع وإن القلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

ولما مات ابن بنته أرسل إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى؛ فلتصبر ولتحتسب»[1].

فالجميع في رؤيته ملك لله، وله أن يحكم في ملكه كيفما شاء ووقتما يشاء، وليس لنا إلا التسليم والرضا بقضاء الله، كما شاء الله أن يموت باقي أولاده في حياته، ولم يبق غير ابنته فاطمة على قيد الحياة لحظة حياته، وماتت بعده بسته أشهر. وعاش محمد ﷺ أباً لأربع بنات وقد زوَّجهن جميعًا وأنجبن وصار جدًّا لأحفاد.

•• الأب الرحيم:

مثل محمد ﷺ لأولاده دور الأب الرحيم العطوف بامتياز، وحرص دومًا على أن يهتم بشؤونهم برغم مشاغله المتكاثرة، كما غمرهم بعاطفته الجياشة في كل المواقف؛ وهو ما جعلهم يرتبطون به ارتباطًا نفسيًا وقلبيًا وثيقًا.

يقول خادمه وصاحبه أنس بن مالك: «ما رأيت أحدًا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم - ولده - مسترضَعًا في عوالي المدينة، وكان ينطلق ونحن معه فيدخل إلى البيت.... قال: فيأخذه ويقبله ثم يرجع»[2].

ورآه رجل يومًا يُقبِّل بعض ولده، فقال: أتُقَبِّلون أبناءكم؟ فوالله إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت واحدًا منهم، فردَّ عليه محمد ﷺ غاضبًا بقوله: «من لا يرحم لا يُرحم»[3].

وكان يقول عن ابنته فاطمة: «فاطمة قطعة مني، فمن أغضبها فقد أغضبني»[4].

وتصوَّرْ معي وَقْع مثل تلك الكلمات على ابنته، وما يتلوها من محبة له وتعلق به.

ويروي صاحبه البراء موقفًا آخر فيقول: رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي - حفيده - على عاتقه، وهو يقول: «اللهم إني أحبه فأحبه»[5].

إنه حب نابع من القلب، يدعو به ربه أن يحبه؛ فيكتب له من الخير ما يحب.

ونستطيع هنا أن نقول: إن محمدًا ﷺ كان في أبوته حضاريًا بكل معاني الكلمة،

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧١٤)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٤٩)، ومسلم (٢٤٢٢).

فلم يضغط على أبنائه ضغط المتسلطين في اختيار من الاختيارات، ولم يمثل في بيته ولأبنائه دور الديكتاتور المرهوب، ولكنه كان يوجههم عن طريق قلوبهم وعقولهم، فيستعمل معهم المحبة والإقناع بوصفهما وسيلتين مؤثرتين في تربيته، كما لم يتخلَّ عنهم في مواقفهم المختلفة؛ سواء كان ذلك في صغرهم أو بعدما كبروا، وهو في كل ذلك يعلم أن ما يفعله إنما هو أنموذج من منهج تربوي سيحتذي به الآباء من أمته من بعده.

من جانب آخر فقد حرص محمد ﷺ على ألا يكون حبه لأولاده سببًا لفشلهم عندما يتركون مسئولياتهم ويعتمدون عليه اعتمادًا كليًا في شؤونهم، بل ربَّى فيهم مسؤوليتهم الخاصة، وعلمهم أنه لن يغني عنهم شيئًا، وسبق أن ذكرنا أنه كان يقول لابنته فاطمة: «يا فاطمة بنت محمد! إني لن أغني عنك من الله شيئًا»، وفي موقف آخر تشكو له ابنته فاطمة من كثرة أعمالها المنزلية مع مرضها، وتطلب منه خادمة لها تُعينها في شأنها، فإذا بمحمد ﷺ ينصحها بأن تسبح ربها ثلاثًا وثلاثين، وتحمده ثلاثًا وثلاثين، وتكبره أربعًا وثلاثين إذا أتت مضجعها للنوم، ويخبرها أن ذلك خير لها من خادم»[1].

إنه إذن والد يتصرف وفقًا لنظرية تربوية محكمة ومبادئ مقننة لا تنتقصها في حين من الأحيان عواطف الأبوة، ولا تهزها مشاعر منفردة.

إننا قد نرى كثيرًا من الآباء يتحدث بكثير من الحب عن أولاده وخوفه عليهم، إلا أنه يهمل حسن رعايتهم وتربيتهم؛ فيخرجون عاقين له منحرفين في الخُلُق والأفكار، إلا أن محمدًا ﷺ قد أدرك هذه السقطة التربوية، فكان كثيرًا ما يقول لأبنائه: «أنقذوا أنفسكم من النار»[2].

•• رعاية دائمة:

محمد ﷺ في هذه السطور يعلِّم أمته شيئًا آخر فيما يتعلق بعلاقة الأب مع أبنائه، كونه يظل مصدرًا للعطاء بلا حدود، مهما دار به الزمن، وطالت به الأيام، ومهما كبروا هم وصارت لهم حياتهم الخاصة.

فقد اهتم بأمر زواج بناته، فزوَّج الكبرى – زينب – قبل بعثته من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع، وكان رجلاً ذا مروءة وشرف، وزوَّج ابنته أم كلثوم من عثمان بن عفان،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٤)

أحد أهم رجال الإسلام، ومن أحسنهم خُلقًا وحياءً. واختار لابنته فاطمة علي بن أبي طالب ابن عمه وصاحبه، وأحد الرجال المشهود لهم بالفروسية والقيادة والعلم والحكمة.

ومن الملاحظ في تزويجه بناته أنه اختار لهن ذوي المروءة والخُلق الحسن، وأنه لم يهتم بكثرة مال ولا غنى، ولكنه اهتم بالخُلق، وهذه بالتحديد كانت وصيته لأمته؛ إذ يقول مخاطبًا أهل كل فتاة: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه»[1].

حتى إن الروايات الصحيحة تنقل لنا أن مهرًا بسيطًا للغاية قد قبله محمد ﷺ في زواج فاطمة من علي، يحدثنا ابن عمه عبد الله بن عباس ﷺ أن عليًّا حين تزوج فاطمة - رضي الله عنها- قال له رسول الله ﷺ: «أعطها شيئًا». فقال عليّ: ما عندي من شيء. قال: «فأين درعك الحُطَمِيَّة؟»، قال: هي عندي، قال: فأعطها إياه»[2].

وهذا كان دأبه دائمًا في أمر الزواج، كان يأمر بقليل المهور وقليل المتاع؛ ليبسر الزواج على الشباب، لما فيه من الخير والستر والعفة والاستقامة والاستقرار والطهارة للمجتمعات، فكان ربما قبل ممن يرغب في الزواج أن يكون المهر ما معه من حفظه للقرآن وآياته.

ولم تكن بيوت بناته تسلم من الخلافات المنزلية العابرة، فكان محمد ﷺ يرى لنفسه فيها دورًا ومسؤولية، ففي ذات يوم جاء محمد ﷺ إلى بيت فاطمة، فلم يجد عليًّا في البيت، فقال: أين ابن عمك؟ قالت: «كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج ولم يقل عندي» - يعني: لم يسترح عندي وقت القيلولة - ، إنه أمر عادي يحدث بين الزوج وزوجته، ويبدو أن محمدًا ﷺ قد علم به، فحاول السعي للصلح بينهما، إننا نلحظ ها هنا كيف أنه لم يسأل ابنته عن نوعية الخلاف ولا عن تفاصيله؛ احترامًا وتقديرًا لرغبة ابنته التي بدا منها عدم الرغبة في ذكر تفاصيل الخلاف، عندما قالت له: «كان بيني وبينه شيء فغاضبني»، إن هدفه هو إعادة الأجواء بينهما إلى صفوها فحسب، فقال ﷺ لأحد أصحابه: «انظر أين هو؟» - يعني: عليًّا - فعلم أنه في المسجد، فذهب إليه محمد ﷺ وهو في المسجد راقد، فإذا به قد سقط رداؤه من شقه وأصابه تراب، فجعل يداعبه ويمازحه ويقول له: قم أبا تراب قم أبا تراب»، إنه دور الأب الذي يحمل هموم أفراد أسرته، ويباشر مشكلاتهم، ولا يتركهم إلا وقد انتهت، وعادت الأمور إلى نصابها.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٢٥)، والنسائي (٣٣٧٥).

وفي موقف آخر ترسل إليه ابنته زينب رسولاً ليبلغه أن ابنًا لها ينازع الموت، فأثر ذلك في نفس محمد ﷺ تأثيرًا شديدًا، فأرسل إليها رسلاً من أصحابه يعينونها على ما هي فيه، وأرسل إليها يُصبِّرها ويذكِّرها بالرضا بقضاء الله ويقول لها: «إن لله ما أخذ، ولله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب».

ثم ذهب إلى بيتها في جَمْع من أصحابه، فرفع الصبي إليه وكأنه يلفظ أنفاسه، ففاضت عيناه وبكى ﷺ، فقال له أصحابه: تبكي؟! فأخبرهم أنه ما بكى جزعًا من الموت، ولا قلة صبر، ولكنه بكى رحمة ورقّة وشفقة، وقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1].

وهكذا كان محمد ﷺ الأب، يحمل همّ أولاده، ويشاركهم أفراحهم، وآلامهم، ومشكلاتهم، وما أحوجهم في تلك اللحظات كلها إلى وجود والد حكيم رحيم.

•• مع قومه:

لقد أحب محمد ﷺ قومه وأقاربه، وحرص على هدايتهم ودعوتهم إلى رسالته وهدايتهم، وسبق أن ذكرنا أنه وقف على الصفا ونادى قومه وأقاربه، وقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ فقالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك كذبًا قط، فقال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[2]. ورغم أنهم لم يستجيبوا له، وأعرضوا عنه؛ فقد كرر محاولته معهم، ودعا بني عبد المطلب على طعام واستغل المناسبة. فقال لهم: «يا بني عبد المطلب! إني بُعثت إليكم خاصة، وإلى الناس عامة؛ فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟ فلم يقم إليه أحد، فقام إليه علي بن أبي طالب وكان أصغر القوم. فقال: (اجلس) ثلاث مرات، وفي الثالثة ضرب بيده على يد علي رضي الله عنه»[3].

لقد علَّم أصحابه أن أقاربهم وعائلاتهم مهما عصوهم وآذوهم؛ فينبغي أن يظلوا على رغبتهم في هدايتهم والدعاء لهم، ففي يوم جاءه أحد الصحابة يسمى الطفيل بن عمرو الدوسي يشكو له إعراض قبيلته دوس عنه وإيذاءهم له،

---

(1) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(2) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(3) أخرجه أحمد (١٣٧٥).

ورفضهم دعوته التي هي دعوة محمد ﷺ، وقال لمحمد ﷺ: يا رسول الله! ادْعُ عليهم ليهلكوا، فرفع محمد ﷺ يديه إلى السماء للدعاء، ثم قال: «اللهم اهد دوسًا، اللهم اهد دوسًا، اللهم اهد دوسًا، وائت بهم – يعني: مؤمنين».[1]

إنه يعلّمهم محبة أقوامهم، وعدم إضمار الشر لهم مهما فعلوا، ومهما كذبوا، بل يدعو الله لهم ويرجو الخير لهم، ويبذل المعروف لهم، فالمسلم لا يعرف الإساءة بغير حق، ولا يعرف الغدر بالناس، ومن باب أولى بعشيرته وأبناء قومه لمخالفتهم له في الرأي مهما فعلوا.

وجاء رجل إليه يقول له: يا رسول الله! ادْعُ على المشركين. فقال: «لم أُبعث لعَّانًا، إنما بُعثت رحمة»[2].

نعم! لقد دعا ربه مرة على بعض أعدائه المشركين؛ الذين فعلوا أفعالاً فاحشة فظيعة تستوجب ما هو أكثر من الدعاء، أمثال الذين غدروا بسبعين من أصحابه الآمنين العُزل الذين خرجوا يعلّمون الناس الدين ولم يخرجوا بسلاح، حاصروهم وقتلوهم غدرًا، فدعا عليهم في صلاته، وكان ذلك فيما يعرف بسرية بئر معونة.

وقاتل هو وأصحابه أقوامًا أرادوا قتله واستئصاله هو وأصحابه والقضاء على رسالته، ورفعوا السلاح في وجهه ابتداءً، فدافع عن نفسه، وعن أصحابه وعشيرته ومن معهم من النساء والصبيان، و ردّ المعتدين، لكنه لم يغدر يومًا بأحد ولم يسمح بغدر ولا بانتقام أبدًا، بل كان يأمر أصحابه دومًا ألا يتعرضوا لامرأة ولا طفل، ولا شيخ ولا معتزل في صومعته، ولا يقطعوا شجرة ولا يفسدوا زرعًا ولا يحرقوا بيتًا .

العفو عن إساءتهم :

مهما تعرض إنسان من قومه لن يتعرض لمثل ما تعرض له محمد ﷺ من قومه، لا لشيء إلا لأنه يرجو لهم الخير، ويعرض عليهم رسالة ربه الذي كلّفه بها، ويتمنى من كل قلبه أن يشرح الله صدورهم لها، ولقد آذوه إيذاءً يصعب نسيانه ولكنه عفا عنهم، ونسي إساءتهم جميعًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

إن تناقضًا غريبًا قام به قومه معه، فهم الذين أطلقوا عليه الصادق الأمين في شبابه، والذي ما جرَّبوا عليه كذبًا ولا خيانة، وكانوا يعلمون كم هو نظيف اللسان عفّ الجوارح حَسَن الخُلق في شبابه، من العجب أن يرموه بتهمة الكذب في ادّعاء النبوة أو السحر والشعوذة بعد بلوغه الأربعين! لا لشيء إلا لأنه يدعوهم إلى عبادة الله، ثم هم يطلقون الإشاعات عليه، ويحذرون كل داخل إلى مكة المكرمة من الاقتراب منه وسماع حديثه، بل ويمشي بعضهم وراءه يحذر الناس من محادثته، فأي ألم نفسي تعرض له منهم؟!

ثم أي ألَم أكبر من أن يأتي أحدهم، ويلقي التراب على رأسه، وهو يصلي ساجدًا، وتأتي ابنته تمسح عنه التراب بأيديها وهي تبكي فيقول لها: «لا تبكي، إن الله ناصر أباك».

وأيّ ألم أشد من أن يأتي آخر بسلاَ جَزُور، ويلقيه على رأسه وهو ساجد حتى لا يستطيع أن يرفع رأسه من هذه القاذورات التي أُلقيت عليه؟!

وأي ألم أشد من أن يأتي آخر ويخنقه من رقبته حتى تجحظ عيناه ويكاد يموت؟!

أي ألَم هذا الذي تألَّمه رجل مهاب كبير في قومه كانوا كلهم يحترمونه ويقدرونه ويهابونه قبل أن يهبَّ لنجدة محمد ﷺ مما أذاه! وماذا دعاه ﷺ إلى قبول كل ذاك الأذى؟ ومن أجل ماذا يعرِّض نفسه للقتل والهوان؛ إلا أن يكون أمرًا كبيرًا وشأنًا عظيمًا هو حمل رسالة جديدة لإصلاح البشرية جمعاء؟!

إنهم لم يكتفوا بذلك معه؛ فقد حاصروه ومن معه في مكان ضيِّق اسمه شِعْب أبي طالب، فلا يبيعون له، ولا يشترون منه، حتى انتهى الطعام عنده وعند أصحابه، وحتى أكل هو وأصحابه ورق الأشجار، وظلت الحال هكذا ثلاث سنوات كاملة!

ثم أرادوا قتله، ودبروا وخططوا لاغتياله، وجهزوا من كل قبيلة شابًا يحمل سلاحًا، فاجتمع على باب بيته أربعون شابًّا قويًا يريدون أن يضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل، ولكن الله نجّاه منهم؛ فمن يستطيع أن ينسى هذا؟ ومن يستطيع أن يعفو عن كل هذا؟!

وآذوه في بناته، فقبل بعثته كانت ابنتاه رقية وأم كلثوم قد عُقِدَ عليهما للزواج بعتبة وعتيبة ابني عمه، فعندما أعلن دعوته أرادوا الكيد له وإيلامه فطلقوا بناته، لا لذنب منهما ولا لذنب من أبيهما إلا أنه يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا.

وأرادت زينب ابنته الكبرى أن تهاجر إليه في المدينة وركبت مسافرة، وهي حامل قاصدة المدينة فخرجوا إليها وتبعوها ووخزوا دابتها حتى سقطت من عليها وأجهضت جنينها، ووصلت المدينة في مرض بالغ حتى ماتت من جرائه، وقتلوا عمه وحبيبه حمزة يوم أحد، ومثَّلوا بجثته.

وبرغم كل ما سبق من الفظائع التي تحملها منهم في نفسه وولده وأصحابه ورسالته؛ يأتي يوم الفتح يوم يدخل مكة فاتحاً منتصراً، ومعه عشرة آلاف مقاتل ويجمع أهل مكة جميعًا فينسى كل هذه الإساءات، ويعفو عن أصحابها أجمعين، ويبدأ معهم صفحة جديدة، ويدعوهم إلى الإيمان بالله.

لم ينتصر لنفسه ولم ينتقم لأبنائه ولا لزوجته ولا لعمه ولا لأصحابه ولا لتجويعه وتعذيبه وتشريده وتهجيره.

•• محمد ﷺ مع جيرانه :

جاء محمد ﷺ فوجد قومًا يتخذون من سوء الجوار سلوكاً شائعاً، وقد وصف جعفر بن أبي طالب ابن عم محمد ﷺ حالهم بينما هو يخاطب النجاشي ملك الحبشة وصفًا مختصرًا فقال: «إنّا كنا أهل جاهلية وشر، نقطع الأرحام، ونسيء الجوار...».

فكان الجار لا يأمن من جاره شرّه، بل إنه كان ينتظر منه الشر في أي لحظة، فجاء محمد ﷺ فرفع قيمة حسن الجوار، وأعطى للجار حقوقًا كثيرة ساعدت في تأمين المجتمع وإرساء قواعد المحبة والأمن والسلامة والتعاون بين أفراده.

ومحمد ﷺ في تلك المنطقة المنهجية - بينما هو يضبط حقوق الجار وواجباته - يفصح عن أن رسالته لم تكن فقط رسالة عبادية منقطعة عن الإصلاح الحياتي الاجتماعي، بل هي رسالة إصلاحية لشتى جوانب الحياة.

وحرص محمد ﷺ قبل أن يعلن حقوق الجار ويطلب واجباته أن يكون هو ذاته أول من يطبق تلك الحقوق والواجبات؛ ليكون قدوة عملية لغيره في ذلك.

•• حق الجار في رسالة محمد ﷺ :

جاءت آيات القرآن تؤكد على حق الجار وتوصي به، فقال سبحانه: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾(النساء: ٣٦).

وفي تحديد الجار، وما له من حق على جاره، فإن العالم والمؤرخ الإسلامي إسماعيل بن كثير يشرح الآية، ومرادها بالجار، فيقول: الجار ذي القربى: يعني: الذي بينك وبينه قرابة، والجار الجنب: الذي ليس بينك وبينه قرابة.

وينقل رأيًا آخر لبعض علماء الإسلام أن: الجار ذي القربى يعني: الجار المسلم، والجار الجنب يعني: غير المسلم، وكلا القولين يوصي بالجار[1].

وقد نقل أصحاب محمد ﷺ عنه أحاديث عديدة تشدّد الوصاية بالجار؛ لمكانة هذا الجار وما له من حقوق يجب أن يهتمّ بها؛ حيث ظنّ محمد ﷺ من كثرة ما يوصيه جبريل عليه السلام بالجار أنه سيورّثه، ويجعله كأنه فرد من أبناء الأسرة.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٢٩٨.

فيروي عبد الله بن عمرو بن العاص أن محمداً ﷺ قال: «خير الأصحاب عند الله خيرُهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرُهم لجاره»[1].

وينقل خليفته الثاني عمر بن الخطاب عنه قوله ﷺ: «لا يشبع الرجل دون جاره»[2].

ويروي عنه عبد الله بن عمر قوله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورّثه»[3]، وكلمة «ما زال يوصيني»، تدل على أنه لم يكن أمراً عارضاً بل تكرر مراراً حتى ظن محمد ﷺ أن الله عز وجل من كثرة هذه الوصية بالإحسان للجار سيجعل له في مال جاره حقًّا.

ويحدث محمد ﷺ حديثاً آخر ينبئ عن أقبح المعاصي، وأشدّها إثمًا، لما في ذلك من إيذاء للجار، وخيانة لحقّ المجاورة؛ لأن الواجب على الجار أن يكون أمينًا على مال جاره، محافظًا على عرضه أن يُنْتَهك، حماية ودفاعًا، لكن عندما يأتي الخلل من الجار نفسه، فإن هذا تَعَدٍّ وتجاوز لا يُغتفر، إنه أذية وخيانة، فقد روى المقداد بن الأسود عن محمد ﷺ أنه قال لأصحابه يومًا، وهو يحدّثهم: «ما تقولون في الزنى؟» قالوا: حرام حرّمه الله ورسوله، وهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة، أيسر من أن يزني بحليلة جاره». قال: «فما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرّمها الله ورسوله، فهي حرام إلى يوم القيامة، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر من أن يسرق من جاره»[4].

وفي حديث آخر له يرويه صحابي آخر، وهو ابن مسعود، يقول: قلت: يا رسول الله! أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك». قلت: ثم أي؟، قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أيّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»[5].

وتسأله زوجته عائشة ذات يوم فتقول: يا رسول الله! إن لي جارين، فإلى أيهما أُهدي - يعني: لو كان لدي شيء واحد أهديه، فأيهما أقدم في الاختيار؟ - قال محمد ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٣٤٢).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

«إلى أقربهما منك بابًا»[1].

كما أكد ﷺ على حق الجار في أن يرى ابتسامة جاره عندما يلقاه، وأن يأكل من طعامه إذا أطعمه، فيروي صاحبه أبو ذر فيقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرنّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق، وإذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، واغرف لجيرانك منها»[2].

لقد علّم محمد ﷺ أصحابه أن للجار حقًا على جاره، في المشاركة بالسراء والضراء، وفي إطعامه مما يأتي عنده، ولو بمرقة مما يُطبخ، لكي يُشعره بمكانته واهتمامه به وعدم إيذائه، أو الإساءة إليه، والمحافظة على أهله وأولاده، في حال غيابه، وتقديم الخدمات لهم، ورعاية شؤونهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وكفّ الأذى عنهم، وعدم تعدي الكبير على صغيرهم، أو أخذ حق لهم.

إنه يوصي بمحبة الجار إذن واحترامه، وحسن معاملته والتودد إليه، كلما سنحت لك الفرصة، وزيارة مريضه، ومواساته والقيام بخدمته، ومعاونته عند الضرورة، وحبّ الخير له، وغضّ البصر عن محارمه.

يقول ﷺ: «أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربعة من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»[3].

ثم يروي محمد ﷺ حديثًا قدسيًا عن ربه سبحانه يبيّن قيمة شهادة الجار على جاره؛ فيقول محمد ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «ما من عبد مسلم يموت يشهد له ثلاثة أبيات من جيرانه الأدنين بخير؛ إلا قال الله عز وجل: قد قبلت شهادة عبادي على ما علموا، وغفرت له ما أعلم»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٥٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٢٤)، وأصله في صحيح مسلم.

(٣) أخرجه ابن حبان (٤٠٣٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٠٩).

(٤) أخرجه أحمد (٨٧٦٣).

الممارسات العملية مع الجيران:

لقد حرص محمد ﷺ أيضًا على أن يؤكد على الممارسات العملية الخاصة بالجيرة؛ لتطبيق المعاني النظرية التي أعلنها وأكد عليها، فيؤكد مثلاً على كفّ الأذى بطريقة عملية؛ ذلك أنك تعلم خبيئة جارك، وجارك يعلم خبيئتك، وربما تسمع منه أو عنه شيئًا من خصوصياته لا يطلع عليها أحد غيرك، ومن الممكن أن تستغل ذلك في إيذائه وسيكون إيذاؤك له أبلغ وأعظم من إيذاء أي أحد غيرك؛ لأنك تعلم من أين يُؤْذَى، وأيّ الجروح أكثر إيلامًا له. حتى إنه قد قرن بين سلامة الإيمان وإبعاد الأذى عن الجار، فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره»[(1)].

يقول أبو هريرة قال رجل: يا رسول الله! إن فلانة تُذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار»، قال: يا رسول الله! فإن فلانة يُذكر من قلة صيامها وصلاتها، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها، قال: «هي في الجنة»[(2)].

كما ينقل أبو هريرة قول محمد ﷺ: « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه »[(3)].

ومن جانب آخر فإن استأذنك جارك في استعمال بعض ما أعطاك الله، فأْذن له بذلك، يقول أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعنَّ جارٌ جاره أن يغرز خَشَبه في جداره»[(4)].

أي: أنه قد يعمل عملاً يحسن به إلى نفسه أو عياله، وقد يتطلب أن يفعل شيئًا في ملكك، فإن أراد ذلك فأذن له حبًّا وكرامة.

أما فيما يخص العطاء: فإن الجار أعلم بجاره، ويعلم عنه ما لا يعلمه غيره، وقد ينخدع الناس في مظهر بعض الناس، ولا يعلمون عنه شيئًا، ولكن الجار لا ينخدع، فإن كان في حاجة إلى مال فأعطه مما أعطاك الله، فإن له فوق حاجته بوصفه فقيراً حق الجار، فهو أَوْلى من الفقير البعيد، وإذا استقرضك وكان لديك سَعَة فأَقْرِضْه، «ما آمن بي مَن بات شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم»[(5)].

---

(1) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٦٤٧٥).

(2) أخرجه أحمد (٩٣٨٣).

(3) أخرجه مسلم (٤٦).

(4) أخرجه البخاري (٢٤٦٣)، ومسلم (١٦٠٩)

(5) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير(٧٥١) .

•• محمد ﷺ مع المنافقين:

أصعب الفترات في الدعوات وأكثرها تضحية هي فترة الميلاد والبناء والتكوين، ويتحملها رجال أشداء، وتكون فيها المغارم أكثر من المغانم، ولهذا لا ينتسب إليها في البداية إلا المؤمن بمبادئها والمخلص لها، ومن يستعد أن يبذل وقته وجهده وماله في سبيلها.

ولكن حينما يأتي وقت قطف الثمار وتأتي مرحلة تبدو فيها ملامح النصر والغلبة والتمكين لتلك الدعوة أو الحركة يأتي معها أفراد وجماعات إنما أتت بهم المصلحة والمنفعة، ودعاهم بريق الانتصار، وقد يكونون لم يتفهموا بعدُ مبادئ تلك الدعوة أو قِيَمها ولم يؤمنوا بها كلية، ولم تتشرب قلوبهم محبتها والولاء الكامل لها، إنهم يريدون المكاسب والأرباح على الرغم من كونهم لم يقدموا شيئًا لها.

وبالطبع لم تَخْلُ دعوة الإسلام من مثل هؤلاء الذين أسماهم الإسلام (منافقين)، ولقد كانت الفترة المكية المتمثلة في الثلاث عشرة سنة الأولى خالية من ظاهرة النفاق؛ فالمرحلة كلها متاعب ومشاقّ، وليس فيها مغانم تُذْكَر، ولا توجد أية مؤشرات على وجود مرحلة قادمة من الغنائم والأرباح، ولهذا لم يظهر النفاق في المرحلة المكية.

وكيف يظهر النفاق فيهم إذا كانت تبعة إعلان الإسلام هي التعرض لألوان الاضطهاد كافة في مال المنافق وتجارته أو الإيذاء في بدنه؟!

وحتى بعد الهجرة مباشرة لم يظهر النفاق في أهل المدينة؛ لأنهم ما يزالون في البدايات وكل القوى تتربص بهم، وكان الجميع ينتظر فناء تلك الفئة في القريب العاجل، فلم تَلُحْ بوادر في الأفق تلمِّح بقرب وجود غنائم أو أرباح.

وكان انتصار المسلمين في غزوة بدر نقطة فاصلة أدت إلى نجاح هائل للدعوة الإسلامية، وكان كفيلاً بإثارة غرائز هؤلاء المنتفعين، الذين أدركوا أن هناك حركة وليدة توجد لها ملامح النصر والغلبة، ومن ثَمّ الأرباح والمكاسب، فسال لعابهم طمعًا أن يدركوا نصيبًا من المكاسب، وأصبحت تلك الحركة أيضًا قوة يخشى منها ينبغي تحاشيها.

وفي المجتمع الإسلامي سمة تكاد تميزه عن غيره من المجتمعات، فمن يسلم في أي لحظة يأخذ مكانه في المجتمع المسلم بوصفه واحداً من المسلمين تمامًا، له ما لهم وعليه ما عليهم فلا تمييز بينهم. فكان لكل مسلم أيًا كان تاريخ إسلامه وأيًا كان عطاؤه وبذله وتضحيته في الإسلام الحقوق نفسها وعليه الواجبات نفسها.

هذه السمة أغرت الكثير من المنافقين بالتظاهر بالاقتناع الكامل بالإسلام، وإن كانوا أشد المعارضين له، وألدّ خصومه في الباطن، وأكثر العاملين على هدم أركانه، وقرّروا إن لم يتحقق سعيهم لهدم الدين من خارجه، فليعملوا على هدمه من الداخل وبثّ الفُرقَة والنزاع بين أفراده.

ولهؤلاء طبيعة متفردة، وتجب معاملتهم معاملة خاصة، وهذا ما فعله محمد ﷺ؛ لأن التعامل معهم يمثل معضلة كبيرة جداً؛ لأنهم بحكم الظاهر مسلمون يمارسون الشعائر، ويعلنون الولاء الكامل، والحقيقة غير ذلك تماماً، إضافة إلى أن عمل النفاق غالبًا ما يكون سريًا ولا يعلم به أحد، ولذلك يحيطون أنفسهم بالسرية الكاملة، ولا يواجهون بأفكارهم؛ ومن ثم لا يستطيع أحد إثبات جريمة واضحة عليهم.

فلا بد إذن من استراتيجية منظمة ومدروسة ومتابعة خاصة بالتعامل معهم، وقد استخدم محمد ﷺ عدة ممارسات عملية في تعامله معهم.

•• عدالة عامة:

علم محمد ﷺ أن النفاق قد ينتشر في البيئة التي يقلّ فيها العدل، وتنتشر فيها المحسوبية والوساطة، فإذا عالج القائد المواقف المتماثلة معالجات مختلفة تبدو جماعة النفاق وكأنها مضطهدة مستهدفة، وهم الذين لم يبد منهم شيء أمام الناس.

لذا فقد ظل محمد ﷺ حوالي تسع سنوات وهو يعلم وجود بعض المنافقين، ولم يغير مواقفه، ولم يأخذ أحدًا بالظن، ولم يحكم على أحد بغير أدلة ظاهرة واضحة للعيان، ولم يقضِ بعلمه فيهم.

ولكن إذا ثبتت جرائم المنافقين ووضحت للجميع يمكن عندها للحاكم أن يعاقبهم بالعدل أيضًا، ولا يخشى على وحدة الصف الداخلي، فكان من الضروري أن يتجاوز محمد ﷺ كثيرًا عن بعض التصرفات التي لا دليل ظاهر على سوئها حتى تصدر منهم تصرفات أخرى تفضح ما أضمروه، حتى إن آيات القرآن نزلت على محمد ﷺ وفيها: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾(محمد: ٣٠)، أي: أن المنافق لن يتحمل إخفاء حاله طويلاً، وسيزل لسانه بما أضمره، وسيطلعك الله على ما أخفى من شأنه من سقطات لسانه، وإذا طبق القانون على الجميع ولم تكن

هناك استثناءات لأحد أيًا كان قدْره سيتماسك الصف الداخلي ولن يجد المنافقون ثغرة ينفذون منها إلى الصف المسلم، ولن يسمع لهم أحد فلا حقائق يستطيعون الاستناد إليها.

•• صدق يذيب الحقد :

إن النفاق نبت شيطاني يُروَى بماء الحقد، وينمو ويترعرع في الظلام، ويطرح نار الفُرْقَة والعذاب، وليس هناك شيء يمكنه حصار النفاق وتضييق الخناق عليه أكثر من الصدق والوضوح والشفافية، فلا يقهر الظلمة إلا الضياء والنور. فلا بد للقائد من مصارحة أتباعه، وأن يلتقي بهم دائمًا، ويجيب عن كل أسئلتهم مباشرة دون خداع أو التواء أو كذب عليهم حتى وإن أخطأ فلا بد أن يعترف بخطئه دون مواربة، وبذلك يقضي على النفاق نهائيًا بتجفيف منابع إنباته من الشائعات والأكاذيب.

في ليلة كان محمد ﷺ معتكفًا في المسجد فأتت صفية بنت حيي زوجته تزوره في المسجد فحدثته، ثم أرادت أن تنصرف إلى بيتها ولم يأمن عليها أن تمشي وحدها في ظلمة الليل، فأراد أن يوصلها إلى بيتها، فمشى معها فمرَّ عليهما رجلان، فلما رأياهما أسرعا في المشي، فقال لهما محمد ﷺ: «على رِسْلكما - أي: تمهلا - إنها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله!، فقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خفت أن يقذف في قلوبكما شيئًا أو شرًا»[1].

الحادثة بسيطة والمعنى عميق فلم يكن يدع محمد ﷺ موقفًا غامضًا دون أن يوضحه ويبين للناس أسبابه حتى لا يدع مجالاً للشك أن يتحرك، فمحمد ﷺ لا يعلم من هما الرجلان في الظلام الدامس، ولا يختلف الأمر سواء كانا من المؤمنين أو من المنافقين، ولكن إذا ترك الأمر ولم يوضح لهما أنها زوجته ربما تلقف المنافقون هذه الحادثة، وحاكوا حولها الإشاعات.

وبعد فتح مكة دخل كثير من أهلها في الإسلام ولم يكن إيمانهم قد قوي بعدُ، فبعض الناس يسير خلف من ينتصر، ثم يتبين بعد ذلك أمره: إما أن يكمل الطريق، وإما أن يعود، وهذا ما حدث فدخل الناس في دين الله أفواجًا.

وجاءت غزوة الطائف وفيها غنم المسلمون غنائم لم يغنموا مثلها قبلها، والأصل في

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٥).

الغنائم أن توزَّع بالتساوي، ولكن محمدًا ﷺ بعد انتهاء المعركة وزَّع الغنائم بطريقة مختلفة فأعطى المسلمين الجُدُد من أهل مكة كثيرًا من الغنائم، ولم يعطِ الأنصار من أهل المدينة شيئًا، وهنا حزن الأنصار، وقال بعضهم: أعطى من أسلم حديثًا وتركنا!

وهذا الموقف لو استمر وكثر به الحديث لأوجد أرضًا خصبة للنفاق، وخاصة أنه يستند إلى حقائق - وإن فسِّرت غلطاً - وليس إلى إشاعات، ومن الممكن أن يستغل هذا الحدث في التفرقة بين عنصري المسلمين المهاجرين والأنصار.

وكان مجتمع المؤمنين نظيفًا خاليًا من الغش؛ فلم يكونوا يضمرون شيئًا في أنفسهم فإذا حزنوا أو غضبوا من شيء سألوا عن حقيقته؛ فذهب كبير الأنصار سعد بن عبادة إلى محمد ﷺ واشتكى له من ذلك، فقال له محمد ﷺ: «اجمع لي قومك»، فجمع قومه وأتوا ففتح لهم مجال الشكوى والحديث ولما انتهوا من مقالتهم قال لهم:

«أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعَاعة- شيء تافه زائل - من الدنيا تألفت بها قومًا أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام».

ثم قال ﷺ لهم: «يا معشر الأنصار!، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون أنتم برسول الله إلى رحالكم، فو الذي نفسي بيده! لو سلك الناس شعبًا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، فبكى القوم جميعًا حتى اخضلَّت لحاهم وقالوا: رضينا بالله ربًّا، ورسوله قسمًا، ثم انصرف وتفرقوا»[1].

إن الموقف ها هنا قد تحوَّل من غضب وعتب إلى بكاء وتراحم ورضىً، وهكذا بالمصارحة والمكاشفة قضى ﷺ على الفتنة سريعًا في مهدها، ولم ينتظر ولم يهمل الأمر ولم يأخذه باستهانة، بل قدَّر مشاعرهم، وأراد أن يوضح لهم وجهة نظره.

•• السرعة في احتواء المشكلات وحلّها:

لم يكن محمد ﷺ يترك مشكلة من مشكلات المجتمع تتراكم آثارها دون محاولته حلّها بصورة فورية عاجلة، فالمدينة قليلة الموارد والمهاجرون تكاثروا، وهذا المجتمع يفترض أن يتحمل عبء هؤلاء المهاجرين، ومن ثم فلا بد أن يمر المجتمع بمشكلة اقتصادية سرعان

---

(١) أخرجه البخاري(٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

ما تتحول إلى مشكلة اجتماعية، بل ومن الممكن أن تتطور إلى ما هو أكثر من ذلك.

ولكن ما حدث في المدينة غير ذلك، فعندما ذهب محمد ﷺ إلى المدينة ابتكر فيها نظامًا فريدًا للتكافل الاجتماعي، وهو نظام المؤاخاة، وكان فيه كل رجل أنصاري من أهل المدينة يؤاخي رجلاً من المهاجرين، وتكون بينهما علاقة خاصة تميز بينهما عن كل العلاقات فكان كل مهاجري ضيفًا على أخيه الأنصاري، يتعاونان في كسبهما ويقتسمان عيشهما، فقضى فوريًا على تلك الأزمة في مهدها.

كان هناك طوائف أخرى تسعى في اتجاه معاكس، طوائف يهمها تأجيج الصراع بين أبناء هذا المجتمع بإثارة العصبيات، وجعلها تطفو على السطح، فلا بد إذن من علاج سريع قبل أن تتفاقم الأزمة، وهذا ما كان يحرص عليه محمد ﷺ في تعامله مع المشكلات وبخاصة التي يكون وراءها المنافقون الذين يحاولون أولاً إشعالها، وثانيًا تذكيتها، وإمدادها بالوقود اللازم لإشعالها.

وكان كبير المنافقين في المدينة رجلاً يسمى عبد الله بن أُبَي، وكان الرجل ذا طبيعة خاصة؛ إذ إن الأنصار قبل هجرة محمد ﷺ بأيام كانوا قد استعدوا لتنصيبه ملكًا عليهم، وجاء محمد ﷺ فتحول الناس جميعًا إليه ونُسي عبد الله بن أُبَي في زحام الاشتغال بمحمد ﷺ، وتضاءلت شخصية عبد الله بن أبي إلى جانب شخصية محمد ﷺ، ما أثار الحقد في قلب ابن أبي، فأضمر في نفسه غيظًا وحقدًا على محمد ﷺ الذي سلبه ملكه الذي كان يحلم به.

وبعد غزوة بدر لم يجد وسيلة بعد أن أسلم قومه، وفقد السيطرة عليهم تمامًا إلا أن يُظهر الإسلام ليستعيد بعض مكانته، وليجعل من لقائه بالمسلمين من بني قومه وجلوسه معهم وحديثه معهم أمرًا مقبولاً، فكان إسلامه وسيلةً لنيل مكاسب، أو تخطيطًا مرحليًا حتى يستطيع تدبير أمره، وبالفعل أسلم كثير من أتباعه للغرض نفسه، فكوَّنوا تنظيمًا خفيًا، ورسموا الخطط، ودبروا كثيرًا من الأحداث والمشاكل والمتاعب التي تعرض لها محمد ﷺ وأصحابه.

وعملُ المنافقين في المدينة كان عملاً منظمًا مدروسًا، ولا بد أن يواجه بخطة منظمة مدروسة لا يكون فيها لردود الأفعال مجال أبدًا، فكل انفعال صادر عن رد فعل ستكون عاقبته وخيمة، ولهذا نستطيع أن نقسم طريقة التعامل مع المنافقين إلى مراحل نفذها رسول الله ﷺ وأتباعه في تخطيط محكم مدروس.

•• المرحلة الأولى: (الصبر والحلم عليهم):

في هذه المرحلة كان دور النفاق محدودًا، ولم يظهر أهل النفاق نفاقهم بصورة جلية واضحة، والأصل في التعامل مع الناس في الإسلام أن المحاسبة على الظاهر من أقوالهم وأفعالهم، وألا ينشغل الحاكم بالبحث عما يبطنون في دواخل أنفسهم، وكثير من الناس دخل الإسلام أولاً، ولم يكن مقتنعًا به الاقتناع الكامل.

ولهذا كلما ظهر خطأ من أخطاء الناس صبر عليه محمد ﷺ وتحمله، طمعًا في وقت تهدأ فيه نفوسهم وتسمو أخلاقهم، فالزمن جزء من علاج أمراض بعض الأنفس، ولكن بعض مريضي النفوس لا تتغير نفوسهم، ولا يزيدهم الصبر والحلم إلا غرورًا واستكبارًا، ومن ثم لا يتغيرون مهما انخرطوا في المجتمع الإسلامي، ويستمرون في أعمالهم وأخطائهم.

فكانت مرحلة الصبر والحلم في مرحلة فرز دقيقة لمن كان منهم حديث عهد بالإسلام، ولما يدخل الإيمان في قلبه، ومن منهم قد نبتت بذرة النفاق في قلبه فكانت مرحلة تمييز، وكان عنوانها الصبر والحلم والصفح.

فحينما خرج المسلمون إلى أُحُد كانوا حوالي ألف رجل، وكان رأي عبد الله بن أبي ألا يخرج المسلمون للقاء عدوهم خارج المدينة، ولكن استقر الأمر على خروج المسلمين جميعًا للقتال خارج المدينة، وعندما تراءى الجيشان في أحد والمسلمون يقتربون من ألف رجل ومشركو مكة حوالي ثلاثة آلاف رجل؛ أخذ عبد الله بن أُبي ثلث الجيش معه، وانسحب من ميدان المعركة!

كان من الممكن ألا يخرج من المدينة للقتال أصلاً هو ومن معه، ولكن قرَّر أن ينسحب في ذلك التوقيت حتى يُوهن جيش المسلمين؛ لأنهم قلة من العدد، فكيف بانسحاب ثلثهم، وأيضًا ليرفع روح قريش المعنوية بسحب ثلث الجيش معه، وليؤثر على أكبر عدد ممن هم ليسوا من المنافقين ممن يُخدَعون برأيه وبكلامه، وكان لهذا الحادث الأثر الكبير في النفوس في غزوة أحد، وكان ذا دلالة قاطعة على وجود قوًى خفية تعمل في الظلام ضد مجتمع المدينة، مع العلم أن هذا العدد الكبير لم يكن كله من المنافقين، ولكن كان أكثرهم من المتأثرين بهم، فكان لا بد من مرحلة لفضح مؤامرات النفاق.

إن محمدًا ﷺ يريد أن يلفظهم جسد المؤمنين لا أن يتولى هو بنفسه فصلهم؛ فقد تأخذ الشفقة أو حب أبناء العشيرة من قلوب أصحابه تجاه هؤلاء المنافقين، فكانت نقطة البداية بعد غزوة أُحد.

ومن وقاحة تصرف عبد الله بن أبي أنه بعد الانسحاب من أُحُد، ومقتل سبعين من المسلمين وجرح سبعين آخرين؛ وقف يوم الجمعة التالي لمعركة أحد - كما كان يقف - ليمتدح محمدًا، فأخذ المسلمون بثيابه وأجلسوه كي لا يسمعوا منه، فقام من فوره وخرج من المسجد ولم يُصَلِّ الجمعة معهم، فلقيه رجل من الأنصار، فقال له: ارجع يستغفر لك رسول الله، فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

إذن كانت تلك الحادثة أول رد فعل إيجابي بحصار النفاق والمنافقين وتقليص حجمهم وصرف الناس عنهم، ولنا أن نعلم أن الذين أقعدوه هم أبناء قومه الذين كانت منهم أغلبية شهداء يوم أحد؛ فالآن المسلمون ينظرون إلى هذا الرجل وأتباعه نظرة ريبة وشك في تصرفاته، وهذه غاية الحكمة أن تجعل الناس ينصرفون عنه ولا يسمعون منه، وبالحق دون افتراء عليه أو اتهامات باطلة ينكرها، ويكون في نظر أتباعه بطلاً مضطهدًا من القيادة.

والآن تغيرت نظرة المسلمين من مرحلة كانوا يلتمسون فيها العذر لعبد الله بن أبي وأمثاله إلى نظرة رجل بدأ ينفد صبره من تصرفات هؤلاء،وتغيرت النظرة من الإعذار إلى الاتهام.

•• المرحلة الثانية: (إظهار عيوبهم وفضح أمرهم):

هذا المرحلة الثانية كانت بعد أن تخلى المنافقون عن حذرهم وأصبحوا مكشوفين للناس، وتحول المجتمع المسلم إلى مجتمع يعلم تصرفات المنافقين ويحذرهم جيدًا، والحق أن بعد هذه الأحداث حاول المنافقون استعادة مكانتهم، ولكنهم لم يفلحوا، وقد اعتمدوا على طريقتين؛ الأولى: الطعن في شخصية الرسول ﷺ وأخلاقه، والإشاعات حوله وحول أهل بيته.

والثانية: اتخاذ كل وسيلة للتفريق بين المسلمين، وإشاعة جو من الخلافات والعداء والمعارك بين أفراد الأمة، واستغلال الحمية القبلية والنزعة العنصرية عندهم.

وفي غزوة بني المصطلق وفي طريق العودة منها ذهب رجلان إلى بئر لسقي الماء، واختلفا وتشاجرا، وهذا أمر عادي يحدث في كل المجتمعات، ولكن هناك قوًى خفية

زادت فيه ونفخت في ناره: حتى صار أكبر من حقيقته، فالرجلان كان أحدهما من المهاجرين والثاني من الأنصار فنادى المهاجري: يا للمهاجرين! ونادى الأنصاري: يا للأنصار! فاجتمع مجموعة من الناس من الفريقين وثارت الحمية القبلية.

وها هنا وبسرعة شديدة حضر محمد ﷺ وحدَّث الناس وذكَّرهم بفضل الله عليهم، وأن دعوى القبلية دعوى جاهلية ليست من الإسلام، يقول جابر بن عبد الله: فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»، قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر، ثم كثر المهاجرون بعدُ.

فقال عبد الله بن أُبي: أو قد فعلوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجَن الأعزُّ منها الأذلَّ، وها هنا يرى بعض أهل المدينة ضرورة التخلص من ابن أُبَي إلا أن محمدًا رفض ذلك وقال: «دعْوه؛ لا يتحدثُ الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[1].

وهدأت الفتنة وعلم المسلمون أن هناك عدوًا خفيًا من داخلهم، يحاول في هذا الاتجاه في طعن وحدتهم وتفريقهم وإثارة النعرات القبلية بينهم.

وفي يوم آخر مرَّ شاس قيس أحد زعماء يهود المدينة على مجموعة من المسلمين من أهل المدينة فوجدهم متحابين متآلفين، فغاظه ذلك، فطلب من شاب يهودي يحفظ الشعر أن يذكر لهم شعرًا من شعر حرب بُعَاث، وهي حرب كانت قد طالت أربعين عامًا بين قبيلتي الأوس والخزرج قبل الإسلام، وذكر لهم الشعر، فهاجت العواطف وتجددت الجراح، وتفرق الناس بعد أن كانوا مجتمعين، وساد البغض بعد أن كان الحب يجمعهم، وبسرعة جاء محمد ﷺ فأعاد بكلماته الحكيمة لهم عقولهم، وذكَّرهم - كما كان يقول دائمًا - أنها من الجاهلية، والآن إنهم أبناء دين واحد، وما مضى فات بحلْوه ومُرّه، والآن يجب أن يكونوا في الحاضر لينهضوا بأنفسهم وينظروا إلى مستقبلهم، ولا يدعوا خلافًا مضى زمنه أن يحكمهم اليوم، وأن يتحكم في مصائرنا اليوم.

وبهذه العقلية الحكيمة الهادئة المتفتحة عاد الناس إلى صوابهم، وندموا على تصرفهم واعتذر كل رجل لأخيه، وتعانقوا وذهب الغل والحقد من النفوس وعادت المحبة والصفاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

وبلغ محمدًا ﷺ إثر غزوة بني المصطلق أن عبد الله بن عبد الله بن أُبَي يرفض دخول أبيه المدينة بعدما علم من أفعاله وكيده، وأنه يرفع السلاح في وجهه، فأرسل سريعًا إليه أن يكُفّ عن هذا، ويحسن صحبته فالأب مهما فعل لا يمكن أن يعامل بهذه المعاملة حتى لو كان منافقاً.

وأصبح النفاق كيانًا يلفظ أنفاسه في مجتمع المدينة، وأصبح المنافقون في حاجة ماسة إلى ترتيب صفوفهم، وإعادة تنظيم أوراقهم، خاصة بعد وفاة كبيرهم عبد الله بن أُبَي.

فقرروا أن يكون لهم مكان اجتماع شرعي، لا يُطاردون فيه، ثم يحصلون على الشرعية ليسهل انضمام الناس إليهم، وليس هناك أفضل من المسجد بوصفه مكان تجمع شرعي، فبَنَوا مسجدًا منفردًا مستقلاً بعيدًا يكون مكانًا لاجتماعاتهم، وأرادوا من القيادة مباركة هذا المكان؛ كي يحصلوا بهذا على الشرعية، وكان هذا الوقت وقت خروج محمد ﷺ إلى غزوة تبوك، فأجّل محمد ﷺ زيارتهم حتى يعود من تبوك، وفوَّت عليهم تلك الفرصة؛ لأنه أحسَّ أن هناك شيئًا ما يُرَتَّب له خلال رحلة تبوك، وأرادوا أن يصلي في مسجدهم هذا قبل السفر.

وبالفعل حاولوا اغتيال محمد ﷺ عند العودة من تبوك، ولكن الله نجّاه من هذه المحاولة، وعندما رجع قرر هدم ذلك المسجد الذي أُعِدّ لمحاربة الله ورسوله والكيد لدينه ونزلت آيات قرآنية في تلك الحادثة وفيها: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾(التوبة: ١٠٧-١٠٨).

فأرسل ﷺ من يحرقه بالنار، وانتهى دور المنافقين تمامًا في عهد محمد ﷺ.

تعامل محمد ﷺ مع الحيوان:

كان للحيوان شأن عند العرب في وقت محمد ﷺ، فكان وسيلة ركوبهم في السفر والإقامة، وكانوا يستخدمونه في الحرث والزراعة، ويتسابقون عليه، ويستخدمونه في الحروب والصيد.

وكانوا يسيؤون التعامل مع الحيوان، وانتشرت لديهم ممارسات قاسية تجاهه.

فجاء محمد ﷺ فكان رحيمًا بالحيوان، أكدت ذلك سيرته العملية، وسعى لتعليم أصحابه الرفق في تعاملهم مع الحيوان.

وتبدو مظاهر رحمة محمد ﷺ بالحيوان في أمور عدة، منها:

أمره بالإحسان إليه والرفق به:

أمر محمد ﷺ أمته بالإحسان إلى الحيوان والرفق به، فقد ركبت زوجه عائشة - رضي الله عنها - بعيرًا فقست عليه، فوجهها محمد ﷺ إلى الرفق بقوله: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنْزَع من شيء إلا شانه»[1].

وقصَّ محمد ﷺ على أمته قصة رجل أحسن إلى حيوان، فغفر الله له ذنبه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق فاشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغني، فنزل البئر فملأ خفه فأمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له».

حينها سأله أصحابه - رضوان الله عليهم - هذا السؤال: وإنّ لنا في البهائم لأجرًا؟ أي هل يمكن أن يُؤْجَر الإنسان على مجرد الإحسان إلى البهيمة فقال ﷺ: «في كل ذات كبد رطبة أجر»[2].

الإحسان إلى الحيوان في السفر:

كان الحيوان يمثل وسيلة السفر لدى العرب آنذاك، لذا أكَّد محمد ﷺ ألا يكون

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤).

ذلك سببًا في إرهاقه والإساءة إليه، وأكَّد على من يركب الدابة في السفر أن يحسن إليها، ومن مظاهر ذلك الإحسان:

أنه علَّم أصحابه - رضوان الله عليهم - إذا نزلوا في السفر ألا ينشغلوا بالصلاة، حتى يُنْزِلُوا الرحالَ عن الدوابِّ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا إذا نزلنا منزلاً لا نسبح حتى تُحَلَّ الرحال»[1].

ولأن الدابة كانت تتغذى من الطريق، فقد أمر محمد ﷺ من يركبونها بأن يراعوا ذلك، فحين يسيرون في طريق خصب فلا يُسرعوا حتى تأخذ الدابة حقها من الأكل، وحين يسيرون في طريق مجدبة لا تجد فيها الدابة ما تأكله، فعليهم أن يسرعوا في المسير.

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حقها، وإذا سافرتم في الجدب فأسرعوا السير»[2].

•• النهي عن إيذائه:

تنوعت صور الإيذاء والإساءة للحيوان لدى العرب، فنهى محمد ﷺ عن تلك الصور والممارسات السيئة.

ونجد في سيرته ﷺ النهي العام عن الإساءة للحيوان؛ ليشمل ذلك كل ما يستجد من صور الإساءة، كما نجد في سيرته النهي عن صور محددة كانت منتشرة لدى العرب آنذاك.

ومن النهي العام عن إيذاء الحيوان نهيه ﷺ عن التمثيل به؛ فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لعن الله من مَثَّلَ بالحيوان»[3].

ومن الصور المحددة التي نهى عنها محمد ﷺ:

- الوسم في الوجه، فعن جابر أن النبي ﷺ مر عليه حمار قد وُسِم في وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسمه»[4].

- ومنها: أنهم كانوا يستخدمون الحيوان هدفًا حين يتعلمون الرماية،

---

(1) أخرجه أبو داود (٢٥٥١).

(2) أخرجه مسلم (١٩٢٦).

(3) أخرجه البخاري (٥٥١٥)، ومسلم (٢١١٧).

(4) أخرجه مسلم (٢١١٧).

فناهم ﷺ عن ذلك؛ فعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا».(1)

- ومنها: أنهم كانوا في منتدياتهم وتجمعاتهم يجعلون ظهر الدابة منبرًا فيخطبون عليه، أو يتناشدون الشعر وهم على ظهرها، فنهاهم ﷺ عن ذلك. فعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر؛ فإن الله إنما سخرها لكم لتُبلِّغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم»(2).

ومر محمد ﷺ على رجل من الأنصار لديه بعير كان يُجيعه ويثقل عليه في العمل، فنهاه ﷺ عن ذلك، وقال له: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟»(3).

وفي موقف آخر يرى محمد ﷺ آثار إهمال رعاية الحيوان فينهى الناسَ عن ذلك، فعن سهل ابن الحنظلية قال مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة»(4).

وكان محمد ﷺ مع أصحابه، فرأى أحدهم طائرًا له فرخان فأخذهما، فنهاهم ﷺ عن ذلك. فعن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فانطلق لحاجته فرأينا حمرةً معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ رُدُّوا ولدها إليها». ورأى قرية نملٍ قد حرقناها فقال: «من حرق هذه؟ قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»(5).

•• الإحسان إليه عند الذبح:

لا تنتهي الرحمة بالحيوان لدى محمد ﷺ عند الحياة، بل يؤكد على رعاية ذلك حين ذبحه.

فيأمر ﷺ بأن يحسن الإنسان الذبح، فيختار السكين الحادة، ويريح الحيوان؛ فعن شداد بن أوس قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا

---

(1) أخرجه مسلم (١٩٥٧)

(2) أخرجه أبو داود (٢٥٦٧).

(3) أخرجه أبو داود (٢٥٤٩).

(4) أخرجه أبو داود (٢٥٤٨).

(5) أخرجه أبو داود (٢٦٧٥)

قتلتم فأحسنوا القِتْلَة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَه، فَلْيُرِح ذبيحته»[1].

ومن صور الإحسان إلى الحيوان حين ذبحه ألا يرى الحيوان آلة الذبح، فعن سالم بن عبد الله عن أبيه - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ أمر بحدِّ الشفار، وأن تُوَارى عن البهائم، وإذا ذبح أحدكم فَلْيُجْهِزْ»[2].

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥٨٣٠)، وابن ماجه (٣٠٧٢).

الفصل السادس

محمد ﷺ في السلم والحرب

- محمد ﷺ في السلم
- محمد ﷺ في الحرب
- الحرب في السيرة المحمدية
- أخلاقيات الحرب في رسالته ﷺ
- الأسرى
- تعامل محمد ﷺ مع أعدائه
- محاولات اغتيال محمد ﷺ

•• محمد ﷺ في السلم

•• قبل بعثته، نظرة عاجلة:

بدت شخصية محمد ﷺ المعتدلة السلمية منذ كان صغيرًا، وبدا مع أولى سني عمره سعيه الدؤوب نحو إنهاء النزاعات والبعد عن تحكيم السيف في الخلافات، سواء كانت الجماعية أو المجتمعية، وأمامنا حدثان مهمان نستدل بهما على ذلك باختصار:

•• الحادث الأول: حلف الفضول:

في جوّ تسوده قيم الغابة، ويأكل القوي فيه الضعيف، ولا يجد المظلوم ناصرًا له بين الناس نشأ محمد ﷺ، ولم يكن محمد ﷺ من الضعفاء، بل كان منتميًا لقبيلة قوية وشريفة، ولم يكن مستضعفاً، فجدُّه وعمه من سادات قريش.

إلا أن نفسه تاقت دومًا إلى رفض الظلم ونصرة المظلوم، ويروي أهل السِّيَر أن رجلاً كانت له مظلمة عند أحد أكبر سادات مكة، وهو العاص بن وائل السهمي، وأنه قد أخذ ماله ورفض أن يُعيده إليه، وأن الرجل قد طاف على الناس يريد نصرتهم، إلا أنه لم يجد من يعينه في ذلك؛ خوفاً من مكانة العاص بن وائل.

إلا أن هذا الموقف قد دعا جمعًا من رجال قريش إلى الاجتماع والتعاهد على نصرة المظلوم، وعقدوا تحالفاً سُمِّي بحلف الفضول، وكان من أهمّ بنوده نصرة المظلوم مهما قل شأنه، والأخذ بحقه من ظالمه مهما علا قدره.

لقد كان بين هؤلاء الرجال شاب لم يتجاوز العشرين من عمره، ولعله كان أصغرهم سنًا، إلا أن اهتمامه بتلك القضايا من الخير وحب الفضيلة جعله يشاركهم حلفهم، ويشير عليهم بما قد ينصحهم به، كان هذا الشاب هو محمداً ﷺ قبل بعثته.

حتى إذا دارت الأيام وانتصرت دعوته وصار زعيمًا لأمة قوية، لم يتنكر لهذا الحلف رغم أنه كان مع غير المسلمين بل أقرَّه وشجعه، وقال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دُعيت به في الإسلام لأجبت»[1].

(١) صحيح ابن حبان (٤٤٥١).

•• الحادث الثاني : بناء الكعبة :

وهذا الحادث أيضًا له دلالة بالغة في رسم ملامح شخصية محمد ﷺ قبل البعثة والرسالة.

فقد احترقت الكعبة وتهدمت قبل البعثة، فأراد أهل مكة أن يعيدوا بناءها، وهناك في الكعبة حجر له موضع خاص، ومكانة خاصة عند العرب منذ مبعث إبراهيم عليه السلام هو الحجر الأسود، فقسمت قريش على القبائل أركان الكعبة كل قبيلة تبني ركنًا وجدارًا، وكان ذلك يعد فخرًا للقبائل ويعدُّون المشاركة في الأعمال العظيمة بابًا لخلود الذكر، فكانوا يتنافسون فيها لبلوغ المكارم، ولما جاء دور وضع الحجر ثار خلاف كبير بين القبائل أيهم ينال شرف وضع الحجر في مكانه؛ فيظل ذكره عبر العصور؟!

وكاد الأمر ينتهي بالقتال فاستلَّ كل منهم سيفه ليحسم الأمر له ولقبيلته، ولكن عاقلاً منهم أشار عليهم برأي هو أن يقبلوا التحكيم، ولكنهم اختلفوا حول شخصية الحَكَم، فاقترح عليهم أن ينتظروا أول داخل عليهم فيحكموه بينهم ويقبلوا بحكمه أيًّا كانت شخصيته، وأيًّا كان حكمه فاتفقوا على ذلك.

وأراد الله أن يكون أول داخل عليهم هو محمد ﷺ وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ففرحوا جميعًا، وقالوا: هذا الأمين رضينا به حَكَمًا.

وهنا وجد محمد ﷺ الدماء الحارة تتدفع في عروق أصحابها تنتظر التدفق، ورأى الغضب في الوجوه والسيوف في الأيدي، وقبيلته إحدى القبائل المتنازعة، وكلمة منه قد تشعل الحرب لعشرات السنين، وتتفجر الدماء أنهارًا، وبكلمة أخرى منه تحقن هذه الدماء ويحل السلام والمحبة والتراحم، فهل يختار محمد ﷺ الدم والقتل والدمار أم يختار الحوار وتجنب إراقة الدماء؟

فاختار محمد ﷺ السلام وحقن الدماء، وراح يضع رداءه على الأرض، ويستدعي من كل قبيلة رجلاً، ويوضع الحجر على ردائه، ويتعاونوا جميعًا في حمله؛ فيكون لهم الشرف جميعًا وتحقن الدماء، وقد رضوا جميعًا بهذا الحل الذي حفظ دماءهم، وأزاح الغمة من طريقهم.

وبهذين الموقفين وغيرهما كثير تتجلى لنا وبوضوح تام معالم شخصية محمد ﷺ قبل البعثة، والتي يتبين منها رفضه للعنف وبغضه للظلم، وحبه لأداء الحقوق، وسعيه الدائم للسلام وحقن الدماء.

•• محمد ﷺ بعد البعثة :

دعا محمد ﷺ إلى الإسلام، واتبعه فريق من أبناء الأُسَر الشريفة والبيوت العريقة في مكة، والباقي من الأرِقّاء والضعفاء والعبيد والموالي، وبعد فترة قليلة من جهره بدعوته إذا بأهل مكة يسومونه ومن معه سوء العذاب، فكم شهدت صحراء مكة المستعرة بلهيب الشمس أجسادًا عارية ألقيت فيها وفوقها الصخور الثقيلة الشديدة، وكم مات منهم تحت التعذيب وفقد الكثير منهم بصره، وجُرح من جرح، وفُتن عن دينه من فُتن، وكان يمر عليهم محمد ﷺ وهم يعذبون ويقول لبعضهم: «صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة»[1].

والآن نسأل: ألم يكن لدى محمد ﷺ اختيار آخر إلا الصبر والتحمل؟

ألم يمكنه أن يأمر من اتبعه بالقيام بحرب أهلية على من عذبوهم وفتنوهم؟ ألم يكن لديه القدرة أن يجعل الدم يجري أنهارًا في معركة يكون الجميع خاسراً فيها؟!

ألم يكن لديه القدرة أن يجعل الابن يقاتل أباه، والأخ يقاتل أخاه، وهم أصحاب حق؛ فقد أُوذوا وضُربوا وعُذِّبوا بلا ذنب جنَوه ولا جريمة فعلوها؟

لقد كان لديه هذا الاختيار بالطبع، ولكنه لم يفعل ذلك، بل تسلّح بالصبر وحسن الخلق والتحبب إلى الناس حتى لو آذوه.

وأمر أتباعه بذلك وجاءت الآيات في القرآن مؤكدة على هذه المعاني: فيقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (النساء: ٧٧)، فالأمر القرآني وتعليمات محمد ﷺ لأتباعه هي كفّ اليد، ومنعها من الرد بالمثل على أي إساءة يتعرضون لها.

وما أشقّ هذا الأمر على نفس العربي بخاصة الذي لا يرضى أن يُهان ولا ينتصر لنفسه، ولكنهم امتثلوا لأمره ﷺ، وكفوا أيديهم ومنعوها من أن تمتد إلى غيرهم إلا بالإحسان والصبر والصفح.

ونزل القرآن أثناء ذلك آمرًا بالجهاد، ولكنه جهاد بالكلمة أي بالصدع بكلمة الحق وتبيانه للناس وتبيين أنهم يعبدون حجرًا لا يضر ولا ينفع؛ فقال عز وجل: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٢)، ، قال عبد الله بن عباس: «جاهدهم به أي: بالقرآن»[2].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/١٤٠).

(٢) انظر: القرطبي عند تفسير الآية.

واختار محمد ﷺ حلاً لأصحابه وهو الهجرة من تلك الديار تاركًا أرضه ووطنه وماضيه وحاضره ومستقبله؛ حقنًا للدماء عندما استحال بقاء الدينين في مكان واحد.

وكان لا بد من الصدام؛ فقد خططوا لقتله والفتك بأصحابه، فاختار الهجرة على ما فيها من ألم ومعاناة ولكنهما لا يقارنان بالألم والمعاناة في سفك الدماء، وتقطيع أواصر العلاقات بين الناس، فاختار الهجرة لأصحابه أولاً إلى الحبشة، ثم اختار الهجرة لنفسه ولبقية أصحابه إلى يثرب التي عُرفت فيما بعد بالمدينة المنورة.

•• أفشوا السلام:

كان أول ما واجهه في يثرب الخلاف القبلي المستحكم بين أهل يثرب المكونين من قبيلتين هما الأوس والخزرج، وكانت بينهما حروب طويلة آخرها حرب بعاث التي امتدت إلى أكثر من أربعين عامًا متتالية، وراح ضحيتها الكثير من أبناء القبيلتين.

فعمل أولاً على الصلح بين القبيلتين، وإزالة الخلاف بينهما، وحال دومًا دون الرجوع إلى القتال، حتى إنه كان يخمده إذا ما حاول أحد أن يثيره من جديد.

فكان سعيه الدائم ﷺ إلى نزع فتيل الأزمات وحقن الدماء والصلح بين القبائل، فهو لم يبعث للحرب وبالحرب بل بعث بالسلم والأمن والطمأنينة، وهذا ما قاله في أول يوم وطئت فيه أقدامه يثرب، فيقول عبد الله بن سلام ﷺ وكان حبرًا من أحبار اليهود قبل أن يسلم: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «يا أيها الناس!، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[1]، فالسلام والأمان غاية ومطلب محمد ﷺ، وغاية وهدف هذا الدين.

ومن ثم فعندما وصل محمد ﷺ إلى المدينة سعى إلى عقد الصلح بالأمان لأهلها ولجميع قاطنيها؛ سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم من اليهود أو عَبَدة الأوثان، فعقد معاهدات أولاً بين المسلمين أنفسهم حتى لا يثور خلاف بين المهاجرين والأنصار، أو بين الأنصار أنفسهم متمثلين في قبيلتي الأوس والخزرج، وعرف ذلك العقد بصحيفة المدينة وفيما يلي نص بعض بنودها ملخصًا:

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤).

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

١- «أنهم أمة واحدة من دون الناس» يعني: أنهم جميعًا أمة واحدة، وتعني: أن يعطي المسلم الولاء الكامل للدولة الإسلامية.

٢- «المهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدُون عَانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين»، أي: أن المهاجرين يتحملون الدية وحدهم إذا كان القاتل مهاجريًّا، ولا إلزام على الأنصار والعكس.

٣- «وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل»، أي: يساعد بعضهم بعضًا إذا كان أحدهم ذا حاجة.

٤- «وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم[1] أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين»، أي أنهم لا ينصرون الظالم حتى لو كان منهم بل يكونوا عليه وليسوا معه فالإسلام ضد الظلم بأشكاله كافة.

٥- «وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم»، أي: أن يتعاونوا ضد الظالم حتى لو كان ابنًا لأحدهم.

٦- «وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم»، أي: أن أي اتفاق يتفق عليه واحد من المسلمين فلا بد أن يتم، فإن عاهد أحدهم رجلاً وأمَّنه على نفسه أو ماله فلا يمكن لمسلم أن يصيبه بسوء، حتى لو كان المسلم المعاهد أدنى رجل من المسلمين فلا يرد عهده.

٧- «وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم» أي: أنه ﷺ يشترط عليهم أن يعقد عهودًا مع اليهود، وأن من سيدخل معه في العهد سيكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ويشترط ﷺ عليهم ألا يُظلم اليهودي المعاهد في ديار الإسلام.

٨ - «وأن سلم المؤمنين واحد: لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم».

---

(١) أي: طلب دفعا على سبيل الظلم.

٩ - «وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول»، أي: إذا قتل مسلم مسلمًا، فيحكم عليه بالقتل جزاء بما فعل إلا أن يتنازل ولي المقتول ويقبل الدية.

١٠- «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله- عز وجل - وإلى محمد ﷺ»[1] أي: أن الجهة التي يجري التقاضي إليها عند النزاع في هذه البنود، والتي يجب عليهم طاعتها هي حكم الله وحكم رسوله ﷺ.

ثم بعدها عقد معاهدة مع اليهود الذين يسكنون المدينة مع المسلمين، وهي تقوم على أساس مبدأ المواطنة، وهي بمعنى: أنهم جميعًا أبناء لوطن واحد مشترك ينبغي عليهم جميعًا الدفاع عنه إذا تعرض لهجوم من خارجه، وأن يكونوا يدًا واحدة على عدوهم، يسالم من يسالمون، ويحارب من يحاربون. ونلاحظ تشابهًا كبيرًا بين بنودها وبنود المعاهدة السابقة أي: أن محمدًا ﷺ لم يفرق بينهما إلا في جريان حكم الإسلام على المسلمين فقط، ولم يظلمهم في شيء، **وهذه بعض بنودها**:

١- إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بني عوف من اليهود.

٢- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤- وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

٥- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٦- وإن النصر للمظلوم.

٧- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٨- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٩- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده؛ فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

١٠- وإنه لا تُجَار قريش ولا من نصرها.

---

(١) ابن هشام: ١/٥٠١

١١- وإن بينهم النصر على من دَهَم يثرب، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم.

١٢- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[١].

ثم عقد بعد ذلك كثيرًا من المعاهدات مع القبائل، ونذكر منها على سبيل المثال:

- معاهدة حلف مع عمرو بن مخشي الضمري، وكان سيد بني ضمرة في زمانه، وهذا نص المعاهدة: «هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه».

- ومعاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة ذو العشيرة.

- ومعاهدة مع قبيلة جهينة، وهم يسكنون منطقة العيص على ساحل البحر الأحمر وكان نص المعاهدة ما يلي:

«أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وأن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل، ولأهل باديتهم من بر منهم واتقى ما لحاضرهم»، أي: أن هذه المعاهدة شاملة لأهل البادية وأهل الحواضر منهم.

فمن هذه المعاهدات الكثيرة يتبين لنا مدى ما كان من سعي محمد ﷺ إلى إقرار السلام فيما حوله من القبائل والجيران وغيرها.

بل إن هناك جانبًا آخر يحق لنا أن نذكره، وهو أنه كان إذا خُيِّر بين الحرب وبين السلام والموادعة اختار السلام.

بل كان يبحث عن السلام دومًا، ففي غزوة الأحزاب جاءت قريش ومعها قبيلة غطفان وغيرها، وهاجموا المدينة بأكثر من عشرة آلاف مقاتل، وهم أكثر عددًا من سكان المدينة برجالهم ونسائهم، فأراد محمد ﷺ أن يتجنب الحرب وإراقة الدماء، يقول المؤرخون ورواة الحديث: إن محمدًا ﷺ أراد أن يصالح عيينة بن حصن، والحارث بن عوف- وهما رئيسا غطفان- على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما، وجرت المفاوضة على ذلك، واستشار رسول الله ﷺ السعدين - ويقصد بهما: سعد بن معاذ وسعد بن

---

(١) ابن كثير: ٢/٣٢٣.

عبادة وهما سيدا أهل المدينة - فقالا: إن كان الله أمرك فسمعًا وطاعة. وإن كان شيئًا تصنعه لنا فلا، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك، وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة، إلا قِرًى - أي: للضيف - أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟ فقال محمد ﷺ: «إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»[1].

•• الصلح:

في العام السادس للهجرة اشتاق المسلمون إلى بيت الله الحرام، وأحبوا أن يطوفوا ويعتمروا، ولهم الحق في ذلك كأي عربي داخل مكة وخارجها؛ بحسب قوانين ذلك الزمان، ولو كانت للقرشيين فقط فمحمد ﷺ ومعه مجموعة كبيرة هم من القرشيين والأمر لا يحتاج إلى استئذان من أهل مكة للقدوم للاعتمار أو الحج؛ لأنه لم يتوقف منذ عهد إبراهيم عليه السلام.

فتجهز محمد ﷺ للذهاب إلى مكة للاعتمار وتجهز معه المسلمون، وكانوا قريبين من ألف وأربعمائة مسلم، ولم يحملوا معهم سلاحًا؛ لأنهم لم يخرجوا لقتال، ولكنهم فوجئوا بأن أهل مكة يتجهزون للقتال ولمنعهم من الاعتمار والدخول إلى مكة، وتحيَّر المسلمون لهذا الموقف؛ لأنه ما حدث مثله لعربي قط من قبل ذلك أن يمنع من دخول مكة والطواف بالبيت الحرام.

واختار محمد ﷺ طريقًا آخر لا تعترضهم فيه جيوش أهل مكة، وليتفادى الاشتباك والحرب، فسلك طريقًا وعرة عبر منطقة تسمى «ثنية المرار - مهبط الحديبية»، وهنا توقف محمد ﷺ خارج مكة، فهو لا يريد القتال، ولم يأت مريدًا له، وقال لأصحابه: «والذي نفسي بيده لا يسألونني - يعني قريشًا - خُطة يُعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، وفي رواية أخرى للحديث: «والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»[2].

ورغم عدوان قريش وكبريائهم فقد ظل محمد ﷺ حاقنًا لدمائهم، وقال: «يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير(٥٤٠٩).

(٢) أخرجه أحمد(١٨٤٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٤).

ففكر أن يرسل إليهم مبعوثاً من المسلمين ليوضح لهم حقيقة الأمر؛ فاقترح أن يرسل إليهم عمر بن الخطاب ﷺ ،فرأى عمر ﷺ أن الأنسب لهذه المهمة عثمان بن عفان ﷺ لقوة مكانته لدى أهل مكة فوافق رسول الله ﷺ، وتأخر عثمان عندهم ومنعوه من العودة، وسرت شائعة أن قريشًا قتلت عثمان ﷺ، وقتلُ الرُسُل في عُرف العرب هو إعلان لحالة الحرب، وتأهب أصحاب محمد ﷺ للمواجهة.

وأرسلت إليهم قريش رسلاً يهددونهم ويخوفونهم، وعرضوا معاهدةً شروطُها مجحفة للمسلمين، ولكن كان فيها حقن للدماء، فقبل بها محمد ﷺ برغم الإجحاف الذي فيها، ويهمنا ها هنا التعرض السريع لبعض بنود تلك المعاهدة التي وافق عليها محمد ﷺ؛ لكونها تدعو إلى السلام برغم ما بها من شروط مجحفة للمسلمين:

فأول شروطها: رجوع محمد ﷺ وأصحابه من عامهم ذلك وعدم دخول مكة، وإذا كان العام القادم دخلها المسلمون بغير سلاح إلا ما يكون للراكب.

وثاني الشروط: وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس.

وثالثها: من أتى محمداً ﷺ من قريش فعليه أن يرفضه ويرده إليهم، ومن أتى إلى قريش من عند محمد ﷺ ليس عليهم أن يردّوه إليه.

فإذا نظرنا إلى تلك الشروط وجدنا معظمها في ظاهرها في صالح قريش، فالشرط الأول يحرم المسلمين من دخول مكة، وهم على بعد أميال قليلة منها، وكم كان هذا شاقًا بالنسبة للمسلمين، والشرط الثاني وضع الحرب عشر سنوات، وهذا في مصلحة قريش التي ضعفت قوتها بعد حربها لمحمد ﷺ وإسلام أبنائها وانضمامهم إلى محمد ﷺ، والهدنة الآن في مصلحة قريش كي تستعيد توازنها وتسترد قوتها، والشرط الثالث فيه إجحاف شديد؛ لأنه يُلزِم المسلمين بإعادة من جاء إليهم مسلمًا من أهل مكة،ولا يُلزِم أهل مكة بالشرط نفسه.

كل الظروف والشروط كانت تدفع بمحمد ﷺ إلى رفض هذه المعاهدة لشروطها المجحفة، واشتد الأمر على المسلمين؛ إذ يرون محمداً ﷺ يميل إلى قبول هذا الصلح، ويوشك أن يوقع هذا العهد، وزاد الأمر شدة لحظة مجيء رجل مسلم جاء هاربًا من أهل مكة بعدما عذبوه وحبسوه، وكان هذا الرجل ابنًا لسهيل بن عمرو الذي جاء للمفاوضة، ورغم أن محمداً ﷺ لم يوقع المعاهدة إلى الآن، إلا أن سهيلاً قد اشترط أن يكون ابنه ابو جندل أول تنفيذ للمعاهدة بأن يسلمه محمد إليه.

ماذا يفعل محمد ﷺ؟ إنَّ سُحُبَ الحرب تلوح في الأفق، ورائحة الدم تقترب من الأنوف، ولكن محمدًا ﷺ قَبِلَ المعاهدة ووافق على الشروط حقنًا للدم، ولما كان فيها من مسالمة وأمان للناس جميعًا، ولما فيها من نبذ الحرب وحسن الجوار، وجلس مع سهيل بن عمرو لتتم كتابة بنود المعاهدة، ويوقعا عليها، ويشتد الاستفزاز على مشاعر المسلمين حين يأبى سهيل بن عمرو كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، فيقول: اكتب باسمك اللهم، ويرفض كتابة: هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله، فيقول له: لو أعلم أنك رسول الله ما قاتلتك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فيوافق محمد ﷺ على كل البنود، وعلى شروط الصلح الشكلية والموضوعية، بل ويرد الصحابي أبا جندل ﷺ كما طلب سهيل بن عمرو.

إن هذا الموقف الشديد الذي تعرض له محمد ﷺ وهو يوافق على هذا الصلح ؛ ليدل على أبعاد في شخصيته التي كانت ترفض الحرب وتحب السلام، ولو دفعت ثمنه غاليًا.

•• التعامل مع الأقليات في المجتمع الإسلامي :

عاش محمد ﷺ السنوات العشر الأخيرة في حياته قائدًا لدولة شابة فتية صاعدة، فكيف كان حال الأقليات معه في دولته؟

•• كرامة الإنسان :

الناظر إلى الرسالة المحمدية يجدها قد حفظت كرامة الإنسان، ورفعت قدره، فالناس كلهم بنو آدم: سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، وقد كرم الله بني آدم جميعًا؛ فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(الإسراء: ٧٠) ، فالجميع لهم الحقوق الإنسانية بوصفهم بشراً أمام ربهم، وإنما يتميز الناس عند ربهم بمدى تقواهم وإيمانهم وحسن أخلاقهم، وكم كان حرص محمد ﷺ على إبراز هذا المعنى الإنساني واضحًا في تعاملاته وسلوكياته مع غير المسلمين.

ففي الحديث الثابت قول محمد ﷺ: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا حتى تُخَلِّفكم»،

فمرت به يومًا جنازة، فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: « أليست نفسًا؟! »[1].

وكان محمد ﷺ ربما عاد المرضى من غير المسلمين؛ فقد زار النبي ﷺ عمه أبا طالب وهو في مرضه، كما عاد الغلام اليهودي الذى كان يخدمه لما مرض[2].

وحرص على القيام بحقوقهم في الجوار فقال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»[3]، فشمل حديثه كل جار حتى لو كان من غير المسلمين.

ولم يأت محمد ﷺ ليسلب الحرية من الذين لم يتبعوه، بل قد تعامل معهم بتسامح نادر الحدوث، يقول الفيلسوف الألماني «جوته»: «ولا شك أن التسامح الأكبر أمام اعتداء أصحاب الديانات الأخرى، وأمام إرهاصات وتخريفات غير الدينيين، التسامح بمعناه الإلهي، غرسه رسول الإسلام في نفوس المسلمين، فقد كان محمد المتسامح الأكبر، ولم يتخذ رسول الإسلام موقفًا صعبًا ضد كل الذين كانوا يعتدون عليه بالسب أو بمد الأيدي، أو بعرقلة الطريق وما شابه ذلك، فقد كان متسامحاً؛ فتبعه أصحابه وتبعه المسلمون، وكانت وما زالت صفة التسامح هي إحدى المميزات، والسمات الراقية للدين الإسلامي، وللحق أقول: إن تسامح المسلم ليس من ضعف؛ ولكن المسلم يتسامح مع اعتزازه بدينه، وتمسكه بعقيدته»[4].

ويقول الكاتب والقس الألماني « ميشون »: « لقد أعفى محمد البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحرم قتل الرهبان - على الخصوص- لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، وقد تلقى الأوروبيون عن المسلمين روح التعامل وفضائل حسن المعاملة »[5].

وقد قدم أصحاب محمد ﷺ أرقى النماذج التي تعلموها منه في معاملة الآخر، فتروي لنا كتب التاريخ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - الخليفة الثاني بعد محمد ﷺ - أتاه

(١) أخرجه البخاري (١٣١٣)، ومسلم (٩٦١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٦٢٠)

(٤) أخلاق المسلمين وعاداتهم، جوته، ترجمة :عثمان محمد عثمان ص٢٠

(٥) كتاب : سياحة دينية في الشرق، ميشون، ص٣١.

رجل قبطي من أهل مصر يشتكي أن ابنًا لعمرو بن العاص ؓ قد اعتدى عليه ، وكان عمرو ؓ وقتها واليًا على مصر.

فاستدعى عمر بن الخطاب ؓ عمروً وابنه والقبطي ، وطلب من القبطي أن يقتص من ابن عمرو ، ثم قال كلمته المشهورة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، ثم قال للقبطي: انصرف راشدا ، فإذا رابك ريب فاكتب لي.

•• لا إكراه في الدين :

رغم أن محمدًا وأصحابه يعتقدون يقينـاً أن الحق في اتباع الإسلام؛ فهو المتمّم لرسالات الرسل من قبل، إلا أنهم لم يحاولوا إطلاقاً إجبار أحد على الدخول في الإسلام رغمًا عنه، وقد أبان القرآن جليًا عن ذلك المعنى بقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾(البقرة: ٢٥٦).

فلا إرغام لأحد على الدخول في الإسلام حتى لو كان المُرغِم أبًا يريد الخير لأبنائه، ولو كان المُرغَمُ ابنًا لا يشك في شفقة أبيه عليه. وحتى رسول الله ﷺ نفسه نهى عن إكراه الناس للدخول في هذا الدين، فقال عز وجل: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾(يونس: ٩٩) .

يقول القس الباحث «كونستانس جيورجيو» عن أوضاع أصحاب الديانات السماوية في ظل الحكم الإسلامي: «مع أن الإسلام عمَّ الجزيرة كلها في السنة التاسعة؛ فإن محمدًا ﷺ لم يُكره اليهود ولا النصارى على قبول دينه؛ لأنهم أهل الكتاب. وقد جاء في رسالة محمد إلى أبي الحارث أسقف نجران أن وضع المسيحيين في الجزيرة بعد الإسلام تحسَّن كثيرًا، يقول في الرسالة : «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي، إلى الأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران، وكهنتهم، ومن تبعهم، ورهبانهم: إن لهم ما تحت أيديهم، من قليل أو كثير من بِيَعهم وصلواتهم، ورهبانيتهم، وجوار الله ورسوله، لا يُغيّر أُسقف من أُسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته. ولا يُغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه، ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم، غير مثقَلين بظلم ولا ظالمين»[1].

يقول جيورجيو: «تشير هذه الرسالة إلى أن المسيحيين كانوا أحرارًا في أداء

---

(١) الوثائق السياسية، محمد حميد الله، ص ١٧٩. والخبر في دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٩١)

شعائرهم، ولم يزاحمهم من المسلمين أحد. وقد قدم في السنة التاسعة وفد من نصارى نجران يرأسهم أبو الحارث الأسقف الأكبر، وعبد المسيح الأسقف، والأيهم رئيس القافلة، وحين أرادوا الدخول على النبي ارتدوا ألبستهم الدينية الرسمية الكاملة، .. ولا شك أن النبي كان يحترم النصارى احترامًا خاصًا؛ لأن القرآن ذكرهم وأكرمهم»[1].

ولم يكتفِ الإسلام بمنح الحرية لغير المسلمين في البقاء على دينهم، بل أباح لهم ممارسة شعائرهم، وحافظ على أماكن عباداتهم، فقد كان ينهى محمد ﷺ أصحابه عن التعرض لأصحاب الصوامع، ولم يتعرض يومًا لدار عبادة لغير المسلمين، وقد فقه هذا المعنى جيدًا أصحابه وخلفاؤه من بعده؛ لذلك كانوا يوصون قادتهم العسكريين بعدم التعرض لدور العبادة، لا بالهدم ولا بالاستيلاء. جاء في عهد عمر ﷺ الذي يسمى في التاريخ بالوثيقة العُمَرِيّة إلى أهل إيليا (القدس): هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهلَ إيليا من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، ولا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود[2].

ولننظر إلى هذه الفقرة الأخيرة أنه لا يسكن معهم أحد من اليهود، فقد كانت بناء على طلب خاص من أهل إيلياء.

كما سمح لهم بإقامة حياتهم الاجتماعية وفق مفاهيمهم الخاصة، كالزواج والطلاق ونحوه.

يقول المؤرخ القس جيمس متشنر: «وقد قطع الرهبان بأن أهل الكتاب كانوا يُعاملون معاملة طيبة، وكانوا أحرارًا في عبادتهم، ولعل مما يقطع بصحة ذلك الكتاب الذي أرسله البطريرك النسطوري إيشوياب الثالث إلى البطريرك سمعان، زميله في المجمع، بعد الفتح الإسلامي، وجاء فيه: «ها! إن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا عندنا، ومع ذلك نراهم لا يعرضون للنصرانية بسوء، فهم

---

(1) نظرة جديدة في سيرة الرسول، كونستاس جيورجيو، ص٢٧٢.

(2) تاريخ الطبري: ٣ / ٦٠٩.

يساعدوننا، ولا يمنعوننا من الاحتفاظ بمعتقداتنا، وإنهم ليُجِلُّون الرهبان والقديسين!»[1].

•• قيم العدل مع الآخر:

أمر محمد ﷺ بالعدل بين الناس جميعًا مسلمهم وغير المسلم منهم، جاء في القرآن قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾(النساء: ٥٨).

وتلقى محمد ﷺ الآيات فقام بها أتم قيام، فالأمر كان بالعدل بين الناس جميعًا دون النظر إلى ذواتهم أو أجناسهم أو دينهم أو حسبهم: فالكل سواسية حتى لو كان صاحب الحق ظالمًا للمسلمين، فلا بد من إعطائه حقه.

جاء في آية أخرى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(المائدة: ٨).

وأمر القرآن محمدًا ﷺ أن يحكم بالعدل إن جاءه أهل الكتب يُحَكِّمونه بينهم ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾(المائدة: ٤٢).

واتُّهم اليهودي زيد بن السمين ظلمًا بأنه قد سرق، والحق أنه كان بريئًا من تلك التهمة؛ وكان السارق طعمه بن أبيرق الأنصاري، فأنزل الله قرآنًا في براءة اليهودي: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٠٥-١١٢)، قال الطبري المفسِّر: معنى الآيات: ولا تكن لمن خان مسلمًا أو معاهدًا في نفسه أو ماله «خصيمًا» تخاصم عنه، وتدفع عنه من طالبه بحقه الذي خانه فيه، «واستغفر الله» يا محمد! وسَلْه أن يصفح لك عن عقوبة ذنبك في مخاصمتك عن الخائن من خان مالاً لغيره. وأوضح الطبري أنها رُمِيَ بها يهودي بريء فأنزلت[2].

وفي أكثر من ثلاثين حديثًا يشدِّد محمد ﷺ على أصحابه على حق المعاهد، وهو من ارتبط مع المسلمين بمعاهدة، فمنها: قوله: «من قتل نفسًا معاهدًا لم يرح رائحة الجنة،

---

(١) خصائص الدعوة، محمد أمين حسن، ص١٦٦.

(٢) الطبري في تفسيره للآيات.

وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»[1].

ومنها: قوله: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ له شيئًا بغير حقه، فأنا حجيجه يوم القيامة»، وقال ﷺ: «ومن قتل رجلاً له ذمة الله ورسوله حرم الله عليه الجنة»[2].

وقال: «من قتل معاهدًا في غير كنهه، حرم الله عليه الجنة»[3].

وروى تلك الأحاديث كثيرون من أصحاب محمد ﷺ عنه بأنهم سمعوها منه؛ مما دل على عظم وصايته بأهل الذمة والعهد في المجتمع المسلم.

وقد نهى محمد ﷺ عن تعذيب أي نفس ولم يشترط فيها الإسلام؛ فقال: «إن الله عز وجل يُعذِّب الذين يعذبون الناس في الدنيا»[4].

لا شك أن قضية العقيدة - كما جاء بها هذا الدين - هي قضية تعتمد على الاقتناع والإدراك بعد البيان والفهم والتدبر، وليست قضية إكراه أو إجبار، وما سمعنا منذ أن بعث محمد ﷺ بحادثة واحدة ألجئ فيها إنسان غير مسلم بالقوة والإجبار ليصير مسلمًا، وهذا بذاته دليل قوي على أكبر قدر من حرية الاعتقاد، تلك التي يعطيها الإسلام للآخر.

لقد حفظ محمد ﷺ وضمن لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي أمنهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، فلا يُتعرض لها بسوء لا من المسلمين ولا من غيرهم، ما داموا في أرض الإسلام، ولما علم عمر رضي الله عنه أن رجلاً مسلمًا قتل رجلاً من أهل الذمة من أهل الحيرة أقاد منه عمر[5].

•• معاملة حسنة مع الآخر:

لقد تركت تعاليم محمد ﷺ مبدأً مهمًا هو أن الأصل في المسلم المعاملة الحسنة مع كل الخلق؛ فقد قال ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق وفي رواية (صالح) »[6]، ومكارم الأخلاق مع الجميع؛ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٤).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٨٥١١).

(٣) أخرجه النسائي (٤٧٤٧)، وأبو داود (٢٧٦٠)، وأحمد (١٩٨٦٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦١٣).

(٥) مصنف عبد الرزاق: ١٨٥/١٥.

(٦) أخرجه أحمد (٨٧٢٩).

إن التعايش والتفاهم والتعاون بين الأمم والخلق أمر تحتاجه الإنسانية حاجة ماسة، وقد أمر محمد ﷺ في رسالته بالرحمة في كل جوانبها، وحسن التعامل بشتى وجوهه، يقول الله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨) وفسر علماء الإسلام البرّ هنا في الآية بقولهم: «هو الرفق بضعيفهم، وسد خَلَّة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم - على سبيل التلطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة -، واحتمال أذيتهم في الجوار - مع القدرة على إزالته - لطفًا بهم لا خوفًا ولا طمعًا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يُجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم، في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم...»[١].

وتتأكد المعاملة الحسنة مع الأقارب منهم، وتصل إلى الوجوب مع الوالدين؛ فتذكر أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله! إن أمي قدمت وهي راغبة أفأَصِلُها؟ قال: «نعم صِلِي أمك»[٢].

ولما قدم وفد نجران - وهم من النصارى - على محمد ﷺ بالمدينة، دخلوا عليه مسجده بعد العصر، فكانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم فقال محمد ﷺ: «دعوهم»، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم. وقال ابن القيم عالم الإسلام الشهير: في هذه الحادثة جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين، ثم قال: وتمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم أيضًا إذا كان ذلك بصورة عارضة[٣].

وتقول عائشة زوجته: توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير[٤]، وذلك في نفقة عياله ﷺ.

وتحكي أيضًا أن رهطًا من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليكم

(١) الفروق، القرافي، ٣/١٥.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

(٣) زاد المعاد: ٣/ ٥٣٨.

(٤) أخرجه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣).

أي: الموت!، فردَّ عليهم: وعليكم؛ قالت عائشة - رضي الله عنها -: ففَهِمتُها، فقلتُ: وعليكم السام واللعنة، فقال ﷺ: «مهلاً يا عائشة! إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقلت: يا رسول الله! أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: قد قلت: وعليكم»[1].

وقد أمر محمد ﷺ المسلمين بحسن رعاية أهل الذمة الذين يعيشون في أكنافهم، فمن احتاج منهم إلى النفقة تكفلوا به، فالدولة مسؤولة عن الفقراء من المسلمين وأهل الذمة، فتتكفل بالمعيشة الملائمة لهم ولمن يعولونه؛ لأنهم رعية للدولة المسلمة، وهي مسؤولة عن كل رعاياها، وقد قال محمد ﷺ: «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته»[2].

وحينما مر الخليفة الثاني عمر وهو في الشام على قوم من النصارى مجذومين أمر أن يُعْطَوْا من الصدقات، وأن يُجرَى عليهم القوت عند العجز والشيخوخة والفقر.

•• حرية العمل والكسب:

وضع محمد ﷺ مواثيقه أن لغير المسلمين حرية العمل والكسب في بلاد المسلمين، سواء كان ذلك بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحساب أنفسهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، ويستوي حالهم في ذلك مع المسلمين سواء بسواء، ولهم الحق في البيع والشراء وسائر العقود، ولهم الحق فيها وفي كل المعاملات المالية ما اجتنبوا الربا.

وفيما عدا الربا، وبيعهم وشرائهم الخمور والخنزير، وما يضر المجتمع مما نهى الإسلام عنه؛ فلهم الحق فيما تعاملوا به. وإنما نهى عن تعاملهم فيما سبق؛ للضرر الحاصل منه سواء كان عليهم، أو على مجتمعهم.

كما يتمتعون بسائر الحريات في التملّك وممارسة الصناعات والحِرَف وغيرها.

•• محمد ﷺ ومبدأ الحوار:

آمن محمد ﷺ إيمانًا راسخًا أن الميدان ميدان صراع أفكار بالدرجة الأولى، وأنه جاء بالخير للناس جميعًا، ويعلم أنه إذا فرض الخير على الناس فرضًا؛ ربما لا يتقبلونه، كما علم أن العقيدة لا تُفْرَض بالقوة، فالاعتقاد عمل قلبي، واقتناع ذهني عقلي، وقبول

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٥)، ومسلم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

قلبي نفسي، وهذا ما أراده، ولو أراد طريقًا غيره لاختصر المسافات ولوصل إلى هذا الهدف بأقصر الطرق وأيسرها.

المؤرخون كثيرًا ما يتناقلون جملة تقول: الناس على دين ملوكهم، يقصدون منها أن الملوك إنما يفرضون دينهم وطريقتهم على الناس أجمعين، ويؤكدون أن هذا ما حصل منذ بداية البشرية، فالقوي يفرض آراءه، والغني يتحكم في الناس، وربما يتبعه الناس لغناه ولإنفاقه عليهم، وقد عُرض على محمد ﷺ كل هذا من الغنى والقوة، بل والملك فرفض رفضًا صريحًا، يحكي صاحبه جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - فيقول: (أرسلت قريش عتبة بن ربيعة - وهو رجل رزين هادئ - فذهب إلى رسول الله ﷺ يقول: يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل بعضها. إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت تريد شرفًا سوّدناك علينا فلا نقطع أمرًا دونك. وإن كنت تريد مُلكًا ملّكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ. فلما فرغ من قوله تلا رسول الله ﷺ عليه صدر سورة فصلت :

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (فصلت: ١ - ٧)[1].

لقد رفض محمد ﷺ إذن هذا العرض السخي المطلق بالغنى والملك، ولو أراد محمد ﷺ الملك لناله، وصار ملكًا على قريش، وساق الناس بسلطانه نحو الإسلام، ولم يكن أحد بعدها يستطيع الامتناع، وكان ذلك أيسر لدعوته وأقرب للوصول إلى أكبر عدد من الناس في أقل وقت؛ حيث إن قريشًا كانت زعيمة العرب الدينية، فلو كان ملكها نبيًّا مسلمًا لهان الأمر، ولدخل أهل الجزيرة كلهم في الإسلام.

ولو أراد المال لصار أغناهم ويستطيع بماله أن يستميل القلوب؛ فتذعن إليه طمعًا

---

(١) أخرجه ابن إسحاق(١٩٧/١) .

فيما عنده، ولكنه ﷺ يعلم يقينًا أن العقائد لا تُفرَض بالسلطان، ولا تُشترى بالمال، فلا الخوف يُنبت عقيدة في القلب، ولا الطمع يبقيها؛ ولهذا كان يتمسك دائمًا بالحوار مع غير المسلمين؛ لأنه يعلم أنه لا سبيل سواه يوصله إلى القلوب والعقول.

وقد انتهج هذا النهج في دعوته إلى الإسلام، وما حاد عنه أبدًا، فيحكي عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - عن رجل من أهل اليمن اسمه ضماد الأزدي قدم إلى مكة.. فيقول: «إن ضمادًا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه. فقال: يا محمد! إني أرقي من هذه الريح. وإن الله يشفي على يدي من يشاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد». قال: فقال: أَعِدْ عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلمات هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر، قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه»[1].

وكما حدَّد له القرآن الغاية من بعثته، فقد حدد له الوسيلة التي ينتهجها مع مدعويه أيضًا بكل وضوح؛ فقال له: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(النحل: ١٢٥)، فهي دعوة إذن فيها ثلاث وسائل للدعوة إلى الإسلام: الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

•• الإصلاح رسالة محمد ﷺ في السلم:

استغل محمد ﷺ كل لحظة تمر عليه في الإصلاح بمعناه الشامل لكل معالم الحياة من حوله؛ لأنه كان يرى أن هناك أمورًا كثيرة تحتاج إلى سنين عديدة لإصلاح ما خلفته المناهج البعيدة عن الربانية، والتي جعلت من الإنسان مجرد آلة في ترس وفرغت كل مضمونه وجعلته لا هدف له ولا قيمة؛ فنسي ربه ونسي نفسه ونسي غايته، وأهمل فيما

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٨).

كلفه الله به من عبادته وتعمير أرضه.

فالإصلاح في الأرض غاية بعث الأنبياء ووظيفتهم الأولى، ويبتغون في ذلك مرضاة الله تعالى الذي أمرهم بالإحسان ونهاهم عن الإساءة، وقد قال الله عز وجل على لسان نبيه شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨).

ولنا أن ندرك حقيقة مهمة هي أن محمداً ﷺ لم يتمكن بشكل كامل من تطبيق منهجه الإصلاحي إلا بعد هجرته وإقامة دولته، أي: أن منهجه لم يطبقه إلا عشر سنوات فقط تخللها كثير من الوقفات الاستثنائية لظروف خارجة عنه، وهي فترات الحروب، فكان لزامًا عليه أن يسرع الخطى لتحقيق الإنجاز الضخم في هذه الفترة الوجيزة من عمر الزمان وأعمار الأمم.

فما تلوثت به البشرية آلافًا من السنين يصبح تغييره في عشر سنوات ضربًا من الخيال، ولكن الدارسين لسيرة محمد ﷺ وأمته يعلمون أنه قد أحدث تغييرًا هائلاً في تلك السنين العشر التي أصلح فيها.

إنه مما يبعث في النفس تعجبًا شديدًا كيف حدث كل هذا في تلك الفترة الوجيزة القليلة؟!

•• إصلاح الدنيا بالدين:

هناك فكرة كانت ترسخت في العقول آمادًا طويلة هي أن الدين لا ينظم إلا علاقة الناس مع الله فقط، وكان قائلهم يقول إما صراحة أو بالمعنى: «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، هذه الفكرة المتجمدة التي تحجر بها وحولها الفكر الإنساني كانت وبالاً على الناس: لأن الدين لا تكون له فائدة تُذكر في الحياة إن جاء لينظم فقط العلاقة مع الله وحده، وعندها يصير الكون غابة كبيرة لا يحكمها قانون ولا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا، وعندها تصبح القيم والشرائع كلها مرتبطة بمراد الحكام وأهوائهم: فما استحسنوه هو الحق، وما أبغضوه هو الباطل.

فكان الضمير الحاكم إذن على معيار القيم هو إرادة الحاكم فقط: فجاء محمد ﷺ ليغير هذا التدني القيمي، ويعيد الأمر إلى نصابه الصحيح، وهو أننا لا نصلح بوصفنا بشراً أن تكون إرادتنا ضميرًا حاكمًا على معيار القيم، فمهما ارتفع شأن الإنسان فهو بشر، ومن ثم فهناك ضرورة هامة جدًا في أن يرد المعيار

القيمي لخالق البشر فهو الذي خلقهم وهو الذي يعلم ما يصلحهم وما يصلح لهم، وقد جاءت آيات القرآن وفيها يقول الله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤).

ولهذا ظل القرآن من أول يوم نزل فيه إلى آخر يوم وهو يؤكد على هذا المعنى وهذا المفهوم، وظل محمد ﷺ منذ أول يوم ينادي فيه بدعوة الإسلام يذكر الناس بهذا؛ يذكِّرهم بوحدانية الله ويذكِّرهم أن الله هو الخالق والرازق والمحيي والمميت والنافع والضار، ثم يقول لهم حين يسلمون، ويقرون لله وحده سبحانه بالخلق: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(الأعراف: ٥٤)، ويكرر عليهم: ألا له الخلق والأمر، فلا خالق سواه، ولا آمر في ملكه إلا هو.

•• الإصلاح العلمي:

جاء محمد ﷺ في أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، وهي بعيدة تمامًا عن العلم الدنيوي، وكانت البشرية كلها أثناء ذلك بعيدة عن العلم إلا بعض آثار التقدم في المملكتين فارس والروم، وبعض أهل مصر والهند والصين.

وحث القرآن على العلم: فكانت أولى آياته (اقرأ) ثم كانت سورة كاملة باسم (القلم)، ومن الآيات ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾(الزمر: ٩)، أي: أنه لا يستوي العالم مع غير العالم، فالعالم افضل كما قال سبحانه: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾(المجادلة: ١١)، ويأمر الله محمداً ﷺ أن يقول: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه: ١١٤)؛ لما في العلم من شرف فكفى به شرفاً أن يدَّعيه مَن ليس فيه، وكفى بالجهل وضاعة أن يتبرأ منه من هو مغموس فيه.

وكان محمد ﷺ يحث أصحابه على طلب العلم والزيادة منه فيقول: « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السماوات والأرض، حتى الحيتان في الماء، وفَضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ

وافر»[1]، ويقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2].

وعلّمهم أن العلم ينفع العبد حتى بعد موته فقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[3].

ويسير أصحابه على نهجه ذاته؛ فيقول ابن مسعود ﷺ لمن بعده: « اغد عالمًا أو متعلمًا، أو مستمعاً، ولاتكن الرابع فتهلك ».[4]

ولذلك حرص محمد ﷺ على تعليم أصحابه والارتقاء بهم؛ فكان في أسرى بدر مجموعة من المتعلمين للقراءة والكتابة ولا يملكون المال ليفدوا أنفسهم به، فاشترط عليهم أن يعلّموا مجموعة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة، ثم يطلقهم، فكان محمدٌ ﷺ لا يريد المال بل يريد العلم لأصحابه؛ لأنه يعلم أن العلم للأمم أنفع لها من المال، وأن ثروة أي أمة لا تقاس بالمال، بل بما تملكه من أصحاب العلم، فهم الثروة الحقيقية للأمم.

ويسّر لهم سبل التعليم، فكان مسجده أكبر ساحة للتعليم، فتعلم فيه الصحابة القراءة والكتابة وانتشر العلم، وصارت المساجد بعده تمارس دورها في العلم؛ حتى غدت منارات يشع منها العلم إلى كل العالم، واستفادت الدنيا من علوم المسلمين الذين ساروا على نهجه ﷺ في احترام قيمة العلم ورفع مكانة العلماء.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأصله في مسلم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٤)أخرجه الدارمي (٥٤).

•• محمد ﷺ في الحرب:

لقد تعدت الرسالة المحمدية بمبادئها أيام السلم إلى أيام المواجهات والحروب، والحرب في رسالة محمد ﷺ غير مطلوبة ولا مرغوبة لذاتها، إلا أنها في بعض الأحيان قد تتحتم ولا يمكن الفرار منها ولا اجتنابها، فحينما يهاجمك جيش ويريد استئصالك؛ فماذا يكون العمل إلا أن تدافع عن نفسك؟

وعندما يهدد دولتك جيش ويريد أن يفرض عليك مبادئه وقيمه وأفكاره بالقوة؛ فماذا أنت فاعل عندها إلا أن تدافع عن نفسك وأرضك ومالك وقيمك؟

وعندما يدنس آخرون مقدساتك وينتهكون أعراضك ويصرون على ذلك؛ فماذا أنت فاعل للدفاع عن مقدساتك وعرضك؟

وبرغم هذا الإقحام الذي كان يحدث لمحمد ﷺ وأصحابه في الحروب، إلا أنه كان يرفع لأمته مبادئه في الحرب، لتصير ميثاق شرف عالي المقام بين المحاربين أجمعين.

•• محمد ﷺ وقريش:

بعدما ضاق الخناق حول محمد ﷺ وأصحابه في مكة، وبعدما اتخذ أهل مكة كل التدابير التي تمكنهم من القضاء على محمد ﷺ ودعوته: اختار محمد ﷺ أن يهاجر تاركًا بلده ووطنه إلى بلد آخر؛ لعله ينعم بالأمن والسلام فيه، ويتمكن من تربية أصحابه على تعاليم الدين الجديد ويصهرهم جميعًا في بوتقة واحدة، فحاجة الناس إلى التربية والتغيير لا يصلح معها هذا الجو الخانق المليء بالمتاعب في مكة، وخاصة بعدما دبروا لقتله مرات عديدة، ولذلك هاجر محمد ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

ولم يتركهم أهل مكة رغم أنهم قد تركوا لهم الديار والأموال والبيوت فارين بدينهم ملتجئين إلى ربهم، فأرسل أهل مكة رسالة إلى عبد الله بن أُبي بن سلول زعيم أهل المدينة وكبيرهم، والذي كان يستعد أن يتوج ملكًا عليها قبل مجيء محمد ﷺ وأصحابه بأيام قليلة، وجاء في رسالتهم إليه أنهم ينذرونه إما أن يطرد هؤلاء المهاجرين، وإما أن تعلن قريش الحرب عليه وعلى قومه.

فيروي صاحبه عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أحد أصحابه: «إن كفار قريش

كتبوا إلى ابن أُبَي ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبَي ومن كان معه من عَبَدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبي ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لَقِيَهم فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؛ فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا»[1].

واستوعب محمد ﷺ الموقف وذكّر هؤلاء المجتمعين بأنهم سيقاتلون إخوانهم من أهل المدينة في تلك الحال نصرة لهم؛ لأن المسلم من أهل المدينة سيقاتل مع المسلم المهاجر ضد أهله وبني عمومته، وعندها مر هذا الموقف بسلام، ولكن ما يزال هذا الخطر- خطر أهل مكة - كامنًا، وظلت النار كامنة تحت الرماد تنتظر من ينفخ فيها فتشتعل مرة أخرى.

ولم يكن هذا الموقف غريبًا على أهل مكة الذين أضمروا العداوة لمحمد ﷺ وأصحابه فقد فعلوا الموقف نفسه تمامًا بأسلوب مغاير فقط عندما أرسلوا رجالاً منهم كي يؤلبوا النجاشي ملك الحبشة ليطرد مَنْ عنده من المسلمين ويسلمهم لقريش، فيقول صاحبه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحوًا من ثمانين رجلاً فيهم جعفر وعبد الله بن عرفطة وعثمان بن مظعون وأبو موسى، فأتوا النجاشي وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له: إن نفرًا من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا، قال: فأين هم؟ قالا: في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه فسلم، ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسولاً، ثم أمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة...»[2].

إذن لم يعلن محمد ﷺ الصراع معهم ولم يبدأهم بحرب، ولكنهم أعلنوا الحرب

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٨٦).

عليه وعلى جماعته الناشئة التي لم يكن لها حينها جيش ولا قوة ولا دولة، ولم يكونوا سوى مجموعة من الأفراد الذين خرجوا مطاردين من ديارهم بلا مال ولا سلاح.

وكررت قريش الأمر للمرة الثالثة حينما أرسلوا هذه المرة إلى يهود بني النظير المرتبطين بمعاهدة مع محمد ﷺ تنص على عدم الاعتداء، وعلى التعايش في المدينة بوصفهم مواطنين مثلهم مثل المسلمين تمامًا.

فأرسلت إليهم قريش تشجعهم على الغدر بالمعاهدة، وتهددهم إن استمروا عليها أن يقاتلوهم، وكان ذلك في السنة الثانية للهجرة؛ فيروي أحد صحابة محمد ﷺ «فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتُقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء -وهي الخلاخيل-، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أيقنت بنو النضير بالغدر»[1]، ولذلك وبتشجيع قريش وتهديدهم لبني النظير نقضوا عهدهم مع محمد ﷺ.

وكانت قريش تعدُّ أيَّ رجل من يثرب سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، تعده عدواً محارباً مهدر الدم، ويستحق القتل، ولم يكن له ذنب ولا جريمة، إلا أنه سمح للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، وهذا ما فعله كبير من كبرائهم وهو عمرو بن هشام عندما ذهب سعد بن معاذ ﷺ - وهو من سادة يثرب - إلى مكة للعمرة، يقول عبد الله بن مسعود: «كان سعد صديقًا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا نزل بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية؛ فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا فنزل على أمية بمكة فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان! من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف آمنًا وقد أويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد - ورفع صوته -: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة»[2].

حدث هذا ولم يكن المسلمون يعدُّون أنفسهم في حالة حرب مع أهل مكة، ولم يتعرضوا لقوافلهم، بدليل أن سعدًا أخبره بتهديده بقطع الطريق على قوافلهم،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٥٠).

أي: أن إعلان العداوة والحرب لم تكن من جانب محمد ﷺ، بل كانت من جانب قريش بأقوالهم وأفعالهم.

وهنا كان لا بد مما ليس منه بدّ، فاستوجب هذا الأمر أن يعد محمد ﷺ نفسه ويهيئ نفوس أصحابه على مواجهة هذه العداوة التي لن تكمن داخل النفس فقط، بل ستتعداها إلى المواجهة العسكرية في ميادين القتال.

فأعدَّ محمد ﷺ أصحابه لذلك، وبدأ بتكوين طليعة لجيشه شملت كل عناصر المسلمين ممن يقدر على حمل السلاح وحماية المدينة بما فيها من نساء وأطفال؛ فكان كل مسلم قادر على حمل السلاح على قوة الاحتياط بنظام الحشد، فلم يكن هناك جيش بالمعنى المتعارف عليه الآن، ولكن حينما تدق طبول الحرب يشارك الجميع فيها، بل شاركت بعض النسوة في بعض هذه الحروب.

علم محمد ﷺ يقينًا أن أكبر قوة تقف عقبة أمام انتشار دينه هي قوة قريش؛ لأنها زعيمة العرب الدينية لقيامهم على خدمة بيت الله الحرام، والناس تبع لهم في عقائدهم، ومن ثم امتنع الناس عن الدخول في الإسلام حتى تسلم قريش.

ولسبب آخر؛ وهو أن قريشًا أعلم بمحمد ﷺ منهم؛ فإذا كان قومه قد كذَّبوه فكيف يصدِّقه الغرباء عنه؟

ولهذا كان محمد ﷺ لا يريد أن يحاربهم، ويتمنى لو أنهم قد خرجوا من الصراع، وحيَّدُوا أنفسهم بعيدًا عنه، فكان يقول كثيرًا: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين»[1].

إن حسابات العقل والمنطق تقول: إن كانت قريش تبغض محمدًا ﷺ، وتتمنى فناءه؛ فلتتركه للعرب؛ فإن غلبوه وقضوا عليه كان ذلك الذي يتمنون، وإن غلب العرب وظهر عليهم كان المجد مجدهم والعز عزهم فهو منهم، ولكن هيهات أن يكون للعقل نصيب أمام رغبات النفوس وأهواء القلوب، ولهذا كان على محمد ﷺ أن يستعد لحرب طويلة ممتدة مع قريش، حرب لا نهاية لها إلا بفناء أحد الفريقين، أو استسلامه للآخر.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٤).

•• محمد ﷺ والأعراب:

لمن لا يعرف الطبيعة الجغرافية للجزيرة العربية في ذلك الوقت نقول: إن العرب كانوا يتمركزون حول آبار المياه في حواضر تشبه المدن كمكة والطائف والمدينة، وهناك البوادي، وهي قبائل متناثرة حول الحواضر، وبينها المساحات الشاسعة التي يهلك فيها من لا يعرفها، أو لا يكون معه دليل يهديه الطريق.

وكان الناس يتحركون في سيرهم وتجارتهم بطريقة القوافل، فلا يتحرك أحد منفردًا إلا القليل جدًا.

وكانت هناك قبائل تعيش على المساحات الشاسعة لا همّ لها ولا عمل إلا السلب والنهب، فإذا مرت عليهم قافلة وليس معها حماية قوية خرجوا عليها، وقاتلوا أهلها وسرقوا الأموال وأسروا الرجال واستعبدوهم وأخذوا النساء.

وهذه القبائل كانت منتشرة حول كل المدن تقريبًا، وبالطبع كان هناك قبائل منهم حول المدينة (يثرب).

وعندما علموا بهذه الدولة الجديدة التي قامت على أسس من أهمها: العدل والمساواة والمحافظة على الحقوق؛ خشوا على مستقبلهم منها، فهذه الدولة ستعرض مصالحهم للخطر بل ربما تهدد وجودهم من الأساس وهكذا أيضًا فمن مصلحة هذه القبائل القضاء على هذه الدولة في مهدها قبل أن يستفحل خطرها، ويصبح من العبث التفكير في القضاء عليها، ولا مانع الآن من أن تمتد أيديهم وتتلاصق بأيدي أعداء محمد ﷺ من قريش وغيرهم، والتعاون معهم في القضاء عليه.

وهنا لا بد لمحمد ﷺ أن يعد نفسه ويهيئ أصحابه لتحمّل هذه التبعات؛ فإن الحق لا يقوم بمفرده، ولا بد للحق من قوة تحميه، وما داموا قد نذروا أنفسهم لتحمُّل مشاقّ هذا الدين الذي جاء لإصلاح البشر؛ فلا بد عليهم أن يتحملوا نصيبهم من هذه الابتلاءات.

إذن كانت هناك قوى أخرى كان يهمها القضاء على محمد ﷺ ومن معه، وكانت الإمبراطوريات الكبرى تمثل دعمًا لكثير من هؤلاء الذين أرادوا القضاء على هذا الدين الجديد.

فلم يَسْعَ محمد ﷺ إلى الحرب، بل فُرضت عليه، وحاول تجنبها قدر الإمكان، فكان كلما وجد سبيلاً لدفعها دفعها.

•• عندما تصير المواجهات سنة كونية:

منذ بدء الخليقة وما أن أُهبط آدم إلى الأرض وأنجب أبناء إلا وقد دَبَّ الخلاف وبدأ بينهم القتال؛ فيقول الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(المائدة: ٢٧).

ومنذ ذلك اليوم وإلى يومنا هذا ونحن في القرن الحادي والعشرين بعد ميلاد المسيح عليه السلام؛ ولم يخلُ زمن من الحروب والمنازعات؛ حتى غدت مشاهد القتل والدمار لا تخلو منها نشرة أخبار أبدًا، حتى ألفها الناس، وأصبح الناس يشاهدون الحروب، وهي الآن تنقل عبر الفضائيات، كما تنقل مباريات الكرة، واشترك الجميع في ذلك واستوى من يقولون: إنهم أكثر الناس تحضرًا مع البدائيين أقل الناس حضارة في أنهم يحسمون أمورهم بالقتال.

وفقد الملايين أرواحهم في تلك الحروب واستخدمت فيها أنواع الأسلحة كافة، وكان أشدها فتكًا القنابل الذرية التي أهلكت الملايين، وأثرت على الأجيال التي تلتها بالتشوهات، بل وترك المتحاربون القدامى - كما في الحروب العالمية الأولى والثانية - في أماكن عديدة ملايين الألغام الأرضية، ما زالت تحصد أرواحًا لا علاقة لها بالحروب، ولا بالخلافات التي انتهت منذ أكثر من ستين عامًا، وأصبح أعداء الأمس أحباب اليوم، واكتوى أناس آخرون ولا يزالون يكتوون بنارها.

تقول بعض الإحصاءات الموثقة: «إن البشرية قد شهدت حوالي (٣١٢) سنة حربًا مقابل سنة واحدة سلام، وإنه خلال (١٨٥) جيلاً لم ينعم بسلم مؤقت إلا عشرة أجيال فقط. فمنذ الحرب العالمية في القرن العشرين شهد العالم ما يقرب من مائتين وخمسين نزاعًا مسلحًا دوليًا وداخليًا بلغ عدد ضحاياها (١٧٠) مليون شخص، أي: يحدث كل خمسة شهور تقريبًا نزاع مسلح، ينتج عنه خسائر في الأرواح والممتلكات والمعدات»[1].

وقد حارب أصحاب الرسالات قبل محمد ﷺ فيذكر لنا التاريخ أن نبي الله موسى عليه السلام قد قاد قومه للخروج من مصر، ثم سار بهم إلى الأرض المقدسة، وطلب من أتباعه الدخول إليها ومحاربة أهلها؛ فقال كما سجل ذلك القرآن: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾(المائدة: ٢١).

---

(١) القانون الدولي الإنساني، دكتور سعيد جويلي، ص٣.

ولكنهم رفضوا وخافوا، وقالوا: إن في الأرض المقدسة التي تأمرنا بدخولها قومًا جبارين لا طاقة لنا بحربهم ولا قوة لنا بهم. وسمّوهم ﴿ جَبَّارِينَ ﴾ لشدة بطشهم وعظم خلقتهم، كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (المائدة:٢٢ -٢٣).

فقول الرجلين اللذين يخافان الله لقوم موسى يشجعانهم بذلك، ويرغبانهم في المضي إلى أمر الله بالدخول على الجبارين في مدينتهم: توكلوا أيها القوم على الله في دخولكم عليهم، وثقوا بالله فإنه معكم إن أطعتموه فيما أمركم من جهاد عدوكم. وعنَيَا بقولهما: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ إن كنتم مصدِّقي نبيكم، ولكنهم لم يلتفتوا إلى ذلك الكلام وكان ردّهم أن ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٤ -٢٦)[1].

وهذا النبي يوشع بن نون عليه السلام يقود قومه لمقاتلة الجبارين، فيحكي عنه محمد ﷺ فيقول: «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بُضْع امرأة، وهو يريد أن يبني بها ولمّا يبن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنمًا أو خَلِفات، وهو ينتظر ولادها، فغزا»[2].

وأيضًا قاتل داود عليه السلام تحت قيادة طالوت حينما أُخرجوا من ديارهم وأموالهم فدخلوا الحرب ضد جالوت وجنوده، فقاتل داود في الجيش وقتل جالوت، و قال عز وجل: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وذكر القرآن القصة بطولها.

وكان لسليمان مُلْك لم ينله أحد قبله ولا بعده؛ إذ جمع في جيشه بين الجن والإنس والطير قال تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾ (النمل:١٧)،

---

(١) من تفسير الإمام الطبري للآيات.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

استجابة لدعوة دعاها حين قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (ص: ٣٥).

وكان سليمان عليه السلام يقاتل بهم من خالف الدين والتوحيد وخرج عن الملة القويمة، فقد أرسل إلى بلقيس التي كانت تعبد الشمس رسالة موجزة واضحة، قال فيها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل: ٣٠ – ٣١)، فأرسلت إليه هدية لتنظر أمِن طلاب الدنيا هو أم من طلاب الآخرة؛ فلما رآها غضب، وقال لرسولها كما أخبر سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (النمل: ٣٦ – ٣٧).

فسليمان ﷺ كان عنده الجيش، وكان يحارب به أعداء الدين، ويُعيد الناس إلى الصراط المستقيم، فإن من النفوس نفوساً لا تستقيم إلا بالسلطان، ولا بد لها من زاجر يزجرها عن فعل الموبقات، وإتيان المحرمات.

•• تهمة كاذبة:

وبعد هذه الإلمامة السريعة، نستطيع أن نقول: إن هناك أحيانًا كثيرة قد يجد فيها القائد ألا بُدّ من المواجهة مع عدوه.

ولا شك أن المسلمين قد حاربوا عدوهم، كما حارب غيرهم من الأمم عدوه، وحارب الأنبياء والصديقون، كما حارب الأسافل الساقطون، فليس أمر الحرب قاصراً على محمد ﷺ وأتباعه.

ولعل أبرز ما يؤكد لنا ذلك هو أن محمدًا ﷺ لم يقتل إنسانًا بيده أبدًا، إلا رجلاً واحدًا هو أبي بن خلف قد جرحه لما قدم لقتله، فمات الرجل بعد فترة بسبب الجرح، هذا على كثرة ما خاض من معارك، فقد كان يشارك بنفسه ويحمل السلاح ويقاتل، وكان من أشجع الناس.

يقول أشجع فرسان المسلمين علي بن أبي طالب ﷺ: «كنا إذا احمَرَّ البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٤٩).

ويقول فارس آخر وهو البراء بن عازب رضي الله عنه: «كنا والله إذا احمَرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني: النبي ﷺ»[1].

فلم يكن يدير المعارك من الغرف المغلقة، ولكنه كان ينزل ميادين القتال، وكان أقرب القوم إلى العدو، ومع ذلك لم يقتل بيده في خلال حياته كلها؛ «في حين كان عدد القتلى (٢٧ مليون عسكري) في الحربين العالميتين: الأولى والثانية، ويقدر عدد المدنيين من ضحايا هاتين الحربين بـ١٢ مليونًا من النساء والأطفال وكبار السن أثناء الحرب العالمية الأولى، ونحو ٢٠ مليونًا في الحرب العالمية الثانية، وبلغ مجموع القتلى في القرن العشرين- لأسباب دينية وأيديولوجية، وبعيدًا عن المعارك الحربية- ٨٠ مليون إنسان. وفي الجملة فإن ١٦٧ مليون إنسان لقوا مصرعهم في حروب هذا القرن»[2].

إن محمدًا لم يكن بحال محبًّا للقتل، ولم يكن داعية للحرب أبدًا.

•• أسباب الحروب.. نظرة عاجلة :

هناك حروب قامت لتأمين الحاجات الأساسية للشعوب من الطعام والشراب والمسكن حينما يسود قانون الغاب حيث البقاء فيه للأقوى.

وهناك حروب قامت طمعًا في الثروات الطبيعية، فهناك دائمًا طامعون فيما في أيدي غيرهم، ويحاولون الاستيلاء بالقوة العسكرية على الثروات المملوكة لغيرهم، وما تزال هذه الأسباب إلى اليوم دافعًا عظيمًا من دوافع الحروب، ومن الممكن أن يفسر بها الكثير من الحروب القائمة اليوم.

كما أن للأسباب الاجتماعية أثراً أيضًا: كالخلافات الشخصية بين الملوك، ومنها: حروب رد الاعتبار والثأر والانتقام، ومنها: الرد على نقض العهود، بل من الحروب ما قامت من أجل أسباب غاية في البساطة كمباراة كرة قدم[3]، ومنها: أسباب موغلة في القِدَم كوجود كراهية متأصلة في العروق منذ مئات السنين بين شعبين.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٦).

(٢) دراسة أعدها مركز الدراسات الاستراتيجية بلندن.

(٣) في عام ١٩٧٠م قامت حرب بين دولتين: بسبب مباراة في التصفيات المؤهلة لكأس العالم، وكانتا هاتان الدولتين هما هندوراس والسلفادور، وراح ضحية هذه الحرب ١٠ آلاف قتيل، و٢٠ ألف جريح.

وكذلك هناك أسباب سياسية، منها وأهمها: التوسعات التي يحب القوي أن يضم فيها الدول الضعيفة إلى سيطرته، ومنها: حروب الاستقلال حينما يحب أهل إقليم الاستقلال عن الدولة الأم، ومنها: حروب الاسترداد للأرض المفقودة وتحريرها، ومنها: حروب الاستقلال عن المغتصب الأجنبي، ولكل منهم مبرراته التي يقتنع بها، ويقنع شعبه بها، أو يسوقهم فلا فرق.

وهناك حروب تقوم لأسباب نفسية محضة؛ من الكره للآخر، أو الحقد عليه، أو حسده، أو ربما يجد أحدهم فراغًا في جيشه فيقاتل بهم لملء فراغهم، بلا سبب واضح للحرب، أو ربما لجعل شعبه في حالة حرب دائمة، فلا ينشغلوا بالأمور الداخلية، ويصنع لهم دائمًا عدوًّا يخدعهم بتهديده لهم، ويعظِّم لهم خطره؛ فإذا سقط العدو الأول واستسلم يستحدث لهم رئيسهم وصانعو القرار معه عدوًّا جديدًا يوهمهم بالخطر منه حتى يظلوا في استنفار دائم، ولا تظهر مشاكلهم الداخلية الكثيرة التي تهدد دولتهم بالزوال.

وهناك حروب تقوم من أجل الإفساد في الأرض فقط كحروب التتار الذين اجتاحوا الأرض، ولم يكن لهم همّ سوى إفسادها، ولم تكن هناك أية مصلحة من الحروب سوى إشباع تلك الرغبات الخبيثة؛ فليس من مصلحة أحد في الكون ما حدث لمكتبة بغداد التي أُلقيت كلها في نهر دجلة، وعبرت عليها الخيول، وحرُم الكون كله من علوم كانت تختصر له الأزمنة للتقدم والرقي، ليس للمسلمين فقط بل للمجتمع الإنساني كله، وما بقي منها وما تسرب كان له أثره في التقدم الذي وصلت إليه البشرية اليوم.

وهناك حروب تقوم على أساس عقائدي إما لنشر فكرة بالإجبار، أو لمنع انتشار فكرة؛ فغالبًا ما يدخل المهزوم تحت سيطرة المنتصر ماديًّا وثقافيًّا؛ فيتبع الأفكار والتوجهات والرؤى نفسها، بل ربما يترك المغلوب لُغته الأصلية، ويتحدث بلغة المحتل له، وهذا ما نراه واقعًا في كثير من دول العالم الآن.

وقد تقوم الحروب بين أبناء الشعب الواحد أو القبيلة الواحدة أو الديانة الواحدة إذا انقسموا إلى فِرَق ومذاهب، وربما تكون الحروب بين أبناء الدين الواحد أو الشعب الواحد أشد شراسة من حروبهم مع غيرهم من أهل الأديان أو الشعوب الأخرى.

تلك رؤية عاجلة موجزة لأهم أسباب الحروب في العالم، وأردنا هنا أن نتساءل: ماذا كانت أهداف محمد ﷺ من الحرب؟

الحرب في السيرة المحمدية:

بداية يجب أن نعلم حقيقة مهمة هي: أن الحرب في الإسلام كما قرَّرها محمد ﷺ كانت وسيلة لا غاية. وإذا أمكن أن تتحقق الغاية بوسيلة غيرها لم يكن في حاجة إليها، وكان يؤخرها ﷺ فيجعلها آخر الحلول الممكنة.

فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو يحمل الراية في غزوة خيبر: «يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأَخْبِرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[1]، وحمر النعم هي أثمن مال كان يمتلكه العربي في تلك الفترة.

فهذه وصية محمد ﷺ لقائد جيشه، وهو يحدد له الهدف المنشود، ولو تحقق بغير القتال فلا حاجة إليه، ولا رغبة في قتالهم والانتصار عليهم، بل في هدايتهم وتعبيدهم لله سبحانه.

ونعود فنذكر غايات الحرب عند محمد ﷺ وفقًا لمنهجه الإسلامي:

أولاً: الدفاع عن النفس:

يقول الله تعالى للمسلمين مؤذناً لهم في المواجهة بعد أن منعهم من الرد على الاعتداء لمدة ثلاثة عشر سنة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

قال عروة بن الزبير: «إن أول آية أنزلت في القتال حين ابتلي المسلمون بمكة وسَطَتْ بهم عشائرهم ليفتنوهم عن الإسلام، وأخرجوهم من ديارهم، وتظاهروا عليهم فأنزل الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ (الحج: ٣٩). وذلك حين أذن الله لرسوله بالخروج، وأذن لهم بالقتال»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور

فشرع لهم الاستعداد للقتال بتوفير لوازمه مما يردع كل طامع فيهم، بحيث لا تقع الحرب من البداية؛ لأن الناس عادة ما ترهب القوي، وتخشى محاربته فلا تطمع فيما عنده فأمرهم بإعداد العدة؛ فقال سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(الأنفال: ٦٠).

ونرى أن هذه الآية تطالبهم بالاستعداد والتأهب الدائم للقتال حتى لا تقع الحروب فيكون الردع سببًا لإغلاق أبوابها، ومن المستغرَب أن تتخذ هذه الآية في بعض الأحيان ذريعة لاتهام المسلمين بما ليس فيهم.

وشرع لهم قتال من قاتلهم فقال: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾(البقرة: ١٩٠ – ١٩١)، أي: أنه يطالبهم بعدم المساس بمن سالمهم، بل يتوجه القتال إلى من قاتلهم ورفع عليهم السلاح، ووضع ضوابط للحرب كما سيأتي.

ثم كرَّر عليهم القرآن الأمر مرة ثانية تنبيهًا وتعظيمًا، وحدَّد ضوابط أُخَر مع الإبقاء على القاعدة العامة بعدم مقاتلة المسالمين، وقتال المحاربين فقط، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ١٩١ – ١٩٤).

فكان المسلمون في وضعية المدافع عن أرضه ودينه وحقوقه، ولا يوجد أحد في الكون ينكر على أيِّ إنسان هذا الحق.

وقد أقرَّ ميثاق الأمم المتحدة في المادة ٥١ هذا الحق فقال: «ليس في هذا الميثاق ما يُضعف أو ينتقص الحق الطبيعي للدول، - فرادى أو جماعات -، في الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة».[١]

وعلَّم محمد ﷺ أصحابه أنه لا يجوز لهم أن يتركوا حقوقهم، ولا بد أن يدافعوا عنها ولو بالقتال فقال: «من قاتل دون ماله فقُتل فهو شهيد، ومن قاتل دون دمه فهو شهيد، ومن قاتل دون أهله فهو شهيد»[٢].

(١) ميثاق الأمم المتحدة، الفصل السابع، مادة ٥١.

(٢) أخرجه الترمذي (١٤٢١)، والنسائي (٤٠٩٤).

ويقول أبو هريرة ﷺ: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تُعْطِه مالك»، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد». قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النار»[1].

فشدَّد عليه وأكَّد بأن لا تترك حقك لغيرك يأخذه رغمًا عنك، فإن أعطيته فليكن برضى نفس بغير إجبار، وإلا فالقتال، وهذا العمل لا يُغضب الله حتى لو مِتَّ على ذلك.

•• ثانيًا: رد المظالم واسترداد الحقوق السليبة:

عندما هاجر محمد ﷺ وأصحابه لم يحملوا معهم أموالهم ولا ممتلكاتهم؛ فصادرها أهل مكة واستولوا عليها، ومنعوا مَنْ أدركوه من الخروج للهجرة بماله، واشترطوا أن يأخذوا ماله قبل أن يهاجر؛ فيقول صاحبه صهيب بن سنان ﷺ: «خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر ﷺ وكنت قد هممت بالخروج معه فصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم ولا أقعد؛ فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه، ولم أكن شاكيًا فقاموا فلحقني منهم ناس بعدما سرت بريدًا ليردوني؛ فقلت لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقيَ من ذهب وتخلون سبيلي وتفون لي، فتبعتهم إلى مكة، فقلت لهم: احفروا تحت أسكفة الباب فإن تحتها الأواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قبل أن يتحول منها يعني: قباء؛ فلما رآني قال: يا أبا يحيى! ربح البيع ثلاثًا»[2]، وفيه أنزل الله الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧).

وكان لا بد من استرداد تلك الحقوق، ولا توجد جهة يتجه إليها المسلمون لتجبر قريشًا على رد تلك الحقوق، ولا يوجد قانون يحتكمان إليه؛ ليحصل المسلمون على حقوقهم السليبة، فكيف يحصلون على حقوقهم وأموالهم إذن؟

ها هنا أباح الله لهم المواجهة لنيل حقوقهم، وهذا مشروع في كل الدساتير السابقة للإسلام واللاحقة له ولا ينكره منكر.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٧٠٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

ثالثًا: نصرة المظلومين المستضعفين:

ما أكثر المظلومين في هذه الحياة الذين لا يجدون من ينصرهم ويقف في وجه الباغين الظالمين!

ولن يعترض معترض أبدًا على وقوف صاحب قوة مع صاحب حق مظلوم ومسلوب، وهذا خير استعمالٍ للقوة أن تسخرها في رد الحقوق إلى أصحابها، وأن يجد الظالم المستكبر قوة تمنعه وتردعه عن ارتكاب المظالم.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾(النساء: ٧٥).

ويقول القرطبي المفسر والعالم الإسلامي الشهير في تفسيره للآية: «فأوجب الله تعالى الجهاد لإعلاء كلمته، وإظهار دينه، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس. وتخليص الأُسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال، وذلك أوجب لكونها دون النفوس؛ إذ هي أهون منها. قال مالك: واجب على الناس أن يفدوا الأُسارى بجميع أموالهم، وهذا لا خلاف فيه. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ عطف على اسم الله عز وجل، أي: وفي سبيل المستضعفين؛ فإن خلاص المستضعفين من سبيل الله»[(١)].

وسكوت القوي القادر وتقاعسه عن نصرة المظلوم هو معاونة للظالم على ظلمه وتيسيرًا لاستشراء الفساد في الأرض، وحينها يستحق القوي القادر الساكت عن الحق أن يشمله الله بعذاب مع الظالم؛ لأنه كان يمكنه منع هذا الظلم، وإعادة الحقوق إلى أصحابها.

وقد روى أنس رضي الله عنه قول محمد ﷺ لأصحابه تصويبًا وتعديلاً للمثل الشائع المستخدم بالفهم الخاطئ: «قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، قالوا: يا رسول الله! هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «تأخذ على يديه»[(٢)]، وفي رواية للحديث «تمنعه من الظلم»، وقال ابن حجر العالم الإسلامي في شرحه للحديث:

---

(١) القرطبي: ٥/١٨٠.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٤).

«قوله: (تأخذ فوق يده) كنَّى به عن كفّه عن الظلم بالفعل، إن لم يَكُفَّ بالقول، وعبّر بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة»[١].

ويكررها محمد ﷺ كثيرًا فيقول البراء بن عازب رضي الله عنه: أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع، فذكر عيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وردّ السلام، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإبرار المقسم»[٢].

•• رابعًا: القتال للرد على نقض العهود وخيانة المواثيق:

الدساتير كافة تتفق على أن المعاهد عهدًا إذا نكث فيه وأخلَّ بالبنود أو غدر؛ يُعَدُّ ناقضًا للمعاهدة، وهو إعلان لحالة الحرب بينهما، ويعني: الرجوع إلى نقطة البداية إلى مرحلة ما قبل المعاهدة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنفال: ٥٥-٥٧)، وقال أيضًا: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١٢-١٣).

وقد تعاهد بنو قريظة المجاورون للمسلمين في المدينة: تعاهدوا مع المسلمين معاهدة أن تكون المدينة وطنًا مشتركًا لهم يدافعون عنها ضد أيّ معتدٍ من خارجها، وأن يتعايشوا تعايشًا سلميًّا بينهم.

وجاءت قريش ومعها قبائل غطفان وغيرها، وكان عددهم أضعاف عدد المسلمين؛ فاضطر المسلمون لحفر خندق بينهم وبين الجيش القادم عليهم، وكان بنو قريظة يسكنون في الجانب الآخر من المدينة، وبحسب بنود المعاهدة كان لزامًا أن يتحرك بنو قريظة وينضموا إلى المسلمين في الدفاع عن المدينة، ولكنهم فعلوا النقيض تمامًا؛ فأغلقوا على أنفسهم حصونهم، ولم يتحركوا منها.

---

(١) فتح الباري: ٥/١١٨.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٥)، ومسلم (٢٠٦٦).

بل تفاوض الأحزاب معهم للمرور من جانبهم والدخول إلى المدينة، ومن ثمّ يكون المسلمون لقمة سائغة، ويكون الخندق في ظهورهم، فلا يستطيعون الفرار ويحصدهم الأحزاب في ساعة واحدة، ووافق بنو قريظة، وأرسل إليهم محمد ﷺ يستوثق من الخبر، فأقروا بنيّتهم وسبوا مبعوثي محمد ﷺ، وخانوا العهد ونقضوا الميثاق.

فبعد أن انسحب جيش الأحزاب ذهب محمد ﷺ وواجههم؛ جزاء لخيانتهم وغدرهم ونقضهم العهد، وسوء فعلهم الذي لو تم كما أرادوا وخططوا وبيّتوا لهلك المسلمون جميعًا.

•• خامسًا: قتال الباغين المعتدين:

لقد علّم محمد ﷺ أصحابه ألا يقفوا موقف المتفرج من الأحداث، فما يسميه الناس اليوم بالإيجابية سماه الإسلام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجعل الله سبب خيرية من يتبع محمدًا في هذه الفضيلة؛ حيث لا يرى حقًّا أمامه إلا يسانده، ولا يرى باطلاً أمامه إلا يقاومه في حدود استطاعته؛ فقال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وجعلها من سمات المؤمنين الخاصة بهم؛ فقال: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١).

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مختصًا بما يراه المسلم من منكرات في غير المسلمين، بل من باب أولى في المجتمع الإسلامي.

ومن هذه المنكرات: الخلافات، فإن حدث خلاف بين طائفتين من المسلمين وجب على باقي المسلمين أن يصلحوا بين الطائفتين.

فإن وصلوا إلى اتفاق لحل تلك المشكلة، ثم اعتدت طائفة منهم على الأخرى، أو نقضت اتفاقها؛ أمر الله المسلمين أن يقاتلوا جميعًا تلك الفئة الباغية حتى يردوها إلى الحق.

فيكون هنا قتال طرفاه مسلمان، ولكنه قتال مأمور به حتى تعود الفئة الباغية إلى رشدها، وتستقيم مرة أخرى؛ فقال الله سبحانه: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات: ٩).

إن محمدًا ﷺ إذن ما طلب الدنيا بحروبه، فلم تكن من أجل المال، ولا من أجل السلطان، ولا من أجل الدنيا بما فيها، ولكنها كانت حروبًا لا يُبتغى بها إلا وجه الله ومرضاته؛ فلم يحارب إلا لله، ولم يسالم إلا لله، ولقد أكَّد مرارًا على هذا الأمر لأصحابه فقال لهم: «أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»[1].

إنه يحدِّد الهدف العام والشامل لحروبه لإقامة كلمة «لا إله إلا الله» في الأرض، ولم يتحدث عن ملك ولا مال ولا جاه، ولا استعباد للشعوب، ولا نهب للثروات ولا تخريب للمنشآت، ولا هتك للأعراض.

إنه يبحث عن كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» فقط، بل ويزيد محمد في الشروط للحرب المقبولة عنده، ومن ثم عند الله أن تكون نية كل جندي - لا نية القائد فقط- خالصة لله، ولا ينوي بالقتال شيئًا آخر؛ فيأتيه رجل ويسأله ويقول: يا رسول الله! ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا ويقاتل حمية؟ فرفع إليه رأسه، وقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل»[2]، بل إنه تحدث عن ثلاثة هم أول من تُسعَّر بهم النار، وذكر منهم رجلاً قاتل، ثم مات في القتال، ولم يقصد بقتاله وجه الله، بل كان يقصد رضى الناس، وأن يُذْكَر بينهم بالشجاعة والجراءة[3].

إذن مع نبل الغاية العامة لا بد أيضًا أن يكون عند الجنود نبل في مقاصدهم في الحرب، فلا يقصدون شيئًا من متاع الدنيا، ويبتغون فقط الأجر من الله سبحانه، ومن دخل الحرب ناويًا غير ذلك فقد أساء، وليس له شيء من الله سبحانه، ومُعرَّض لخسارة الدنيا والآخرة.

•• الغاية لا تبرر الوسيلة في رسالة محمد ﷺ:

وهنا تجدر الإشارة إلى أن محمدًا ﷺ ورسالته لا يعرفان ذلك المبدأ؛ الذي قامت عليه معظم الحروب التي لم يكن محمد ﷺ وأتباعه طرفًا فيها، وهو مبدأ «الغاية تبرر

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥)

الوسيلة»، فهذا المبدأ لا وجود له مطلقًا عند محمد ﷺ فلم يكن يتخذ من الوسائل إلا أحسنها، فكما كانت غايته شريفة كانت وسائله أيضًا شريفة.

ولم يكن الناس يعرفون أن للحروب ضوابط وقيمًا لا بد أن تُرَاعى، ويجري تقييم النجاح الحقيقي في الميدان بقدر الانتصارات التي يحققها القادة الميدانيون، بشرط الالتزام بالضوابط التي حدَّدها محمد ﷺ لجيشه، فقد يعاتب قائدًا أو يحاكم أو يعزل وله سجل حافل من الانتصارات؛ إذا أخفق، وارتكب شيئًا من المنهيات، أو لم يلتزم بالضوابط.

في حين أن التقييم عند الناس لا يسأل عن مثل هذه الضوابط مطلقًا، وما يهمهم سوى تحقيق الانتصارات، حتى لو كانت بإلقاء أسلحة تأتي على الأخضر واليابس، والمحارب وغير المحارب حتى الأجنة في أرحام الأمهات؛ فالمهم عندهم هو تحقيق الانتصارات، وجلب الغنائم، والسيطرة على العباد، وتسخيرهم لمصالحهم، بل واستعبادهم؛ لتكون جماجمهم درجات في سُلَّم مجد الغزاة.

ولم تعرف البشرية بعد محمد ﷺ أن هناك ضوابط ينبغي الالتزام بها عند الحرب إلا عندما وقعت دول العالم على أربع اتفاقيات سُمِّيت بمعاهدات جنيف الأربع عام ١٩٤٩م، والبرتوكولين الإضافيين لهما عام ١٩٧٧م.

وفيها حاول المجتمِعون وضع أخلاقيات للحرب افتقدها العالم طويلاً، ولكن عاب هذه الاتفاقات عيبان أساسيان بدت بهما هذه القرارات وكأنها حبر على ورق، لا تخضع للتطبيق:

العيب الأول: أن هذه الاتفاقات رضائية، أي: أنها غير ملزمة للمُوقِّعين عليها، ويخضع التنفيذ لإرادة الدول إن شاءت نفَّذَت، وإن شاءت امتنعت.

العيب الثاني: هو عدم وجود قوة حاكمة تتبنى هذه الاتفاقات لدى الأمم المتحدة أو غيرها؛ لتضمن التنفيذ من المُوقِّعين عليها، وباتت القرارات التي تصدر من تلك الجهات قرارات جوفاء لا تُنَفَّذ إلا على الضعفاء بإرادة الأقوياء وقوتهم ودعمهم.

•• أخلاقيات الحرب في رسالته ﷺ:

بالمقارنة مع العيوب التي تضمنها ميثاق الأمم المتحدة، والذي لم يتح لها إمكانية تطبيق ما نصت عليه الاتفاقات إلا في القليل النادر من الحروب؛ فإن محمدًا ﷺ لم تكن تصرفاته في حربه، ولا أوامره لقادة جيوشه تؤخذ على أنها من قبيل المخيَّر فيه، بل

كانت أوامر صارمة يجب تنفيذها، وكل مخالف له فيها هو عاصٍ لله ولرسوله ﷺ.

وكان له ولخلفائه من بعده عَزْلُ أيِّ قائد لا يلتزم بتلك الأوامر الصارمة في آداب الحرب وأخلاقياتها، فقد عزل عمر بن الخطاب - الخليفة الثاني للمسلمين - القائدَ خالد بن الوليد رضي الله عنه أحد أعظم قادة الإسلام لأنه - كما يرى عمر - قد بالغ في موقعة من المواقع في الشدة، رغم أنه من أكثر القادة نجاحًا وتحقيقًا للإنجازات، ولذا كانت هناك تعاليم واضحة راسخة سطرها محمد ﷺ وسار صحابته وخلفاؤه من بعده عليها، وبيَّن أحكامها علماء المسلمين، ونستعرض بعضًا منها:

التفرقة بين المحاربين وغير المحاربين:

الحروب عادة ما يشعلها القادة، ويصطلي بنارها الجنود، والمدنيون هم الذين يدفعون الثمن.

فكم من حرب قامت وكان ضحيتها الآلاف من المدنيين على مر العصور، ووصل الحال باستهانة بعض الشعوب بالآخرين إلى حالة هستيرية، كما نشرت بعض الصحف عبر ذكريات أحد الجنود في إحدى المعارك أنه تراهن مع صاحبه بعد بقر بطن امرأة حامل هل تحمل جنينًا ذكرًا أم أنثى!! وسمعنا الكثير من الفظائع التي ارتكبها جنود في كل مكان بحق المدنيين.

ولكن محمدًا ﷺ كان حازمًا وحاسمًا في عدم التجاوز؛ لأنه تعلم من أمر الله الذي قاله في كتابه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾(البقرة: ١٩٠)، فحدَّد الله القتال وحصره مع الذين يقاتلون الجيش فقط، أي: من المحاربين فقط حاملي السلاح، ومن ثم صدرت الأوامر من محمد ﷺ لقادة جيشه:

«انطلقوا بسم الله، وبالله وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً، ولا صغيرًا ولا امرأة، ولا تَغُلّوا، وضمُّوا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا؛ فإن الله يحب المحسنين».(١)

وقال ﷺ موصيًا زيد بن حارثة لما أنفذه إلى مؤتة: «لا تقتلوا وليدًا ولا امرأة، ولا كبيرًا، ولا فانيًا ولا منعزلاً بصومعة»؛ فهؤلاء لا يقاتلون، ولا يحملون السلاح، ولهذا نهاهم عن قتلهم.

وأيضًا نهاهم أن يقتلوا العمال في المزارع، أو الخدم في المنازل؛ لأن هؤلاء لا يحاربون،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ص ٩٥، وصححه ابن حجر في هداية الرواة، وقال: حسن (٤/٦٠).

ونهى عن قتل الصغار من الأطفال، ونهى مشدداً عن التعرض للنساء ،و لما رأى جثة امرأة في القتلى غضب منهم، وعاتبهم وناداهم ولامهم؛ فيقول رباح بن ربيع ﷺ: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة؛ فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً، فقال: «انظر علام اجتمع هؤلاء؟»، فجاء فقال: على امرأة قتيل. فقال : «ما كانت هذه لتقاتل»، فبعث رجلاً فقال «قل لخالد: لا يقتلن امرأة ولا عسيفًا»[1]، والعسيف هو الأجير في البيت أو المزرعة.

ويقول بريدة بن الحصيب أن من وصاياه ﷺ: «اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا»[2].

وأخذ منه خلفاؤه من بعده تلك المعاني، فأوصى أبو بكر الصديق - الخليفة الأول - قائد جيشه أسامة بن زيد وهو خارج للقتال بوصايا تصلح دستورًا للحروب لو طبَّقها الناس، فقال مخاطبًا أسامة وجنده:

أيها الناس! قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكل، وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع: فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان من الطعام، فإذا أكلتم منها فاذكروا اسم الله عليه».

وقد بيَّن علماء الإسلام النهي عن قتل المجنون، والمريض والجريح، والأسير والسفيه والمغمى عليه، وطالب الأمان، ومن لا يقوم دليل على أنه حمل سلاحًا وغيرهم كثير.

وبعد مئات السنين خلت من أية قيم أو أخلاق في الحروب جاءت الاتفاقية الدولية فوصلت إلى بعض تلك الأخلاقيات؛ فجاء في الاتفاقية الدولية في جنيف عام ١٩٤٩م ما نصه: المادة (٣):

في حالة قيام نزاع مسلح ليس له طابع دولي في أراضي أحد الأطراف السامية المتعاقدة يلتزم كل طرف في النزاع بأن يطبق كحد أدنى الأحكام التالية:

الأشخاص الذين لا يشتركون مباشرة في الأعمال العدائية، بمن فيهم أفراد القوات

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٦٩)، وابن ماجه (٢٨٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٣١).

المسلحة الذين ألقوا عنهم أسلحتهم، والأشخاص العاجزون عن القتل؛ بسبب المرض أو الجرح أو الاحتجاز، أو لأي سبب آخر؛ يُعامَلون في جميع الأحوال معاملة إنسانية، دون أيّ تمييز ضارّ يقوم على العنصر أو اللون، أو الدين أو المعتقَد، أو الجنس، أو المولد أو الثروة أو أيّ معيار مماثل آخر»[1]. وليتهم يطبقون ما كتبوه ووقَّعوا عليه!

٢. عدم التمثيل بالقتلى:

نهى محمد ﷺ عن التمثيل بالقتلى، فالنفس الإنسانية نفس مكرمة محترمة لذاتها؛ لأنها من آدم، وقد كرَّم الله آدم وذريته، فقال الله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(الإسراء: ٧٠).

فيمكن لمحمد ﷺ أن يختلف ويواجه و يقاتل من يستحق القتال، ولكنه أبدًا ما كان يهدر كرامة النفس الإنسانية.

والتمثيل بالقتلى من أفعال التدني والانحطاط؛ لأن القتيل يكون قد انتهت قضيته وعداوته مع عدوه فلا خطر منه ولا ضرر، وأصبحت جثته محل احترام مهما كان خلافك معه.

ولكن النفوس الخبيثة تعبث بالقتلى فيتم قطع الرؤوس والتلاعب بها بدلاً من الكرة ومن الممكن أن يرقص السفلة على الجثث بعد موت أصحابها وهذا التمثيل شائع جدًا في حروب الناس حتى تكاد لا تخلو أية حرب منه.

وقد ذاق محمد ﷺ من مرارة التمثيل بجثث أصحابه؛ فرأى بعينيه ذلك بعد الغزوة الثانية غزوة أحد التي قُتل فيها سبعون من خيرة صحابته، ومنهم عمه حمزة بن عبد المطلب، حيث وجد جثة عمه حمزة بعد انتهاء المعركة وقد عُبثَ بها وشُوِّهت ومُثِّل بها.

هذا المشهد الذي رآه آلمه إيلامًا شديدًا، فجال بخاطره ليرد بالمثل في لحظة من شدة الألم، ولكن ربه خاطبه بهذا القول: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾(النحل: ١٢٦) ، فأمره ربه أن إذا عاقبت وأحببت أن ترد الفعل فبالمثل فقط قصاصًا فيمن قام بالجريمة، وإن صبرت وسامحت وتجاوزت فهو خير لك، وعندها تجاوز محمد ﷺ عن هذا الفعل حتى لمن قام بالجريمة، بل إن الذي قام بتلك

---

(١) من وثائق الأمم المتحدة، اتفاقية جنيف.

الجريمة قد أسلم فيما بعد فقبل محمد إسلامه وأمَّنه على نفسه، وصار مسلمًا بين المسلمين، فأي قلب يتحمل تلك القيم إلا قلبًا رعاه ربه؟!

ولم يمثل محمد ﷺ بإنسان أبدًا، ونهى أتباعه عن ذلك وشدَّد فقال - كما في الحديث السابق عن بريدة بن الحصيب - : «اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا»[1].

٣ . الوفاء بالعهد وعدم الخيانة :

لقد رفع محمد ﷺ مبدأً رفيعًا كان دومًا ما ينادي به، وهو الوفاء بالعهود، وكان يعدّ ناكص العهد فيه صفة من صفات النفاق، فكان يقول: «ثلاث من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه صفة منهن كان به صفة من نفاق: إذا حدَّث كذب، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر»[2].

وعلَّمهم في الحروب أنه إذا عاهد المسلمون عهدًا وأمَّنوا قومًا إلى مدة معلومة؛ فيجب عليهم الوفاء بذلك العهد، والالتزام به مهما حدث، ولا يُتَّخَذ من هذا العهد وسيلة للخدعة والغدر، فكثيرًا ما يلجأ القادة في الحروب إلى خداع الطرف الآخر، وتأمينه أي: إيهامه بذلك حتى يطمئن، ويترك الاستعداد للحرب، ثم يهجمون عليه وهو غير مستعد فيُلْحِقوا به الهزيمة الشديدة، ويعدون ذلك دهاءً حربياً، إن الإسلام قد سمَّاه غدرًا وليس في الإسلام غدر.

فإذا كان هناك صلح أو عهد فلا يمكن لمسلم مطلقًا أن ينقض هذا العهد، يقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤).

أي: طالما هم ملتزمون بشروط العهد ولم يفعلوا أي شيء مخالف لما تم العهد عليه؛ فلا يجوز لكم أن تنقضوا ذلك العهد، حتى انقضاء المدة المتفق عليها، ويجب عليكم الوفاء، ونقض ذلك من الإثم المُحرَّم شرعًا على المسلم فيعاقب به من الله عز وجل.

ولكن إذا ظهرت بوادر نقض للعهد من عدوهم، ورأى المسلمون من أفعال عدوهم أنها لا تلتزم بالعهد؛ فيجوز في تلك الحالة أن يردوا إليهم عهدهم.

ولكن بشرط أن يخبر القائد المسلم عدوه بأن أفعاله تسببت في نقض العهد، ولا

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

بد أن يخبره بأن العهد المبرم غير سارٍ الآن، وأنهم قد رجعوا إلى حالة الحرب حتى يعلم أن المعاهدة قد أُلغيت.

ولا يجوز للقائد المسلم أن يلغي العهد بينه وبين نفسه، ويهاجم تلك الفئة؛ قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٥٨)، حتى تتحقق العدالة، ويستعدوا للقتال فلا نظر إلى المكاسب الدنيوية على حساب المستوى الأخلاقي.

وهذه الحالة هي ما تسمى بحالة إعلان الحرب، أي: أنه لا يجوز بدء الحرب في هذه الحالة بغير إعلان بها، وقد سبق الإسلام بها الكثير من التشريعات، إلى درجة أنهم في اتفاقية عام ١٩٤٩م حددوا هذا المبدأ بوصفه مبدأً عاماً في حقوق الإنسان في الحرب، وبالطبع لم يلتزم به أحد.

٤. عدم الإفساد في الأرض:

يرى محمد ﷺ أن الأرض لله سبحانه، وأنه يختار مَن يستخلفه فيها، وأن الإفساد في الأرض هو فعل الشيطان الذي لا يريد الخير أبدًا، وأن كل قلب نظيف يجب أن يستنكر الفساد فيها والإفساد، ويعين على الإصلاح والبنيان:

قال الله سبحانه في القرآن: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾(الأعراف: ١٧٠)، وقال على لسان النبي شعيب: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾(هود: ٨٨).

وقد يتمثل الإفساد في الأرض في قطع الأشجار والتحريق بالنار وهدم البيوت أو تخريب كل عامر لغير ضرورة حربية؛ كأن يستتر العدو بالأشجار أو يتترس في البيوت فيجوز حينئذ قطعه أو تخريبه؛ فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه «كان نبي الله ﷺ إذا بعث جيشًا من المسلمين إلى المشركين قال: انطلقوا باسم الله - فذكر الحديث وفيه -: ولا تقتلوا وليدًا ولا طفلاً ولا امرأة ولا شيخًا كبيرًا، ولا تغورن عينًا، ولا تعقرن شجرة إلا شجرًا يمنعكم قتالاً أو يحجز بينكم وبين المشركين، ولا تمثلوا بآدمي ولا بهيمة، ولا تغدروا، ولا تغلوا»[1].

وسبق نصيحة خليفته وصاحبه أبي بكر الصديق؛ إذ قال لقائد جيشه:

---

(١) أخرجه البيهقي (٩١/٩).

« إني موصيك بعشر : لاتقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولاتعقرن شاة ولابعيراً إلى لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً ولاتغرقنه ، ولاتغلل ولاتجبن ».[1]

٥. إعطاء الأمان لمن طلبه أثناء الحرب :

هناك جيوش لا تعرف إلا الاجتياح، ولا يقر لها قرار إلا بإفناء عدوهم عن آخرهم، وهي لا تتوقف مهما كثر القتلى واستسلم العدو.

ولكن محمدًا ﷺ كان يعطي الأمان لمن طلبه أثناء الحرب وبعدها، وقد أمره ربه بذلك؛ فقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٦).

وهذا الخلق لم يكن موجودًا أبدًا لا في عصره، ولا في العصور التي تلته، حتى مؤتمر لاهاي ١٨٩٩م حين تضمَّن نصًّا يناشد قادة الجيوش الحربية بقبول الأمان وإعطائه لمن طلبه.

٦. قبول الانقطاع وتوقف الحرب إذا توقف العدو :

فالقتال في الإسلام وسيلة لا غاية في حد ذاته، فإذا أعلن العدو توقفه عن القتال واستسلامه أو انسحابه؛ عندئذ أمر المسلمون أن يتوقفوا عن القتال فيقول الله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال: ٦١).

وعندئذ يجب احترام كل المحاربين من الخصوم، وعدم استباحة دمائهم، بل يُؤَمَّنُون على ديانتهم وعقائدهم، ولا تُنْتَهك أعراضهم، بل يحتفظون بأملاكهم ومساكنهم وجميع مالهم.

٧. النهي عن النهب :

هناك فرق بين الغنيمة والنهب، فالغنيمة هي ما يُؤخذ من المقاتلين في الحرب من سلاح ومتاع، ولكن النهب هو سرقة المال والممتلكات من المدنيين غير المحاربين بعد الانتصار في المعارك ودخول المدن.

وقد نهى محمد ﷺ عن النُّهْبَة، وشدَّد في ذلك؛ لأن النهب من السرقة المحرمة، وهي

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٩٨٢).

في الإسلام من كبائر الذنوب؛ فيحدثنا أحد الصحابة ويقول: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس حاجة شديدة وجهد، وأصابوا غنمًا فانتهبوها؛ فإن قدورنا لتغلي إذ جاء رسول الله ﷺ يمشي على قوسه، فأكفأ قدورنا بقوسه، ثم جعل يرمل اللحم بالتراب ثم قال: «إن النهبة ليست بأَحَلَّ من الميتة» أو «إن الميتة ليست بأحل من النهبة»[1].

وينهى محمد ﷺ صحابته عن هذا الفعل مشددًا؛ فيقول أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من انتهب فليس منا».[2]

ويقول عبد الله بن يزيد الأنصاري رضي الله عنه: «نهى رسول الله ﷺ عن النُّهْبَة والمُثْلَة»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٠١)، وأحمد (١٢٠١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥١٦).

الأسرى :

لا يجوز في الإسلام اتخاذ الأسرى من المقاتلين من غير المسلمين إذا كانت بينهم وبين المسلمين معاهدة؛ لأن المعاهدة أمان، والإسلام لا يعرف الغدر.

وإذا كان محمد ﷺ قد رتَّب وأصَّل مجموعة من الآداب والأخلاقيات في الحروب فلا بد من تكملة تلك الآداب بحقوق الأسرى، بل هذه الحقوق أولى بالتنظيم وأوجب؛ لأنك في الحرب تقاتل من يقاتلك، فأنت ندّ له وهو كذلك، ولكن الأسير الآن بين يديك وهو الطرف الأضعف، وآسره هو الطرف الأقوى، وفعله معه يدل على خُلقه وعلى قيمه ومبادئه، فكان لا بد من وضع القواعد كي لا تكون معاملة الأسرى وفقًا للأهواء والأمزجة وطبائع الناس.

وقد وجدنا كثيرًا من الألم مما شاهدناه من صور معاملة الأسرى هذه الأيام، ولا شك أن القارئ لم يكد ينسى الصور التي صورت فضائح كثيرة في معاملة الأسرى، وكيفية التنكيل بهم وإهدار آدميتهم، والقضاء على كرامتهم وإذلالهم، رغم وجود تلك المعاهدة التي وقَّع عليها ممثلون لستين دولة، والخاصة بأسرى الحرب، ولكنها ظلت حبرًا على ورق فحسب، ورغم ادِّعاء من يفعلون ذلك بأنهم أكثر الناس حضارة ورُقيًا ومحافظة على حقوق الإنسان!

١- حق العقيدة :

أول حقوق الإنسان وأكثرها أهمية بالنسبة له هو حقه في عدم التعرض له في دينه، ومن ثَمّ عدم إكراهه على الدخول في دين غير دينه.

فربما وهو أسير مسلوب الحرية والإرادة يُكرَه من بعضهم على اعتناق دين آخر وعقيدة أخرى.

ولقد أقيمت دراسات كثيرة، ودلت على وجود حالات كثيرة جدًا لطمس معالم الأديان والمعتقدات في نفوس الأسرى، وخاصة ما يسمى بعمليات غسيل المخ، والتي تنتهي بالبعض من الأسرى إلى محاولة الانتحار، رغم أنهم كانوا يعتقدون يقينًا أن الانتحار محرم في شريعتهم التي يدينون بها قبل أسرهم؛ مما يدل على فظاعة ما يتعرضون له، ويدل أيضًا على عمليات غسيل المخ التي تعرضوا لها حتى أنَستهم ثوابت دينهم.

أما القرآن فإنه يضرب مثالاً ربانيًا عن معاملة الأسرى كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(الأنفال: ٧٠) ، أي أنه يقول ترغيبًا للأسرى في الإسلام، وليس إجبارًا لهم على ترك دينهم، ويفتح لهم بابًا للتوبة والرجوع إلى الله سبحانه فيبشرهم بمغفرة الذنوب، وتوسعة الرزق في الدنيا.

وهذا ما حدث من محمد ﷺ في قصة ثمامة بن أثال الحنفي حين وقع في الأسر، فأمر محمد ﷺ أن يُجعل مكان حبسه في المسجد، ليرى تصرفات المسلمين مع بعضهم في دار عبادتهم، وكان يمر عليه ويقول: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فيقول ثمامة: «عندي خير يا محمد!، إن تقتل تقتل ذا دم» أي: إن قتلتني فعندي من يطالب بدمي وبثأري، «وإن تُنْعِم تنعم على شاكر»، وإن أحسنت إليّ وأنعمت عليّ بالعفو ستجدني شاكرًا لصنيعك، «وإن شئت المال سَلْ منه ما شئت»، أي: إن أردت مالاً كي تعفو عني ندفع لك ما تريد»، فيتركه محمد ﷺ ثلاث ليال، ثم يأمر بإطلاق سراحه بلا مال ولا فدية..!!

فيذهب ثمامة إلى مكان بعيد، حرًا طليقاً، خارج المدينة، ثم يغتسل ويعود مسلمًا شاهدًا بالشهادتين.

فهو لم يشأ أن يُسلم في المدينة كي لا يعطي فرصة لأحد أن يقول: إنه أُجبر على الإسلام، ثم إذا به يقول بعدها: والله يا محمد! ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، وما كان على ظهر الأرض دين أبغض علي من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان على وجه الأرض بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ»[1].

وهو في النهاية يريد أن يعطينا معنى أنه ما أسلم مكرهًا ولا مراءاة، بل أسلم مختارًا، بدليل أنه خرج من المدينة، وتأكد أن أحدًا لا يلاحقه فأسلم ورجع.

وما حدث مع ثمامة حدث نفسه مع كثير ممن تعرضوا للأسر عند محمد ﷺ، فقد دخل أغلبهم في الإسلام طائعين؛ لما رأوا من حسن معاملة الأسير التي لم يعرفها لا العرب ولا العجم قبل محمد ﷺ، وذلك أن الأسرى في تلك الممالك كانوا يقتلون أو تفقأ أعينهم أو يُسلخون، ويُطعَمون للكلاب.

---

(١) القصة بتمامها في البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤)

٢- حق الطعام والشراب:

الأسير محبوس عند آسره لا يمكنه العمل ولا السعي على القوت، ولهذا كان محمد ﷺ يأمر أتباعه بحسن معاملتهم في الطعام والشراب، بل كان يحثهم على ذلك.

فيحبب القرآن إطعام الأسير، ويجعله من القربات الموصلة إلى رضا الله سبحانه؛ فيقول واصفًا حال الأبرار، وهم المستحقون لرحمة الله والمستأهلين دخول جنته: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان: ٥- ٨)، أي: أنه من جميل صفاتهم التي استحقوا بها دخول الجنة أنهم كانوا يُطعمون الأسير من طعامهم الذي يحبونه.

ثم نبَّههم إلى أمر آخر أنهم لا يُطعمون الأسير طمعًا فيما يملكه ولا خوفًا من أحد، إنهم لا يفعلون ذلك إلا لوجه الله وابتغاء مرضاته: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ والإمام الطبري المفسر ينقل عن سعيد بن جبير قوله: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علمه الله من قلوبهم، فأثنى عليهم ليرغب في ذلك راغب»[1].

وإذا كان الإسلام قد حرَّم حبس الطعام عن الحيوان المحبوس الأسير، فكيف بالإنسان؟! فيقول محمد ﷺ: «عُذِّبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا، فدخلت فيها النار»[2].

فإذا كان هذا الحساب الدقيق والشديد على حبس هرة وعدم إطعامها؛ فإن حسابًا أشد على تجويع نفس إنسانية مكرمة عند الله سبحانه.

وكان أبو عزيز أخو مصعب بن عمير صاحب محمد ﷺ أسيرًا عند المسلمين بعد غزوة بدر، فيحكي بنفسه عن تصرفات المسلمين معه وهو أسير عندهم؛ فيقول: «كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحني بها، قال: فأستحي فأردها على أحدهم، فيردها عليّ ما يمسها»[3]، ومن

---

(١) تفسير الطبري: (٢٩/ ٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٣٩).

المعروف أن الخبز عند أهل المدينة كان أفضل طعام؛ لأن أهل المدينة يزرعون التمر ويستوردون الخبز، فكانوا يخصون الأسير به تكرمًا وتفضلاً، ورغبة في الثواب.

٣- حق الكسوة:

للأسير على المسلمين حق الكسوة، طالما أنه تحت أيديهم فيقول جابر ﷺ «لما كان يوم بدر أُتِي بأُسارى وأتي بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصًا، فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي ﷺ إياه»[١]، وكان العباس طويلاً جسيمًا[٢] فاختار له محمد ﷺ قميصًا لعبد الله بن أبي يناسبه في الطول والجسم، فمن حق الأسير اختيار كسوة تتناسب معه.

وكذلك من حق الأسير في كسوته أن تستر عورته، وتقيه حر الصيف وبرد الشتاء فالأمر ليس تعذيبًا للأسير، بل التكريم حتى يعود إلى أهله، هذا مع العلم الكامل أن هناك أفرادًا من المسلمين لم يكونوا يمتلكون يومها من الملابس إلا ما يغطي عورتهم فقط، فكانوا في حالة فقر شديد جدًا.

٤- حق المأوى:

لم تقم للأسرى مبانٍ في عهد محمد ﷺ فلم يوجد لهم مكان مخصص، ولكن كان لهم مأوى مكرم يليق بهم، فقد كان لهم مكان من اثنين، وكلاهما مكرم عند المسلمين أيما تكريم: فإما في المسجد، وإما في بيوت الصحابة، وأي مكان أكرم على المرء منهما فقد كان ثمامة بن أثال في المسجد، كما ذكرنا سابقًا.

وكان ﷺ يوزع الأسرى على الصحابة في بيوتهم، فكما يقول المؤرخ ابن كثير «إن الرسول ﷺ فرَّق أسرى بدر على أصحابه»[٣].

٥ - عدم التفريق بين الأسير وأهله:

ربما يُؤسَر الرجل وتؤسر معه زوجته، وربما تؤسر الأم ويؤسر معها أبناؤها؛ فإذا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٨).

(٢) كما قال الحافظ في الفتح.

(٣) البداية والنهاية (٥/١٩١).

جمع عليهما العذاب بالأسر وفقد الحرية، وبعذاب التفرقة بين الأحبة كان هذا عذابًا مضاعفًا يأباه الإسلام؛ إنها الرحمة والشفقة التي يجب أن يُعامل بها الأسير في أسره، وقد شدَّد محمد ﷺ النهي على ذلك؛ فقال: «من فرَّق بين والدة وولدها - يعني من السبي - فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»[1].

وكان السبب في ذلك كما رواه الدارمي، قال: «إن أبا أيوب ﷺ كان في جيش ففُرِّق بين الصبيان وبين أمهاتهم من الأسرى، فرآهم يبكون، فجعل يرد الصبي إلى أمه، ويقول: إن رسول الله ﷺ قال: «من فرق بين والدة وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة».

٦- عدم التعذيب مطلقًا :

فللأسير في الإسلام حق ألا يتعرض له أحد بتعذيب بدني أو نفسي، أو ما شابه ذلك فلا يُسَبّ ولا يُهَان، ولا تُسَبّ معتقداته ومعبوداته، ولا تتعرض المرأة للضرر ولا الأذى البدني.

بل يجب أن يُؤَمَّن الأسير على كرامته وحياته، فلا يُمَسّ بسوء، وهل يتصور من الشرع الذي أمر بإطعام الأسير وجعلها قربة لله وأمر بكسوته - وربما في المسلمين من لا يملك تلك الكسوة - وأمر بتدبير المأوى له، وجعله في أشرف الأماكن؛ بعد ذلك هل يتصور أنه يأمر بتعذيبه وإهدار كرامته ؟!

والإسلام لا يُجيز تعذيب الأسير حتى لو للحصول على معلومات منه؛ فقد سئل أحد أئمة المسلمين، وهو الإمام مالك: «أيعذب الأسير إن رُجيَ أن يَدُلّ على عورة العدو؟ قال: ما سمعت بذلك»[2].

بل جعل محمد ﷺ عدم الرد على الأسير نوعًا من الإهانة التي لم يكن ليفعلها؛ فقد أُسر رجلٌ، وفي الطريق ناداه الرجل ثلاث مرات، ورجع إليه محمد ﷺ وأجابه، فيقول عمران بن حصين ﷺ: «كانت ثقيف حليف بني عقيل، فأسَرَت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بن عقيل، وأصابوا معه العضباء،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٢٨٣)، وأحمد (٢٢٩٨٨).

(٢) التاج والإكليل (٣/٣٥٣).

فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق، قال: يا محمد! فأتاه، فقال: ما شأنك؟ فقال: بم أخذتني، وبم أخذت سابقة الحاج؟ فقال: «إعظامًا لذلك أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف». ثم انصرف عنه، فناداه فقال يا محمد! يا محمد!، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا فرجع إليه، فقال: «ما شأنك؟»، قال: إني مسلم. قال: «لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح»، ثم انصرف فناداه، فقال: يا محمد! يا محمد! فأتاه فقال: ما شأنك؟ قال: إني جائع فأطعمني وظمآن فاسقني، قال: «هذه حاجتك» ففُدي بالرجلين»[1].

•• تعامل محمد مع أعدائه.. العفو والصفح والغفران:

من الصعب على أي إنسان أن يحارب غيره، ويحتفظ بالرقي الإنساني في آنٍ واحد، فتميُّز أسلوب محمد ﷺ أثناء الحروب بالإنسانية حتى في أحلك اللحظات، وأشدها في الحروب، لِيَدْعُو إلى التأمل والتفكر في تلك النفسية النظيفة الربانية:

ولنأخذ هذه الشهادة من المفكر والكاتب المؤرخ الهندي والوزير السابق نارا سيماراو: «إن محمدًا جعل الحرب إنسانية، وفي تاريخ البشرية لم يوجد رجل استطاع أن ينتصر في معاركه كلها التي تجاوزت فترة عشر سنين من الحرب، وجميع القتلى من أعدائه ما تجاوزوا ١١٨٠ على أقصى الروايات، فهذا أكبر دليل على أن محمداً ﷺ كان رحيمًا».

وعلى الرغم من كثرة ما لاقى محمد ﷺ من قريش من الأذى والمشقة إلا أنه صفح عنهم، وعن كل ما فعلوه، وكان كثيرًا ما يطلب منه من حوله أن يدعو على أعدائه فلم يكن يقبل؛ فيقول أبو هريرة: قِيلَ: يا رسول الله ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قال: «إِنِّي لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة»[2].

فقد كان أحرص الناس على هدايتهم، وكان يتمنى الخير لهم في الدنيا والآخرة، وما يزال يرجو الخير منهم، ولم يفقد الأمل في هدايتهم، ويقول لنفسه: لعل الخير في أصلابهم في ذرياتهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٤١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

وعند رجوعه من الطائف مهمومًا محزونًا، أبى أن يدعو عليهم، أو يسأل ربه أن يلحق بهم العذاب، ولكنه قال: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا»[1].

وكان له ﷺ ابن عم اسمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان يهجوه بشعره، ولا يترك مكانًا يوجد فيها محمد ﷺ إلا ويطارده فيه، فآذاه إيذاءً شديدًا، وجاء يوم الفتح وجاءه أبو سفيان، وطلب الإذن عليه، فقال: «لا حاجة لي به وقد هتك عرضي!».

وكان مع أبي سفيان ابن له، فقال: والله ليأذن لي أو لآخذن بيد ابني هذا لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا؛ فلما بلغ ذلك محمدًا ﷺ رَقَّ له وعفا عنه، فقبل منه فقام أبو سفيان وأنشد فيه شعرًا يمدحه[2]، فكان بعد ذلك يحبه ويفضله ويكرمه، ويتذكر فيه عمه حمزة الذي استُشهد في أحد.

ومن بين الذين عفا عنهم صفوان بن أمية بن خلف، الذي ظل على عداوته لمحمد ﷺ وما ادخر وُسْعًا في محاربته، بل سعى يومًا في اغتياله، وأيضًا عفا عنه وصفح كما يقول المؤرخ ابن هشام: «وهذا صفوان بن أمية العدو ابن العدو يفر إلى جدة ليبحر إلى اليمن، فيأتي عمير بن وهب لرسول الله ﷺ، فيقول: يا نبي الله! إن صفوان بن أمية سيد قومه قد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه في البحر فأَمِّنْه، قال: هو آمن، قال: يا رسول الله! فأعطني آية يعرف بها أمنك، فأعطاه الرسول عمامته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان! فداك أبي وأمي! الله الله في نفسك أن تهلكها! فهذا أمان رسول الله قد جئتك به، قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذاك وأكرم، فرجع معه حتى قدم به على رسول الله ﷺ فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني؟ قال: صدق، قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال: أنت بالخيار أربعة أشهر».

ومثله كذلك عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، ومن جمعوا من الناس الذين أبوا إلا قتالاً يوم فتح مكة، فهُزموا وفرّوا، ثم استأمنوا فأُمِّنُوا، بل عُفي عنهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٣٥٩).

بل أُعطوا من غنائم هوازن تأليفًا لقلوبهم[1].

ويوم دخل مكة منتصرًا وهو موقف من أشد المواقف صعوبة على النفس، فقد تمر النفس باختبارات عديدة وتثبت فيها، ولكن موقف القوة والعزة والانتصار هو أصعب المواقف حيث يخضع له من كان يؤذيه على مر الأيام، وبإمكانه اليوم الانتقام ولا يترفع عن شهوات نفسه في تلك اللحظة إلا كل ذي نفس كبيرة معطاءة، لا تعرف الحقد ولا الكبرياء، فإذا به يدخل مكة، ويعلن أن: « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد».[2]

ثم يعفو محمد ﷺ عن وَحْشِيّ قاتل عمه وحبيبه حمزة يوم أحد والممَثّل بجثته، ومن مثَّل بهم، إنه يعفو عن رجل لا مال له ولا قبيلة ولا عشيرة، وهو صاحب الفعلة التي لم تتكرر أبدًا في حياته حين رأى عمه ممثلاً به، ولكنه عفا عنه ﷺ أيضًا!

بل إنه قد احترم موتى أعدائه، فقد فر الجيش المكي مهزومًا في بدر، فما كان من محمد ﷺ إلا أن يجمع أصحابه على تعبهم والضعف الذي هم فيه، ويقومون بدفن الموتى من المعسكر الآخر؛ لأن النفس الإنسانية - كما تبين لنا مرارًا من تعاملاته ﷺ - لها حرمة وتشريف؛ لكونها نفسًا إنسانية، فقام ودفنهم جميعًا في بئر ماء مهجور من آبار بدر، وكذلك في غزوة الأحزاب حاول أحد فرسان المشركين وهو نوفل بن عبد الله اقتحام الخندق فقتل، فطلب أهل مكة جثته فأمر أصحابه أن يعطوهم إياها.

وأيضًا وفي غزوة الأحزاب نفسها حاول المحاولة نفسها عمرو بن ود العامري، ولقي المصير نفسه وطلبته قريش فأعطاهم إياه بلا قيد ولا شرط ولا ثمن.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٢٢).

•• محاولات اغتيال محمد ﷺ[1]:

قدَّر الله تعالى أن يستمر الحق والباطل في صراع، فلا تعايش بينهما، فالحق والباطل نقيضان لا يجتمعان، وكل منهما يسعى إلى إزالة الآخر من الوجود.

وكان من الطبيعي جدًّا أن يسعى قوم دومًا إلى قتل أهل الحق، وهذا ما حدث مع محمد ﷺ فقد تعرض لمحاولات عديدة لاغتياله والقضاء عليه وعلى دعوته، بل بدأ الأمر مبكرًا جدًّا منذ مولده ﷺ:

- يذكر الطبري أن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان محمد ﷺ وتسليمه لهم مشوا إليه بفتى منهم هو عمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له فيما بلغني: يا أبا طالب! هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك، هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرَّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامنا فنقتله؛ فإنما هو رجل برجل. قال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدًا.

قال: فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي: والله يا أبا طالب! لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا. فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني.

- ويحكي عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟!»[2].

ويقول أبو هريرة ﷺ: «قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ - يقصد: يصلي ويسجد - فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله وهو يصلي - زعم ليطأ رقبته - فما فجأهم إلا وهو ينكص

---

(١) يُرجع فيه إلى: ابن كثير، البداية والنهاية، الكامل لابن الأثير، وتاريخ الطبري.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٦).

على عقبيه، ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا».[1] ويقول أنس: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غُشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ فتركوه وأقبلوا على أبي بكر»[2]، وتحكي أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنها - هذا المشهد قالت: «جاء الصريخ إلى أبي بكر، فقيل له: أَدْرِك صاحبك. فخرج من عندنا وإن له غدائر، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟!، قال: فلهوا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا إلى أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئًا من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام!»[3]، فكان أبو بكر من شدة الضرب لا يكاد تُعرف ملامح وجهه من كثرة الدماء، ولم تكن له جريمة هو ورسول الله ﷺ إلا أنهما قالا: ربنا الله.

ويقول المؤرخ ابن كثير: «.. فاجتمعوا له في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب، التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها، يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه، فلما اجتمعوا لذلك، وقد اجتمع فيها أشراف قريش، قال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فاجمعوا فيه رأيًا. قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: إن لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعدُ. قالوا: وما هو؟

قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه؛ فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها.. فتفرق القوم على ذلك وهم مُجمِعون له.. فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: نَمْ على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه؛ فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩٧).
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)
(٣) أخرجه أبو يعلى الموصلي(٥٢)

وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام»[1]، ونجّاه الله سبحانه من القتل هذه الليلة، وهاجر إلى المدينة.

وفي موقف آخر جلس عمير بن وهب الجمحي يومًا في حِجْر الكعبة، ومعه صفوان بن أمية، وتذاكرا أصحاب بدر من أهل مكة، واتفقوا أن يقوم عمير بقتل محمد ﷺ وأن يعول صفوان أهله لو حدث له مكروه، ... ولما وصل عمير المدينة فدخل المسجد متوشحًا السيف، فقام عمر فاستأذن النبي ﷺ، قال: فأدخله عليّ فدخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: «أرسله يا عمر! ادْنُ يا عميرا»، فدنا ثم قال: أنعم صباحًا! وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عميرا بالسلام تحية أهل الجنة»، قال: أما والله يا محمد! إن كنت بها لحديث عهد، قال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: «فما بال السيف في عنقك؟» قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئًا.

قال: «اصدقني ما الذي جئت له ؟» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دَيْن عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بن أمية بدَيْنك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك ». فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله! نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان؛ فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ : « فقّهوا أخاكم في دينه، وعلّموه القرآن، وأطلقوا أسيره » ففعلوا[2].

وقاتل مصعب بن عمير دون محمد ﷺ حتى قُتل، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي، وهو يظن أنه محمد ﷺ، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمدًا.

واستغل بنو النضير من اليهود مجيء محمد ﷺ ذات مرة إليهم ليناقشهم في شأن أحد

(١) سيرة ابن كثير (١٧٧/٢).

(٢) السيرة لابن كثير (٣١٣/٢).

التعويضات، يقول المؤرخ ابن كثير: فقالوا في سرِّهم: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه «ومحمد ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد»، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه؟ فانتُدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فأتى رسولَ الله الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به[1].

وأرسلت له امرأة من يهود خيبر بشاة مشوية ودست فيها سمًّا ناقعًا فعن أنس بن مالك «أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله ﷺ، فسألها عن ذلك؟ قالت: أردت لأقتلك، فقال: ما كان الله ليسلطك عليَّ، أو قال: على ذلك. قالوا: ألا تقتلها ؟ قال: لا»[2]، ولقد عانى من هذه اللقمة التي أكلها، وظل يشتكي منها حتى لحظة وفاته، فتقول عائشة وأبو هريرة – رضي الله عنهما –: إنهما سمعاه يقول: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني كل عام، حتى كان هذا أوان قطع أبهري»[3].

ويقول حذيفة بن اليمان: «قال كنت آخذًا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة، أو أنا أسوق الناقة وعمار يقود به، حتى إذا كنا بالعقبة في غزوة تبوك إذا باثني عشر رجلاً قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله ﷺ، فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا؛ يا رسول الله! قد كانوا متلثمين، ولكنا قد عرفنا الركاب. قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟ قلنا: لا. قال: أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها. قلنا: يا رسول الله! أو لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم. قال: لا، أكره أن يتحدث العرب بينها أن محمدًا قاتل لقومه..»[4].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٤/٧٥)

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود(٤٥١٢)

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية (٥/٢٠)

وأنزل الله - عز وجل - فيهم قرآناً يقول: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (التوبة: ٧٤).

قال القرطبي: ﴿ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾ يعني: المنافقين من قتل النبي ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك، وكانوا اثني عشر رجلاً[(١)].

لقد تناقلت كتب السِّيَر عشرات من محاولات الاغتيال التي تعرض لها محمد ﷺ ونجّاه ربه منها، إلا أنه في كل مرة لم يكن لينتقم لنفسه بحال من الأحوال، بل يعفو ويغفر، وهذا مما يدعونا إلى تدبر مواقفه والتفكر في طريقة تعامله مع أعدائه، تلك التي لا يقوى عليها إلا من كان أمينًا مؤتمنًا، وصدوقًا مصدقًا من السماء.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨٨/٨).

الفصل السابع

ماذا غير محمد ﷺ في أمتـه ؟

- التغيير الاجتماعي
- التغيير الاقتصادي
- التغيير السياسي
- التغيير العلمي والحضاري
- التغيير في الإنسان
- التغيير الديني

الموسوعة الميسرة

•• التغيير الاجتماعي

•• القبيلة :

جاء محمد ﷺ إلى مجتمع قبلي كانت القبيلة فيه تمثّل كل شيء، كان الرجل يموت ويحيا من أجل قبيلته، كانت القبيلة هي التي تمثّل الوحدة الأساسية والكيان الذي يجتمع الناس حوله.

والحروب والصراعات والمعاهدات والسلم كلها تتم من خلال القبيلة، بل إن الدين الذي يختاره الإنسان لنفسه يتأثر بالقبيلة، فقد كان لكل قبيلة أصنام خاصة بها تعبدها وتلجأ إليها.

جاء محمد ﷺ إلى هذا المجتمع القبلي وهو يحمل الدعوة إلى تصحيح العقيدة وتعليم الناس عبادة ربهم، وفي الوقت نفسه جاء بإصلاح الأوضاع الاجتماعية.

كان محمد ﷺ واقعيًا يدرك طبيعة المجتمع وتعقيداته، ومن هنا فالتغيير الذي ينشده لا ينبغي أن يتجاهل المجتمع وخصائصه.

جاء محمد ﷺ فرأى أن النظام القبلي رغم سلبياته ليس شرًا محضًا جاء فلم يقوّض النظام ويهدمه من أساسه؛ فهو إلغاء لمزايا هذا النظام، وهو مطلب غير واقعي.

جاء محمد ﷺ فأبقى على نظام القبيلة، وتعامل معه كما هو عليه ولكن:

وجّه هذا النظام توجيهًا إيجابيًا فجعله وسيلة لتعزيز وحدة المجتمع وتماسكه، ووسيلة للمحافظة على كيان المجتمع.

وفي المقابل عالج السلبيات المتأصلة فيه.

وقضى على التعصب والعنصرية، وقضى على عدّ القبيلة مرجعية دينية وفكرية.

وفي العام الثامن من هجرته إلى المدينة فتح محمد ﷺ مكة التي أخرجه أهلها منها وحاربوه ثماني سنوات.

وخاطب الناس وأكّد على نقد هذه القيم السلبية، وأكد على أن الناس متساوون في أصل البشرية فهم جميعًا أبناء آدم.

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال: يا أيها الناس! إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها. فالناس رجلان: بَرّ تقيّ كريم على الله، وفاجر شقيّ هيِّن على الله. والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب.

قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(الحجرات:١٣) [١].

كما ألغى محمد ﷺ القيم القبيليّه التي تفاضل بين الناس على هذا الأساس، وجعل الناس متساوين في الحقوق والواجبات.

وجعل تأهيل الإنسان وقدرته هي المعيار في تولي المسؤوليات والمهمات في المجتمع بغَضّ النظر عن انتمائه القبلي.

وحين أرسل ﷺ جيشًا إلى الروم في غزوة مؤتة أمَّر على هذا الجيش زيد بن حارثة، وهو مولًى، والمولى تعدّه العرب أقل شأنًا من أهل القبائل، فضلاً عن القبائل الشريفة، ثم جعل البديل له إن قُتل جعفر بن أبي طالب، وجعفر بن أبي طالب ﷺ من بني هاشم من قريش، وهم أشرف قبائل العرب، وأعلاهم منزلة ومكانة، كما كان في الجيش العديد من شرفاء العرب وأصحاب المكانة العالية.

قُتل زيد بن حارثة ﷺ في غزوة مؤتة، وحين أراد محمد ﷺ إرسال جيش آخر ولى ابنه أسامة بن زيد ومنزلته الاجتماعية كمنزلة والده، بالإضافة إلى أنه كان شابًّا يافعًا، لكنه كان مؤهلاً لأداء هذه المهمة.

كان محمد ﷺ بهذه القرارات يؤصل مبدأ وحدة المجتمع، وجعل الروابط القبلية في إطارها الصحيح، فلن ترفع الإنسان قبيلته ما لم يرفعه ويزكيه عمله وعطاؤه.

وكما قضى محمد ﷺ على النعرات القبلية في الحقوق والمسؤوليات، فقد ألغى هذا الاعتبار في العقوبات؛ فالناس متساوون أمام الشريعة التي كانت هي قانون المجتمع.

ومن هنا أنشأ محمدٌ ﷺ مجتمعًا بمعايير تختلف عن ذلك المجتمع، واستطاع إحداث ذلك التغيير الاجتماعي ودمج العرب ومن بعدَهم ممن دخل في الإسلام من غيرهم في مجتمع واحد.

•• تعزيز المسؤولية الاجتماعية :

إن تجمُّع العديد من الأفراد داخل إطار سياسي لا يكفي لتكوين مجتمع متماسك.

والمجتمع ليس مجرد مجموعة أفراد بل هو نظام يتفاعل فيه أفراده؛ ليحققوا هذا الكيان.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٧٠).

كانت العرب قبل محمد ﷺ يعيشون لذواتهم، اللهم إلا ما يفرضه الانتماء القبلي، و كانت هموم أحدهم لا تتجاوز ذاته وشؤونه الخاصة.

جاء محمد ﷺ فأكد على قيم المجتمع، وربّى أتباعه على أن يكون أحدهم عضواً في المجتمع، وأن انتماءه للمجتمع يمنحه حقوقًا لا تحصل له بمفرده، لكن هذا الانتماء يفرض عليه في الوقت نفسه التزامًا ووجبات تجاه المجتمع.

وأكّد محمد ﷺ على أن المجتمع لُحمَة واحدة، وكيان واحد، وأن كل فرد يعيش في المجتمع فهو مسؤول عن مصالح المجتمع يدافع عنها ويتبناها.

وحتى يجلّي محمد ﷺ هذه الصورة لأتباعه ضرب لهم مثلاً يحكي علاقة الفرد بالمجتمع، فعن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما- قال: قال النبي ﷺ: مثل المدْهِن في حدود الله والواقع فيها مَثَل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها ،فكان الذي في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به،فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة ،فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولا بد لي من الماء. فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجّوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم"[1].

وهذا الوصف يعني أن الفرد مسؤول عن الإسهام في حماية المجتمع مما يسيء، وعن الإسهام في رد المفسدين عن التأثير السلبي في المجتمع.

وأن الأفراد جميعًا سيدفعون ثمن ما يصيب المجتمع من نتائج سلبية؛ ولن يقف الأثر عند حدود من فعلوا ما يسيء وحدهم.

•• الإصلاح الاجتماعي :

مهما ارتقت المجتمعات وسمت فإنها ستبقى مجتمعات بشرية،لا تسلم من الضعف والقصور، ولا تنجو من الوقوع في الخطأ.

ولقد سعى محمد ﷺ إلى بناء أسس المجتمع المترابط، وقضى على كثير من النزعات والصراعات، ولكن حتماً تقع أخطاء بشرية، ومن هنا كان يبادر إلى الإصلاح فيما ينشأ من خلافات.

يروي لنا سهل بن سعد ﷺ أن أهل قباء اختلفوا وتنازعوا فيما بينهم حتى تراموا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٦).

بالحجارة، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: اذهبوا بنا نصلح بينهم[1].

وحين يكون الخلاف حادًا كان يبادر إلى ذلك؛ فقد انطلق ليصلح بين فئتين من أصحابه، حتى إنه تأخر عن الصلاة فأمَّ الناسَ صاحبُه أبو بكر ﷺ[2].

•• التكافل الاجتماعي :

لم تكن مسؤولية رعاية المجتمع عند محمد ﷺ قاصرة على الدولة والحاكم فقط، بل أرسى معالم التكافل الاجتماعي بين الناس، وأكّد مسؤولية الفرد في الإسهام في الدور الاجتماعي.

وتحكي لنا السيرة العديد من المواقف العملية التي كان محمد ﷺ يؤكد فيها على مسئولية الناس في التكافل الاجتماعي، ومنها:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له. قال: فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالاً. فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل ظهر فَلْيَعُدْ به على من لا ظَهْر له، ومن كان له فضل مَن زاد فليعد به على من لا زاد له». قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل[3].

وفي موقف آخر يتفاعل محمد ﷺ مع ما رآه من حال المحتاجين، ويطلب من أصحابه المشاركة في رعاية هؤلاء،فعن جرير بن عبد الله قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصوف فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة، فحثَّ الناس على الصدقة، فأبطأوا عنه حتى رُئي ذلك في وجهه. قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بصُرَّة من وَرِق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا، حتى عُرف السرور في وجهه. فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فعُمِل بها بعده كُتِب له مثل أجر مَن عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء. ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعُمِل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٣)، ومسلم (٤٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٤)، ومسلم (٤٢١).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٢٨).

(٤) أخرجه مسلم (١٠١٧).

كما يجعل محمد ﷺ من العبادات الموسمية أداة من أدوات التكافل الاجتماعي ورعاية المحتاجين.

فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: دَفَّ أهل أبيات من أهل البادية حضرة الأضحى زمن رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ادخروا ثلاثًا، ثم تصدقوا بما بقي».

فلما كان بعد ذلك قالوا: يا رسول الله، إن الناس يتخذون الأسقية من ضحاياهم ويجملون منها الوَدَك. فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قالوا: نهيت أن تؤكل لحوم الضحايا بعد ثلاث. فقال: «إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت؛ فكلوا وادخروا وتصدقوا»[1].

في تلك المواقف نرى التوازن في منهج محمد ﷺ، فهو لم يجعل المحتاج والفقير يعيش في المجتمع دون أن يجد من يقوم عليه ويعوله، وفي الوقت نفسه لم يضيع حق الغني فهو محتاج إلى ماله؛ فيأمر محمد ﷺ الناس بأن يتصدقوا بالفضل والزائد من أموالهم وحاجتهم، لا أن يكون ذلك سببًا لافتقارهم.

إن هذا الذي ينفق الفضل من ماله إنما يقدِّم لنفسه فهو سيلقى أجر ما ينفق عند الله أضعافًا كثيرة، كما قال الله عز وجل: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(البقرة: ٢٦١).

وهو فرد في هذا المجتمع، فكما أنه اليوم يحسن إلى محتاج، فقد يكون غدًا هو المحتاج، حينها سيجد من يرعاه ويحسن إليه.

ويؤكد القرآن الكريم على أخلاقيات الإحسان والإنفاق، وأنه لا ينبغي أن يتحول إلى وسيلة لإذلال الناس وإشعارهم بالمهانة قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٦٢ ـ ٢٦٤).

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧١).

•• النصرة :

واحتياج الفرد في المجتمع لا يتوقف عند مجرد الحاجة المادية، بل قد تحصل له مواقف يحتاج فيها إلى من يقف معه ويؤيده.

ومن هنا يؤكد محمد ﷺ على أن من حق كل فرد في المجتمع على أخيه أن ينصره، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «انصر أخاك ظالمًا، أو مظلومًا».

وكان أصحاب محمد ﷺ يعرفون عنه أنه لا يقف مع الظالم، ولا يدعو إلى التعصب معه، فتساءلوا: يا رسول الله! هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: تأخذ فوق يديه[1].

وهكذا يجعل محمد ﷺ الفرد في المجتمع متمتعًا بحق النصرة: إن كان مظلومًا أن يُعَان على أخذ حقه ممن ظلمه، وإن كان ظالمًا أن يُنَاصح، ويُبَيَّن له عاقبة الظلم وشؤمه، وهذا نَصْر له، حيث إن الظالم ربما كان أحوج إلى النصر من المظلوم، فهو سيدفع ثمن هذا الظلم عاجلاً أو آجلاً.

لقد غيَّر محمد ﷺ هذه القيم السائدة في مجتمعه، بعد أن كان الضعيف يضيع حقه نتيجة بطش الآخرين وتسلطهم، وبعد أن كان الفرد يقف مع قريبه أو صديقه وينصره بغضِّ النظر عن كونه على حق أو باطل، ظالمًا أو مظلومًا.

جاء محمد ﷺ فأكَّد القيمة الإيجابية في النصرة، ووسع دائرتها لتشمل أفراد المجتمع كافة ، دون أن يكون مصدرها الانتماء القبلي فحسب، وهذَّب هذه الدوافع فألغى التعصب الأعمى والوقوف مع الظالم.

•• التواصل :

ومما أكَّده محمد ﷺ في مجال البناء الاجتماعي التواصل بين الأقارب والقيام بحقوقهم.

فأكد محمد ﷺ على صلة الرحم، وهم أقارب الإنسان، وجعل هذا الأمر عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل.

ولم يكتفِ بأن يطالب الإنسان بصلة من يعرفهم من أقاربه، بل جعل محمد ﷺ من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٤) .

مسؤولية الإنسان أن يتعرف على أقاربه؛ ليقوم بواجبه نحوهم، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»[1].

وفي مقابل التأكيد على صلة الرحم وذوي القرابة؛ فإن محمدًا يحذِّر من الصورة المقابلة، وهي الإساءة والقطيعة؛ فالإساءة مذمومة، وحين تكون لمن تجب صلته تصبح أشد ذمًّا، فعن جبير بن مطعم ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: « لا يدخل الجنة قاطع»[2].

ويؤكد محمد ﷺ على أن صلة ذوي الرحم ليست مقابل إحسانهم، بل هي حق مكتسب لهم؛ لكونهم ذوي رحم.

ويؤكد على رعاية هذا الحق والقيام به حتى لو أن الآخرين قد قصَّروا، فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطِعَت رحمه وصلها»[3].

وعن أبي هريرة ﷺأن رجلاً قال: يا رسول الله! إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيؤون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ. فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تُسفهم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[4].

ويبين محمد ﷺ أن الإحسان إلى القريب فيه أجران: أجر الإحسان والصدقة، وأجر الصلة. فعن سلمان بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة، وصلة»[5].

ومن شأن هذا التوجيه أن ينظم دائرة مسؤولية التكافل الاجتماعي داخل المجتمع، فيجعل المسلم مسؤولاً عن التكافل في مجتمعه بعامة، لكن المسؤولية آكد في شأن قرابته.

•• الشفاعة الحسنة:

ومن صور الإحسان التي دعا إليها محمد ﷺ: الشفاعة الحسنة، فقد لا يملك

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩١) .

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٥٨).

(٥) أخرجه النسائي (٢٥٨٢)، والترمذي (٦٥٨)، وابن ماجه (١٨٤٤)، وأحمد (١٥٧٩٤).

الإنسان الإنفاق أو لا يستطيع قضاء حوائج الآخرين، لكنه يمكن أن يكون وسيطًا بينهم وبين من يستطيع ذلك، فعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ثم شبَّك بين أصابعه، وكان النبي ﷺ جالسًا؛ إذ جاء رجل يسأل أو طالب حاجة، أقبل علينا بوجهه فقال: اشفعوا فَلْتُؤجروا، ولْيَقْضِ الله على لسان نبيه ما شاء»[1].

•• المعسر:

كما أكَّد محمد ﷺ على قيمة من القيم الاجتماعية، ألا وهي التيسير على المعسرين: والمعسر هو مَن عليه حقوق والتزامات وديون لا يفي ما لديه من مال بسدادها، فعن عبد الله بن أبي قتادة أن أبا قتادة طلب غريمًا له فتوارى عنه، ثم وجده فقال: إني معسر. فقال: آلله؟ قال: آلله. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرَّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فَلْيُنَفِّس عن معسر أو يضع عنه»[2].

وقد أكد القرآن الكريم على هذا المعنى، فقال عز وجل: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة: ٢٨٠).

•• الحقوق الاجتماعية:

وأكد محمد ﷺ على العديد من الحقوق الاجتماعية التي تُشيع المحبة والمودة بين أبناء المجتمع، وتجمع قلوبهم، فعن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»[3].

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع، أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٨)، ومسلم (٢٦٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٣٩)، ومسلم (٢٠٦٦).

كما أكَّد محمد ﷺ على مسؤولية المجتمع عن السعي لفك الأسير، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني»[1].

ويبين محمد ﷺ أن من أسباب مشروعية السلام، والحث عليه بين الناس أنه سبب لتحقيق المحبة.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2].

ولقد تنوعت أدوات إشاعة المحبة داخل المجتمع، فدعا محمد ﷺ أتباعه إلى حسن التعامل مع الآخرين، وأكَّد على قيم التواصل وبخاصة بين الجيران.

فعن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم شيئًا من المعروف، وإن لم يجد فَلْيَلْقَ أخاه بوجه طليق، وإن اشتريت لحمًا أو طبخت قدرًا فأكثرْ مرقته، واغرفْ لجارك منه»[3].

إن الناس قد يرغبون في الإحسان إلى غيرهم، لكنهم لا يملكون ما يقدمونه لهم؛ فيوصي محمد ﷺ أتباعه بألا يحتقروا شيئًا، ولو أن يقدم المشاعر الحسنة، وحين يطبخ لحمًا فإن مما لا يضره أن يزيد في المرق، فيعطي جاره من هذا المرق.

ويحكي لنا أحد أصحاب النبي ﷺ أثر هذه التنشئة والتربية التي ربيَّ محمد ﷺ أصحابه عليها.

حيث أُهدي لأحدهم رأس شاة، وهو محتاج إليه، لكن رأى أن جاره أحوج إليه فأهداه إلى جاره، فرأى الجار أن جاره الآخر أحوج إليه فأهداه إياه.

وبقي هذا الرأس ينتقل من بيت إلى آخر حتى عاد إلى صاحبه الأول.

ونزل فيهم آية من القرآن، ألا وهي قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٩).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٥٤)

(٣) أخرجه الترمذي (١٨٣٣).

لم يكن محمد ﷺ يريد من ذلك مجرد أن يعطي أحدهم أخاه أو جاره من الطعام فحسب، بل كان ذلك وسيلة لما هو أكبر؛ لبناء مجتمع يترابط ويتوادّ، ويشعر كل فرد فيه بالمسؤولية الاجتماعية تجاه الآخرين.

•• النهي عن أسباب القطيعة:

لقد عمل محمد ﷺ في بنائه للمجتمع على مسارين:

الأول: بناء القيم الإيجابية، وإشاعة المسؤولية الاجتماعية وثقافة الإحسان والرعاية.

والثاني: نقد ما يناقض هذه القيم، مما يسبِّب القطيعة والكراهية، ويُشيع البغضاء في المجتمع.

لقد حذَّر محمد ﷺ أتباعه كلَّ ما يثير القطيعة والبغضاء، وما ينمي الشحناء بين أفراد المجتمع الواحد، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[1].

لم يقف محمد ﷺ وهو يواجه القيم السلبية عند مجرد النهي عن المظاهر المعلنة الظاهرة، بل إنه نهى عما يثير هذه المشاعر في النفوس، فنهى عن الظن السيئ بالآخرين، ونهى عن طلب ما يخفونه من خلال التجسس أو التحسس، أو أي وسيلة أخرى.

وما دام قد نهى عن المشاعر القلبية السيئة تجاه الآخرين فمن باب أولى أن ينهى عن تعمد إلحاق الأذى بالآخرين.

كان الناس وقت محمد ﷺ يعيشون في بيوت ضيقة لا تتسع لاجتماعهم وتواصلهم، فكانوا يجتمعون في الطرقات، فنهاهم محمد ﷺ عن الجلوس في الطرقات. فعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس على الطرقات». فقالوا: ما لنا بُدّ؛ إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: «فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها».

قالوا: «وما حق الطريق؟». قال: «غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٦٥) ومسلم (٢١٢١).

•• إلغاء الطبقية:

حذَّر محمد ﷺ من الطبقية التي لم تَغِبْ عن البشرية في كثير من مراحل تاريخها، حذَّر منها قومه وصحابته وأتباعه من أن يجعلوها معيارًا للاحترام والتقدير، قائلاً ذات مرة: «بحسب امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يحقِرَ أخاه المسلم»[1].

يعني: يكفيه مِنَ الشرِّ احتقارُ أخيه المسلم، فإنَّه إنَّما يحتقرُ أخاه المسلم لتكبُّره عليه، والكِبْرُ من أعظمِ خِصالِ الشَّرِّ[2]، فيستصغر شأنه ويضع من قدره؛ لأن الله لما خلقه لم يحقره، بل رفعه وخاطبه وكلفه[3].

فالنفس الإنسانية مكرمة في ميزان محمد ﷺ، لا بل إن تقديره لضعاف الناس وفقرائهم لأكبر وأعظم من سواهم، ما يجعل النفوس يعتريها الإعجاب والإكبار أن ترى هذا النموذج الذي لم تعرف البشرية له نظيرًا في كل صفحاته الكثيرة.

كان محمد ﷺ من أرفع الناس نسبًا وأشرفهم في الأسر والقبائل، لكنه كان لصيقًا بالضعفاء والفقراء إلى الحدّ الذي جعله قريبًا جدًّا من أهل الصُفَّة (وهم الفقراء من المهاجرين من مكة إلى المدينة)؛ حيث كان محمد ﷺ يشاركهم الطعام والهم، ويحفظ لهم تقديرهم، ويخصص لهم مكانًا في مسجده يقيمون فيه، ومعلوم أن محمدًا ﷺ كان يقيم ببيت له باب على المسجد، ويستقبل فيه كبار الوفود من سائر بلاد العرب.

لم يكن يستنكف أن يكون قرينًا حبيبًا لكل ضعيف، وحتى لو جمع الضعيف والفقير إلى جانب ذلك ضعف الجسم ونحوله، وافتقاره إلى حسن المنظر.

إن إطلالة على هذه القصص كفيلة بأن تعطي صورة عن موقف محمد ﷺ تجاه الطبقية:

١- رغب في الزواج صحابيّ فقير لا يتمتع بالجمال، ولا يكاد الناس يعرفونه إذا حضر أو يفتقدونه إذا غاب؛ فخطب له محمد ﷺ امرأة من الأنصار، فتردد أهلها بادئ الأمر، حتى قالت أمها: إذا ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيبًا، وقد منعناها من فلان وفلان، فراجعتها الفتاة قائلة: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره إن كان قد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) ابن رجب جامع العلوم والحكم جـ١ صـ٣٢٤.

(٣) التحفة الربانية شرح الأربعين النووية جـ١ ص٣٦.

رضيه لكم فأنكحوه . فكأنها جلت عن أبويها ، وقالا صدقت . فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال : إن كنت قد رضيته فقد رضيناه . قال : «فإني قد رضيته»[1].

٢- كان الصحابي عبد الله بن مسعود ﷺ دقيق الساقين، فلما اعتلى شجرة من أراك يبتغي منها جَنْي سواك، أطارت الريح طرف ثوبه، فضحك بعض الناس من دقة ساقيه ونحولة جسمه؛ فقال النبي ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ». قَالُوا: يَا نبي اللهِ! مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ. فَقَالَ: «والذي نفسي بِيَدِهِ! لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»[2]، فلا ضعف المكانة الاجتماعية ولا حتى رثاثة الهيئة والدمامة ونحولة الجسم وضعفه كانت لتأخذ من قيمة أصحاب النبي ﷺ في نفسه، فهو جدير بأن يعرف أقدار الرجال.

٣- كان زيد بن حارثة مولى لخديجة زوجة محمد ﷺ، فقال محمد ﷺ: «أما إنه لو كان لي لأعتقته»؛ قالت: فهو لك. فأعتقه؛[3] فكان من السابقين الأولين للإسلام حتى قيل: إنه أول من أسلم[4]، فكان أن أعتقه النبي ﷺ وصحبه، وزوجه الرسول أم أيمن.

وأحبه رسول الله ﷺ إلى حد يحكي فيه ابن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- في زمن خلافة أبيه، فيقول: فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لي - أي: من المال - فسألته فقال: إنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وإن أباه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك».[5]

وقال له محمد ﷺ: «يا زيد! أنت مولاي ومني وإليّ، وأحب الناس إلي»[6].

وآخى محمد ﷺ بينه وبين عمه حمزة بن عبد المطلب[7] القرشي الشريف.

كان بعد عتقه ابنًا بالتبني للرسول ﷺ إلى أن نهى الله عن التبني في كتابه، يقول ابن عمر - رضي الله عنهما -: «مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلاَّ زَيْدَ ابْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٥)[8].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٩٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٨١).

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٢٣.

(٤) الإصابة ٢ / ٤٧٣.

(٥) الإصابة ١ /٣٩٣.

(٦) أخرجه أحمد (٢٠٤٠).

(٧) الإصابة في تمييز الصحابة ٢٤٢/١.

(٨) أخرجه البخاري (٤٧٨٢)، و مسلم (٤٧٨٢).

كان ذا مكانة في قلب رسول الله ﷺ حتى إنه أمَّره على جيش خرج للقاء الروم في مؤتة، وجعل القائد التالي له إن قُتل ابن عمه جعفر بن أبي طالب ﷺ.

ولقد عاش زيد وابنه أسامة لا يشعران بفرق في المعاملة من محمد ﷺ في مجتمع المدينة، وكذا كل الموالي لا يكاد المرء يفرقهم عن غيرهم في هذا المجتمع الذي أنشأه محمد ﷺ على المساواة، وإنما المفاضلة على أمر الإيمان والأخلاق لا غيره من المعايير الطبقية الاجتماعية الجائرة.

٤- لقد كان أحد أبرز كبار رواة الأحاديث عن محمد ﷺ، صحابي كان يخدمه واسمه أنس بن مالك، وشهادته للتاريخ يسجلها مدونو الحديث، حيث قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، لا والله ما سبني سبة قط، ولا قال لي أف قط، ولا قال لي لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته[1]، فلا خادم ولا مولى ولا ضعيف، ولا مسكين ولا دميم ولا نحيل شعر بما يميِّز غيره عليه في مجتمع المدينة.

•• توازن التعاطي مع الطبقات:

على أن اقتراب محمد ﷺ من الفقراء لم يجعله يقف موقفًا عدائيًا من أصحاب الشرف والمكانة، فقد كانوا - كما الفقراء - يحظون بتقديره ﷺ، حتى إنه يزيدهم في بعض الأحيان اهتمامًا يتسق مع مكانتهم الاجتماعية بين العرب، ويحكي التاريخ أن محمدًا ﷺ قبيل أن يدخل مكة فاتحًا، وقبل أن يلقاه أبرز كبرائها أبو سفيان بن حرب يطلب منه الأمان لأهل مكة بعد إسلامه، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ عام الفتح جاءه العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان بن حرب فأسلم بمر الظهران فقال له العباس يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فلو جعلت له شيئا. قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ،ومن دخل المسجد فهو آمن».. فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ وَإِلَى الْمَسْجِدِ[2].

وقد كان محمد ﷺ حريصًا على تقدير مكانتهم الاجتماعية رجاء أن يكونوا من أهل الإيمان، حتى إنه لاهتمامه الخاص بهم عاتبه القرآن في شأنهم، حيث شُغل بهم عن رجل من

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٦٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٢١)، وأصله في مسلم (١٧٨٠).

صحابته أعمى جاءه يتعلم منه الدين فعبس في وجهه، ولم ير هذا الرجل عبوسه، ولكن الله تعالى عاتبه في ذلك فقال في آيات من القرآن: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ (عبس: ١-١٢).

وهذا اللوم الذي لم يخفه محمد ﷺ بل تلاه على الناس جميعًا، مؤكدًا على أمرين: الأول أن محمدًا ﷺ ذاته كان ينتصر للضعفاء، ولا يبخسهم حقهم من الاهتمام والدعوة، وأنه كان من جانب آخر يولي أولي الشرف من علية القوم المشركين اهتمامًا لائقًا رغبة في إسلامهم، وأنه لما زاد من هذا الاهتمام لمرة واحدة على حساب هذا الصحابي وهو عبد الله بن أم مكتوم ﷺ ذكّره الله بأهمية الاهتمام بالضعفاء، مع أن محمدًا ﷺ كان بالأساس يتحدث إلى بعض المشركين من قريش يدعوهم إلى الإسلام، وتدخل الصحابي يسأل عن آية من كتاب الله، يقول الإمام القرطبي: أقبل ابن أم مكتوم والنبي ﷺ مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوي طمعه في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلامُ من وراءهم من قومهم، فجاء ابن أم مكتوم وهو أعمى فقال: يا رسول الله! علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه[1].

وبلغ بمحمد ﷺ حرصًا بعد هذا العتاب الرباني أنه بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويُجلّه ويكرمه أيما إكرام، بل استخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما.. ويقول الصحابي أنس بن مالك ﷺ: فرأيته يوم القادسية راكبًا وعليه درع ومعه راية سوداء[2].

واللافت أن محمدًا ﷺ الذي ينتمي إلى أشرف نسب في قومه وأوسطه كان يدعو ربه قائلاً: «اللَّهُمَّ أحيني مِسْكِينًا، وأمتني مِسْكِينًا، واحشرني فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ»[3]. فهو يسأل ربه أن يحييه متواضعًا خافض الجناح لكل طوائف المؤمنين فقيرهم وغنيّهم، مما يؤكد هذا السلوك المتوازن الذي ساوى بين الطبقات في المجتمع الإسلامي من دون أن يكسر أعناق «السادة» والأثرياء والأقوياء، أو ينتقص من قيمة الضعفاء.

---

(١) تفسير القرطبي جـ١٩ صـ٢١١.

(٢) المصدر السابق صـ ٢١٣.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٥٤).

التغيير الاقتصادي :

لم يأت محمدٌ ﷺ ولم يقدم نفسه للناس بوصفه داعية اقتصادياً، أو صاحب نظرية اقتصادية جديدة، بل بُعث نبيًا وقدم نفسه بهذه الصفة، ليقول للناس: إنه قد جاء لإصلاح الدين والدنيا معًا .

ولو أراد محمد ﷺ أن يجعل دعوته اقتصادية يكون همّها الأول حال الناس وتغييرهم إلى حياة أفضل على المستوى الاقتصادي؛ لتبعه أضعاف من تبعه، ولما لاقى من العقبات ما لاقى، ولكنه أعلن أنه نبي جاء لتحقيق عبودية الإنسان لربه أولاً، ومن معاني تلك العبودية أن يعمل المسلم على إعمار الكون وفق منهج إلهي يضمن أسسًا ثابتة من أهمها: العدل وحفظ الحقوق والرحمة.

ومع ذلك فقد حقق محمد ﷺ إنجازات في الإصلاح الاقتصادي في مجتمعه سواء ما يتصل بعلاج المشكلات الاقتصادية، أو بناء الفاعلية الاقتصادية لدى أفراد المجتمع.

مشكلة الممارسات السيئة واستغلال رأس المال :

كانت هناك العديد من الممارسات السيئة في الأعمال التجارية، تهدف بالأساس إلى تضخيم ثروة الغني، وإضعاف الفقير وإذلاله حتى تصل به إلى الاستعباد، فكانت تزيد من الفوارق الطبقية، ومن هذه الممارسات :

١- **الاحتكار** : وهو أن يتحكم شخص واحد أو مجموعة محددة متفقة بينها على التحكم في سلعة أو مجموعة من السلع، فيمنعونها ويعرضونها حسب رغباتهم ويتحكمون في سعرها، ولا مجال للناس للاستغناء عنها، ولا منعهم من سوء أفعالهم.

وقد انتشر الاحتكار في المدن كمكة والطائف والمدينة، وأكثر من اشتهر بها تجار المدينة من اليهود.

لذا نهى محمد ﷺ عنه فقال: «لا يحتكر إلا خاطئ»[1].

وقال ﷺ: «من احتكر حكرة يريد أن يغلي بها على المسلمين فهو خاطئ»[2].

٢- **الربا** : لقد شاع التعامل بالربا في مكة والطائف ويثرب ونجران، ومارسه اليهود، وانتقل منهم إلى العرب، وكان على نوعين:

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (٨٤٠٣).

- ربا النسيئة: وهو زيادة المبلغ على المدين مقابل تأجيل الدفع، فكان المضطر يقترض، ويدفع مبلغًا أكبر بكثير من القرض، وربما تُرهقه الزيادة أكثر من أصل الدين.

- وربا الفضل: وهو الزيادة التي تترتب على بيع العينات المتماثلة؛ بسبب اختلاف جودتها كمبادلة التمر الجيد بالتمر الرديء على زيادة فيه.

وكان الربا يُؤخذ أضعافًا مضاعفة، وكان سببًا في كثير من الأحيان لاستعباد المدين أو أحد أبنائه إن عجز عن سداد دينه.

لذا فقد جاءت رسالة محمد ﷺ بتحريم الربا والنهي عنه، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾(البقرة: ٢٧٨-٢٧٩).

كما توعد محمد ﷺ آكل الربا ومتعاطيه؛ فيقول الصحابي جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «لعن رسول الله ﷺ: آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه»، وقال: «هم سواء».[1]

وحذَّر من الربا والزنا وخطورتهما على المجتمع فقال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلّوا بأنفسهم عذاب الله».[2]

٣- أكل أموال الناس بالباطل: فكل صاحب حق لا يستطيع أن ينال حقه إلا إذا كانت معه قوة تحميه، أو يعيش في كنف رجل قوي فينال حقه، أما غير ذلك فلا حق له يستطيع الوصول إليه، وكان هذا الأمر سببًا في حلف اتفق عليه بعض فضلاء أهل مكة قبل الإسلام، وشهده محمد ﷺ قبل بعثته، وسُمِّي بحلف الفضول، وتعاهد فيه المتحالفون على نصرة الضعيف، ومساعدته في نيل حقه، والوقوف أمام أي قويّ مهما كان حتى يُؤخَذ الحق منه، ولكن هذه الدعوات والأحلاف كانت قليلة التأثير في المجتمعات التي قامت وترسخت وتعمقت فيها تلك المبادئ الباطلة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٧)

(٢) أخرجه أحمد (٣٦١٨)

•• مشكلة التفاوت الطبقي وكيف عالجها محمد ﷺ:

لم يحاول محمد ﷺ ابتداءً إزالة الفروق الطبقية بين الناس مباشرة وكليًا، وليس في إزالتها بالكلية نوع من العدل، إذ إن الناس لا بد أن يتفاوتوا لكي تسير حركة الحياة ولكي يحتاج الناس بعضهم إلى بعض ويعمر الكون. ولذا فأي حلّ يحاول هدم الفوارق الطبقية لن ينجح؛ لأنه يصطدم بالفطرة الإنسانية قال الله تعالى في هذا: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣٢).

ولكن ما أراد محمد ﷺ تصحيحه هو إزالة الفجوة الشديدة بين الطبقات، وتحكّم الطبقة العليا في المال وفي مقدرات من سواهم، بل في مصائرهم، وعمل ﷺ على التقارب بين الطبقات؛ كي لا يتحكم الصفوة في الباقين الذين يكدحون ولا يجدون حتى حريتهم، وكان من القرارات والشرائع التي انتهجها محمد ﷺ في دعوته ما أسهم في تقريب الطبقات من بعضها بعضاً.

وكان أول التشريعات وأهمها أركان الإسلام التي لا يمكن لمسلم أن يُقبَل إسلامه دونها؛ **فالشهادتان وهو قول الإنسان**: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»، وكل مسلم يقولهما يكون له ما على بقية المسلمين وعليه ما عليهم.

والصلاة : فُرِضَت الصلاة على المسلمين عامة، ولم يستثن منها غني لغناه ولا ذو جاه لمنصبه، بل فُرِضت على الجميع، ولا تسقط عن المسلم أبدًا إلا إذا فقد عقله أو مات، وشرع لها أن تكون في جماعة في المسجد للرجال، بحيث يقف الجميع صفًا واحدًا لا يملك كبير ولا عظيم أن يمنع مسلمًا فقيرًا أو مسكينًا أن يصلي بجواره، فكانت الصلاة بابًا عظيمًا من أبواب التقريب بين فئات الناس.

والصوم: شرع الصوم، وفرض على المسلمين كافة، ولا يستثنى منه إلا مريض لمرضه، أو مسافر لسفره، ولم يُستثن غني ولا ذو جاه، وصيام المسلمين يمتد لساعات متصلة من النهار لا طعام ولا شراب، فيشعر الغني تمامًا بأخيه الفقير عندما يقاسي حرارة الجوع وشدته، وإذا كان الغني ستأتيه لحظة إفطاره، ويتناول فيها ما اشتهى، فيشعر أن له أخًا يقاسي على الدوام الآلام نفسها، ولا تأتيه لحظة إفطاره إلا إذا عطف غني عليه فيرِقّ قلبه لأخيه ويعطيه مما أنعم الله

عليه، ويذكره محمد ﷺ بقوله: «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم»[1].

وكان محمد ﷺ يلفت النظر دائمًا إلى الأثر الضار للجوع على المجتمع، إذ قرن بينه وبين الخيانة، فكان يستعيذ بالله منهما فيقول: «اللهم أني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة»[2].

•• أثر الزكاة:

الزكاة ركن من أركان الإسلام، ولا يصح إسلام مسلم قادر عليها إلا بإخراجه لزكاة ماله، وهي الركن العملي في علاج التفاوت الطبقي، فكل الأركان السابقة أركان معنوية لعلاج التفاوت الطبقي، وهي معلومة القدر، معلومة التوقيت، يُخرجها الغني من ماله ليصح إسلامه، ومن منعها متعمدًا وهو قادر فقد ركنًا من أركان إسلامه، بل وعدَّه أبو بكر الخليفة الأول ووافقه كل الصحابة مرتدًّا عن الإسلام وقاتله.

وقد أمر الله بالزكاة في القرآن الكريم في العديد من المواضع في آيات كثيرة تحمل الأمر نفسه، فقال سبحانه: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور: ٥٦)،

وعدَّها محمد ﷺ من أركان بناء الإسلام فقال: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»[3].

والزكاة تؤخذ من الغني، وتُرَدّ على الفقير، بل لها مصارف معلومة لا تُنْفَق إلا فيها؛ فليست من الموارد التي تصرف في أي وجه من الوجوه، قال الله: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠). فجعلها الله لكل ذوي الحاجة من الفقراء والمساكين والمدين الذي لا يستطيع أن يؤدي دينه، والمغترب الذي لا يجد مالاً ينفقه، وغيرهم ممن ذكرهم الله تعالى في الآية.

والزكاة لا يسعى الفقير إليها، بل الغني مطالب بأن يسعى بها إلى الفقير؛ لأنها

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٥١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٤٧)، والنسائي (٥٤٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

ركن من أركان إسلام الغني، فيجب عليه أن يبادر بإخراجها ويعطيها لأهلها، وبذلك تتحقق للفقير كرامته، فلا يمتهن نفسه على أبواب الأغنياء، هذا يعطيه وهذا يرده.

والزكاة حق للفقير في المال، وليست هبة من الغني، قال الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾(المعارج: ٢٤-٢٥)، فهي حق من الحقوق ومعلومة المقدار ليس له أن يقل عنها.

والزكاة تطهِّر نفس الغني بأن يخرجها وينتصر على نفسه، وعلى شهوة حب المال لديه كما قال الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(التوبة: ١٠٣).

والزكاة تثبت أواصر المودة بين الغني والفقير؛ لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها فتسود المحبة في المجتمع ويعلم الفقير أن له إخوانًا يحملون معه همه، ويسعون إلى تفريج كربه، فيختفي الغلّ والحقد من النفوس.

والزكاة فيها إعادة لتوزيع الثروة بين الناس؛ فلا يستقل الأغنياء بالمال فقط، فيدور بينهم ويزداد الغني غنى، والفقير فقرًا، بل يدور المال بين الأغنياء والفقراء، وتتوزع الثروات كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(الحشر: ٧) .

والزكاة تسهم في علاج مشكلة الفقر المشكلة التي يعاني منها العالم الآن، «فتؤكد الإحصائيات الدولية تزايد عدد الفقراء، واتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ويبلغ عدد الفقراء في العالم ٣ مليارات نسمة، أي نحو ٥٠٪ من سكانه، ممن يقل الدخل اليومي للفرد عن دولارين، وللأسف فإن نسبة كبيرة من هؤلاء يعيشون تحت خط الفقر، حيث يقل دخل الفرد منهم عن دولار يوميًا، وفي الوقت نفسه فإن هناك ١٧٦ مليارديرًا في العالم يملكون من الثروات ما يعادل الناتج القومي لـ٤٥ دولة، وفي الوقت نفسه فإن هناك ٤١ دولة فقط من إجمالي دول العالم البالغ ٢٠٦ دول تسيطر على ٨٠٪ من الاقتصاد العالمي، في حين لا تسيطر ١٦٥ دولة إلا على ٢٠٪ فقط»[1].

(١) جريدة الخليج الإماراتية ٢٠٠٥/٧/٢٢م.

والزكاة ليست حربًا على الملكية الفردية؛ فمحمد ﷺ لم يحارب الملكية الفردية بما جاء به، بل حماها ودافع عنها وأثبتها لصاحبها مهما كثر مال الفرد فيها، ولكنه اشترط أن يؤدي الزكاة عن ماله: فليس المطلوب أن يخرج الإنسان من ماله، ولا أن يؤخذ منه عنوة لتوزيع الثروة، فلا يملك هذا الحق أحد، ولم يستثن من هذا أحد، كما يسمح بالملكية الفردية في الأشياء التي تخص عامة الناس، فتكون الملكية الفردية إضرارًا لباقي الناس فقال ﷺ: «المسلمون شركاء في ثلاثة: في الماء والكلأ والنار».(1)

والزكاة تعمل على تحريك الأموال المتجمدة بلا استثمار، حيث إن صاحبها مُطالَب بدفع ربع العشر سنويًا، فلو تركها لأكلتها الزكاة؛ فحينئذ يُدْفَع دفعًا إلى استثمارها، وفي هذا تحريك لرأس المال، وتشغيل للموارد الراكدة بلا توظف، ومن ثَمّ إفادة لتشغيل العاطلين فيعم النفع مضاعفًا للغني والفقير والمجتمع كله، وتدفع عجلة الاقتصاد في ذلك المجتمع.

والزكاة توزع أولاً على الفقراء من أهل البلدة، فإن فاضت فالأقرب بالأقرب، وهذا فيه تكافل اجتماعي، فلن يضيع فقير في الزحام؛ لأن زكاة كل غني يأخذها مستحقوها القريبون منه.

وهكذا تسهم الزكاة في الحد من سيطرة الأغنياء على الموارد، وتسهم في حل مشكلة عظيمة، وهي التفاوت الضخم بين الطبقات.

•• المشكلات الاجتماعية ذات الأثر الاقتصادي :

ثمت مشكلات اجتماعية عدة كانت في مجتمع محمد قبل الرسالة، وهذه المشكلات ذات بعد اقتصادي، ومنها ما يلي:

•• أولا: حقوق المرأة الاقتصادية :

جاء محمد وليس للمرأة حقوق اقتصادية تُذْكَر، فللرجل الحق في طلاقها لأي سبب بلا نفقة، وله التعدد لأي عدد ممكن، وليس لها حق في ميراثه، بل عند بعضهم كانت تُورَّث هي أيضًا؛ بوصفها من ممتلكات زوجها الراحل.

ومن العجيب أنهم يحمّلون محمدًا ودينه كل الظلم الاجتماعي الذي وقع على المرأة، والصحيح العكس تمامًا، لقد كان محمد وشرعه منصفاً للمرأة، آخذاً لها

---

(1) أخرجه أبو داود(٣٤٧٧)، وابن ماجه (٢٤٧٢) .

بحقوقها، ونخص هنا حقوقها الاقتصادية:

أباح الإسلام للمرأة الحق في اكتساب المال مثلها مثل الرجل في ذلك، ومن أهم الحقوق المالية التي تكتسبها المرأة بالطرائق المشروعة ما يلي:

– **حق الإرث**: المرأة في الإسلام لها حق شرعي في التركة التي تركها مورثها، ويثبت هذا الحق منذ خلقتها في بطن أمها، ويستمر ثابتًا لها ويحق لها التصرف فيه بعد وفاة مورِّثها، فلها بيعه وهبته ومنحه لمن تشاء، أو الاحتفاظ به والعمل فيه، قال الله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ (النساء: ١١) ، فالإرث حق واجب للمرأة، مهما كانت حالتها وفقرها وغناها، بنتًا أو أمًّا أو أختًا، عاقلة أم مجنونة، رشيدة أم سفيهة، صالحة أم غير ذلك، وليس لأحد مَن كان أن يحرمها من هذا الحق المشروع الذي شرعه الله لها ولا تمنع منه إلا بموانعه الشرعية من كفر، أو ردة، أو قتل لمورثها.

– **حق النفقة**: النفقة حق للمرأة يلتزم بها ولي أمرها، سواء أكانت أمًّا أم أختًا أم بنتًا أم قريبة يرثها وترثه، وإذا تزوجت انتقل هذا الالتزام على الزوج منذ قيام عقد الزوجية بينهما، وعليه أن ينفق باعتدال حسب العادة والبيئة: لا يميل إلى الإسراف أو التقتير، ولا يحمل نفسه فوق طاقتها كما قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ (الطلاق: ٧) ،

وهذا الإنفاق يعدُّ سببًا من أسباب قوامة الرجل على المرأة كما قال تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (النساء: ٣٤) .

وهناك طرائق مشروعة أخرى للمرأة يثبت بها حق اكتساب المال مثل: العمل براتب أو بأجر يومي أو شهري عند خروجها للعمل بالشروط المشروعة لعمل المرأة في الإسلام، وما يترتب عليه من حقوق، ومن الطرائق الأخرى المشروعة للتملك: الوصية، والهبة، والمنحة، وغيرها.

كما كان من الطرق المتاحة للمرأة للاكتساب التجارة، ويكفي في ذلك أن زوجة محمد ﷺ الأولى خديجة كانت تمارس التجارة، وكان سفره للتجارة بمالها هو سبب زواجه ﷺ منها.

وفي المقابل على المرأة الواجبات المالية، وهي ناتجة عن حقها في التصرف وأهليتها له وانفصال ذمتها المالية عن ذمة من تلزمه نفقتها.

فعلى المرأة حقوق وواجبات مالية تجب في مالها كالزكاة المفروضة إذا ملكت نصابًا ومضى عليها الحول، ولها أن تتصدق على الفقراء والمحتاجين والمساكين وذوي القربى، وتبذل ما تستطيعه من فضل مالها في الإنفاق في سبيل الله، كما لها أن تنفق على والديها وإخوانها وأخواتها وقرابتها إذا كانوا فقراء محتاجين، وكانت قادرة مستطيعة بالمعروف ولها أجر كبير.

وبهذا التشريع المحكم قضى محمد ﷺ بما جاء به من الحق المبين على مشكلة المرأة الاجتماعية التي تحمل بين طياتها بعدًا اقتصاديًا.

•• ثانيا: مشكلة الخمر:

كانت هناك صناعة قائمة للخمر تدار فيها رؤوس أموال كثيرة، والخمر خبيثة مضارّها أكثر من منافعها ولكن عالج محمد ﷺ مشكلة الخمر، مع مراعاة البعد الاقتصادي فيها، فجاء تحريم الخمر على أربع مراحل؛ كل مرحلة تُضَيِّق الأمر أكثر فيزهد الناس في هذه الصناعة، ولا يستخدمون رؤوس أموالهم في صناعة تكاد تعود عليهم بالخسارة المادية، وهذا ما حدث فعلاً؛ لأنه لو أمر ونادى بتحريم الخمر تحريمًا قاطعًا من أولِ لَفْت النظر لها لأصبحت مشكلة اقتصادية ضخمة، ولكن جاء النهي وتحريمها على مراحل كما يلي:

•• المرحلة الأولى: التنفير منها:

بدأ بتنفير الناس من الخمر بطريق غير مباشر، كخطوة أولى، وذلك حين أنزل الله تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾(النحل: ٦٧) . وهي تتضمَّن تلميحًا إلى ضررها مع وجود منافع اقتصادية للنخيل والأعناب، حيث ذكر أنهم اتخذوا من ثمراتها سَكَرًا ورزقًا، فوصف الرزق بأنه حسن، وسكت عن السَّكَر ليَفهمَ السامعُ أنه قبيح. وبدأ أصحاب تلك الصناعة في التفكير فيها.

•• المرحلة الثانية: الموازنة بين منافعها ومضارّها:

فحرّك عقولهم إلى الموازنة بين نفعها المادي الضئيل، وضررها الجسدي والروحي الكبير كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾(البقرة: ٢١٩) ، وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأَوْلى مادام الإثم أكبر من النفع، وهنا يشعر أصحاب صناعة الخمر وبائعوها بأنها ليست تجارة

نافعة فيُمسكون عن استيرادها بغرض إنهاء مخزونهم، ولا حاجة لتصنيع جديد منها.

•• المرحلة الثالثة: تحريم جزئي أثناء الصلوات وما قبلها :

التحريم الجزئي للخمر في أوقات الصلاة؛ لأنها تُفقد شاربها القدرة على التركيز أثناء إقامة فريضة الصلاة، فنزلت الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾(النساء: ٤٣) ، وفي هذا تقليل لفرص أوقات الشرب، فكأنما حرمت الخمر في هذا النصّ سائر النهار، ولم يبق للمولعين بها إلا الليل من بعد صلاة العشاء، وفي هذا تضييق على شاربي الخمر وهو ما جعل صانعيها وبائعيها يشعرون بقرب بوار تلك التجارة، وأنه لا طائل من ورائها.

•• المرحلة الرابعة: التحريم النهائي :

ثم جاءت الخطوة الحاسمة، وهي التحريم القطعي للخمر في جميع الأوقات؛ فصدر الأمر الجازم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة: ٩٠) ، وهنا قال المؤمنون: انتهينا ربنا، ولم يضار أصحاب تلك الصناعة ضررًا بالغًا، بل تحملوا أخفَّ الأضرار الممكنة في ذلك.

•• ثالثاً: مشكلة الرق :

الرق ظاهرة قديمة قِدَم التاريخ، ولم يأت بها محمد ﷺ بل سبقت وجوده ووجود دعوته بآلاف السنين، وسيظل الرق مشكلة قائمة سواء أكان ذلك بشكله المعلن أم بشكله الخفي، وهو ناتج عن تجبر الإنسان وحبه أن يستعبد من حوله، ويسلبهم حريتهم لقوته وضعفهم، كما في عالم الغاب تمامًا فالبقاء للأقوى، فيستعبد الأقوى الأضعف ولا يُنَال حق إلا بقوة.

فكان من عمل محمد ﷺ الذي جاء من قِبَل ربه لإنقاذ البشرية من جنوح أنفسها أن يلتفت لهذه الظاهرة، ويُوجد لها علاجًا، ولكن هناك عقبة تقف في طريق الإصلاح، فما أسهل سنَّ القوانين، وما أصعب التنفيذ إن كان في التنفيذ مضرة حقيقة ومعتبرة؛ لأن العبيد كانوا من المتاع المملوك للإنسان ومن بنود ثروته، فكان يبيع منهم عند الحاجة، وكان يتاجر فيهم ويكتسب منهم من بيعهم، فإذا صدر قانون بعتق العبيد وتحريرهم، فمن يعوض حينئذ السادة عن الحقوق المهدرة والأموال الضائعة، وستكون صورة محمد عندئذ أنه جاء ليسلب الناس ما في أيديهم من ممتلكاتهم، فكان لا بد

من حل يحقّق الأمرين معًا: تحرير العبيد، والقضاء التدريجي على ظاهرة الرق، وأيضًا الحفظ لذوي الأموال أموالهم، فكان من تشريعه ما أسماه الاختصاصيون: بتضييق المدخل وتوسيع المخرج.

فتضييق المدخل كان بإلغاء جميع قنوات الرق كالخطف والإعسار (الرجل لا يستطيع أن يدفع دَيْنَه فيصير عبدًا للدائن) والفقر وغيرها، وجعل القناة الوحيدة للرق واستثناها من جميع الأسباب الأُخَر هي الحرب، أما توسيع المخرج بما يلي:

أولاً: الحض على إعتاق العبيد.

ثانيًا: إعطاؤهم الفرصة لشراء أنفسهم بالمكاتبة، وهو تشريع يعطي العبد الحق بأن يشتري حريته مقابل مبلغ من المال: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾(النور: ٣٣).

ثالثًا: جعل الله تعالى عتق الرقبة كفارة لعدد من الأعمال (كالقتل مثلاً)، وجعلها بجانب الصيام، فيكفر الإعتاق ما يكفره صيام شهرين متتابعين، وكفارة الظهار وهو قول الرجل لامرأته: أنت عليّ مثل أمي أو أختي أيضًا عتق رقبة، وكفارة معاشرة الرجل زوجته في نهار رمضان، وكفارة اليمين.

رابعًا: لا يوجد نص من القرآن، ومن أقوال محمد ﷺ يأمر بالاسترقاق أمرًا، ويحث عليه، بخلاف الإعتاق؛ فإنه دائمًا ما يتكرر الحضّ الشديد عليه، ويذكره مع أفضل الأعمال الصالحة وأشرفها كما في قوله عز وجل: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ (البلد: ١٣ – ١٤) وغيرها الكثير.

أما من وقعوا في الرق، فقد حفظ الإسلام لهم حقوقهم بشكل لا يمكن وجوده في تشريع آخر، ونذكر من حقوقهم ما يلي:

أولاً: المساواة في مستوى الأكل والشرب والكساء بينهم وبين السادة كما قال ﷺ «إخوانكم خَوَلكم، جعلهم الله تحت أيديكم،فمن كان أخوه تحت يده فلْيُطعمه مما يأكل ولْيُلبسه مما يلبس».(1)

ثانيًا: معاملتهم بالحسنى والعدل معهم:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤٥)، ومسلم (١٦٦١).

روي أن عثمان بن عفان ﷺ دَعَك أُذُن عَبْدٍ له على ذنب فعله، ثم قال له بعد ذلك: تقدم واقرص أذني. فامتنع العبد فألحَّ عليه، فبدأ يقرص بخفة، فقال له: اقرص جيدًا، فإني لا أتحمل عذاب يوم القيامة، فقال العبد: وكذلك يا سيدي: اليوم الذي تخشاه أنا أخشاه أيضًا.

وكان عبد الرحمن بن عوف ﷺ إذا مشى بين عبيده لا يميزه أحد منهم؛ لأنه لا يتقدمهم، ولا يلبس إلا من لباسهم.

ومر عمر بن الخطاب ﷺ يومًا فرأى العبيد وقوفًا لا يأكلون مع سادتهم، فغضب، وقال لمواليهم: ما لقومٍ يستأثرون على خدامهم؟ ثم دعا الخدم فأكلوا معهم.

ودخل رجل على سلمان ﷺ فوجده يعجن - وكان أميرًا - فقال له: يا أبا عبد الله ما هذا؟! فقال: بعثنا الخادم في شغل، فكرهنا أن نجمع عليه عملين!

ثالثًا: تحريم الاعتداء عليهم بالضرب أو الشتم أو غيره:

قال ﷺ: «من قذف مملوكه وهو برِيء مما قَال جُلِدَ يومَ القيامة إلا أن يكونَ كما قَالَ».[1]

وقال: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه»[2].

رابعًا: جعل ابن الرجل من الأمة حرًّا.

خامسًا: حضّ الإسلام على تحرير الإماء.

سادسًا: إذا أنجبت الجارية من سيدها لم تَعُدْ أمة، بل تكون حرة وتسمى: أم ولد، فذلك موجب لعتقها وتحريرها.

سابعًا: دعا إلى مناداتهم بألفاظ أكثر إكرامًا لهم، فالنبي ﷺ يقول: «لا يقل أحدكم عبدي وأَمتِي، ولكن لِيَقُلْ فتاي وفتاتي» وذلك لما في القرآن ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ ولما في آية أخرى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾(النساء: ٢٥).

ثامنًا: لم يُحل للسيد إلا الأمة التي بدون زوج، تكريما لها[3].

وغيرها من الحقوق العظيمة التي تكفل لهم حقهم في حياة كريمة، فكان هذا التشريع مضيِّقًا لأسباب الرق، موسعًا للخروج منه، مما يحقق التوازن المطلوب بين البُعْد الاجتماعي، والبُعْد الاقتصادي.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٦٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٧).

(٣) انظر: جدليات الفكر المعاصر، إبراهيم العبادي.

•• تنمية السلوك الاقتصادي الفردي :

دعا محمد ﷺ في العديد من توجيهاته إلى تنمية المسؤولية الفردية في السلوك الاقتصادي، من خلال التأكيد على أهمية العمل لدى الفرد ومسؤوليته عن ذلك.

وعدّ محمد ﷺ عمل الفرد من أفضل المكاسب التي يكسبها، وبيّن لأتباعه أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يمارسون هذا السلوك، عن المقدام ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[1].

وكان محمد ﷺ يشجّع أصحابه على الاكتساب المباح، ويبين لهم تنوع مجالات الاكتساب، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ مروا بماء فيهم لديغ أو سليم، فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال: هل فيكم من راقٍ؟ إن في الماء رجلاً لديغًا أو سليمًا.

فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء فبرأ.

فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكرهوا ذلك، وقالوا: أخذت على كتاب الله أجرًا؟

حتى قدموا المدينة فقالوا: يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجرًا.

فقال رسول الله ﷺ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله»[2].

وكان محمد ﷺ يشجّع أصحابه على الاكتساب، فيتلقى الخدمات منهم، ويعطيهم أجرتهم مقابل ذلك، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ احتجم، وأعطى الحجّام أجره [3].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: دعا النبي ﷺ غلامًا حجامًا فحجمه، وأمر له بصاع أو صاعين، أو مد أو مدين، وكلّم فيه فخفف من ضريبته[4].

إن هذه المواقف تتجاوز كونها مجرد ممارسة عملية تجارية من محمد ﷺ؛ فهي تأكيد منه على مشروعية الاكتساب، وتأكيد على أن هذه الأعمال من المصادر السائغة للكسب، ولهذا نجد الرواة ينقلون هذه النصوص ويُدَوِّنونها، كما نجد أن من يمارسون هذه المهن وغيرها يستشهدون بمثل هذه المواقف.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٧)، ومسلم (٢٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٩١)، ومسلم (١٢٠٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٨١)، ومسلم (١٥٧٧).

•• التشجيع على التملك والإحياء :

من أدوات تفعيل النشاط الاقتصادي التي مارسها محمد ﷺ مع أصحابه: فتحُ الباب لتملك الأرض للزراعة والفلاحة.

فقد قرَّر محمد ﷺ مبدأ أن من قام بإحياء أرض لا يملكها أحد فهي مِلك له، فعن أسمر بن مضرس الطائي قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته فقال: «من سبق إلى ماء لم يسبقه إليه مسلم فهو له». قال: فخرج الناس يتعادون يتخاطون(١).

وعن عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال: «من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق»(٢).

ولم يكتفِ محمد ﷺ بمجرد الإباحة، بل شجَّع على ذلك وحثَّ عليه، وأخبر أن الإنسان يُؤْجَر على مثل هذا العمل، فعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحيا أرضًا ميتة فله فيها أجر، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة»(٣).

•• ترشيد المكاسب :

لقد كان منهج محمد ﷺ في الحث على الاكتساب متوازنًا؛ فهو لم يفتح الباب على مصراعيه لأي باب من أبواب الكسب.

فقد نهى عن مصادر الكسب التي تتم من خلال ممارسة نشاط اقتصادي غير مشروع في أصله، فعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن(٤).

فالبغاء والكهانة مُحَرَّمَان في الشريعة، ولهما آثار سيئة على المجتمع، لذا نهى محمد ﷺ عن الكسب الناشئ عنهما، وأخبر أنه كسب خبيث، أما الكلب فقد أباح اقتناءه للحاجة، وهي الصيد، والحرث، والرعي.

وقد تركت هذه التوجيهات النبوية أثرها على أصحاب محمد ﷺ، فعن عائشة - رضي الله عنها- قالت: كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٣٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٠٩١).

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٣٧)، ومسلم (١٥٦٧).

من خراجه، فجاء يومًا بشيء فأكل منه أبو بكر.

فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟

فقال أبو بكر: وما هو؟

قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أُحسن الكهانة، إلا أني خدعته فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه.

فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه[1].

إنه لا يلزم الإنسان أن يستقيء في مثل هذا الموقف، لكن هذا كان مزيد حرص من أبي بكر ﷺ على البعد عن أكل المال الحرام.

وبين محمد ﷺ أن أكل الإنسان للمال الحرام سبب لمنع إجابة الله لدعائه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس: إن الله طيِّب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾(المؤمنون:٥١) وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ (البقرة:١٧٢)، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّيَ بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك»[2].

وقد نهى محمد ﷺ عن صور عديدة من المكاسب التي ربما تحقق دخلاً لبعض الأفراد على حساب الآخرين.

ومن تلك الصور التي نهى عنها محمد ﷺ ما يلي:

- ما فيه ظلم للآخرين؛ فقد أكد على أنه لا يحل مال الآخرين إلا عن طيب نفس ورضًا[3]، ونهى عن المكوس[4]، وهي تلك الضرائب التي يأخذها بعض الناس تسلطًا وظلمًا، ونهى عن أكل مال اليتيم، وحذر من ذلك[5].
- ما فيه غش وخداع؛ فقد نهى عن الغش عمومًا، وحذَّر منه ليستوعب ذلك النهي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠١٧٢).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٩٣٧).

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩).

كلَّ الصور المستحدثة والمستجدة، ونهى البائع عن أن يُخفي العيب في السلعة، فقد مرَّ في السوق على رجل يبيع الطعام، فأدخل يده فيه فوجد فيه بللاً، فأمره أن يجعل ذلك في أعلى الطعام حتى يعرف المشتري فيشتري عن بينة[1].

- ونهى عن البيوع التي تقود إلى الخصومة والنزاع والخلاف بين المتبايعين؛ فنهى عن بيع المجهول[2]، وعن الذي لا يُدْرَى أيتحقق أم لا؟ ونهى أن يبيع الرجل على بيع أخيه وشرائه على شرائه[3]، وذلك بأن يأتي الرجل لبائع ومشتر يتفاوضان على البيع، فيعرض للبائع سعرًا أعلى مما عرضه المشتري، إلا في حالة المزاد.
- ونهى عن المقامرة في البيع.

•• البُعْد عن التدخل في النشاط الاقتصادي :

سعى محمد ﷺ إلى ترك قوى السوق تعمل بصورة طبيعية دون تدخُّل منه، فعن أنس ﷺ قال: قال الناس يا رسول الله! غلا السعر فَسَعِّرْ لنا. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله هو المسَعِّر القابض الباسط الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم ولا مال»[4].

أما لو كان السبب ناتجًا عن تواطؤ أصحاب السوق، واتفاقهم للإضرار بالناس فإن الأمر حينئذ يستوجب هذا التدخل.

•• الحفاظ على المال العام :

أكَّد محمد ﷺ على الحفاظ على المال العام، واعتنى بتربية أتباعه على رعاية المسئولية تجاه هذا المال المهم، فقد حذَّر ﷺ من التساهل في المال العام والعبث به، وتوعد من يفعلون ذلك بالعقوبة في الدار الآخرة، عن خولة الأنصارية -رضي الله عنها- قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة»[5].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٥١٣).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٦٠)، ومسلم (١٤١٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٤٥١)، والترمذي (١٣١٤)، وابن ماجه (٢٢٠٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣١١٨).

كما كان يؤكد على رعاية هذه المسئولية في توجيهه لمن يتولون مهمات تتصل بمباشرة المال العام والتعامل معه، وأن يكون ما يأخذه هؤلاء من أجر نتيجة القيام بهذه المهمات كافٍ لهم، فعن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقًا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول»[1].

كما كان محمد ﷺ صارمًا في التعامل مع المخالفات التي تصدر بشأن التعامل مع المال العام، ولو كانت تلك المخالفة نتيجة اجتهاد أو لبس في الفهم، فعن أبي حميد الساعدي أن رسول الله ﷺ استعمل عاملاً، فجاءه العامل حين فرغ من عمله.

فقال: يا رسول الله هذا لكم، وهذا أُهدي لي.

فقال له: «أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك فنظرت أَيُهْدَى لك أم لا؟»

ثم قام رسول الله ﷺ عشية بعد الصلاة فتشهد، وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال:

«أما بعد: فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول: هذا من عملكم، وهذا أُهدي لي؟ أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر هل يُهدَى له أم لا؟»[2].

وحتى لا يتجرأ الموظف الذي يباشر المال العام على الأخذ منه بغير حق، فقد كان محمد ﷺ يكفل له حقوقه الشخصية حتى يستغني عن التطلع للأخذ من المال العام، فعن المستورد بن شداد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادمًا، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنًا». وحين يتجاوز العامل ذلك يصفه محمد ﷺ بأنه غالّ أو سارق[3].

•• المحافظة على الموارد العامة :

ومن جوانب التغيير الاقتصادي لدى محمد ﷺ تأكيده على حماية الموارد العامة، فالموارد التي تتعلق بها مصالح عامة الناس لا تملك ملكًا فرديًا.

فقد قرَّر محمد ﷺ تلك القاعدة بقوله: «المسلمون شركاء في ثلاث: في الكلأ، والماء، والنار»[4].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٦)، ومسلم (١٨٣٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٩٤٥)، وأحمد (١٧٥٥٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٤٧٧)، وأحمد (٢٢٥٧٣).

فالمراعي التي يحتاجها عامة الناس، والعيون والآبار العامة، وأدوات إيقاد النار؛ كل هذه لا يجوز ملكها ملكاً فرديًا، فمصالح عامة الناس متعلقة بها، ولقد كانت تلك الثلاث في عده ﷺ، ويمكن أن يقاس عليها غيرها في كل عصر بشروطها.

وهو حين يمنح أحد رعيته إقطاعًا كان يتحاشى الموارد العامة، عن أبيض بن حمال أنه وفد إلى رسول الله ﷺ فاستقطعه الملح الذي بمأرب (أي سأله أن يمنحه إياه) فقطعه له (أي منحه له)، فلما أن ولّى قال رجل من المجلس: أتدري ما قطعت له؟ إنما قطعت له الماء العِدّ. قال: فانتزعه منه[1].

بذل ما لا يضر بالإنسان بذله:

أكد محمد ﷺ أن على الإنسان أن يبذل للآخرين ما لا يضر بماله، ومن ذلك ما رواه ابن عمر - رضي الله عنهما- فقال: نهى النبي ﷺ عن عسب الفحل[2].

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٦٤) والترمذي (١٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٨٤).

•• التغيير السياسي :

يذكر علماء السياسة والقانون الدستوري أن أُسُس قيام دولةٍ ما أربعة، وهي: (الأرض، والشعب، والقانون، والسلطة)، فلا دولة بغير تلك الأسس.

ونحاول هنا أن نوضح خطوات بناء الدولة كما بناها محمد ﷺ، فلم تكن هناك دولة إسلامية بالمعنى الواضح للدولة إلا في يثرب مكان الهجرة التي هاجر إليها محمد ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم -، ولم تكن هناك دولة إسلامية في أي تجمُّع إسلامي قبلها.

•• مراحل دولة محمد ﷺ

•• مرحلة ما قبل المدينة :

كان هدف محمد ﷺ واضحًا؛ حيث كان يسعى لقيام دولة تحمل الدين، وتبلِّغه للناس، ولكنه ﷺ ما كان يضع هذا الهدف بعيدًا عن منهجه، فكان حريصًا أولاً على تبيان حقيقة أنه ما بُعِثَ لكي يكون رئيس دولة ولا مَلِكًا، ولو أراد ذلك لاغتنم الفرصة الذهبية السانحة حينما عرض عليه أهل مكة في أوائل دعوته أن يكون ملكًا عليهم على أن يترك الدعوة لدينه فرفض.

فلم يكن الملك من أولوياته، بل كانت القيادة وسيلة لتبليغ دعوة ربه جل وعلا، وإعادة الناس إلى عبادة ربهم.

فكان التجمع الأول في مكة، وفيها كان يتوافر ركنان، هما: الأرض والشعب، ويتخلف ركنان، وهما: السلطة والقانون، فلم يكن للمسلمين ولا لمحمد ﷺ سلطة في مكة: إذ كانوا أفرادًا، والسلطة الحاكمة تعاديهم وتُنَكِّل بهم، وتُنْزِل بهم أشد الابتلاءات، ولم يكن لهم قانون متكامل، فلم يتنزل القرآن بالتشريعات الكاملة على محمد ﷺ إلا بعد الهجرة، وبعد قيام الدولة، فكان معظم القرآن المكي يؤكد على العقيدة والخلق، ويثبت تلك المعاني بالنصائح القلبية، وقصص الأنبياء السابقين وما يدعو إلى العبودية والتوحيد ومكارم الأخلاق.

وقد صبر محمد ﷺ وأصحابه في مكة، لعل تحسُّنًا يطرأ على الواقع السياسي بها، ولكنه ما حدث، بل كان العداء يزداد شراسة وضراوة، واقترب خطر الإبادة له ولأصحابه، فكان لا مناص من البحث عن مكان لإقامة الدولة الإسلامية.

وسعى محمد ﷺ إلى اختبار عدد من الخيارات في خطوة بناء دولته:

فسافر إلى الطائف ودعا أهلها إلى الإسلام وإلى قبوله، لكنهم لم لم يستجيبوا لدعوته، بل كانوا أشد رفضًا لدعوته من أهل مكة.

واستثمر فرصة وفود قبائل العرب إلى مكة في موسم الحج، فصار يأتي إليهم ويعرض عليهم الإسلام والرحيل إليهم.

وفي العام الحادي عشر من البعثة جاء وفد من ستة رجال من عرب يثرب من قبيلتي الأوس والخزرج، وكان يسكن معهم في يثرب قبائل من اليهود، وسمعوا منهم ما كانوا يتداولونه من اقتراب ظهور نبي آخر الزمان، فلما رأوا صفاته آمنوا به، وخشوا أن يسبقهم اليهود إليه، ورجعوا إلى قومهم، وعادوا في السنة المقبلة في العام الثاني عشر من البعثة، وهم اثنا عشر رجلاً، وأسلموا بين يدي محمد ﷺ، ومن هنا بدأ محمد ﷺ يفكر في يثرب بوصفها قاعدة انتشار وانطلاق للإسلام بعيدًا عن مكة.

وأرسل مع هذا الجمع رجلاً سفيرًا له لأهل يثرب، وهو مصعب بن عمير رضي الله عنه يعلمهم الإسلام، فكان أول سفير للرسول ﷺ في الإسلام، وعاد مصعب في السنة المقبلة ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان في موسم الحج، ورتب محمد ﷺ معهم موعدًا للقائهم، وقابلهم بعد سلسلة من الترتيبات المحكمة: كي لا يشعر بهم أحد سواء كان من قومهم الذين جاؤوا معهم أو من أهل مكة.

وكان هذا الاجتماع هو المؤتمر التحضيري والتأسيسي للدولة الإسلامية الوليدة فكان لا بد أن يحفظ بعناية خاصة، ويحاط بسرية كاملة حتى على المسلمين من أهل مكة، فلم يعلم به أحد إلا من كان له عمل في تلك الليلة، فلم يعلم به إلا أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما- ، وكان من مهمتهما حراسة مكان الاجتماع كي لا يكشف مكانهم ولا اجتماعهم أحد.

وفي هذا الاجتماع تم الاتفاق على أن ينتقل محمد ﷺ وأصحابه من مكة إليهم في يثرب، على أن تكون يثرب وطنًا لهم وللدين.

وعلى أن يكون ولاؤهم الكامل للإسلام ولنبي الإسلام، وعلى أن تكون السلطة هناك لمحمد ﷺ عند قدومه إليهم، وعلى أن يكون التشريع الذي يحكمهم هو ما أنزله الله في قرآنه، وما يبلغه رسوله ﷺ لهم، وعلى أن يتحملوا نصيبهم من التعب والمشقة

وعداوة العرب كلها، ولم يَعِدْهم ﷺ في الاجتماع بأية مغانم في الدنيا، بل وعدهم بالأجر من الله سبحانه، فوافق القوم وأعطوه العهود والمواثيق.

ولعل في وجود المرأتين في هذا الاجتماع التاريخي البالغ الخطورة مَلمَحاً حَسَناً بأن النساء شقائق الرجال في هذا الدين وأن عليهم جميعاً تقع أعباء قيام الدولة الجديدة، وهو ما أكدته الأحداث بعدئذ.

وبعد أقل من شهر بدأ توافد المسلمين على يثرب، وبدأت الهجرات تتوالى، وكان آخرهم هجرةً محمدٌ ﷺ وصاحبه أبو بكر ﷺ بعد أن اطمأنَّ على هجرة أصحابه قبله.

•• مرحلة المدينة وتأسيس الدولة :

منذ بداية تلك المرحلة صار محمد ﷺ قائداً لهذه الدولة الناشئة، ويعمل على تدعيم أركانها؛ كي تثبت أمام كل المعوقات.

لقد كان محمد ﷺ يعلم أن تلك الدولة مستهدَفة من قوًى متعددة؛ فاستعد لتلك التهديدات كلها ببضع دعامات، واستطاع إرساء قواعد تلك الدولة الفتية، وبدأ بسلسلة من الإجراءات السياسية ،منها:

١- بناء المسجد:

لم يكن المسجد مجرد مكان لأداء الصلاة، بل كان للمسلمين بمنزلة البرلمان الذي يجمع أهل الحكمة والمشاورة، وإصدار القرارات المهمة.

٢- تأسيس العقد الاجتماعي:

يتمثل هذا الإجراء في عقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكتابة وثيقة بهذا المضمون، وفيها حقوق للأطراف كافة وواجباتهم التي كانت تقوم على حق مهم وأصيل، وهو حق المساواة بين جميع أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات، وكذلك معاهداته مع اليهود داخل المدينة وما حولها.

٣- المعاهدات الخارجية لحماية الدولة:

وكانت مع بعض القبائل المتناثرة، وخاصة فيمن كان أهل المدينة يمرون عليهم في تجارتهم، فكان ﷺ يتحين الفرصة في كل سفر خارجي أن يعقد معاهدات مع القبائل التي يمر عليها في طريقه، وبدأ ذلك منذ أول سفر له حتى آخر غزوة غزاها، وظل يوسع دائرة المعاهدات مع تلك القبائل.

٤- تكوين الجيش الإسلامي:

عمل محمد ﷺ على أن يحذر أصحابه من استهداف دولتهم الوليدة من الأطراف الخارجية، وخاصة تهديدات أهل مكة لهم، فشرع في بناء الجيش للدفاع عنهم وحفظ مكتسباتهم، فكان الجيش في تلك الدولة يشمل كل مَن له القدرة على حمل السلاح.

وجرى وضع كل أفراد الدولة تحت قوة الاحتياط، فكلما دهمهم عدو أو شعروا بتهديده تحوَّل الجميع إلى مقاتلين، وحملوا السلاح وخرجوا به، ولم يُستثنَ من ذلك إلا النساء وكبار السن والمرضى، وإن كانت النساء يخرجن مع الجيوش لأداء مهمات تصلح لهن، منها: التمريض، وسقاية الجيش، وإعداد الطعام وغيره.

٥- التلاحم بين القائد وجنده:

لم يجعل محمد ﷺ القيادة تُبعِده عن أصحابه وأمته، فكان ﷺ يتواصل معهم، ويشرح لهم كل شيء بدقة وصراحة، حتى غدا كل منهم يحمل همّ هذا الدين، ويتحمل عاقبة كل قرار يتخذه القائد؛ لأنه كالقرار الذي يتخذونه جميعاً.

ولهذا لا نتعجب أن يكون ردّ الصحابة واحدًا في كل المواقف القتالية، فهذا سهل بن سعد رضي الله عنه يحدثنا عما جرى في يوم خيبر يوم أن طلب محمد ﷺ من علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يقود الجيش لفتح خيبر، فسأله علي عن الغرض والغاية من القتال؛ فقال: يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انفذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه؛ فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[1].

وكانت هذه الغاية من القتال فهمًا عامًا وشاملاً حتى لمن جاء بعدهم من الأجيال التي تلتهم؛ فقد ذهب تابعي يسمى ربعيُّ بن عامر إلى رستم قائد الفرس؛ فسأله رستم قائلاً: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنُخرِج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؛ فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قَبِلَ منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله. قال: وما موعود

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه [1].

٦- **قيادة الدولة بالحب:**

لم يقد محمد ﷺ المسلمين بالعصا، فقد جمع في تمازج رائع بين مهمات النبوة والرسالة ومهمات الدولة والرئاسة فكان حازمًا في غير شدة تقسو على أتباعه، وبغير لين يطمع فيه أعداؤه، ولكنّ الصفة الأبرز فيه ﷺ أنه استطاع أن يكسب قلوب أصحابه فأحبوه حبًّا كبيرًا يفوق الخيال، وكانوا على أتم الاستعداد بفدائه بأنفسهم وبأبنائهم، وبجميع ما يملكون، يقول له عمر بن الخطاب ﷺ ذات يوم ويُقسم على ذلك: «والله لأنت أحب إليّ من نفسي» [2].

وبلغ حبهم له ﷺ قدرًا عظيمًا، حتى اللحظة التي يكاد يفقد فيها الإنسان روحه يوصي من حوله بالدفاع عن محمد ﷺ، فيروي يحيى بن سعيد، ويقول: «لما كان يوم أُحد قال رسول الله ﷺ: من يأتيني بخبر سعد بن الربيع الأنصاري؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله! فذهب الرجل يطوف بين القتلى، فقال له سعد بن الربيع: ما شأنك؟ فقال له الرجل: بعثني إليك رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك. قال: فاذهب إليه، فأقرئه مني السلام، وأخبره أني قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وأني قد أُنفذت مقاتلي، وأخبر قومك أنه لا عذر لهم عند الله إن قُتل رسول الله ﷺ وواحد منهم حي» [3].

في رواية أخرى يقول سعد: «على رسول الله السلام وعليك السلام، قل له: يا رسول الله أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يُخلَص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف، وفاضت نفسه رحمه الله».

وعندما أُسِرَ أحد صحابته وهو زيد بن الدثنة ﷺ «قال له أبو سفيان حين قُدِّم ليقتل: أنشدك بالله يا زيد! أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٤٠١.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

(٣) أخرجه مالك (١٠١٣).

جالس في أهلي. فقال أبو سفيان متعجبًا - وذلك قبل إسلامه - : ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحُبِّ أصحاب محمد محمدًا». والرد نفسه يرده خبيب بن عدي ﷺ وهو يُقَدَّم للقتل والصلب على خشبة، فإنهم «لما رفعوا خبيبًا على الخشبة نادوه يناشدونه: أتحب أن محمدًا مكانك؟ قال: لا؛ والله العظيم، ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه! فضحكوا منه».[1]

ومن الصحابيات من فقدت زوجها وأخاها وأباها في قتالهم في صفوف محمد ﷺ، ورغم تلك المصائب الشديدة إلا أنها لم تكن تسأل إلا عنه ﷺ، وتهون أي مصيبة من بعد سلامته: قال سعد بن أبي وقاص: مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحُد؛ فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[2]. وجلل هنا بمعني قليلة أو هينة.

وقيادة الناس تحتاج إلى سلطة وسلطان؛ إما سلطان القهر والخوف، أو سلطان الحب والتقدير، وقد اختار ﷺ سلطان الحب والتقدير؛ لأن سلطان الخوف والقهر لا يصنع رجالاً ولا يبني حضارات أبدًا، وما إن يتخلص الناس من الخوف حتى تنهار تلك الحضارات الزائفة سريعًا، بل أسرع مما يتخيل معتنقوها، والتاريخ خير شاهد، فكم انهارت حضارات ودول عظمى؛ لكونها بُنِيَت على سلطان القهر والخوف، وزالت بزوال مؤسسيها الذين أخضعوا الشعوب بالذل والقهر والاستعباد!

٧- مبدأ الشورى:

بالرغم من أن محمدًا ﷺ كان يحمل رسالة ربانية، وبالرغم من أن حكمته ورجاحة عقله البادية بكل وضوح في ثنايا حكمه لدولته؛ إلا أن التشريع الإسلامي أكَّد على مبدأ الشورى وبوصفه مبدأ أساسياً في حكم الدولة في كل زمان، وترك له أمورًا يقضيها بينه وبين المسلمين؛ لكي يُقِرَّ في الناس مبدأ الشورى بوصفه قيمة إسلامية لا يمكن التنازل عنها.

---

(١) سيرة ابن كثير ١٢٥/٣.

(٢) تاريخ الطبري ٧٤/٢.

ولكي تكون الشورى أصلاً لا يمكن لمن بعده ﷺ أن يحيد عنه، ولا أن يجتنبه في قيادته للدولة من بعده؛ مارس ﷺ الشورى وعلمها أصحابه، وقبل ذلك أعلت آيات القرآن من أهمية مبدأ الشورى بوصفها قيمة كبرى في حياة المسلمين، وأنزل الله سورة من سور القرآن سميت بالشورى، وفيها أنزل الله تلك الآيات التي تصف المؤمنين بأوصاف من ضمنها أنهم أهل شورى لا أهل قرارات منفردة؛ فقال: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى: ٣٦-٣٨).

يقول القرطبي في تفسيره للآيات: «مدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك، وقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب، وذلك في الآراء كثير، ولم يكن يشاورهم في الأحكام؛ لأنها مُنَزَّلَة من عند الله»[1].

ففي غزوة بدر اللقاء المصيري الأول بين المسلمين ومشركي مكة خرج محمد ﷺ وقلة من أصحابه للقافلة، فوجدوا أمامهم جيشًا جرارًا، عدده يصل إلى ثلاثة أضعاف عددهم؛ فوقف واستشار الناس، فيقول أبو أيوب الأنصاري ﷺ: قال ﷺ: «ما ترون في قتال القوم؟ فقام المقداد بن عمرو فقال: إذًا: لا نقول لك يا رسول الله! كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. قال: فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا مثل ما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! بلغنا أنهم بكذا وكذا. قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟»، فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟»، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله! إيانا تريد؟ فو الذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لَنَسيرَنَّ معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون، ولعل أن تكون خرجت لأمرٍ وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث إليك الله فامضِ؛ فَصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعَادِ مَن شئت، وسَالِم مَن شئت، وخذ من أموالنا»[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، انظر تفسير الآيات.

(٢) سيرة ابن كثير ٢/ ٣٩٢.

وفي غزوة أحد اللقاء القتالي الثاني استشار محمد ﷺ أصحابه، وخيَّرهم بين أمرين؛ إما البقاء في المدينة والتحصن بها وانتظار العدو، أو الخروج لملاقاة العدو خارج حدود المدينة، وكان رأيه هو ﷺ أن يبقى بالمدينة، ولكن أصحابه اختاروا الرأي الثاني فنزل عن رأيه لهم، وخرج بالجيش وانتهت المعركة بقتل سبعين من أصحابه،وينزل الأمر الإلهي بعدها في القرآن بعدم إلحاق السبب في الهزيمة بالشورى، ويأمره فيما بعد في كل المواقف بالتزام الشورى، وعدم التفريط فيها فقال : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) .

وفي اللقاء الثالث حينما قرَّر أهل مكة أن يهجموا على المسلمين في المدينة، واستعانوا ببعض القبائل الأخرى، فيما سُمِّي بالأحزاب الذين فاق عددُهم عددَ المسلمين؛ استشار محمد ﷺ أصحابه، فأشار عليه رجل مسلم أصله من بلاد فارس، وهو سلمان الفارسي رضي الله عنه بضرب خندق حول المدينة نفسها.

وقَبِل محمد ﷺ هذا الرأي من سلمان، وأمر بالخندق فَضُرِبَ حول المدينة[1].

وفي الغزوة نفسها أراد محمد ﷺ أن يفرق هذا الجمع المحتشد حول المدينة بتحييد فريق جاء للمال، فكأنه ﷺ أراد أن يجعل الحرب بينه وبين قريش، خاصة أنها حرب عقيدة، أما من جاؤوا للمال فولاؤهم لمن يدفع أكثر، فأراد أن يعطيهم من المال ما يعودون به ويخلون بينه وبين قريش، فاستشار أصحابه فرفضوا بعد أن استوثقوا أن هذا ليس أمرًا إلهيًّا[2].

وكان ﷺ يستشير أصحابه ويعمل بالرأي الصالح من الرجل والمرأة، كما ذكرنا في قصة الحديبية في ذكر ما قالته له زوجه أم سلمة - رضي الله عنها-.

وقد ترك ﷺ أمر خلافته مفتوحًا بين أصحابه ليعملوا مبدأ الشورى بينهم، واجتمع الناس قبل دفنه ﷺ، واختاروا من بينهم خليفته، فاختاروا صاحبه ورفيقه وأول رجل في الإسلام بعده ﷺ، وهو أبو بكر الصديق خليفة عليهم؛ فتمَّ التطبيق العملي بعد وفاته مباشرة، وتحقق المبدأ ورضي به المسلمون.

---

(١) البداية والنهاية ٨٥/٤.

(٢) البداية والنهاية ابن كثير ١٠٤/٤.

•• معالم الدولة كما أسسها محمد ﷺ :

جاء محمد ﷺ إلى جزيرة العرب وهي تعاني من انقسام وتشرذم سياسي، فلم يكن العرب يعرفون اجتماع الكلمة، أو الوحدة السياسية.

كانت القبيلة هي المحور الذي يجتمعون حوله ويفترقون، ولم يكن هناك أسس تحكم هذه الصلة والعلاقة، ولا معايير تضبط عناصرها بما يرقى إلى مستوى الدولة ونظمها. ولما جاء محمد ﷺ فأنشأ نظامًا سياسيًا جديدًا، نظامًا متكاملاً يحدِّد أدوار كل من الحاكم والمحكوم، وينظم العلاقة بينهما، وينشئ كيانًا مستقرًا متحدًا يتجاوز كيانات القبيلة دون أن يمحوها ويفتتها.

وفيما يلي أبرز معالم الدولة التي أسسها محمد ﷺ:

•• تهذيب الدوافع السياسية :

يمثل الصراع على المصالح السياسية أهم أدوات تهديد الاستقرار السياسي للمجتمع، وحينما تتسع الطموحات والأطماع الشخصية لدى أفراد المجتمع تزداد فرص الصراع والتسابق إلى السلطة.

ومن هنا فإن محمدًا ﷺ سعى إلى تهذيب هذه الدوافع، وإلى تربية أصحابه على البعد عن البحث عن الإمارة والولاية.

فعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة! لا تسألِ الإمارة؛ فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وُكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أُعنت عليها».

ومع التوجيه العام لأصحابه فقد كان محمد ﷺ في حياته العملية يتجنب تولية أولئك الذي يبحثون عن الإمارة، ويسعون إليها.

فعن أبي موسى ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أَمِّرنا يا رسول الله. وقال الآخر مثله. فقال ﷺ: «إنا لا نولي هذا من سأله، ولا من حرص عليه»[1].

وحين يرى محمد ﷺ من بعض أصحابه ضعفًا وقصورًا في القدرة على القيام بأعباء الإمارة فإنه يوجهه للبُعد عنها وعدم تحمل مسؤوليتها.

---

(1) أخرجه البخاري (٧١٤٩)، ومسلم (١٨٢٤)

فعن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزْي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»(١).

ولهذا لم يتول أبو ذر ﷺأيَّ ولاية للمسلمين، رغم ما كان له من سابقة وفضيلة في الإسلام.

ومن هنا يؤكد محمد ﷺ أن الإمارة والولاية مهمة تتطلب تحقق المعايير الملائمة لها، فرغم أنه أثنى على أبي ذر ﷺ في مرات أخرى، إلا أنه نهاه عن تولي الإمارة حينئذ؛ لأن طبيعته الشخصية لا تلائم هذه المهمة.

وهو توجيه لمن بعده ممن لا يستطيع القيام بهذه الأعباء و المهمات أن يبتعد عنها ولا يتولاها.

ولقد بيَّن محمد ﷺ لأمته أن من طبيعة البشر الحرص على الإمارة والسلطة، وحذَّرهم من ذلك، فعن أبي هريرةﷺ عن النبي ﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة»(٢).

وأخبر ﷺ أن كثيرًا من الناس حين تزول عنه شهوة السلطة يتمنى أنه كُفِيَ إياها وأنه لم يتولَّ من ذلك شيئًا.

عن رجل من بني عامر قال لمروان: هذا أبو هريرة على الباب، قال: ائذنوا له. قال: يا أبا هريرة! حدِّثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أوشك الرجل أن يتمنى أنه خرَّ من الثريا، وأنه لم يتولَّ أو يَلِ من أمر الناس شيئًا»(٣).

لقد غيَّر محمد ﷺ مفهوم الإمارة والولاية لدى أتباعه من فرصة للاستئثار بالسلطة وتحقيق الشهرة وتوظيف موقع النفوذ، إلى النظر إليها بوصفها مسؤولية وأمانة، مسؤولية أمام من يتولى أمرهم، ومسؤولية أمام الله يوم القيامة.

لم تكن هذه القيم ذات حضور لدى العرب قبل بعثة محمد ﷺ، بل كانت الإمارة سلطة توارث وامتيازات، وفرصة للاستئثار بالسلطة، والأمر والنهي والمال والجاه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٥)

(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٨)

(٣) أخرجه أحمد (٨٦٨٤)

النهي عن المقاومة المسلحة للسلطان:

الاستقرار السياسي دعامة مهمة من دعائم أيِّ مجتمع، وبدون تحقيق الاستقرار لا يمكن أن يمارس الناس مصالحهم ويعيشوا حياتهم بصورة مستقرة؛ فضلاً عن بناء المجتمعات والتنمية والتطوير.

لذا أكَّد محمد ﷺ على أهمية تحقيق الاستقرار السياسي وحفظ كيان الدولة.

ومن أهم ما دعا إليه في ذلك أنه نهى عن المقاومة المسلحة للسلطان، وعدَّ ذلك خروجًا عن الجماعة.

ومن هنا فإن الولاية أصبحت موظفة لخدمة الأمة، وليست مجالاً للتسابق بين الناس، ومن يريد الحصول على مسؤولية وموقع قيادي فبقدر ما يتحقق لديه من مكاسب؛ فإن عليه مسؤوليات وتبعات لا تُقارن بالمكاسب.

فعن عرفجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمرُكم جميعٌ على رجل واحد، يريد أن يشقّ عصاكم أو يفرق جماعتكم؛ فاقتلوه»[1].

إن من يستعمل القتل، ويسعى إلى قتل الآخرين، وإراقة دمائهم من أجل أن يستأثر هو بالسلطة، ويجعلها وسيلة لتحقيق أمجاده الشخصية؛ يستحق أن يُقاتل وأن يُقتَل، ففي قتاله حقن لدماء كثيرة كانت ستُراق في المجتمع لا لشيء إلا لأجل تحقيق المجد الشخصي.

ولقد كان من أثر هذه التربية التي رباها محمد ﷺ لأتباعه وأمته؛ الموقف التالي، فقد قال مروان لأيمن بن خريم يوم المرج يوم قتل الضحاك بن قيس: ألا تخرج فتقاتل معنا؟ قال: لا؛ إن أبي وعمي شهدا بدرًا مع رسول الله ﷺ، فعهدا إليَّ أن لا أقاتل رجلاً يشهد أن لا إله إلا الله. قال:ائتني ببراءة من النار فأنا معك، قال: اذهب فلا حاجة لنا فيك، فقال:

ولست بقاتلٍ رجلاً يصلي — على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلي إثمي — معاذ الله من جهلٍ وطيش
أأقتل مسلمًا في غير شيء — فلست بنافعي ما عشت عيشي

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٢)، وأحمد (١٩٧٦٦)، والنسائي (٤٠٢٠).

الالتزام بالطاعة :

كان العرب قبل محمد ﷺ لا يعرفون الجماعة، ولا السلطة السياسية بمفهومها الاصطلاحي، فقد كانت القبيلة هي المحور، وكان الرجل يستمد زعامته من تاريخه وقيمته ومنزلته في القبيلة.

ولما جاء محمد ﷺ غيَّر في هذا الواقع الذي تعيشه العرب، وأعطى القيادة السياسية بُعْدًا آخر، فحوَّلها من مجرد كيان يتسابق إليه الناس ويتنافسون عليه، إلى منصب شرعي.

وأعطى ألقاباً تتلاءم مع هذه المهمة ،منها: الإمام، وولي الأمر، والأمير.

وأهم ما تحتاجه السلطة السياسية لأداء وظيفتها أن يكون لها حق الطاعة من الناس، وأكَّد الإسلام هذا المعنى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾(النساء: ٥٩).

ومن جانبه جعل محمد ﷺ طاعةَ الأمير بمنزلة طاعته هو فقال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»[1].

وكانت معايير القبلية لدى العرب عالية؛ فالمرء يستمد قيمته من انتمائه القبلي، ولا يمكن أن تخضع العرب لمن يرون أنه أقل منزلة ومكانة، وبالأخص من كان في منزلة العبيد.

وحين جاء محمد ﷺ ألغى هذا الأمر، وأعطى الأمير حق الطاعة، ولو لم يكن ينتمي إلى قبيلة محل احترام وتقدير لديهم، بل لو كان عبدًا؛ فقال ﷺ : «اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعمِل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[2].

تحديد سلطة الوالي :

لم يكن محمد ﷺ لينقل الناس من استبداد القبيلة ومعاييرها إلى استبداد السلاطين والأمراء، ولم يكن حق الطاعة الذي أعطاه للسلطان حقًا مطلقًا، بل قد

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٢).

أحاطه بسياج يحميه من التوظيف السيئ والاستخدام التعسفي.

ومن هنا أكَّد محمد ﷺ على العديد من الضوابط التي تحقّق التوازن في مهمة الإمام والسلطان.

ومن ذلك ما يلي:

أ. تقييد سلطة الوالي بالشريعة:

حين أُعطِي الإمام حق الطاعة، وأُمِر الناس باتّباعه، ونُهوا عن منازعته؛ فإنه قد قُيِّد بأن يلتزم بالشريعة وأحكامها، وليس من حقه أن يقود الناس ويحكمهم بهواه ورغبته.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾(النساء: ٥٩). وقد دلت الآية على تقييد سلطة الإمام بالشريعة من خلال ما يلي:

أولاً: أنه قال في حق الله ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ وفي حق الرسول ﷺ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ أما أولي الأمر فقال: ﴿ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ ﴾فلم يكرر كلمة (وأطيعوا)، مما يدل على أن طاعة أولي الأمر ليست طاعة مطلقة ولا مستقلة، بل هي تابعة لطاعة الله ورسوله، فيُطاع بطاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ.

ثانيًا: الجزء الثاني من الآية الذي أمر بالرجوع عند التنازع إلى الله والرسول، وهو يعني أنه عند وجود اختلاف بين الناس والسلطان؛ فالمرجع في هذا الخلاف إلى القرآن والسنة.

وأكَّد محمد ﷺ على تقييد طاعة السلطان بأن يكون ممن يقود الناس بكتاب الله عز وجل.

حيث قال ﷺ: «لو استُعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله؛ فاسمعوا له وأطيعوا»[1].

وقد قال ﷺ في شأن الوالي: «فإن أمر بتقوى الله وعدل؛ فإن له بذلك أجرًا، وإن قال بغيره فإن عليه منه»[2].

ولم يكتف محمد ﷺ بتوجيه الوالي بالالتزام بالشريعة، فإنه قد يوجد من الولاة من يتجاوز هذا التوجيه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).

فيوجه محمد ﷺ الرعية بأن لا يطيعوا الوالي حين يأمرهم بمعصية الله عز وجل.

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يُؤمر بمعصية؛ فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1].

وفي موقف عملي يؤكد محمد ﷺ هذا المعنى على أصحابه، بل يُحمِّل من أطاع الوالي في غير المعروف مسؤولية عمله.

فقد ورد أنه ﷺ أرسل سرية فاستعمل رجلاً من الأنصار وأمرَهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطبًا. فجمعوا. فقال: أوقدوا نارًا. فأوقدوها. فقال: ادخلوها. وهنا تردد أتباعه، فئة رأوا أن عليهم أن يطيعوه استجابة لأمر النبي ﷺ لهم بالطاعة، بينما الفئة الأخرى رأت أنه لا حق له في الطاعة؛ فالطاعة ليست في المعصية. فبلغ النبيَ ﷺ فصوَّب رأيَ من امتنعوا عن طاعته، وقال: «الطاعة في المعروف»[2].

ب. الوالي مسؤول أمام الله:

أكد محمد ﷺ على أن الوالي مسئول أمام الله - عز وجل - عن ولايته، فالولاية في الإسلام ليست مجرد منصب يسعى إليه الإنسان ويفتخر به، بل هي مسؤولية عليه أن يرعاها ويقوم بها.

كما قال ﷺ: « سيكون خلفاء فيَكثُرُون. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فُوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم»[3].

وأخبر محمد ﷺ أن نطاق المسؤولية يتسع فيبدأ بالوالي وينتهي بالرقيق في مال سيده.

فقال: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته؛ الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته. قال: وحسبت أن قد قال: والرجل

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته».[1] وفي إحدى روايات الحديث يقول ﷺ : «فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عنهم».

ج. العدل من مسؤوليات الوالي:

رغم التأكيد العام على المسؤولية وضرورة رعاية الوالي لها؛ إلا أن محمدًا ﷺ أكَّد على عدد من القيم التفصيلية التي ينبغي على الوالي أن يتَّسِم بها.

ومن هذه القيم: العدل، الذي يعني: وضع الأمور في نصابها، وإعطاء كل صاحب حق حقه، والبعد عن التمييز بين الناس لأسباب وحظوظ شخصية أو أهواء.

ويبرز محمد ﷺ العدل بوصفه قيمة عالية يستحق الوالي المتصف بها الثواب والجزاء الحسن يوم القيامة.

فقال :« سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[2].

كما يبين محمد ﷺ أن ثمرة العدل يجنيها الوالي في الدنيا قبل الآخرة، فإن الوالي العادل يستجيب الله عز وجل دعاءه.

حيث قال ﷺ: «ثلاثة لا تُرَدّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»[3].

ولما كانت دائرة الولاية تضيق وتتسع أكَّد محمد ﷺ على أن العدل قيمة وسمة لا بد من تحققها لدى كل من تولى مسؤولية في الأمة، ولو كانت يسيرة.

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٧٥٢)، والترمذي (٣٥٩٨).

مغلولاً لا يفكه إلا العدل، أو يُوبِقُه الجور»[1].

د. رضا الله تعالى:

ومن القيم العظمى التي دعا محمد ﷺ الولاة وغيرهم إلى أن يتحلوا بها: طلب رضا الله عز وجل، وذلك يعني أن يكون هدف الوالي وهمه تحقيق رضا الله- تبارك وتعالى- عنه.

فقد كتب معاوية ﷺ- وكانا واليًا- إلى عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أن اكتبي إلي كتابًا توصيني فيه، ولا تكثري عليَّ. فكتبت عائشة - رضي الله عنها - إلى معاوية: سلام عليك أما بعدُ! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس» والسلام[2].

لم يكن محمد ﷺ ليقف في توجيهه وتربيته لأصحابه وأمته عند مجرد الأمور الظاهرة؛ إذ يسهل على كثير من الناس أن يخدعوا ويغشوا الآخرين.

وكثيرًا ما يظهر الوالي أو غيره مصالحه ورغباته الشخصية في مظهر المصالح العامة، ومن هنا اعتنى محمد ﷺ بتربية الناس من داخلهم، وبتنشئة الضمير الذي يفرض على الوالي الرقابة من نفسه.

حين يكون همُّ الوالي تحقيق رضا الله - عز وجل - فإن هذا سيترك أثره على صيانة المال العام، وعلى تولية المناصب والمسؤوليات، وعلى أوامره ونواهيه وقراراته، وعلى تعامله مع الرعية.

•• مسؤولية الوالي تجاه حوائج الناس :

ترتبط كثير من مصالح الناس وحوائجهم بالوالي؛ فمنهم من يعاني من فقر وحاجة مالية، ومنهم من يعاني من ظلم واعتداء على حقه، ومنهم من يعاني من مرض....إلخ.

لذا يؤكد محمد ﷺ على الولاة أن يُعنوا بحوائج الناس، ويحذر الوالي منهم من أن

---

(١) أخرجه أحمد (٩٢٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٤).

يغلق على نفسه بابه دون أصحاب المشكلات والحاجات.

فقد دخل أحد أصحاب محمد ﷺ وهو أبو مريم الأزدي على معاوية ؓ فقال له: حديثًا سمعته أخبرك به. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولاه الله عز وجل شيئًا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره».

وقوله ﷺ: «شيئًا» كلمة عامة تستوعب أي قدر من الولاية والمسؤولية يتحملها الإنسان، وليست قاصرة على الولاية السياسية فحسب.

•• المحافظة على المال العام:

تُتيح السلطة للوالي إدارة المال العام، ونفوس البشر تحب الدنيا وتميل إليها، ومن هنا فقد يلجأ بعض الولاة إلى التجاوز بشأن المال العام، والأخذ منه بغير حق.

لذا يحذِّر محمد ﷺ مَن يتولى شيئًا من أمور الأمة أن يتجرأ على المال العام، فعن عدي بن عميرة الكندي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة». قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه فقال: يا رسول الله! اقبل عني عملك. قال: «وما لك؟». قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وأنا أقوله الآن، من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أُوتي منه أَخَذَ، وما نُهِيَ عنه انتهى»[1].

•• التواصل مع الرعية:

كما يثني محمد ﷺ على الولاة الذين تربطهم برعاياهم صلة حسنة، وتنشأ بينهم المودة والمحبة؛ مما يهيئ صلة تتجاوز مجرد صلة المسؤولية والسلطة؛ ليعيش الجميع في إطار التعاون والتواصل الإيجابي والرسالة المشتركة.

فقال ﷺ: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»[2].

قال: «ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتدعون

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

لهم ويدعون لكم، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»[1].

•• صفات سيئة في الولاة:

وكما أكد محمد ﷺ على القيم الإيجابية، والخصال التي ينبغي أن تكون في الوالي، بما يعينه على أداء مهمته: فقد نهى عن صفات وخصال سلبية تؤثر على أدائه لمهمته في قيادة الأمة.

ومن هذه الصفات ما يلي:

أ . الكذب:

الوالي يحظى باحترام الناس إما طمعًا في مكاسب، أو خوفًا من عقوبة وأذى قد يلحقهم به.

وهذا الاحترام أو الخوف قد يقود بعض الولاة إلى التجاوز في الحديث، وإلى عدم الصدق، ومن هنا يحذر محمد ﷺ الوالي من الكذب، ويخبر أنه خصلة سيئة. والحقيقة أن الكذب خصلة نهى عنها محمد ﷺ بعامة، لكن وقوعها من الوالي يجعلها أشد فقال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل مستكبر»[2].

فيقرن محمد ﷺ كذب الوالي هنا بوقوع الرجل كبير السن في الرذيلة، ووقوع الفقير في الكبر والزهو؛ فإن حال هؤلاء لا تدعوهم إلى مثل ما وقعوا فيه، وهكذا الوالي.

ب . الجَوْر:

وكما أمر محمد ﷺ الولاة بالعدل، وأثنى على الوالي العادل؛ فقد ذمَّ ولاة الجور والظلم، وأخبر بأنه سبب لتعرض الوالي الظالم للعذاب من الله تعالى يوم القيامة فقال ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسًا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسًا إمام جائر»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٧).

(٣) أخرجه الترمذي (١٣٢٩)، وأحمد (١٠٧٩٠).

ج- غشّ الرعية:

ومن الصفات التي يحذّر منها محمد ﷺ الولاة والسلاطين: غشّ الرعية. والغش كلمة جامعة تعني: أن لا يلتزم الوالي باختيار ما هو أصلح للرعية.

وهي كلمة تستوعب مساحات واسعة من الإخلال بالمسؤولية، وهي تضع الوالي أمام رقابة داخلية عالية تفرض عليه أن يبذل جهده في كل موقف، فهو حين يتخذ قراراً، أو يأمر الناس بأمر، أو ينهاهم عن شيء، أو يسن أنظمة ولوائح، أو يدخل حرباً مع كيان معادٍ، أو يصالح كياناً آخر، حين يفعل شيئاً من ذلك عليه أن يسأل نفسه هذا السؤال: هل هذا في مصلحة الأمة أم لا؟

وعليه أن يستجمع كل أسباب صحة هذا القرار من معلومات ووثائق واستشارة للمختصين، وإذا قصَّر في شيء من ذلك صار هذا الأمر غشًّا للرعية.

وقد بيَّن محمد ﷺ أن وقوع الوالي في غش الأمة والرعية يجعله مستحقًّا لعقوبة شديدة تتناسب مع آثار هذه الجريمة؛ فهي ليست قاصرة على الوالي نفسه بل تدفع الأمة كلها الثمن.

جاء أحد الولاة، وهو عبيد الله بن زياد، ليعود معقل بن يسار المزني رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه. فقال معقل: إني محدثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لو علمتُ أن لي حياةً ما حدثتك. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيةً يموت يوم يموت وهو غاشّ لرعيته إلا حرَّم الله عليه الجنة»(1).

د- القسوة والغلظة:

ومن الصفات التي قد يقع فيها بعض الولاة: القسوة والغلظة في التعامل مع الناس.

والقسوة باب واسع، فقد يكون الإنسان محقًّا في موقفه، لكنه يتعامل مع الناس بصرامة وقسوة، فقد يقع أحد الرعية في خطأ لا يُختلَف عليه، ويستحق العقوبة، لكن الوالي قد يبالغ فيعاقبه بعقوبة أقسى مما يستحق.

وقد يأمر الوالي رعيته أو يسنّ لهم نظامًا يحقق لهم المصلحة، لكنه يتجاوز في ذلك فيقسو على الناس.

---

(1) أخرجه مسلم (١٤٢).

لذا يؤكد محمد ﷺ على الولاة أن يبتعدوا عن ذلك، حتى ولو كانوا على حق في أصل موقفهم.

فقد دخل عائذ بن عمرو، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، على عبيد الله ابن زياد - وكان واليًا - فقال: أي بني! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شرّ الرعاء الحُطَمَة» وهو العنيف على الإبل فكأنه يحطمها. فإياك أن تكون منهم[1].

وهو امتداد لوصايا محمد ﷺ العامة بشأن الرفق، وبيان أن النتائج المتحققة من الرفق تفوق النتائج المتحققة من العنف.

والذين يرفقون برعاياهم هم محلُّ ثناء منه ﷺ ودعائه، ومن ذلك: أنه حينما جاء رجل من أهل مصر يسأل عائشة - رضي الله عنها - عن مسألة سألته عن والي مصر عمرو بن العاص ﷺ،

فقال: ما نقمنا منه شيئًا، إن كان ليموت للرجل منا البعيرُ فيعطيه البعيرَ، والعبدُ فيعطيه العبدَ، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة. فقالت: سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشْقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به»[2].

هـ. الشك في الناس:

ومن الخصال السيئة عند بعض الولاة: الشك والريبة في الآخرين، واتهام الناس وإساءة الظن بهم، لذا فقد حذر محمد ﷺ الولاة من أن يستولي عليهم الشك وسوء الظن بالناس ومن ذلك قوله ﷺ: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»[3].

و. اتخاذ بطانة السوء:

الوالي لا بد له من أعوان ومستشارين يقتربون منه، ويتطلع لآرائهم، ويؤثّر هؤلاء كثيرًا على الوالي ومواقفه، ويسمى هؤلاء (البطَانة). لذا يحذر محمد ﷺ الولاة من البطانة السيئة، فقال ﷺ: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٨٩) وأحمد (٢٣٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٧١٩٨).

•• رقابة الرعية على الولاة :

لقد أسَّس محمد ﷺ قيمًا إيجابية للولاية والمسؤولية السياسية، وحذَّر من صفات وخصال تؤثر سلبًا على أداء الولاة والبنيان السياسي للأمة.

لكن ذلك كله لا يكفي، فثمة فئة من الولاة قد يغيرهم المنصب والمسؤولية إلى تجاوز مكانتهم، وإلى ممارسة أنواع من الاستبداد والظلم السياسي.

ومن هنا أكد محمد ﷺ على الرعية أن تقوم بدورها الفاعل في الرقابة على الأداء السياسي للولاة.

وتتمثل الرقابة الشعبية فيما يلي:

•• مناصحة الوالي :

أكد محمد ﷺ على أن مناصحة السلطان والوالي من الواجبات على الرعية، وهي ليست مجرد أمر مباح، بل هي واجب ديني يجب على من يستطيع أن يقوم به، فعن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

والنصيحة للسلطان تعني: إرشاده إلى ما فيه مصالح المسلمين؛ فلا بد أن يوجد في الرعية من هو أكثر علمًا من الوالي في أمر من أمور الحياة، ولا بد أن يرى الرعية في تطبيق الوالي ما يستوجب التنبيه والمناصحة.

ويخبر محمد ﷺ أن من سنة الله في الحياة أن يوجد أمراء وولاة يقع منهم الخطأ والتقصير، ومن هنا يؤكد ﷺ على أمته القيام بالواجب الشرعي في إنكار ما يقع منهم من منكر، فعن أم سلمة - رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع». قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا»[2].

١) الجرأة في قول الحق :

ويربِّي محمد ﷺ أتباعه وأمته على أن يكونوا جريئين في قول كلمة الحق للسلطان

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٤).

والوالي، ويجعل قول كلمة الحق أمام الحاكم الجائر بابًا من أبواب الجهاد، فعن طارق بن شهاب المحاربي قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:

أي الجهاد أفضل؟

قال: «كلمة حق عند إمام جائر»(1).

ويؤكد محمد ﷺ على أمته الجرأة وتحمُّل الأذى في قول الحق للحاكم، ولو أدى ذلك إلى أن يُؤذَى الإنسان، بل لو أدَّى إلى القتل، ويثني على من قتل لقول كلمة الحق، فيقول ﷺ: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»(2).

إن هذا يدفع الرعية إلى أن يقوموا بواجبهم في الرقابة السياسية على أداء الوالي، كما أنه يدفع الوالي إلى البُعْد عن التسلط والاستبداد والظلم: لأنه يعرف أن الرعية لن يُقِرُّوه على ذلك.

٢) عدم إعانة الولي على الظلم :

كما يحذر محمد ﷺ الرعية من إعانة الوالي ومساعدته حين يظلم، فعن كعب بن عجرة قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: «اسمعوا، هل سمعتم أنه سيكون بعدي أمراء؟ فمن دخل عليهم فصدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم؛ فليس مني ولست منه، وليس بوارد عليَّ الحوض، ومن لم يدخل عليهم، ولم يُعِنْهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم؛ فهو مني وأنا منه، وهو وارد عليَّ الحوض»(3).

•• التوازن في علاقة الرعية بالوالي :

دعا محمد ﷺ إلى منهج متوازن في النظام السياسي، فلم يُطلِق العنان للوالي في أن يفعل ما يشاء، ولم يجعل طاعته مطلقة في كل صغير وكبير، بل هي مقيدة بالمعروف.

كما دعا ﷺ الرعية إلى أن يتحملوا مسؤوليتهم في نصح الوالي والإنكار عليه.

ولكنه في الوقت نفسه شدَّد على ألا يقود ذلك إلى الخروج المسلح وإعلان العصيان على الوالي.

---

(1) أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، والنسائي (٤٢٠٩)، وأحمد (١٨٣٤٩)

(2) أخرجه الحاكم (٣١٩٥).

(3) أخرجه الترمذي (٢٢٥٩)، والنسائي (٤٢٠٧).

فقال ﷺ: «من كره من أميره شيئًا فليصبر؛ فإنه من خرج من السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية»[1].

وكما أنه أمر بالإنكار إلا أنه نهى عن أن يصل إلى حمل السلاح على الوالي، فحين حدَّث عن الأمراء الذين يأتون بعده، وأمر بكره أفعالهم والإنكار عليهم، سألوه: ألا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا»[2].

لقد جاء تأكيد محمد ﷺ على النهي عن حمل السلاح على الوالي ليراعي أمرين مهمين:

- **الأول**: أن كثيرًا مما ينتقده الناس على الوالي قد لا يصل إلى درجة ما يوجب رفع السلاح، وفتح الباب لهذا الأمر يهدد الاستقرار السياسي للأمة، ويجعلها عُرْضَة للصراعات الداخلية بين وقت وآخر.
- **الثاني**: على الرغم من أن الوالي قد يقع في الخطأ والظلم، إلا أن مقاومته بالسلاح قد لا تؤدي إلى إزالته، وينشأ عنها اختلال الأمن وإراقة دماء بريئة، وإن استقرار الأمن والوحدة السياسية مع وجود الخطأ أصلح للأمة بكثير من الفتن واختلال الأمن.

•• بناء العلاقة وفق مصالح الأمة:

أكد محمد ﷺ على أمته أن يبنوا علاقتهم بالآخرين، وبالأخص العلاقة بين الحاكم والمحكوم، على ضوء مصالح الأمة، وأن يكون معيار الرضا والسخط غير مرتبط بالمصالح والرغبات الشخصية.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم:

رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل.

ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٤).

ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أُعطيت بها كذا وكذا فصدَّقه رجل»[1].

•• التغيير السياسي لمحمد ﷺ بين النظرية والتطبيق:

يتضح من خلال ما سبق أن محمدًا ﷺ قد أرسى نظرية سياسية تتسم معالمها بما يلي:

١. **الاتساق والانسجام**: فلا يوجد أي تعارض بين النصوص والتوجيهات المتعلقة بالجانب السياسي للدولة الإسلامية، رغم أن هذه النصوص وردت في مناسبات ومواقف مختلفة.

٢. **التكامل**: فهي لم تقتصر على جانب جزئي من جوانب الحياة السياسية؛ إنما تناولت المجال السياسي بكلياته كافة وكثير من تفصيلاته.

٣. **الواقعية**: فهي لم تكتفِ برسم الصورة التي ينبغي أن يكون عليها الواقع السياسي فحسب؛ إنما عالجت حالات الانحراف عن هذه الصورة.

٤. **التوازن**: فهي تعطي كل عنصر في النظام السياسي حقه بما يستحقه؛ فتعطي الحاكم حقوقه ومسؤولياته، وتعطي الرعية حقوقها وواجباتها.

٥. **المرونة**: فقد أكَّدت على القواعد والقيم العامة، وتركت كثيراً من أدوات التطبيق ووسائله للناس؛ فالشورى - على سبيل المثال - قاعدة مهمّة في الحياة السياسية الإسلامية، لكن طرائق تطبيقها وأدواتها تختلف من عصر إلى آخر.

٦. **التأكيد على القيم**: فهي لم تأتِ بأنظمة وقوانين مجردة؛ إنما عُنيت بتأصيل القيم الإيمانية والنفسية اللازمة لإنجاح تلك النظم والقوانين.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٨)، ومسلم (١٠٨).

•• التغيير العلمي والحضاري :

كانت مهمة محمد ﷺ هي دعوة الناس إلى الدين، وتربيتهم وتهذيبهم،وكانت مهّمته تتمثل في بناء الإنسان، وجعله عبداً لله عز وجل.

لم تكن المهمة التي جاء بها محمد ﷺ، وصرَف لها وقته هي الحضارة والعمران المادي، ولم تكن مهمته أن يُعلِّم الناس كيف يديرون حياتهم.

لكن هل يعني ذلك أن محمدًا ﷺ لم يحقق إنجازًا في ميدان الحضارة والعمران؟

لم يكن محمد ﷺ قارئًا بل كان أميًا، ولم يكن خبيرًا بشؤون الحياة أو فيلسوفًا أو طبيبًا، لكنه رغم ذلك أحدث تغييرًا حضاريًا؛ فقد نقل العرب من أمة جاهلة، أمة لا تقيم أدنى قدر للمعرفة والرقي والحضارة، إلى أمة تسود، ثم تستوعب حضارة عصرها، وتنتج بعد ذلك نتاجًا ترك أثره على البشرية إلى اليوم.

إن ما تركه المسلمون من حضارة مادية إبَّان الدولة العباسية، وإبَّان حكمهم للأندلس؛ كان مفتاحًا لحضارات الأمم المعاصرة بشهادة أهلها.

والسؤال المهم: كيف أحدث محمد ﷺ هذا الرقي الحضاري؟

لم يكن محمد ﷺ بشخصه وذاته عالما بأمور الدنيا، ولم تكن تلك مهمته كما سبق، لكنه وضع لبنات مهمة أسهمت في تحقيق الرقي العلمي والحضاري، ومن ذلك ما يلي:

•• التناسق بين دعوته والعلم :

جاء محمد ﷺ بالقرآن وهو كلام الله عز وجل، ودُوِّنت كثير من أقواله ونصوصه، واتسعت دائرتها لتشمل مجالات الحياة كافة.

ومع ذلك كله لم يأتِ في القرآن ولا في سنته ما يتعارض مع الحقائق العلمية أو يتناقض معها.

وهذا بحدّ ذاته تأكيد على انسجام ما دعا إليه مع العلم. والصراع الذي نشأ في بعض مجتمعات المسلمين إنما كان نتيجة ممارسات بعض المسلمين وفهمهم القاصر لنصوص القرآن والسنة.

بل أشار القرآن الكريم إلى حقائق علمية لم تكن معروفة لدى الناس وقتها، وأثبت العلم فيما بعد صحتها، ومن ذلك الحديث عن مراحل تَكَوّن الجنين قال تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ﴾ (الحج:٥).

وتحدث محمد ﷺ عن مراحل تكون الجنين، وحدد مدة كل مرحلة فقال: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك»[1].

•• تأكيد مسؤولية الناس عن أمور الدنيا :

عاش محمد ﷺ في مكة، وهي ليست بلاد زراعة ونخل، ثم هاجر إلى المدينة فرآهم يقومون بتلقيح النخل؛ فكان هذا الموقف.

فقد مر بقوم يلقحون نخلهم، فقال:

«لو لم تفعلوا لصلح».

قال: فخرج شيصًا[2] فمر بهم فقال: «ما لنخلكم؟»

قالوا: قلت كذا وكذا.

قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[3].

إن هذا النص النبوي يعطي قاعدة وتوجيهًا عامًا في مصادر المعرفة، وهي أن أمور الدنيا متروكة للناس، ولم يأتِ الوحي ببيانها، حتى لو قال محمد ﷺ شيئًا فيها من عنده؛ فإنما هو رأي يراه بحكم ما يعرفه، وينبغي التعامل مع هذا الرأي وَفْق الأدوات التي يتم التعامل فيها مع الرأي البشري.

وترك هذا التوجيه أثره؛ فنرى أن أصحابه في عدد من المواضع يسألونه عما يقول: أهو وحي من الله؟ أم رأي رآه، فإذا قال بأنه رأي ربما أبدوا له رأيًا مخالفًا، فيستمع ﷺ لهم بكل إنصات.

إنه يؤكد هنا أن على الناس أن يتحملوا مسؤوليتهم في أمور دنياهم، وعليهم أن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٦٨٩٣).

(٢) الشيص: التمر الذي لم يتم نضجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٦٣).

يبذلوا جهدهم ووسعهم في تحصيل المعرفة التي يديرون من خلالها أمور حياتهم.

ويمارس محمد ﷺ تأكيد هذا الأمر في موقف من مواقف الحرب بينه وبين قريش.

ففي غزوة الأحزاب سعت قريش، ومن تحالف معها، إلى استئصال محمد ﷺ وأصحابه وزحفوا إلى المدينة في عشرة آلاف مقاتل، فاستشار محمد ﷺ أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي ﷺ بأن يحفروا خندقًا حول المدينة، وأخبر أنهم كانوا يفعلون ذلك في بلاد فارس، فقام محمد ﷺ وأصحابه بحفر الخندق.

وحين جاء أهل مكة فوجئوا بما رأوه فقالوا: هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها.

لقد كان محمد ﷺ يستوعب أن يتلقى أي تجربة بشرية لا تتعارض مع دينه وقيمه، حتى ولو كان مصدرُ هذه التجربة قومًا لا يؤمنون بدينه.

لقد أكّد بهذا الموقف وغيره لدى أصحابه وأتباعه أن المعرفة البشرية في أمور الدنيا حق مشاع، وأن على الناس أن يسعوا إليها من مصادرها الملائمة لها، والمعرفة هي مفتاح التغيير الحضاري.

•• صور من التغيير الحضاري:

جاء محمد ﷺ في مجتمع يعيش قيمًا حضارية متخلفة، كانت تعبيرًا عن مدى التنافر الحادث بين النفس البشرية برغباتها وطموحاتها والسلوك البشري بآثاره ونتائجه.

لقد تمثّلت الهمجية في كثير من الأشكال غير المقبولة للحياة الإنسانية الباحثة عن التحضر، فالقتل على المصلحة والعصبية للموروث والعشوائية في الإدارة والحكم، وغير الإنسانية في التعامل مع الآخر وعدُّ الإنسان كيانًا معاديًا للإصلاح؛ كل ذلك قد تبدى في تطبيقات عديدة سبق عرض ملامحها يمكننا أن نلمح طرفًا منها في بعض ما يلي:

١- وأد النفوس:

تفضيل الذكور على الإناث سمة بارزة في المجتمعات غير الحضارية، وظهرت بجلاء في مجتمع الجزيرة العربية، والعربي دائمًا في قتال وشجار، ويحتاج إلى البنين ليدافعوا عن القبيلة ويحموا ممتلكاتها، ولذا كان من أشقّ الأيام على العربي يوم أن يبلّغ بأن زوجته أنجبت بنتًا، وقد صوّر القرآن هذا المشهد: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (النحل: ٥٨). ويختبئ من قومه كي لا يُعيَّر بهذه المولودة، ويظل يفكر

مهمومًا في أمره كيف يتخلص من هذا العبء والعار، ويتحيّر بين موقفين صورهما القرآن فقال: ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل: ٥٩).

وكان أغلبهم يفضّل الحل الثاني، وهو أن يأخذ الرضيعة، ويذهب بها إلى الصحراء، ثم يحفر لها ويدفنها، وهي حية تصرخ بين يديه ولا يتحرك قلبه ولا يَرِقّ لها.

ولا يكاد ينجو من البنات من هذا المصير المؤلم الموحش إلا قلة نادرة، ويعاملون معاملة مهينة.

ولكن لم يخلُ زمن من رجال كانوا يستنكرون هذا الفعل، ويحثون قومهم على إبطاله، فكان منهم عمرو بن نفيل الذي كان يأخذ الرضيعة من والدها، ويربّيها في بيته، ويتكفّل بها، ثم يُخَيِّر والدها بعد أن تكبر أن يردها إليه أو يبقيها عنده كبنت من بناته، وكان يقتدي به كرام الناس.

٢- الظلم الاجتماعي لفئات المجتمع :

لقد سبق أن بيناً أنماطًا من الظلم الاجتماعي الواقع على الرقيق والإماء، والذي تعدى ذلك إلى المرأة ذاتها، وكيف كانت تُظلم في المعاملة منذ ولادتها حتى زواجها، ثم يكمل الزوج باقي إهانتها، ويبالغ في إهدار كرامتها، فيتزوج ويطلّق بلا عدد وبلا سبب، فلا يكون لها رأي ولا مال في ذمة مالية مستقلة بها، بل كانت المرأة من ممتلكات الرجل، فإن مات توارثها أبناؤه من غيرها، فإن شاؤوا أفرجوا عنها، وإن شاؤوا حبسوها معلقة لا تتزوج بعد أبيهم، وإن شاؤوا تزوجها واحد منهم، وغني عن القول: إنها لم تكن ترث من مال زوجها شيئًا ولا من مال أبيها، فالمال للذكور فقط، ولكن كان هناك مجموعة من كرام الناس أحسنت للمرأة أمًّا وزوجة وبنتًا، فلم تكن تسمح بإهانتهن ولا بإهدار حقوقهن، فكان منهن أمثال خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها- الزوجة الأولى لمحمد ﷺ، فكانت صاحبة مال، وكان محمد ﷺ يتاجر لها في مالها قبل أن يتزوجها.

٣- أكل مال اليتيم :

لقد انتشر بينهم أن لا يورثوا الصغير مال والده، حتى لو أنفق عمره كله في جمعه؛ لأن الصغير لا يقوى على القتال، والمال للقوي القادر، فكان أقرباء الرجل يأخذون المال

ولا يعطون ولده منه شيئاً، فكانوا يجمعون عليه المصيبتين: فَقْد الوالد، وفَقْد المال.

٤- إغارة القوي على الضعيف:

لم تكن أغلب حروب القبائل العربية مع بعضها بعضاً حروبًا مبرَّرة، أو ذات أسباب مقبولة، إنما كان التسلط واستعراض القوة، ونهب الخيرات، هو السبب الأبرز في تلك المشاحنات، فكانت كل قبيلة ترى في جيرانها ضعفًا تحاول الإغارة عليهم، وسلب ممتلكاتهم، واتخاذ رجالهم عبيدًا ونسائهم موضعًا لقضاء الشهوة، فلم يكن بينهم حُسْن جوار، بل كلٌّ متربص بالآخر، ولهذا كانوا يحددون شهورًا محدَّدة يحرمون فيها القتال، كي تنتظم تجارتهم ومعايشهم.

وأيضًا كانت هناك قبائل متخصصة في السطو على القوافل، وسرقة بضائعهم، واستعباد من فيها، وبيعهم في سوق العبيد.

٥- سيادة العصبية القبلية:

في جميع النظم البدائية الأبوية ينتظم أبناء الأب الواحد في جماعة متكاتفة، يسكنون معًا ويعيشون مجتمعين، ثم يكثر عددهم، ويتكوَّن ما يسمى بالقبيلة التي تنتمي دائمًا إلى أب واحد، فإذا ضاق عليهم المكان أو قلت خيراته اضطر أحدهم إلى مفارقة القبيلة الأم، فيأخذ جميع أبنائه، ويذهب بهم إلى مكان آخر ويبدأ الدائرة نفسها.

فكان يربط بين أفراد القبيلة الواحدة روابط شديدة، فولاء العربي لقبيلته ولاء لا يوصف، وكانوا يفتخرون بأنسابهم ويحرصون على نقاء دمائهم، فلا يختلطون في زواجهم بغيرهم من القبائل.

ويحكم تلك القبيلة كبيرها سنًّا في الغالب، وله عليهم الطاعة العمياء، وله الكلمة الفصل؛ فلا يُرَدّ له قول أبدًا مهما أخطأ، فكان منهم من سمي بالأحمق المطاع الذي إذا غضب تحرك لغضبه مائة ألف سيف، ولا يسألونه فيم غضب.

وكان العربي يتحرك لنجدة أي فرد من قبيلته ولا يتأخر عنه، حتى لو كان فيه هلاكه، ولا يبحث في الأمر، بل يقف في جانب ابن قبيلته! سواء أكان الحق معه أم مع مخالفه، بل كانوا يعدون ذلك من المفاخر حتى تفاخر بعضهم شعرًا بذلك.

ولم يعرف العرب أبدًا نظام الدولة التي تضم بين طياتها أكثر من قبيلة، فلم يكن الأمر متصورًا ولا معقولاً عندهم.

٦- انتشار الوهم والخرافة :

تكاد تشترك جميع المجتمعات البدائية في سمة تختلف أشكالها وتتوحد في مضمونها، وهي انتشار الخرافات بينهم وعدم إعمال العقل، فيستضعفهم الدجالون والمشعوذون ويتلهون بهم.

وكان للعرب في ذلك نصيب كبير، فكان سدنة التماثيل يبتزونهم باسم الآلهة وكان السحرة يتلاعبون بهم، وليس أدل على ذلك من أن أحدهم كان لا يقدم على فعل مهما كان صغيرًا أو كبيرًا إلا بعد موافقة الكاهن أو العراف.

ودعونا نتعجب أن ذاك الانتشار للسحرة والمشعوذين، والذي طغى على القبائل العربية قبل بعثة محمد ﷺ يطل برأسه من جديد في عصرنا الحديث بصور شتى في كثير من البلاد التي تعلن أنها أكثر بلاد العالم حضارة ورقيًا، حتى بات للمشعوذين مواقع على شبكة الإنترنت، وصارت لهم قنوات فضائية تتحدث باسمهم مع المخدوعين بهم!

٧- الفظاظة وسوء الخلق :

وتمثل هذا الأمر في رفع الأصوات، والصخب بالأسواق، والغش في المعاملات المالية، وأكل أموال الناس بالباطل، والتعيير بالآباء والأمهات، وعدم مراعاة سن الكبير إلا إذا كان من ذوي الهيئة أو المال، وغيرها من مظاهر الفظاظة وسوء الخلق، وكان للعرب منه نصيب كبير؛ وبعد استعراض تلك المساوئ السلوكية في الأفعال عند العرب التي لم تمكنهم من إنشاء حضارة في جزيرة العرب نتساءل: فكيف عمل محمدﷺ لمعالجة أوضاع الجاهلية تلك التي وجدها؟ وكيف رسم طريقاً جديداً للارتقاء الحضاري؟ ذلك ما يتم عرضه فيما يلي:

•• تحرير العقل القضاء على الخرافات :

فمنذ أن بُعث محمد ﷺ وجهر بدعوته واجه أهل الخرافات الذين كانوا يدّعون معرفة الغيب، وأُنزل عليه قرآن يوضح هذا الأمر، فيقول الله تعالى له: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾(النمل: ٦٥) . فنفى الله عن جميع مخلوقاته معرفة الغيب بما فيهم الأنبياء والمرسلون، فلا يطلّع على الغيب أحد كما قال سبحانه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (الجن: ٢٦). وأمر الله محمدًا ﷺ أن

يقول: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٨). وجعل الله معرفة الغيب خمسة موضوعات اختص وحده بمعرفتها، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾(لقمان: ٣٤).

وبذلك قطع الطريق على هؤلاء الذين يستغلون سذاجة الجاهلين ويوهمونهم بالخرافات والدجل.

بل وكان من أعظم أعماله الدعوة إلى عبادة الله وحده، ونبذ الأصنام والتماثيل، فما أصعب على العقل البشري الذي أعطاه الله من الملَكات والإمكانات التي تؤهله للسيادة في الكون أن يقبل أن يسجد ويتعبّد لتمثال من الحجر لا يملك لنفسه ومن باب أولى لغيره نفعًا ولا ضرًّا.

لقد عدَّت رسالة محمد ﷺ عبادة الأصنام أكبر تغييب للعقل البشري، وأكبر انحطاط فكري عقدي، فكيف يعبد الإنسان ما صنعت يداه، وكيف لصانع تمثال من الحجر بعد أن ينتهي من بنائه أن يسجد له ويتضرع إليه ويعتقد أن باستطاعته أن يكشف ما حل به من كُرَب، ثم يتقرب إليه بشتى القُربات، كي يرضى عنه، ويصفح عن ذنوبه ؟!

بل قد أكد الإسلام على استخدام العقل والتفكّر، وأمر الناس جميعًا بالسير في الأرض، والتدبر في الكون، والتفكر في خلق الله، فقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(العنكبوت: ٢٠).

وطالبهم بالنظر في عاقبة المكذبين الظالمين الذين أفسدوا في الأرض ليعتبر الإنسان بغيره، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (النمل: ٦٩).

ووجَّههم إلى الكون كله لينظروا إلى الخلق، ويستدلوا به على الخالق، وختمها بسؤالهم عن العقل الذي يرتب النتائج على أسبابها، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(البقرة: ١٦٤)

إن التفكر في المخلوقات ليَدلنا على حقيقة ناصعة بينة، وهي أن وحدة الخلق تدل على تفرد الخالق، فمن ينظر إلى الأرض يجدها هي والكوكب تدور حول الشمس، وتدور الشمس أيضًا ويدور كل جرْم سماوي في مدار حدَّده الله له، حتى وصل العلماء إلى آخر مكان مرئي حسب قدرة البشر، وعلموا أنه يدور حول شيء لا يعلمه إلا الله.

فإذا نظرنا إلى كل هذا، ونظرنا إلى أصغر وحدة في الكائنات لوجدنا أنها النواة، ووجدنا الإلكترونات والبروتونات تدور حول مركز النواة.

فإلى أي شيء يقودنا هذا الاتحاد في الخلق؟! لا يقودنا إلا إلى شيء واحد هو توحيد الله تعالى، فهي آيات عليه سبحانه، كما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(البقرة: ١٦٤) .

فالعقل إن تجرد وتحرر لا يهدي إلا إلى الله، وما ضل الناسُ إلا باستعباد عقولهم بالجهل والخرافة والدجل، ولهذا ما وُوجِهَ محمد ﷺ بالعقل ولا بالمنطق، بل وُوجه بالإيذاء والصدّ، ومنع الناس من سماعه، وسماع آيات القرآن، فقالوا كما حكى الله عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾(فصلت: ٢٦) .

•• تحرير الإنسان:

إن معنًى حضاريًا مهمًا ليبرز في تعاليم محمد ﷺ حول الإنسان وتحريره من ربقة العبوديات بمختلف أنواعها؛ فقد علم محمد ﷺ أنه لا قيام لمجتمع صالح وإيجابي بغير تحرير للإنسان في ذاك المجتمع، فابتدأ بتحرير روحه ونفسه من عبودية غير الله، وأمره بكبح جماح ميله نحو طاعة هواه وعبودية ما يحب، كما قال تعالى في وصف من تلك حاله: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٤٣-٤٤) .

كما حرّره من الشهوات ومن وقوعه فيها أن تستذله أو تأسره، أو تكسر إرادته، وحرره من عبودية أخيه الإنسان، تلك التي تخنعه وتذله، وتمنعه من التطور والارتقاء.

والرؤية المحمدية في تحرير الإنسان بوصفه منطلقاً للحضارة لتصطدم اصطداماً واضحًا بكثير من المنتجات الحضارية الفذّة التي لا تزال قائمة عبر التاريخ، حيث كان

قيامها مبنيًا على استعمال آلاف البشر واستذلالهم واستعبادهم في بناء الحجارة، أو حفر الصخور أو شق الأرض، أو ما شابه ذلك.

إن محمدًا ﷺ ليرى أن بثّ قيمة إيجابية إصلاحية راقية أكثر نفعًا أضعافًا مضاعفة من بناء شاهد حجري ضخم قد يستمر آلاف السنين.

•• الحضارة العلمية :

لقد تنبّه محمد ﷺ إلى أن العلم هو أساس محوري في قيام الحضارة، فابتدأ عهدًا جديدًا عنوانه العلم والمعرفة والثقافة، وعُدَّ تاريخ البعثة المحمدية بدقة تاريخ ابتداء جميع العلوم المتميزة التي خرجت من هذه المنطقة، فهو يأمر بالقراءة والكتابة، و أول آيات القرآن تبتدئ بقوله: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وحثّ على طلب العلم كل امرأة وطفل وشيخ في الدولة الإسلامية المستوى نفسه من الحث الذي حثّ به الرجال والشباب، بل جعله هو الموروث الأوحد من تراث رسالته المحمدية، إذ يقول في حديث عظيم من أحاديثه ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»[1]، ويقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2].

ومن أجل تلك التعليمات ونحوها برزت دوافع طلب العلم والبحث عن المعارف والحِكم أنىَّ وجدت، ولم تمضِ على بعثة محمد ﷺ سوى بضعة عقود من السنين إلا وكانت الدولة الإسلامية منارة مشعة للعلم والمعرفة بشتى جوانبها، ويمكن أن يُكتب بما لا يتسع المجال هنا عن بيانه، لعظم الأثر العلمي للدولة الإسلامية وفضله على العالم أجمع، إلا أن هذا لا يمكن أن يتيسر بين أيدينا في مبحثنا هذا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤).

•• التغيير في الإنسان :

يمثل الإنسان أهم مجال من مجالات التغيير التي حققها محمد ﷺ، فالإنسان هو المخاطب بالدعوة، وهو موضوع الرسالة التي جاء بها محمدﷺ وإخوانه الأنبياء - عليهم السلام -.

التغيير في الإنسان هو الخطوة الأولى والأهم في أي مشروع للتغيير في المجتمعات، من خلاله يتحقق التغيير الديني، والتغيير السلوكي، والتغيير السياسي، والتغيير الحضاري.

وحين نعود إلى سيرة محمد ﷺ لنتساءل: ماذا أحدث من تغيير في الإنسان؟ فإننا سنجد الإجابة من خلال استعراض توجيهاته القولية، وأساليب تعامله مع الناس.

وسنجدها أيضًا من خلال استقراء الواقع العملي، والمقارنة بين واقع الإنسان في جزيرة العرب قبل بعثة محمد ﷺ وبعدها.

وتتمثّل أبرز معالم التغيير في الإنسان فيما يلي:

•• كرامة الإنسان :

أكّد محمد ﷺ على الكرامة الإنسانية، وعلى أن الإنسان مخلوق مكرمٌ كرَّمه خالقه تبارك وتعالى، وفرض علينا التعامل معه في إطار هذا التكريم.

جاء في سورة الإسراء ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء:٧٠).

كما يحكي لنا القرآن في السورة نفسها كيف أن الشيطان اعترض على ربه تبارك وتعالى لأنه كرم ابن آدم: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(الإسراء: ٦٢).

وتكريم الإنسان لا يقف عند مجرد النص على ذلك، وبيان منزله ، بل إننا حين نرجع إلى التطبيقات العملية ندرك أثر هذا التكريم فيما جاء به محمد ﷺ من توجيهات وأوامر، ومن ذلك:

- أن محمداً ﷺ يؤكد على أنه لا يجوز للإنسان أن يحتقر أخاه، فيقولﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» [1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

- إن احتقار الآخرين مظهرٌ من مظاهر الإخلال بكرامة الإنسان، والاحتقار قد يكون بكلمة نابية، أو إشارة توحي بالاستهانة، أو استعلاء وتكبر.
- كما يؤكد محمد ﷺ على إزالة الفوارق التي صنعها الناس بين بني الإنسان، تلك الفوارق التي تهدر قيمة الإنسان وكرامته لأجل لونه أو جنسه أو انتمائه القبلي.

كانت تلك الفوارق تعني شيئًا كبيرًا، كان العرب ينظرون نظرة ازدراء واحتقار إلى بعضهم لا لشيء إلا لمجرد اعتبارات وضعوها هم، لا تستند إلى معايير موضوعية.

حينها يتشكل موقع الإنسان في المجتمع لا بحسب كفاءته وقدراته، ولا بحسب دينه وخلقه، ولا بحسب عطائه وتفاعله مع المجتمع، بل بحسب أمور ليس له فيها قرار، فانتماؤه إلى قبيلة أو جنس أو لون لا يعني قدراته ولا إمكاناته، بل هو أمر لا خيار له فيه ولا قرار.

جاء محمد ﷺ فقضى على تلك المعايير الفاسدة وألغاها، وحكم بأن الناس إنما يستمدون كرامتهم وقيمتهم لكونهم بشرًا ابتداءً، ثم نتيجة أعمالهم وسلوكهم وقدراتهم وعطائهم انتهاءً.

أكد محمد ﷺ على هذا المعنى في موسم الحج الذي شهده جمع غفير من أتباعه، فعن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال:

«يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى. أَبَلَّغْتُ؟ قالوا: بلَّغ رسول الله ﷺ»[1].

إن بناء الكرامة لدى الإنسان لا يقف أثره على مجرد الشعور الداخلي والنفسي، بل إن الكرامة أداة مهمة لتفعيل طاقة الإنسان، فينطلق فاعلاً في ميادين الحياة مؤثرًا فيها، وتنبعث لديه الطاقات والقدرات.

ولا يقف تكريم محمد ﷺ للإنسان عند دائرة الحياة، بل يبقى هذا حتى بعد موته؛ فروي أن كانت امرأة سوداء تُعنى بتنظيف مسجده ﷺ ففقدها، فسأل الناس عنها فأخبروه أنها ماتت، وكرهوا أن يزعجوه، وكأنهم صغَّروا أمرها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٧٨).

فقال ﷺ: «أفلا كنتم آذنتموني».

ثم سأل عن قبرها فصلى عليها[1].

إن هذه المواقف التي كان يعيشها أصحابه معه ﷺ كانت تترك أثرها في نفوسهم، وتمدهم بطاقة تدفعهم للتأثير في مجالات الحياة، والشعور بأن الإنسان إنما يستمد قيمته مما يعمل وينتج، لا من نسبه أو نظرة الناس إليه.

•• حرمة دمه وماله وعرضه :

أكد محمد ﷺ على قيمة الإنسان، وعلى حرمة دمه، وأنه لا يجوز إهداره ما لم يأتي بما يوجب استحقاقه لهذه العقوبة.

كما أكد على حرمة ماله، وأن مال الإنسان محترم لا يجوز أخذه بغصب أو سرقة أو اختلاس أو غش أو خديعة.

كما أكد على حرمة عرضه، فلا يجوز أن يتحدث الناس عنه في غيابه بما يكره، ولا أن يُتّهم بأي تهمة ما لم يكن هناك بينة تثبت ذلك.

ففي موسم الحج خطب محمد ﷺ الناس، وأكد على هذه المعاني قائلاً:

«... فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، لِيُبَلِّغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨)، ومسلم (٩٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

•• التغيير الديني :

خلق الله الناس موحدين لا يشركون به شيئًا ، وظلوا يعبدونه الله قرونًا طويلة ، فلما طال عليهم الأمد وتفرقوا في البلاد؛ نسوا عهده ، وضلوا عن صراطه المستقيم، وعبدوا من دونه آلهة أخرى، فأرسل إليهم الرسل يذكرونهم به ويدلونهم على صراطه المستقيم، فكان كلما ابتعدت أمة عن النهج السوي أرسل إليهم نبيًا آخر إلى أن خُتِمَت الرسالات بمحمد ﷺ وبرسالته الخاتمة الإسلام.

ودعونا نلقي نظرة على أحوال العالم قبل مجيء محمد ﷺ من الناحية العقائدية والدينية؛ لنعرف أثر التغيير الذي أحدثه وجود محمد ﷺ في الكون من تلك الناحية.

•• نظرة عامة :

رُكِّب في الإنسان نداء فطري يشده دائمًا إلى معبود يلجأ إليه عند الشدة ويتقرب إليه بالعبادة.

هذا النداء الفطري لم يخلُ منه أحد منذ آدم - عليه السلام - إلى يومنا هذا، وإلى قيام الساعة، والذي يدل دلالة واضحة على معرفة أساسية بالله في داخل النفس البشرية أنه سبحانه هو الذي أحياها ويميتها ويرزقها.

وقد أخبرنا محمد ﷺ عن سر هذا النداء الفطري المرتكز في داخل كلٍّ منا، فبيَّنه ربه في القرآن: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾(الأعراف: ١٧٢).

فهذا هو النداء الفطري والذي يوضحه محمد ﷺ في أحاديثه، فيقول عياض بن حمار المجاشعي ﷺ: إن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»(1).

فالأصل في العباد التوحيد وعدم الشرك، وتلك هي الفطرة التي فُطر الناس عليها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة: فأبواه يهودانه أو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

ينصراه أو يمجسانه»[1]، ثم يقرأ أبو هريرة ﷺ هذه الآية: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(الروم: ٣٠).

ويظل الإنسان باحثًا ساعيًا حول هذا النداء، حتى وإن لم يهتدِ إليه طول حياته، فالعبادة من أساسات حياته «ولهذا ففي حفريات المدن القديمة وجدت مُدن بلا مدارس، ومدن بلا حصون، ومدن بلا أسوار، ولم توجد مدينة في العالم إطلاقًا بلا معابد»[2].

فالعبادة جزء مركوز في النفوس، ولا يمكن أن يستغني الإنسان في لحظة من اللحظات عن فكرة وجود خالق له يتوجه إليه بالعبادة.

وما انتشار السحر والدجل والكهانة في تلك المجتمعات إلا أثر من آثار الخوف من السلطة القاهرة القادرة، التي تتمثل في ضمير كل منهم بالإله، فيحتاج إلى ساحر أو كهان أو دجال، لكي يطمئن الشخص بأنه في أمان من غضب القوة القاهرة عليه.

واختلفت الأهواء والضلالات؛ فعَبَدَ الناس كل الموجودات في هذا الكون، فعُبِدَت الشمس والقمر وسائر الكواكب، وعُبِدَت الحيوانات بأشكالها، وعُبِدَت الأشجار والأحجار والثمار، وعُبِدَ الأشخاص الصالحون وغيرهم، وعُبِدَ الملوك وعدّوهم سلالة إلهية.

ومن الناس من عدَّد آلهته في وقت واحد، ومنهم من وحَّد الإله في صورة واحدة؛ فيقول وول ديورانت عن عدد الآلهة التي عُبِدَت في إقليم مثل الهند فقط: «لكنا لم نذكر إلا خمسة من ثلاثين مليونًا من الآلهة تزدحم بها مقبرة العظماء في الهند، ولو أحصينا أسماء هاتيك الآلهة لاقتضى ذلك مائة مجلد، وبعضها أقرب في طبيعته إلى الملائكة، وبعضها هو ما قد نسميه نحن بالشياطين، وطائفة منها أجرام سماوية مثل الشمس، وطائفة منها تمائم مثل (لاكشمي) - آلهة الحظ الحسن -، وكثير منها هي حيوانات الحقل أو طيور السماء؛ فالهندي لا يرى فارقًا بعيدًا بين الحيوان والإنسان، فالحيوان روح كما للإنسان، والأرواح تمضي دومًا متنقلة من بني الإنسان إلى بني الحيوان، ثم تعود إلى بني الإنسان مرة أخرى؛

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) مستفادة من كتاب قصة الحضارة لول ديورانت.

فالفيل مثلاً قد أصبح الإله (جانيشا)، وعدّوه ابن شيفا؛ كذلك كانت القردة والأفاعي مصدر رعب، فكانت لذلك من طبيعة الآلهة؛ فالأفعى التي تؤدي عضة واحدة منها إلى موت سريع، واسمها (ناجا) كان لها عندهم قُدْسية خاصة، وللتماسيح والنمور والطواويس والببغاوات، بل والفئران حقها من العبادة»[1].

ومنهم من عبَد أعضاء جسد الإنسان حتى أعضاء التناسل، كما يقول وول ديورانت عن عبادات الهنود: «وكان إلهًا هو شيفا، ورمزها هو عضو التذكير، وكتابها المقدس هو (أجزاء من التانترا)؛ و(شاكتي) بالنسبة إلى شيفا هي- كما كانوا يتصورونها أحيانًا- زوجته كالي، وأحيانًا أخرى يتصورون تلك القوة الباعثة شيفا على نشاطه الجنسي، وهاتان القوتان يمثلها الهنود بأوثان يطلقون عليها اسم (لنجا) أو (يوني)، وهي تصور عضوي التناسل عند الرجل والمرأة»[2].

هذه الضلالات التي عاش الناس فيها، رغم أن الله عز وجل ما ترك أمة إلا أرسل إليهم رسلاً ينذرونهم ويدعونهم إلى عبادة الله سبحانه، ولكنهم ظلوا على ضلالاتهم وخرافاتهم؛ فأخبرنا محمد ﷺ بقول الله عز وجل له: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾(فاطر: ٢٤). وأنزل عليه أيضًا في القرآن: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾(النحل: ٦٣). وجعل الله إرسال رسول إلى أي قرية شرطًا لازمًا قبل أن يعذبهم في الآخرة على الشرك به، فقال: ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾(الإسراء: ١٥).

لقد عاش العرب على التوحيد في الفترة التي تلت مجيء إبراهيم - عليه السلام - بولده إسماعيل وزوجه هاجر إلى مكة، وكبر فيهم إسماعيل، وصار نبيًا يدعو إلى عبادة الله وحده، وبعد فترة طويلة جاء رجل اسمه عمرو بن لحي الخزاعي، وبدَّل دين إبراهيم، وجاء بالأوثان ونصبها في المسجد الحرام، ودعا الناس إلى عبادتها بوصفها واسطة بينهم وبين الله، ولبَّى الناس دعوته، وانسلخوا من التوحيد إلى الشرك، وكثرت

---

(١) وول ديورانت قصة الحضارة: ١/ ٦٥٨.

(٢) وول ديورانت قصة الحضارة: ٨٧٦/١

الأصنام في مكة حتى صار لكل قبيلة صنمها الخاص بها، وقُدِّر عددها حول الكعبة بنحو ثلاثمائة وستين صنمًا يتعبد إليها الناس، يركعون لها ويسجدون، ويتقربون إليها بالقرابين، ونسوا الله خالقهم سبحانه.

وكان هناك بقايا من أهل الكتاب على ديانة التوحيد الخالص لله، وكانوا قلة قليلة جدًا، رغم عدد النصارى واليهود الكثير.

ويقول محمد ﷺ واصفًا تلك الحال التي كانت عليها الأرض فيقول: «... وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعَجَمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[1].

فاستحقاقهم للمقت كان نتيجة لشركهم بالله سبحانه، واتخاذهم معه آلهة أخرى وتلاعبهم بدينهم.

ولهذا كان الناس في أشد الحاجة لمبعث نبي يُعِيد الناسَ إلى توحيد الله وعبادته، وخاصة أن الفارق الزمني بين نبي الله عيسى - عليه السلام- وبين محمد ﷺ يقدر بقرابة الستمائة سنة، وليس بينهما نبي.

فبعث الله محمدًا ﷺ هاديًا للناس، ورحمة للعالمين، ورسولا إلى البشرية كلها، يدعوهم إلى الله سبحانه، وإلى توحيد عبادتهم له وحده.

جاء محمد بمنهج التوحيد الذي كان أصيلا في ذاته قديمًا، إذ كانت رسالة كل الأنبياء الذين سبقوه، فقد جاء نوح - عليه السلام - برسالة التوحيد، فقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(الأعراف: ٥٩).

وجاء بالرسالة نفسها هود - عليه السلام - : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: ٦٥).

وكذاك صالح - عليه السلام -: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (هود: ٦١) .

وأيضًا شعيب - عليه السلام - : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾(هود: ٨٤) .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

وبالرسالة نفسها وغايتها جاء محمد ﷺ فأمره ربه أن يبلغ الناس، ويقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (ص: ٦٥).

ولكن هذا المنهج على الرغم من قِدَمه وعراقته إلا أنه كان غريبًا على أفهام الناس وأذهانهم، فرفضوه وعاندوه، ولم ينقادوا لذلك النداء الفطري الخالد.

•• الإيمان بوجود خالق لهذا الكون:

إن العقيدة الإسلامية في الإله الخالق للكون وتوحيده قد بُنيت على معطيات وفروض صحيحة ومقنعة ومتجذرة يقبلها العقل البشري السليم، وتقر بها النفوس المستقيمة الباحثة عن الحقيقة، فقد استقرت في أذهان الناس حقيقة لا حاجة لإيراد دليل عليها، وهي أن كل صنعة لا بد لها من صانع، فما من شيء تراه عينك في هذا الكون إلا وهناك يد قد صنعته.

فيستحيل أن تصدق بعقلك أن أبسط الأشياء من حولك قد صُنِعت بذاتها، أو صَنَعت نفسها بنفسها، ولن يسمح عاقل لنفسه أن يقتنع بأن مجموعة من الأخشاب اجتمعت بذاتها، وانضم بعضها إلى بعض، وجاءت مجموعة أخرى من الحديد وتراكبت معها، ودقت نفسها بين جَنَبات الأخشاب، ثم جاءت مجموعة من المحركات وأخذت مكانها، وهكذا إلى أن تكوّنت السفينة التي تراها تجوب البحار والأنهار. يستحيل عقلاً أن يصدّق ذلك.

فإذا كان العقل يرفض أن يصدق هذا، فهل يسمح لنفسه أن يقول: إن السماء والأرض والبحار والأنهار، وكل ما فيها من عوالم الإنسان، والحيوان والطير والحشرات، والأسماك بما يزيد عن ملايين الأنواع والأشكال والأحجام؛ كل ذلك وُجد مصادفة أو خلق نفسه بنفسه، أو أن الطبيعة قد أوجدت نفسها؟

فلا بد من خالق لهذا الكون خلقه وسوَّاه وأبدع صُنْعه.

- وإذا كان هناك خالق فلا بد أن يكون قديمًا قبل مخلوقاته، وإلا يتبادر السؤال: كيف خلق تلك المخلوقات قبل أن يوجد هو؟
- وإذا كان هناك خالق قديم للكون فلا بد أن يكون قويًا أقوى من جميع مخلوقاته، حيث لا يخضع لمخلوق، ولا يأبى عليه مخلوق من مخلوقاته أبدًا، فلابد أن يتصف بالقدرة والقوة والهيمنة والسيطرة على الكون.
- وإذا كان الكون بهذا الإبداع وبهذه الحكمة المتناهية، يُعطى فيه كل مخلوق

ما يُصلِح حياته وشأنه، فلا بد أن يكون خالقه حكيمًا يضع كل شيء في نصابه، فلا يتصف بالعَبَث ولا اللهو، ولا اللعب ولا الندم.

- وإذا كان الكون يسير بتلك الحكمة، فحركة الكواكب والنجوم تسير وَفْق معدلات ثابتة لا تتغير، وهناك ثوابت كثيرة في الكون وقوانين مطردة لا تتخلف، فمعنى ذلك: أن إرادة خالقه واحدة، فلو كانت هناك أكثر من إرادة لاضطربت القوانين الكونية.
- ولا بد لهذا الإله أن يكون غنيًا عن أية مساعدة من خلقه، فلا يحتاج إلى ولد ولا إلى زوجة كما يحتاج خلقه، وذلك حتى يُحكم أمر هذا الكون هذا الإحكام الفريد.
- وإذا أقررنا أن هناك للكون إلهًا، فلا بد له من أوامر يأمر خلقه بها ونواهٍ ينهى عباده عنها؛ ليعلَم من يطيعه ممن يعصيه، وما سمعنا أن للأصنام والأوثان أو الشمس أو القمر أو الحيوانات، أو جميع ما عُبِدَ من دون الله؛ أوامر لمن يعبدونهم فكيف يستوي المؤمن بها بمن يكفر بها ويجحدها، فلا بد من وجود أوامر ونواهٍ لذلك الإله.
- وإذا أقررنا بوجود تلك الأوامر والنواهي فلا بد من وجود مكان آخر وزمن آخر يكافئ فيه المحسن والمطيع على طاعته، ويعاقب فيه المسيء على عصيانه، وإلا إذا استويا وماتا كلاهما ولم يكن هناك مكان أو زمان آخر للبعث لكان الأمر عبثًا ولاستباح الناس فعل كل المنكرات؛ لأنهم آمنون من العقوبة غير طامعين في المثوبة.

إن كل تلك التساؤلات والأدلة العقلية لتدل على أن لهذا الكون خالقًا واحدًا لا شريك له، قادرًا عليمًا حكيمًا قديمًا قويًا عظيمًا، متنزهًا عن الشريك وعن الزوجة وعن الولد، يأمر بأوامر وينهى عن نواهٍ، يبعث الناس ليوم البعث؛ فيجزي المحسن بإحسانه ويدخله جنة عرضها السماوات والأرض، ويعاقب المسيء العاصي ويدخله نارًا وقودها الناس والحجارة، وهذا الخالق العظيم هو الله سبحانه لا إله غيره ولا شريك له.

بهذه المقدمات والاستدلالات التي تخاطب العقل والنفس في مدلولها بالتوحيد جاءت رسالة محمد ﷺ تعلِّم الناس وتقودهم إلى معرفة الله سبحانه والإيمان به ربًا وخالقًا ورازقًا ومحييًا مميتًا وباعثًا ومالكًا ليوم القيامة؛ كما يقول سبحانه: ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ
﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ
﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ
يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الطور: ٣٦-٤٣).

لقد دعا محمد ﷺ الناس إلى إلههم وربهم جل وتعالى، وطالبهم بإعمال عقولهم وعدم تعطيلها، ونهاهم عن تقليد الآباء في أمور العقيدة، معتمداً على ما أنزله الله تعالى إليه من القرآن وما فيه من الآيات والحكم والقصص، كمناظرات الأنبياء لخصومهم، ومنها:

قصة موسى يخاطب فرعون ويذكّره بمقام ربه، كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(الشعراء: ٢٣-٢٨).

وقصة إبراهيم في مناظرته للملك النمرود، حيث قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(البقرة: ٢٥٨) .

وعلى ذلك سار الصحابة والدعاة إلى التوحيد ، حيث يذكر ابن كثير في السيرة النبوية حادثة إسلام الصحابي عمرو بن الجموح، وفيها استخدم أبناؤه المنطق نفسه في نفي الألوهية عن الصنم الذي يعبده فيقول: «كان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة وأشرافهم، وكان قد اتخذ صنمًا من الخشب في داره يقال له مناة، كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذه إلهًا يعظمه ويظهره، فلما أسلم فتيان من بني سلمة هما ابنه معاذ ومعاذ بن جبل كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك؛ فيحملونه فيطرحونه في بعض حُفَر بني سلمة، وفيها عُذَر الناس- أي القاذورات - منكسًا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطيَّبه وطهَّره ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه، فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطيبه ويطهره، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يومًا فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى؛ فإن كان فيك خير فامتنعْ، هذا السيف معك، فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عُذَر من عذر الناس، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في

مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى إذا وجده في تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه وكلّمه من أسلم من قومه، فأسلم برحمة الله وحسُن إسلامه»[1].

فأسلم ﷺ حين علم ذلك الاستدلال؛ إذ إن الإله هو الذي يرعى ويحفظ مخلوقاته، ولا يحتاج إلى مخلوقاته لتدافع عنه وتحفظه.

•• كلمة التوحيد :

ما جاء محمد ﷺ إلا بكلمة واحدة وما طلب من الناس إلا كلمة واحدة فقط عليها قامت السماوات والأرض، فيقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: «مرض أبو طالب فأتته قريش وأتاه النبي ﷺ يعوده، وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل فقعد فيه، فشكوا رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا. قال: ما شأن قومك يشكونك يا ابن أخي؟ قال: «يا عم، إنما أردتهم على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية»، فقال: وما هي؟ قال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ قال: ونزلت: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ (ص: ١) إلى قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ (ص: ٥)»[2].

وهي الكلمة التي كان يتمنى أن تخرج من فم عمه أبي طالب قبل موته؛ حيث «إن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: «أي عم قل لا إله إلا الله، كلمةً أحاج لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنه». فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾(التوبة: ١١٣). ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ (القصص: ٥٦)»[3].

وبشَّر من كانت تلك الكلمة آخر كلامه؛ فعن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[4].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ٢/٢٠٧.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٢)، وأحمد (٢٠٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٣١١٦).

•• معنى كلمة التوحيد :

كلمة التوحيد هي الكلمة التي على أساسها جاءت رسالة محمدﷺ إلى مجتمعه والناس أجمعين، وهي ذات الكلمة التي بُنيت عليها تلك الحضارة من أطرافها، وبها قدَّم محمد ﷺ علاجًا متكاملا للنفس الإنسانية في حياتها الفردية والجماعية على مر العصور،تلك الحقيقة التي يؤكدها الله لمحمد ﷺ في القرآن بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣-١٢٦).

إن أكثر ما يؤلم الإنسان في الدنيا، ويصيبه بالأمراض النفسية هما أمران عظيمان: الحزن على الماضي، والخوف من المستقبل.

فالمؤمن بالله يوقن أن هذه الحياة ليست كل شيء، وأن هناك حياة أخرى تنتظره، فيها نعيم مقيم، أو عذاب أليم حسب أعماله، فالدنيا مزرعة للآخرة يزرع فيها ما يحصده غدًا أمام ربه، فإذا ظلمه أحد في ماضيه أو اعتدى على بعض حقوقه يوقن أن هناك ربًا عادلاً سيقتص له من ظالمه، مهما امتدت السنون وتباعدت، فالحقوق لا تضيع وكله مسطّر عند الله، ولا ينسى ولا يضيع عنده شيء؛ يقول الله سبحانه في آيات القرآن في حديث بين موسى - عليه السلام - وفرعون ؛ كما حكاه الله تعالى فيقول : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ (طه: ٥١-٥٢).

فالمؤمن مطمئن تمامًا؛ لأن ربه ليس بغافل عن الظالم، فيقول الله: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ (إبراهيم: ٤٢).

فإن ابتُلي بمرض أو فقدان حبيب أو بخسارة مال يعلم أن هذا ابتلاء من ربه له، فإذا صبر غنم وفاز في الدنيا والآخرة، وإذا ضجر وتسخط ابتعد عن رضا ربه؛ وهذا قول محمد ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

والمؤمن لا يخشى المستقبل؛ لأنه يعلم أن المالك الوحيد له والمتصرف فيه هو الله سبحانه، والمؤمن مطمئن لما عند الله العادل الذي لا يضيع أجر المحسنين، ومن ثم لا يذل المؤمن نفسه لأحد من المخلوقين؛ لأنه يعلم أن المخلوق مهما كان لا يتحكم في رزقه ولا في حياته أو موته، يقول محمد ﷺ في حديثه: «إنه ليس شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه، إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لا تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإن الله لا يُدرَك ما عنده إلا بطاعته»[1].

والمؤمن لا يتملق أية قوة مهما تجبرت، ولا ينافقها؛ لأنه يعلم أن تلك القوة لا تستطيع نفعه ولا ضره إلا بإذن من ربه، يقول الله سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٧-١٨).

والمؤمن لا يتوجه بالعبادة والطاعة إلا إلى ربه سبحانه، فهو المستحق للعبادة، وهو الآمر بالطاعة المستحق لها وحده.

إن كلمة «لا إله إلا الله» كلمة التوحيد فيها لمن أخذها بحقها الخلاص من كل المشكلات والآلام؛ فالإيمان بالله خالقًا فلا خالق إلا الله، والإيمان به رازقًا فلا يملك الرزق سواه، والإيمان به محييًا مميتًا، فلا يقضي الحياة ولا الموت غيره سبحانه، والإيمان به معبودًا واحدًا لا شريك له، تُصرَف إليه العبادات جميعًا، ويُحكَم بأمره، ويؤتمر بشرعه الخير للناس جميعاً.

ويؤكد محمد ﷺ تلك المعاني حينما نصح غلامًا، وهو عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- وقد وضع له محمد دستورًا يضمن له حياة كريمة في الدنيا والآخرة، فقال عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما- : كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف(٢٠١٠٠) وابن أبي شيبه(١٣٩/٨) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٧٦)

بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأقلام، وجفت الصحف»[1].

فالراحة والاطمئنان والسعادة الكاملة في الاتصال بالله، ولا راحة بغير ذلك كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨) .

والإيمان بالله يضمن الراحة، والاطمئنان على الأجل وعلى الرزق، إذ لا مالك لهما إلا الله، يقول الله لمحمد ﷺ: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٢-٢٣) .

وتلك الأمور بيد الله تعالى، فلا حاجة للعبد لأن ينشغل بها، بل يجب أن ينشغل بما يصلح دنياه وآخرته، فيسعى في الدنيا إلى تحصيل رزقه، ويسعى ويعمل في عمل الآخرة لينال منها أوفر الحظ والنصيب، فالرزق والأجل أمران محسومان قبل وجود الإنسان على الأرض؛ فيخبرنا محمد ﷺ فيقول: «إن أحدكم يُجمَع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

•• العبادة ومفهومها عند محمد ﷺ :

منذ قديم الأزل استقر في الناس فهم ظلّ متعمقًا فيهم لسنين طوال، وجاء محمد ﷺ ليهدم هذا الفهم الخاطئ من جذوره، وتمثّل هذا الفهم في أمر العبادة فضيّقوها وحصروها معنًى ومكانًا وزمنًا وتأثيرًا؛ فحصروا معنى العبادة في الصلوات على اختلاف أشكالها، فلا يكاد يخرج الإنسان من مكان عبادته إلا وتنقطع العلاقة بينه وبين معبوده نهائيًّا، فضيّقوا معنى العبادة، واختزلوها في حركات جسدية وكلمات تقال بالألسنة.

وحصروها مكانًا بأن جعلوا مكانها فقط في المعابد التي يمارسون فيها شعائرهم، فإن خرجوا من معبدهم تخلصوا من سلطة الرب عليهم، فيتصرف الإنسان

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

كما يحلو له أن يتصرف، ولا ضابط له ولا خُلُق ولا قانون ولا دين، ويقولون: إن الدين داخل أماكن العبادة فقط، ويُنَحُّونه بعيدًا عن مظاهر الحياة كلها.

وحصروها زمنًا، فخصصوا للعبادة زمانًا محددًا فقط، يمارسون فيه عبادتهم وما إن ينتهي الزمن حتى يعود كلٌّ منهم إلى سابق عهده.

وحصروها تأثيرًا بزعمهم أن العبادة علاقة بين الإنسان ومعبوده، ولا تتجاوزه إلى غيره من الناس، فلا يختلف المتدين عن غيره، ولا الحريص على العبادات عن غيره في المعاملة. إذ إن العبادة لا يمتدّ تأثيرها على خلق وحياة الإنسان.

وجاء محمد ﷺ ليزيل هذا الفهم الخاطئ تمامًا، وليبدّله بمعانٍ أُخر، بل والعجيب أن يعيد الناس إلى المعاني الصافية التي فقدوها في معنى العبادة، فقد ظنوا أن كلامه جديد وغريب، وإنما الحق أنه قول الأنبياء من قبله، ولما نسيه الناس ودعاهم إليه محمد ظنوا كلامه جديدًا، وما هو إلا إعادة لضبط الناس على المنهج الإلهي الرباني.

فالعبادة في رسالة الإسلام هي كل ما يحب الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وهي الانصياع التام والانقياد الكامل من المخلوق لخالقه في الأوامر والنواهي؛ فالطاعة في الأوامر التعبدية عبادة، ولو صرفها العبد لغير الله تكون نوعًا من عبادة غير الله، فلا طاعة لغير الله في الأوامر والنواهي.

وقد جاء عدي بن حاتم إلى محمد ﷺ مسلمًا بعدما كان نصرانيًا، فجاءه وهو يلبس صليبًا من ذهب في عنقه، فيقول عدي ﷺ: أتيت النبيﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال يا عدي: «اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١). قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه»[1].

ولما كان الله سبحانه متصفًا بالحكمة الكاملة والعدل المطلق؛ فتشريعه لخلقه يأخذ من صفاته، فهو التشريع المحكم والعادل للبشرية، ولن يحابي طائفة على حساب أخرى، فالله رب لجميع المخلوقات، وتشريعه صالح لكل زمان ومكان، وتأمّل ما جاء به محمد عن ربه حين قال: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤).

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥).

فالعبادة لا تعني مجرد أداء لبعض الحركات الجسدية، ولا تقتصر على مجموعة من الشعائر والأركان، وإنما هي كلمة شاملة تشمل علاقة كاملة بين العبد وربه، علاقة طاعة وانصياع كامل، ففي كل أمر من أوامر الحياة لله -عز وجل- فيها مراد، وينبغي أن يعرفه العبد، ويسير عليه لضمان سعادته في الدارين.

وليس لها مكان محدد تقتصر عليه؛ فالكون كله ملك لله، والعبد يسير في ملك الله، فهو مفتقر إلى عبادته لربه في كل مكان وحين، كما يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦١ -١٦٢).

فالرسالة المحمدية تنظر إلى الدنيا والآخرة على أنهما متصلتان وطريقهما واحد، وإنما يعبد المؤمن ربه عبادة تصلح دنياه، وتدّخر له ثوابًا لأخراه.

وليس للعبادة زمن محدد تنتهي معه، فمنذ أن يُكلّف الإنسان حين البلوغ وهو مأمور بالعبادة، إلى لحظة خروج روحه، وقد يكون لعبادات معينة أوقات معينة مخصوصة، إلا أن العبادة متصلة لا تنقطع، فصارت في مفهوم الإسلام حياةً كاملةً تحتوي على حياة المؤمن، فليس معنى الخروج من المساجد انقطاع العلاقة بين العبد وربه، وإلى هذا يشير قول محمد ﷺ: «جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»[1]. فالأرض كلها تصلح للعبادة والصلاة.

والعبادة في مفهوم محمد ﷺ لا بد لها من تأثير على خُلُق العابد في علاقاته بالناس، فيصبح أكثر طمأنينة، وأكثر هدوءًا، وأكثر تفاؤلاً، وأوسع صدرًا، يتعامل مع الناس وهو يدرك تمامًا أن ما يفعله من خير معهم لن يضيع حتى لو لم يحصل منهم على المقابل، فالمقابل الحقيقي الذي يرتجيه هو ما ينتظره عند ربه، ويبذل من وقته ليعلمهم ويحببهم في الخير الذي وجده، فالمؤمن يحب للناس ما يحب لنفسه كما قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

يحكي أبو هريرة ﷺ فيقول: قال رجل: يا رسول الله! إن فلانة يُذكر من كثرة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «هي في النار»[1].

فلا أثر للعبادة ولا قيمة إن لم تقترن بتغيير واضح في الخلق السيئ، أو محاولة جادة للتغيير. أما أن يكون المرء عابداً لله فيما بينه وبينه، وهو سيء الخلق مع الآخرين فهذا دلالة على عدم تمكّن العبادة الحقيقية من نفسه، وأنها فقدت تأثيرها على العابد.

بهذا المفهوم تقدّم محمد ﷺ إلى العالم ليقدُم لهم معنى العبادة المطلوب منهم، وصحّح وأزال ذلك المفهوم القديم السقيم للعبادة، وحصرِها وتضييقها على نحو ما ذكرنا.

•• بين العبد وربه جل وعلا:

مفهوم آخر تعرض له محمد ﷺ كي يزيله من دنيا الناس، وهو مختص بالعلاقة بين العبد وربه.

فبعد فترة التوحيد منذ بدء الخليقة استطاع الشيطان بمكر وخديعة أن يُدخل مفهومًا في العقيدة، لم يُصحح إلا برسالة الرسل وآخرهم محمد ﷺ، ولا يزال هذا المفهوم موجودًا لدى كل من ابتعد عن سبيل الأنبياء، وهو مفهوم الوساطة بين العبد وبين الله سبحانه.

فعندما مات بعض الرجال الصالحين قبل عهد نوح - عليه السلام - جاءهم الشيطان متمثلاً في صورة آدمي، وعرض عليهم أن يقيم لهؤلاء الرجال الصالحين تماثيل، ونصحهم بأن يكون هؤلاء وسطاء بينهم وبين الله، وبالفعل اقتنعوا بذلك وبدؤوا في التقرب إليهم حتى عبدوهم بدعوى الوساطة بينهم وبين الله سبحانه فقال الله عز وجل عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾(نوح: ٢٣).

وحينما سئلوا عن عبادتهم لهؤلاء كان ردهم بما حكاه الله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (الزمر:٣).

لقد جاء محمد محذرًا وموضحًا أنه لا وساطة بين العبد وبين ربه سبحانه، وأن الله قريب مجيب لكل داعٍ، ولا يحتاج إلى وساطة كي تصل إليه، فهو أقرب ما يكون لك كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق: ١٦).

وما جعل الله ولا سمح لعبد - مهما علا شأنه - أن يكون واسطة في العبادة بين

---

(١) أخرجه أحمد (٩٣٨٣).

العبد وربه، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فالتوبة تكون من العبد إلى الله مباشرة لا تحتاج إلى عبد مثلك كي تعترف إليه بذنوبك وخطاياك، فهو مثلك تمامًا يصيب ويخطئ، ويجب أن يعود ويتوب إلى ربه ومولاه، ولا يستطيع أن ينفعك، ولا ينفع نفسه إلا بإذن الله.

فالله يحب الستر على عبده، فلا يجبرك أن تفضح نفسك أمام عبد مثلك، فيحبك ويسترك، فإن أذنبتَ فيكفيك أن تتوب إلى ربك ومولاك بلا وساطة، فباب الله مفتوح وباب التوبة لا يُغْلَق أبدًا كما قال محمد ﷺ: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(1).

•• مصدر التلقي:

كثير من يتحدث باسم الله ويكون كاذبًا، وكثير من يزعم أنه ينفّذ أوامر الله وهو كاذب، يطمح إلى تسيير الناس حسب هواه، ولكن من آمن بالله يجب أن يستمع إلى أوامر الله ونواهيه منه مباشرة من كتابه الذي أنزله على محمد ﷺ، ومن محمد ﷺ الذي جاء مبلّغًا عن الله تعالى.

ففي القرآن يأمر الله المؤمنين بطاعة محمد ﷺ، فهو المبلِّغ الحقيقي عن الله سبحانه الذي يقول للناس عنه ﷺ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الحشر: ٧)، ويربط الهداية بطاعته ﷺ في قوله: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾(النور: ٥٤). ويحذر من طاعة أكثر من في الأرض سوى الرسل والأنبياء، فيقول: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٦).

وتكفّل الله سبحانه بحفظ كتابه بنفسه، فلن يطرأ عليه تحريف ولا تبديل، فقد عَهِدَ بحفظ الكتب السابقة إلى الناس فحرّفوها وبدّلوها، فتكفّل بحفظ هذا الكتاب بنفسه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾(الحجر: ٩)، وقال: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (يونس: ٦٤). ولن يأتي لهذا الكتاب باطل أبدًا، حيث قال: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣).

ولذا فابحثوا في النُّسَخ العربية للقرآن التي تقدّر بالملايين في العالم عبر جميع الأزمنة، فلن تجدوا نسخة تختلف عن نسخة أبدًا، وهذا بحفظ الله القادر لكتابه، وحتى الذين طبعوا نسخًا محرفة، فإنها سرعان ما تكشف وتلغى ولا يبقى لها أثر.

فمصدر التلقي في رسالة الإسلام هو القرآن الكريم، والأقوال الثابتة عن محمد ﷺ وأفعاله وإقراراته، وهي تشمل كل ما يحتاجه الإنسان في حياته، وتغنيه عن غيرها من الكتب في إصلاح حياته ومستقبله.

لقد حرص الإسلام على توحيد مصدر التلقي عند المسلمين وتنقيته من أي شائبة قد تعلق به؛ فرفض أن تختلط مصادره الأساسية بالفلسفات القديمة أو التصورات الإلحادية أو الخيالات الصوفية القديمة، أو بكتب السحرة والفلكيين، أو بغيرها، ولا حتى بما اعدهّ بعض الأمم ميثاقًا لها أو دستورًا.

فالإسلام يقدم لأبنائه منهجًا متكاملاً يثبت فيه ويقر الخير السابق له في الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل، ويؤكد على شتى المعاني المنهجية التي تقوم معها الحياة الإنسانية؛ لذا فقد نزل الوحي بأن الدين هو الإسلام كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾(آل عمران: ١٩).

•• الثواب والعقاب:

لقد قدَّم محمد ﷺ تغييرًا آخر على الحالة الدينية في المجتمع من جهة ما يترتب على العمل من ثواب أو عقاب، ومن جهة أسلوب التعاطي مع العقوبة والإثابة، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وهي تُكتب للمرء بمجرد اختلاجها في النفس والعزم على أدائها، وهي باقية ما بقي الإنسان، بل وآثارها ثابتة منطبعة على وجه الكون والحياة، والسيئة بمثلها فحسب، ولا تحسب إلا عند تنفيذها كما يروي ابن عباس عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: «قال إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك؛ فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات، إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»[1].

والحسنة في قوتها وأثرها تمحو السيئة، فقد قال أبو ذر رضي الله عنه: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧).

ومجال التطهر من السيئات والخطايا مفتوح ما دامت حياة الإنسان، ولا توارث بين الناس في حسناتهم ولا خطاياهم، يقول الله : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾(النجم: ٣٨-٤١) .

•• الآخرة والقدر :

قيمتان إيمانيتان كبيرتان قد أسَّس عليهما محمد ﷺ كثيرًا من معاني رسالته، هما: الإيمان باليوم الآخر، وبقضاء الله وقدره، فاليوم الآخر حاضر في شتى ألفاظ آيات القرآن وأحاديث محمد ﷺ، يدفع الإيمان به إلى انتظار الثواب والجنة الخالدة للمحسنين، والهروب من العقاب والنار للمسيئين، بل إن آيات القرآن تضمَّنت إثبات حدوث اليوم الآخر، والرد على المنكرين له بردود مختلفات، فيقول سبحانه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس: ٧٨-٨٣) ، وبذلك فالتصديق باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به، وهذا مما يدفع المؤمن إلى بناء حياته وَفْق مرضاة الله؛ رجاء ثوابه وخوف عقابه.

والإيمان بالقدر ركن آخر من أركان الإيمان، يقوِّم تصور المؤمن للحوادث من حوله؛ فيجعله متقبلاً للأحداث والآلام ويدفعه نحو الصبر في الملمات والمصائب، ويُنبت في قلبه التوكل على الله في جميع أعماله، ويقوِّي عنده وازع الثقة، حيث كل شيء بقدر كما يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٤٩-٥٥) .

الموسوعة الميسرة

في التعريف بنبي الرحمة ﷺ

الفصل الثامن

مرض محمد ﷺ وتعامله مع المرضى

- تعامله مع المرضى
- علامات الرحيل
- وصية مودع
- المرض الأخير

•• مرض محمد ﷺ وتعامله مع المرضى:

عاش محمد ﷺ بشريته الكاملة بما فيها من الصحة والمرض، فأصابه الألم والمرض كما يصيب الناس، ولكنه كان يتعامل مع المرض والآلام تعاملا مختلفاً عنهم، إنه تعامل الرضا والتسليم والقبول بقضاء ربه، والصبر والثبات ورباطة الجأش أمام الآلام والأمراض، والشكر والحمد على الابتلاءات والاختبارات، وتطويع الأعضاء والجوارح كلها على عدم التسخط وقول الخير في كل حال، حتى إنه حين يجد ما يكره فيسأله الناس عن حاله يبتسم ويقول: «الحمد لله على كل حال»[1].

وقد ذكر الله له في القرآن قصة نبي ابتلاه الله بالمرض فصبر، ورفعه الله سبحانه بهذا الصبر، فكان خير أسوة لمحمد، فقال له: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ (الأنعام: ٩٠)، فقد مرض أيوب عليه السلام، فقال الله عز وجل: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ (ص: ٤١-٤٤)، فختمها الله بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗا ﴾ على ذلك المرض الذي طال مدة، وما تغير في علاقته بالله بعد ذلك البلاء الشديد الذي لا يقدر عليه أحد، فلما طال الأمر واشتدت الحال تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٣)[2].

فلم يكن عجيبًا أن يُصاب محمد ﷺ بالمرض، بل يصاب بما هو أشد منه بالموت لأنه داخل في عموم حكم الله تعالى وقدره على جميع المخلوقات كما قال سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٦- ٢٧).

•• حرصه ﷺ على الصحة:

حرص محمد ﷺ على صحته وقوته وحيويته، وعلّم صحابته كثيرًا كيف يحافظون على صحتهم، وعلّمهم كيف يتجنبون الأعمال التي تؤدي إلى ضعف قوتهم، فقال لأصحابه: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٣٨).

(٢) ابن كثير في تفسيره للآيات من سورة ص.

على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1].

كما كان كثيرًا ما يحذرهم من أسباب الأمراض؛ فحذَّرهم من كثرة الطعام والشراب والإسراف الذي ورد التحذير منه في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾(الأعراف: ٣١).

فتعلم وعلم أصحابه فقال المقدام بن معد يكرب الكندي ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطن. حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه؛ فإن غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»[2].

فمحمد ﷺ يرى أن كثرة الطعام والشراب باب من أبواب المرض، وأن شرّ وعاء يملؤه الإنسان هو بطنه. كما نبهَّ محمد ﷺ على تقليل الطعام والشراب، وحذّر من الإسراف فيهما، فينقل جابر بن عبد الله ﷺ قوله: «طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية»[3].

وتعلم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ هذا التنبيه، وظل يردده لمن بعده ويقول: لقد هممت أن أُنزِلَ على أهل كل بيت مثل عددهم - أي ضيوفًا يطعمونهم معهم -؛ فإن الرجل لا يهلك على نصف بطنه»[4].

ويعلمهم محمد ﷺ أن أجسادهم أمانة، وأنهم مسؤولون عنها أمام الله؛ فيقول أبو برزة الأسلمي ﷺ قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأَل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[5].

وليس من حق الإنسان أن يؤذي جسمه، وإن فعل يستوجب العقوبة من الله، يقول

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣٤٩)، والترمذي (٢٣٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٥٩).

(٤) شرح سنن ابن ماجه للسيوطي حديث (٣٢٥٤).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٤١٧).

محمد ﷺ : «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن تحسى سمًّا فقتل نفسه فسُمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»[1].

ويعلمهم التبكير في النوم والاستيقاظ، وهو مدعاة أن تستقيم أجسامهم وتنشط أعضاؤهم، فيقول أبو برزة الأسلمي ﷺ وهو يصف محمدًا ﷺ: «وكان يستحب أن يؤخر العشاء، وكان يكره النوم قبلها والحديث بعدها»[2].

أي أنه كان يذهب للنوم بعد صلاته للعشاء التي تكون في أول الليل، وهذا ما لم تشغله حاجة من حوائج الناس أو حاجاته الشخصية .

ويدخل رجل من المسلمين اسمه سعد بن هشام على عائشة ﷺ ويسألها عن موعد نوم محمد ﷺ فيقول: قدمت المدينة فدخلت على عائشة ، فقلت: أخبريني عن صلاة رسول الله ﷺ. قالت : إن رسول الله ﷺ كان يصلي بالناس صلاة العشاء ثم يأوي إلى فراشه...»[3].

ولا شك أن تبكير النوم والاستيقاظ أنفع للصحة: لأنه انتظام مع سنن الله في الأرض، حيث جعل الليل للسكون والراحة، والنهار للعمل والسعي، فقال في القرآن : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٤٧) .

وكان يدعو أصحابه إلى ترك الكسل والتعامل بجد في جميع أمورهم؛ لأن الكسل يُورث المرض والعجز، ولهذا كان يسمع صحابته تعوذه بالله منه، ويدعو الله كثيرًا بهذا الدعاء، الذي ينقله أنس ﷺ فيقول كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر »[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٧)، ومسلم (٦٤٧).

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦).

ولذا كان ﷺ نشيطًا جادًا في شتى حركاته حتى في مشيته وخطواته، فيقول أبو هريرة ﷺ: «ما رأيت أحدًا أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث»[1].

•• نظرته ﷺ إلى المرض:

ينظر الناس إلى المرض على أنه معيق يطرأ عليهم، وشرّ قد اعتراهم، وضرر قد أصابهم، فيصيبهم الغم والحزن والهم، ويكرهون تلك الفترة، ويتمنّون انقضاءها، ولا يرضون بها، وربما بعضهم لا يسلم لقضاء الله فيهم! ولكن محمد ﷺ كان ينظر إلى المرض نظرة ذات عمق أبعد من ذلك من كل الوجوه:

أ. الشر ليس إليك:

الإنسان بعقله لا يعي إلا ما يراه أمامه، ويدركه بحواسه، والخير والشر لا يعلمه إلا الله، فكم من مرة يأتي الإنسان شيء يظنه خيرًا فإذا به شرّ عظيم، وكم من مرة يأتينا شيء هو في ظاهره شرّ، ويأتي من ورائه خير عميم، والجميع قد جرَّب ذلك، فالمرض ليس شرًا كما يعتقد بعضهم، وقد يحمل في داخله كثيراً من الخير، لكن مع الرضا والتسليم لقضاء الله وقدره.

ولا ينبغي أن ينسب الإنسان الشر إلى الله سبحانه، فكل أقداره -عز وجل- حكمة بالغة، فلئن رأى الناس بعض الأمور شرًا وضررًا؛ فإنها من وجه آخر خير ونعمة، فكمْ فيها من تكفير للسيئات ورفع للدرجات، ودفع لأضرار أكبر منها.

وقد تأدب إبراهيم - عليه السلام - في مقولته التي حكاها الله تعالى؛ حين نسب المرض إلى نفسه فقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾(الشعراء: ٨٠). ؛ فليس في فعل الله شر، ولكنه قد يبتلي الإنسان لحكمة يعلمها فهو العليم الحكيم سبحانه، لذا فقد كان من مناجاة محمد ﷺ لربه في صلاته بجوف الليل أن يقول: «لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٨)، وأحمد (٨٣٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١).

ب. المرض كبح لجماح النفس:

إن من عادة الإنسان الميل إلى الطغيان في الأرض إذا ظن أنه قادر على كل شيء، وأنه يمتلك كل القوى كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ⁦(٦)⁩ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (العلق: ٦-٧). فعندما يتمكن ويستغني عن أمر ربه يطغى على الخلق، وينسى الخالق، فيأتيه المرض رحمة به، وإنقاذاً له من انحرافات خياله وفكره ومهالك سلوكه، ومذكرًا بوجود إله قوي قادر، لا مُعقّب لحكمه، ولا رادّ لأمره، وما الدنيا كلها بكل ما فيها إلا مخلوقات ضعيفة تعجز عن نصرة أنفسها، وقد يسلط الله على الإنسان المتجبر مخلوقات قد لا تُرَى بالعين المجردة تُقعِده وتُشِلّ حركته لأيام تقصر أو تطول، وعندها يعود الإنسان إلى طبيعته وإنسانيته ويعرف قدره، ويعلم أنه مخلوق، عاجز وأن له ربًّا قادرًا لا يعجزه شيء فيلجأ إليه ويطلب منه المعونة والشفاء، وتصفو نفسه، ذلك لأن الله يريد لعباده النجاة من عذابه والفوز برضاه، فيقول الله سبحانه: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الزمر: ٧).

ج. المرض مراجعة للنفس:

قد تمر الأيام والشهور والسنون، ولا يتذكر الإنسان نفسه ليراجعها في مواقفها ويقوّم حسناته وسيئاته وإصاباته وسقطاته، وخطراته وغفلاته، ربما لانشغاله في دوامة الحياة اليومية، وربما لعدم وجود سبب للمراجعة كما يظن. ويأتيه المرض فيسكن بعد حركة، وينفرد بنفسه كثيرًا، وعندها يبدأ في تقويم أفعاله وعلاقاته بالناس، ويتذكّر ما شُغِلَ عنه أو نسيه، وينظر إلى الناس من حوله خصوصاً إن طال المرض أو اشتد؛ ينظر إلى تصرفاتهم، ويستبين له الصادق في مودته من مدعيها، وعندها قد يرى الدنيا بعين لم يرها بها قبل ذلك، فتكون فترة المرض فرصة للمراجعة والتقييم والتقويم، وربما تعظم مكاسبه فيها، فيجدد توبته ويلتزم بطاعته لربه سبحانه، وعندها سيشكر الله الذي أنعم عليه بتلك النعمة، وهي المرض في تلك الفترة. وكم رأينا عصاة متمردين كانوا بعيدين تمامًا عن ربهم، ويظنون أنهم لا يحتاجون إلى خالقهم؛ رأيناهم قد هدأت نفوسهم، وعادوا إلى صوابهم بعد فترة مرض مرت بهم.

د. المرض بلاء واختبار من الله:

يعتقد محمد ﷺ أن كل ما يصيب المرء إنما هو بقدَر الله سبحانه، وكل أمر الناس بيده كما يقول جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، ويقول: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (يس: ٨٣) ، ويقول في آية أخرى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

ومن ذلك: المرض، فهو مقدَّر من عند الله، والشفاء أيضًا، ويختبر الله عز وجل الإنسان ليظهر صبره وتسليمه لقضاء الله.

إن محمداً ﷺ يعلم ويوقن أنه هو والبشر جميعًا ما جاؤوا إلى الدنيا لكي يتمتعوا ولا لكي يتنعموا بما فيها، ولكنهم جاؤوا للاختبار والامتحان، فقال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك: ٢). فالأصل هو الابتلاء والاختبار، ولهذا ما كانت الدنيا تمثل عندهم الشيء الكثير.

فإذا كان المرض اختبارًا فلا بد لمحمد ﷺ أن يوطّن نفسه على تحمّل الاختبار والنجاح فيه، ويعلّم أتباعه ذلك لكي تكتمل عبودية الإنسان لله، فهو يشكر ربه إذا كان في نعمة، ويصبر إذا كان في بلاء، والإنسان لا يخلو من أحدهما، ومن ثم هو موصول بالله مرتبط به على الدوام كما يقول ﷺ : «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[1].

فالمؤمن يرى الخير في كل ما يفعله الله به، ويرضى بقضاء الله فيه؛ لأنه يعلم أنه وحده النافع الضار، ولا يملك كل من في الأرض أن يقدموا خيرًا له أو يدفعوا شرًا إلا بإذن ربه عز وجل، ولهذا كان حرص محمد ﷺ على أن يرسِّخ هذا المعنى عند الجميع وخصوصاً الصغار منهم حتى ينشؤوا على تلك المفاهيم، فكان يقول للغلام عبدالله بن عباس ﷺ : «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك،

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

رُفِعَت الأقلام وجفت الصحف»، وفي رواية: «احفظ الله تجده أمامك، تَعَرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»(١).

هـ . المرض مُكَفِّر للذنوب مَاحٍ لها:

يعتقد محمد ﷺ أن المرض يمحو به الله تعالى الذنوب إذا صبر الإنسان عليه، فيقول محمد ﷺ : «ما من مؤمن يصيبه مرض فما سواه إلا حط الله به خطاياه، كما تحط الشجرة ورقها»(٢).

ويقول ﷺ: «ما من مؤمن ولا مؤمنة ولا مسلم ولا مسلمة يمرض مرضًا إلا قضى الله به عنه من خطاياه»(٣).

وحينما سمع رجلاً يسبّ الحمى فقال محمد ﷺ : «لا تسبَّها؛ فإنها تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الحديد»(٤).

بل إنه ﷺ لم يحصرها في المرض الشديد، فذكر أن أي أذى يلحق بالإنسان ويصبر عليه يؤجر به ويكفر الله عنه من خطاياه، حيث يقول: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفِّر به من سيئاته»(٥)، والوصب هو الوجع الملازم للإنسان في عضو من أعضائه، والنصب التعب وكلل الجسم من عمل اليوم والليلة، والسقم هو المرض عامة، والحزن هو الألم على شيء فات، والهم هو الألم والخوف من شيء مستقبليّ آت.

بل أدرج محمد ﷺ في ذلك حتى أذى الشوكة تصيب الإنسان وهو في طريقه فيقول: «ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفَّر الله بها سيئاته كما تحطّ الشجرة ورقها»(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٧٢٦).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٤٦٩).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٦) أخرجه البخاري (٥٦٤٨).

ولما أصيب رجل بإصابة، وضحك بعض الناس منه، قالت لهم عائشة - رضي الله عنها-: لا تضحكوا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يُشاك شوكة فما فوقها إلا كُتبت له بها درجة ومحيت عنه خطيئة»[1].

•• هل المرض عقوبة إلهية؟

يعتقد بعض الناس أن الابتلاء عامة ومنه المرض قرين للمعصية فحسب، ولذا فهو عقوبة من الله دائمًا، ولكن محمدًا ﷺ قد علّم الناس أن المرض هو من تقدير الله على العبد، وليس بالضرورة أن يكون عقوبة، بل إنه يقرر أن أكثر الناس بلاًء وامتحانًا هم الأنبياء والصالحون، فكلما عظم عند الله قدر العبد كلما زاد بلاؤه، فيسأله كثير من صحابته: يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتُلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»[2].

ويوضح البلاء في قوله: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»[3].

•• المرض رفع لدرجات المؤمن:

إن المريض إذا صبر على مرضه نال أجراً كبيراً من الله عز وجل ، فقد قال الله في كتابه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾(البقرة: ١٥٥- ١٥٧).ولهذا قال محمد ﷺ: «عِظَم الأجر عند عِظَم المصيبة، وإذا أحب الله قومًا ابتلاهم»[4].

ويقول ﷺ عن تعويض الله للمصاب في الدنيا بأعظم الأجر عنده، فيقول أنس ﷺ: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه (يريد عينيه) فصبر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وأحمد (١٤٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩)، وأحمد (٧٧٩٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠١٣).

عوضته منهما الجنة»[1].

وجاءته ذات يوم امرأة تشتكي فقالت: إني أُصرع، وإني أتكشف، فادعُ الله لي. قال: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيك» . فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها[2].

ولكن مع نظرته ﷺ تلك إلى المرض، ومع بيان عظيم الفضل فيه والدرجات، إلا أنه نهى أصحابه عن تمنّيه أو الدعاء به؛ لأنه اختبار شديد قد لا يثبت فيه الإنسان، فقد ذهب ﷺ إلى أحد أصحابه وهو مريض حتى صار مثل الفرخ، فقال له: «أما كنت تدعو؟ أما كنت تسأل ربك العافية؟»، قال كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا. فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، إنك لا تطيقه أو لا تستطيعه، أفلا كنت تقول: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[3].

بل كان أكثر دعائه ﷺ بالعافية في الدين و الدنيا،فيقول عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما-: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»[4].

التداوي:

حثّ محمد ﷺ المرضى على التداوي وطلب الشفاء، ولا يمنعهم التوكل على الله من طلب الشفاء بكل سبيل مباح، ولا يصلح للإنسان أن يترك نفسه ليأكله المرض ويقضي عليه، فأخبرهم بحقيقة جليلة، وهي أن الله جعل لكل داء شفاء، فقال ﷺ: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٨٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٧٨)

وقال جابر ﷺ قال رسول الله ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل»[1].

وأعلمهم أن هناك داءً واحدًا ليس له دواء وهو الشيخوخة، فلما قيل له: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: «تداووا فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواء غير داء واحد الهرم»[2].

•• النهي عن التداوي بمحرم:

ومع طلبه الدائم وحثه على التداوي إلا أنه ﷺ لم يرخص التداوي بما حرّمه الله سبحانه، ومن ذلك: أن جاء رجل اسمه طارق بن سويد الجعفي وسأل النبي ﷺ عن الخمر؟ فنهاه أو كره أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: «إنه ليس بدواء ولكنه داء»[3].

ويدخل على زوجته أم سلمة - رضي الله عنها- فيجد عندها نبيذًا، وهو نوع من الخمر أحضرته للتداوي به فتقول أم سلمة: «أنها انتبذت فجاء رسول الله ﷺ والنبيذ يهدر فقال: ما هذا؟ قلت: فلانة اشتكت فوُصِف لها قالت: فدفعه برجله فكسره، وقال: «إن الله لم يجعل في حرام شفاء»[4]. وقال أبو هريرة: «نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث»[5].

وأعلن أن هناك من الأطعمة والأشربة المباحة الحلال ما يغني للطعام والشفاء، ومن أمثلتها عسل النحل الذي قال الله فيه: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل: ٦٩). وكان ينصح به محمد ﷺ لبعض الأمراض، فيقول أبو سعيد الخدري: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال رسول الله ﷺ: «اسقه عسلاً فسقاه»، ثم جاءه، فقال: إني سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقًا فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال «اسقه عسلاً»، فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٤).

(٢) أخرجه أبي داود (٢٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٨٤).

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده، وابن حبان، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني حديث رقم (١٦٣٣).

(٥) أخرجه أبو داود (٣٨٧٠)، والترمذي (٢٠٤٥).

فسقاه فبرأ»[1].

ومن أمثلتها أيضاً مثل الحبة السوداء التي قال فيها محمد ﷺ: «في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام»[2]، وفسره بأنه الموت.

وكان يأمر بالتداوي بغيرها من الأعشاب المتوافرة في وقته وزمنه، وكان يعالج بالحجامة، وكان يعالج بالكي، ولكنه كان يكرهه، فيقول جابر ﷺ سمعت النبي ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم خير: ففي شربة عسل، أو شرطة محجم، أو لذعة من نار، وما أحب أن أكتوي»[3].

•• زيارة المريض:

لم يجعل محمد ﷺ زيارة المريض من باب الترف والتكرم، بل أثبته حقًا للمريض على الصحيح، وكررها كثيرًا فقال: «خمس تجب للمسلم على أخيه: ردّ السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز»[4].

وكان يأمرهم بها، فيقول أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «عُودُوا المرضى واتبعوا الجنائز تذكركم الآخرة»[5]. ويقول أبو موسى الأشعري ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «فكوا العاني - يعني الأسير - وأطعموا الجائع وعُودوا المريض»[6]. ويقول البراء ﷺ: «أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس ...»[7].

وكان يرغّبهم في أجر الزيارة؛ لأنه ربما يتأفف بعض الناس، أو يتبرمون من زيارة المرضى، فكان يذكرهم بما فيها من الثواب، فتارة يقول لهم كما ينقل ثوبان مولى رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ: «من عاد مريضًا لم يزل في خُرْفَة الجنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧١٦)، ومسلم (٢٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢).

(٥) أخرجه احمد (١١٠٥٣).

(٦) أخرجه البخاري (٣٠٤٦)

(٧) أخرجه البخاري (٢٤٤٥)، ومسلم (٢٠٦٦).

قيل: يا رسول الله وما خُرْفَة الجنة؟ قال: جناها»[1].

ويخبرهم أن من زار مريضًا تكفل ملك من الملائكة بالدعاء له أن يرزقه الله بالجنة، فيقول أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضًا أو زار أخًا في الله ناداه منادٍ أن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً»[2].

وتارة يخبرهم أن أي تقصير منهم في عيادة المرضى يستوجب عليهم عتابًا شديدًا من ربهم سبحانه، فيقول أبو هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟»[3].

و تارة يسألهم حاثا إياهم على أداء هذه الواجبات لأهلها، فيقول أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ : «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» قال أبو بكر: أنا . قال: « فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا . قال:« فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟» قال أبو بكر: أنا. قال: « فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»[4].

وكان يذهب بنفسه لزيارة المرضى، فذهب إلى سعد بن عبادة يزوره وهو مريض فيقول عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما– : «اشتكى سعد بن عبادة شكوى له فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود – رضي الله عنهم– فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله فقال: «قد قضى؟». قالوا: لا يا رسول الله! فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا، فقال: «ألا تسمعون، إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا – وأشار إلى لسانه – أو يرحم، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه»[5].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٠٢٨).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

وعاد ﷺ جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- وكان قد أغمي عليه فقط، فيقول جابر ﷺ: «مرضت مرضًا، فأتاني النبي ﷺ يعودني، وأبو بكر وهما ماشيان، فوجداني أغمي عليَّ، فتوضأ النبي ﷺ ثم صبَّ وضوءه عليَّ، فأفقت فإذا النبي ﷺ فقلت يا رسول الله كيف أصنع في مالي كيف أقضي في مالي؟ فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية الميراث»[1].

وذهب ﷺ إلى رجل مريض من الأعراب، فعن عبد الله بن عباس ﷺ قال: إن النبي ﷺ دخل على أعرابيّ يعوده، قال: وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال له: «لا بأس طهور إن شاء الله»[2].

وذهب ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ يزوره فيقول سعد: جاءنا رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتد بي زمن حجة الوداع، فقلت: بلغ بي ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأتصدق بثلثي مالي؟

قال: «لا». قلت بالشطر؟ قال: «لا».

قلت الثلث؟ قال: «الثلث كثير، أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، ولن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك»[3].

وكان يؤتى بالمريض الصغير إليه ﷺ لعلمهم حبّه زيارة المريض، وعلّمهم أيضًا بانشغاله ورغبتهم في عدم الإثقال عليه، فيقول السائب ﷺ: ذهبتْ بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابن أختي وَجِع، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة»[4].

•• كان ﷺ يزور المرضى غير المسلمين:

المرض حالة إنسانية يستوي فيها الجميع المسلم وغير المسلم، والمريض يحتاج إلى من يزوره ويخفف عنه ويشدّ من أزره ويطمئنه، ولهذا كان محمد ﷺ لا يفرق في أوامره إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥١)، ومسلم (١٦١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٦٨)، ومسلم (١٦٢٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٠)، ومسلم (٢٣٤٥).

أصحابه بين المريض المسلم وغير المسلم، فكثير من الأحاديث والأوامر صدرت بلفظ «عودوا المريض» بدون تحديد لديانته ولا لجنسه، فالكل في هذا الأمر سواء، ومن يتأمل فعله يجده أنه قد زار المسلم وغير المسلم ،ومن ذلك : أنه ﷺ لمّا مرض عمه أبو طالب ولم يكن مسلمًا كان محمد ﷺ عنده، حتى إنه قال له حين حضره الموت: «قل لا إله إلا الله أشفع لك بها يوم القيامة». قال: يا ابن أخي لولا أن تعيرني قريش لأقررت عينيك بها فنزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾(القصص: ٥٦)[1].

وزار غلامًا صغيرًا يهوديًا في مرض موته، فيقول أنس: (كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده ...)[2].

•• الدعاء للمريض:

كان من فعله ﷺ أنه كلما ذهب إلى مريض يزوره دعا الله له بالشفاء، ويسمعه من الكلمات المبشرة التي تشرح صدره لحاجته إلى تلك الكلمات التي ترفع من معنوياته، فعندما ذهب إلى سعد بن أبي وقاص يزوره قال: «اللهم اشفِ سعدًا»[3].

وكانت عائشة - رضي الله عنها- تقول: إن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضًا أو أُتيَ به قال: «أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا»[4]. ونلحظ أنه كرّر لفظ الشفاء في دعائه خمس مرات.

وحينما زار رجلاً محمومًا يكاد جسده يحترق من ارتفاع حرارته قال له: أبشر، فيقول أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه عاد مريضًا من وعك كان به، فقال رسول الله ﷺ: «أبشر، فإن الله يقول هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا؛ لتكون حظه من النار في الآخرة»[5].

وهذا من حسن خلقه ﷺ حينما يخاطب المريض بجميع ألفاظ البشر والسعادة والتفاؤل.

وكان يرغّب أصحابه في الدعاء للمريض بصوت يسمعه كما في قوله ﷺ: «من عاد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٥٩)، ومسلم (١٦٢٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (٢١٩١).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٨٨)، وابن ماجه (٣٤٧٠).

مريضًا لم يحضر أجله فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك ويعافيك، إلا عافاه الله من ذلك المرض»[1].

•• سيرته ﷺ عند زيارة المريض:

وكان من فعله أن يذهب إلى عيادة المرضى، ولو كانوا في مسافات بعيدة، ولم تعقه أية عوائق فكان يذهب ماشيًا أو راكبًا بحسب ما تيسر له ولا يثنيه شيء، يقول جابر: (عادني رسول الله ﷺ ماشيًا، وأبو بكر وأنا في بني سلمة..)[2].

وكان يجلس عند رأس المريض حتى يسمع كلامه، ويكلمه بصوت خفيض، فلا يؤذيه بعلو صوت، فيقول عبد الله بن عباس: كان النبي ﷺ إذا عاد المريض جلس عند رأسه، ثم قال سبع مِرَارٍ: « أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك؛ فإن كان في أجله تأخير عُوفِيَ من وجعه»[3].

وكان يكرر الزيارة للمريض خصوصاً إذا تأخر الشفاء، أو قرب الأجل، وأحضر سعدَ بن معاذ ليُمَرَّض في المسجد ليكون قريبًا منه لتكرار عيادته، فتقول عائشة - رضي الله عنها-: (أصيب سعد يوم الخندق في الأكحل، فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد؛ ليعوده من قريب)[4].

وكان يرسل بالأطباء لعلاج أصحابه بالعلاج المتوفر والسائد في زمنهم وما يحسنونه، فيقول جابر بن عبد الله: «بعث رسول الله ﷺ إلى أبي بن كعب ﷺ طبيبًا فقطع منه عرقًا ثم كواه عليه»[5].

وزار ﷺ رجلاً من الأنصار ووجد أن أهله لم يحضروا طبيبًا فأرسل إلى طبيب فيقول أحد صحابته: عاد رسول الله ﷺ رجلاً به جُرْح فقال رسول الله ﷺ: «ادعوا له طبيب بني فلان». قال: فدعوه فجاء فقال: يا رسول الله! ويغني الدواء شيئًا؟ فقال: «سبحان الله

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١٠٦)، والترمذي (٢٠٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٧٧)، ومسلم (١٦١٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٠٦)، والترمذي (٢٠٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٣)، ومسلم (١٧٦٩).

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٠٧).

وهل أنزل الله من داء في الأرض إلا جعل له شفاء».[1]

وكان ينصح المحموم وأهله بصب الماء فوق رأسه مرارًا، وأقواله فيه كثيرة جدًا منها ما ذكره ابن عمر - رضي الله عنهما-: عن النبي ﷺ قال: « الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء»[2].

وكان ينهى المريض عن تمنّي الموت والدعاء به، مهما بلغ من الألم، وعلّمهم دعاء غيره، فيقول أنس ﷺ: قال النبي ﷺ : «لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه؛ فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[3].

وكان ﷺ يرى في طول الحياة أملاً في تغير الإنسان وعودته إلى الحق، وزيادته في الخير، فيقول أبو هريرة ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ: « .... ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يُستعتَب»[4].

وكان ﷺ يعتبر بوجود المرضى بين صفوف المصلين فيخفف صلاته كي لا يشق عليهم، ويأمر من يتقدم ويؤم الناس بذلك، بعد أن غضب غضبًا شديدًا على رجل كان يطيل بالناس الصلاة، فقال أبو مسعود الأنصاري: قال رجل: يا رسول الله! لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان، فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبًا من يومئذ فقال: «أيها الناس إنكم منفرون، فمن صلى بالناس فليخفف؛ فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة»[5].

وكان يرقّ قلبه لصاحب من صحابته حين يراه مريضًا، وبكى كما تقدم عندما زار سعد بن عبادة، وسأل أهله هل مات أم لا، وهنا لم يملك دموعه من البكاء، وبكى حين رأى الصبي الصغير حفيده في مرض شديد، وفي آخر لحظات لحياته فلم يملك نفسه أيضًا من البكاء، ودخل على عثمان بن مظعون بعد موته وقبّله وبكى، فتقول

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٥٧٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٣).

(٥) أخرجه البخاري (٩٠)، ومسلم (٤٦٦).

عائشة - رضي الله عنها -: «رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّل عثمان بن مظعون وهو ميت، حتى رأيت الدموع تسيل»[1].

•• العزل الطبي عند تفشي الأوبئة:

وكان من أوامره ﷺ لأتباعه لحصر نطاق الوباء وتضييقه إذا تفشى في قوم ألا يخرجوا من تلك البلد حتى لا ينتشر المرض، ولا يدخل أحد عليهم، فيتم حصر الوباء في أضيق نطاق، وهو ما يسمى اليوم بالحجر الصحي أو العزل الطبي، فقد قال عن الطاعون: «فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»[2].

ونهى المريض أن يدخل على الأصحاء، وأباح أن يذهب الصحيح لعيادة المريض، فيقول أبو هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ»[3]. وقال: «لا يحل الممرض على المصحّ وليحلل المصح حيث شاء». فقالوا: يا رسول الله! وما ذاك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه أذى»[4].

وهذا للإيذاء فقط لأنه يقول: «لا عدوى ولا طيرة»[5]. أي: أن المرض لا يعدي بذاته، إنما يعدي بتقدير الله عز وجل. وعندما سأله أعرابي عن الجمل إذا كان فيه مرض وينتقل المرض إلى غيره، فأجابه: «ومن أَعْدَى أول جمل أصيب به؟ فالمرض مُقدّر في علم الله أولاً، ودخول المريض على الصحيح يؤذيه».

•• مرض محمد ﷺ:

عاش محمد ﷺ لحظات التعب البدني والإرهاق بكل صوره، خصوصًا مع جهد مضاعف من كثرة همومه ومشاغله ومسؤولياته، فتُسأَل عائشة - رضي الله عنها - هل كان النبي ﷺ يصلي وهو قاعد؟ قالت: نعم بعد ما حطمه الناس[6].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١٦٣)، وأبو داود (٩٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١٦٩٥).

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٦) أخرجه مسلم (٧٣٢).

وعاش محمد ﷺ والجروح في جسده، ففي رحلة الطائف التي ذهب إليها داعيًا إلى الله، لقي أسوأ رد يلقاه إنسان. ففي الطريق وهو عائد «قعد له أهل الطائف صفين على طريقه، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، حتى أدموه فخلص منهم وهما يسيلان الدماء، فعمد إلى ظل نخلة وهو مكروب»(١).

وعاش الجروح أيضًا في جسده في غزوة أحد في العام الثالث الهجري، فكان فيه أكثر الجروح وأكثرها إيلامًا في جسده ﷺ، فيسأل سهل ﷺ عن جرح النبي ﷺ يوم أحد فقال: جُرِح وجه النبي ﷺ وكُسِرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وكانت فاطمة - رضي الله عنها - تغسل الدم وعلي ﷺ يمسك، فلما رأت أن الدم لا يزيد إلا كثرة، أخذت حصيرًا فأحرقته حتى صار رمادًا، ثم ألزقته فاستمسك الدم»(٢). و«شُجَّ وجهه شجَّة في جبهته حتى سال الدم على وجهه»(٣).

«ورمي رميةً على تفيه»(٤). أي ضرب ضربة شديدة بالسيف على عاتقه ولكن كان يلبس درعين من حديد فلم تنفذ في جسده، وظل يتوجع منها شهرًا كاملاً، ويحكي أبو بكر الصديق ﷺ دخول حلقتين من الحديد في وجهه ﷺ، وينتزعهم أبو عبيدة، فيقول: (وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفًا، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته وشُجَّ في وجهه، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر، قال رسول الله ﷺ : «عليكما صاحبكما» يريد طلحة، وقد نزف فلم نلتفت إلى قوله. قال: وذهبت لأنزع ذاك من وجهه، فقال أقسم عليك بحقي لما تركتني فتركته فكره تناولها بيده فيؤذي رسول الله ﷺ فأزم عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني. قال: ففعل مثل ما فعل

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٦/٣.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٠٢).

(٤) أخرجه أحمد(١٣١٠٥).

في المرة الأولى، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة»[1]. فكان يوم أحد من أشد الأيام إيلامًا وجرحًا لمحمد ﷺ.

وفي هذه الغزوة بالذات أنزل الله آية في القرآن تمهد لهم أمرًا جللاً هم لا يحسبون حسابه ولا ينتظرونه، ولا يريدون أن يفكروا فيه، وهو موت محمد ﷺ.

•• علامات الرحيل:

كان محمد ﷺ لأصحابه بمنزلة الأب والصديق، والحبيب والمعلم والقائد الذي لا يمكنهم فراقه، ولكن الله تعالى أنزل عليهم تلك الآية التي تضعهم أمام حقيقة قادمة لا محالة، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(آل عمران: ١٤٤).

إنه بشر، وسيجري عليه حكم الله في البشر بالموت، فقال الله له في موضع آخر: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٤-٣٥). وأكدها جل وعلا في موضع ثالث فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠)؛

ورغم كل هذا لم تكن هذه الحقيقة لتسري تماماً إلى أعماقهم، فمن الصعب أن يتخيلوا أن تشرق شمس يوم ولا يكون محمد ﷺ بينهم، فكان كل منهم يتمنى لو جاءته منيته قبل محمد ﷺ ولا يرى ذلك اليوم.

أما هو ﷺ فكان يمهد لذلك، ومنه قوله لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن، فقد خرج معه يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري». فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا».[2]

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٤/٣٠.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٤٧).

•• وصية مودِّع:

في العام العاشر من الهجرة يقرر محمد ﷺ أن يؤدي فريضة الحج، ويحج معه أكبر عدد من المسلمين، ويخطب فيهم خطبة طويلة، وهو يمهد لهم أمر انتهاء تبليغه الرسالة، وانتقاله إلى الدار الآخرة، فعن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمرة، وهو على بعيره، وهو يقول: «يا أيها الناس، خذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد عامي هذا»[1]. وفي قول آخر: «لتأخذ أمتي نُسُكها؛ فإني لا أدري لعلّي لا ألقاهم بعد عامي هذا»[2].

لقد كان محمد ﷺ يشعر باقتراب أجله، فكانت الخطبة التي خطبها فيهم في هذه الحجة جامعة شاملة: وضَّح فيها معالم دعوته كلها، فقد أسلم معظم أرجاء الجزيرة العربية، وها هو يحج بأكثر من مائة ألف، يشهدون أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله، وكان فيهم الكثيرون الذين دخلوا في دين الله حديثًا، وأراد أن يشرح للجميع، ويوصيهم الوصية الأخيرة في حياة نبي وزعيم، وقائد لفئة مؤمنة، وأراد أن يضع الخطوط التي تعين من يكون بعده على تحمل المسؤولية ،فكان مما قاله فيها:

- التأكيد على حرمة الدماء، وأن هذا الدين لم يأتِ لقتل الأنفس بغير حق.
- التأكيد على حرمة أموال الآخر أيًّا كان إلا بحقها.
- التأكيد على حرمة الأعراض، إلا بحقها.
- التأكيد على نبذ الخلافات القديمة والثارات بين القبائل، وفتح صفحة جديدة، وبدأ بثأر قبيلته مع قبيلة قتلت منهم فردًا، فوضع هذا الثأر وأنهاه.
- التأكيد على حرمة الربا، وأن أيّ مدين بديْن فيه ربا فيسقط الربا، ويبقى أصل القرض، وبدأ بربا عمه العباس، فألغى كل ديْن بسبب الربا لعمه على الناس.
- التأكيد على مراعاة حق النساء في حسن المعاملة والعشرة، وبيَّن حقوق الرجل عليها، وحقوقها عليه.

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٦٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠٢٣).

- بيان حرمة اقتتال المسلمين فيما بينهم، وأمره للمسلمين ألا يقتتلوا من بعده، مهما طال الزمن.
- التأكيد على السمع والطاعة للأمراء، ما داموا يحكمونهم بما شرع الله سبحانه.
- الوصية لكل من حضر أن يبلغ تلك الرسالة لكل من غاب عن هذا الموقف.

وبعد هذه الخطبة أنزل الله تعالى عليه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة: ٣). وهنا يعلم ﷺ أن مهمته قد قاربت على الانتهاء، وأنه في طريقه إلى لقاء ربه سبحانه، وفي طريق العودة من حجه على المدينة تنزل عليه سورة هي آخر سورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ (النصر: ١-٣). وفهم مغزاها محمد أن ربه يطالبه بالاستعداد للقدوم عليه، وفهمها بعض الصحابة أيضًا، فحينما سأل عمر رضي الله عنه عبد الله بن عباس عن تفسيرها قال: (هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم)[1].

وامتثل محمد بالاستعداد للرحيل من الدنيا بكثرة الذكر لله والتسبيح والاستغفار فتقول عائشة - رضي الله عنها - : ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلا يقول فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»[2].

المرض الأخير:

كان محمد ﷺ في البقيع يشيع ميتًا من أصحابه، وعاد وهو ثقيل الرأس، فتقول عائشة رضي الله عنها: رجع إلي رسول الله ﷺ ذات يوم من جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه. «قال: بل أنا وارأساه». قال: «ما ضرك لو متّ قبلي فغسلتك وكفنتك، ثم صليت عليك ودفنتك؟»..... ثم بدئ بوجعه الذي مات فيه»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٣٨) وأصله في البخاري (٥٦٦٦).

ثم أمره الله سبحانه أن يذهب لأهل البقيع - موتى المسلمين - فيستغفر لهم «فذهب إليهم مودعًا مستغفرًا لهم»[1].

وبعدما أحس بالوجع يزداد فجمع المسلمين ليخطب فيهم فصعد المنبر، كما يذكر أبو سعيد الخدري، فقال: خطب النبي ﷺ فقال: «إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله»، فبكى أبو بكر ﷺ فقلت في نفسي: ما يُبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله، فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا[2].

وهنا أراد أن يخبرهم بالخبر فلَمَّح به ولم يصرح وفهمه صاحبه أبو بكر فبكى، وتذكرت عائشة في تلك اللحظات قوله ﷺ لها وهو صحيح قبل هذا المرض فقالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: «إنه لم يُقبَض نبيّ قط حتى يرى مقعده في الجنة ثم يحيا أو يُخَيَّر»[3]، وصلى بهم صلاة المغرب إمامًا كما تقول أم الفضل بنت الحارث - رضي الله عنها - زوج عمه العباس «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفًا، ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله»[4].

ثم ثقل عليه الوجع ﷺ فكان يُمَرَّض كل يوم في بيت واحدة من زوجاته، بحسب القسمة بينهم، مما كان يؤلمه أكثر، فتقول عائشة - رضي الله عنها - : إن كان رسول الله ﷺ ليتعذر في مرضه «أين أنا اليوم، أين أنا غدًا؟»[5]. ففهم الجميع أنه يريد أن يُمَرَّض في بيت عائشة؛ حيث كان يجد راحته هناك أكثر فأذن له، فتقول عائشة - رضي الله عنها-: (لما ثقل النبي ﷺ واشتد به وجعه استأذن أزواجه في أن يُمَرَّض في بيتي، فَأَذِنَّ له، فخرج النبي ﷺ بين رجلين تخطّ رِجْلاه في الأرض)[6]. وكان الرجلان هما العباس وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما -.

---

(١) الحديث بطوله في صحيح مسلم عن عائشة ٩٧٤

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٣٧)، ومسلم (٢٤٤٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٢٩)، ومسلم (٤٦٢).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٨٩)، ومسلم (٢٤٤٣).

(٦) أخرجه البخاري (١٩٨)، ومسلم (٤١٨).

ثم اشتد عليه الوجع وارتفعت حرارة جسده من الحمى، فطلب أن يُؤْتَى له بسبع قِرَب من ماء الآبار، وأن تُرَاق عليه حتى يستطيع الخروج إلى الناس، فتقول عائشة -رضي الله عنها -: إن النبي ﷺ قال بعد ما دخل بيته واشتد وجعه: «هريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلِّي أعهد إلى الناس». وأُجلِس في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ ثم طفقنا نَصُبّ عليه تلك حتى طفق يشير إلينا «أن قد فعلتن». ثم خرج إلى الناس[1].

وكان من بعض كلامه أن أوصى المسلمين بالأنصار، وهم مسلمو المدينة، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما- : «خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه بملحفة قد عصب بعصابة دسماء حتى جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن الناس يكثرون ويقل الأنصار حتى يكونوا في الناس بمنزلة الملح في الطعام، فمن ولي منكم شيئًا يضر فيه قومًا وينفع فيه آخرين، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم». فكان آخر مجلس جلس فيه النبي ﷺ [2].

وكان أكثر ما يشغله أمر الصلاة، فأمر أن يصلي بالناس أبو بكر الصديق؛ حرصًا على إقامة الصلاة، لعظم قدرها في الإسلام، وكرر هذا الأمر مرارًا، وظل أبو بكر يصلي بالناس منذ يوم انقطاعه ﷺ لمرضه حتى مات ﷺ.

واشتد الوجع عليه حتى إنه لا يستطيع الحركة، وكان الألم شديدًا مثل ضعف آلام الرجال، فيقول عبد الله بن مسعود ﷺ: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعَك وعكًا شديدًا، فمسسته بيدي، فقلت يا رسول الله: إنك لتوعك وعكًا شديدًا. ثم قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطَّ الله له سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»[3]. وتقول عائشة - رضي الله عنها - : «ما رأيت أحدًا أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ»[4].

وحاول من معه أن يسقوه دواء فرفضه، وبعدما أفاق نهاهم عن ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨)

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٢٨)، ومسلم (٢٥١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠).

فتقول عائشة - رضي الله عنها - : (لددناه في مرضه فجعل يشير إلينا أن لا تلدوني، فقلنا كراهية المريض للدواء، فلما أفاق قال : «ألم أنهكم أن تلدوني». قلنا كراهية المريض للدواء ...)[1].

ويشتد الألم وتدخل عليه فاطمة - رضي الله عنها - أحبّ بناته إلى قلبه والوحيدة المتبقية من أبنائه جميعًا على قيد الحياة، وتُقَبِّل أباها وتبكي وتقول كما يقول أنس ﷺ: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة - رضي الله عنها - واكرب أباه. فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»[2].

ووصى في آخر كلماته لأصحابه بالصلاة، وألا يفرط فيها المسلمون، وأوصى بالعبيد بالإحسان إليهم، فتقول أم سلمة - رضي الله عنها -: إن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم». فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه»[3].

وفي فجر يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول في العام الحادي عشر من الهجرة أحسّ محمد ﷺ في نفسه نشاطًا فأحب أن يطمئن على المسلمين وعلى الصلاة، فاستتد ولم يكن بين بيته وبين المسجد إلا ستر من قماش، يقول أنس ﷺ: إن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوف في الصلاة، فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتن من الفرح برؤية النبي ﷺ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم، وأرخى الستر فتوفي من يومه[4].

ودخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر، وهو أخو عائشة زوج النبي، وكان في يده سواك يطهر به فمه، فنظر إليه محمد ﷺ وهو لا يستطيع أن يرفع صوته، وفهمت عائشة أنه يريد السواك، فتقول عائشة - رضي الله عنها - : (إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٨)، ومسلم (٢٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٦٢٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٨).

وفي يومي وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته؛ دخل عليّ عبد الرحمن وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك؟ فأشار برأسه «أنْ نعم». فتناولته فاشتد عليه، وقلت: أُلَيِّنه لك ؟ فأشار برأسه «أن نعم». فلينته...)[1]

وكان بجواره إناء فيه ماء، فكان يضع يده في الإناء ويمسح به وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»[2].

وسمعته عائشة يتلفظ في ألفاظه الأخيرة في الدنيا، وهو مسند ظهره إليها، فيقول: «اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى»[3].

وتقول عائشة: ثم نصب يده فجعل يقول: «اللهم في الرفيق الأعلى». حتى قُبِضَ ومالت يده عليه الصلاة والسلام.

لقد شهد القاصي والداني لمحمد ﷺ ببذله منتهى المجهود لتبليغ رسالته، وأداء أمانته، ونصح أمته، وبيان رسالته وشريعته، وأن التوفيق الرباني قد عمّ جميع أفعاله وأعماله، بما لا يستطيع أحد أن ينكر كونه رسولاً ومصطفى من ربه سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٧٦).